مِنْ رَمَضَانَ التَّجْدِيدُ

عبدالله

نَظْرَةٌ جَدِيدَةٌ لِرَمَضَانَ

تأليف

توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

من رمضان التجديد

دولة الكويت

« 2025 م – 1446 هـ »

الطبعة الثالثة

الصف والتصميم والإخراج

مؤسسة سلسبيل

للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

69600444

حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - الدور الأرضي - محل رقم 29

هاتف: 00965 60082704

مِنْ رَمَضَانَ التَّجْدِيدُ

تأليف

توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

المقدمة:
كَمْ فِي رَمَضَانَ مِنْ تَـجْدِيدٍ؟

ماذا لو كتبتُ في فضائل الصِّيام؟

وقد كتبوا وأحسنوا!

ماذا لو جمعتُ في أحكام الصِّيام؟

وقد سبقوا وأحكموا!

ماذا لو أَلَّفتُ في إعجازِ الصِّيام وعجائبه وبدائعه؟

وقد فعلوا، وأَلَّفوا!

فجزى الله كلَّ مَنْ سبق إلى الخير خيرًا.

دعك أيها الكاتب من التوصيف العام لرمضان فهذا نعرفه ... ولكن حدِّثني عن خصائص لم تُطرَق.

دعك من تكرار غير جديدٍ ولا مفيدٍ.. وأعطني برنامجًا أتحوَّل فيه إلى مستوى تلك الفضائل فأكون أنا أُنموذَجها وأنا مُمَثِّلَها.

دعك من ذكر أجواء رمضان ليله ونهاره.. وتعال حدثني عن وضع قلبي في ليله ونهاره، وكيف أُنشئ تقوى القلوب في قلبي وفي القلوب إنشاءً ـ بإذن الله ـ لأصطنع حياةً جديدةً.

دعك من الكلام العام، أو مجرد التَّنظير وإن كان عديم النَّظير وأرني كيف أحقِّق التَّغيير في النُّفوس تحقيقًا؟ كيف أُسهم في تغيير أُمَّتي حتَّى تتبوَّأ الإمامة؟

كيف أصوم رمضان هذا كأنّني أوَّل مرةٍ أصومه؟ كيف أقرأ فيه القرآن من جديدٍ؟ هات رمضان وضعني في ميدانه، وأرني كيف أعيش لحظاته كأنّني أوَّل مرة أعرفها، أوقفني على حقيقة لحظاتٍ ما قبل رؤية الهلال، وقبيل الابتداء، وكيف هي أوَّل ليلةٍ؟

كيف أتحقَّق من إدراكي ليلة القدر ـ بإذن الله ـ كيف هي لحظات السَّحَر الجديدة؟ كيف هي تراويح أوَّل ليلةٍ؟ ماذا بعد التراويح؟ ما الجديد المحيي لأسرتي ولرحمي ولصحبي؟

ما الجديد فيَّ بوصفي داعيًا إلى الله في رمضان؟

لا تذهب تتحدَّث في المثاليَّات بعيدًا عنِّي، وتعالَ خالط حياتي في رمضان كما هي من غير تكلُّفٍ ولا بهرجٍ، حدِّثني كيف إذا عصفت بي الهموم في رمضان؟

كيف أصنع إذا ذهب الخشوع من صلاتي وقراءتي للقرآن وذِكْري؟

كيف إذا حلَّ البلاء بي كامرأةٍ فأفطرت .. كيف إذا نزل المرض بي كمسلمٍ أو مسلمةٍ؟! (1).

كيف إذا حضر الموت في رمضان - أطال الله حياتكم على طاعته مع العافية؟

ما الجديد الإيمانيُّ والجديد العمليُّ في أمورٍ اعتدناها طوال سِنِي حياتنا، أثَمَّةَ جديدٌ في القنوت؟ أجديدٌ عند الإفطار .. أجديدٌ عند السَّحَر ؟

أجديدٌ في جُمَعِ رمضان .. أجديدٌ في ذكر الله سبحانه .. أجديدٌ في وضوئي وصلاتي؟

ما نصيب الأمة الحقيقي من صيام أبنائها .. أيمكن أن تنتقل الأمة في رمضان

(1) انظر: الوفادة على الله كأنك تراه.

واحدٍ من الغثاء إلى العلياء أو يكون رمضان ميدان إعدادها؟

وإذا قلت لي: نعم لكلِّ ذلك .. فأقول لك: قل لي: من أين أتيت بما تقول ؟ أم أنَّه حشوُ تعبيرٍ وعباراتُ تغريرٍ؟!

هذا كتابٌ ما وضع ليكون نسخةً من كتابٍ، ولا شرحًا لكتابٍ، وليس هو مختصرًا لكتابٍ ..

إنَّما هو كتاب الميدان في رمضان، ورمضان في ميدان الحياة .

إنه كتابٌ للتغيير الفعلي على كل مستوى، ومن خلال كل موقف في رمضان .. كتابٌ للتحليل المنطقي والحِكَم العقليَّة كما هو للمنازل الإيمانية .. إنه لأجلِ بلوغِ الفردِ وأُمَّته على حدٍّ سواء لـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فاللَّهمَّ حقِّق ذلك وتقبَّل .

إنه كتابٌ .. ما عمل إلَّا للتَّزوُّد الفعلي من التَّقوى خاصةً .. خذه بيدك فلعلَّه يأخذ بيدك ليَصْحبك على مدار يومك وليلتك، تجد نفسك فيه كل يوم في رمضان .. كل ساعة من ساعاته وحالة من حالاته .. تجده في عملك الرَّتيب المعتاد كما تجده في موقفك المفاجئ .

إنَّه رمضان، ميدان سباقٍ لا يحتمل فيه التعثُّر فضلًا عن السُّقوط والانكباب على الوجه .. إنَّما هو الانطلاق إثر الانطلاق حتَّى إذا خرج الصائم عن غلاف رمضان الخارجيِّ كان الانطلاق لديه كأنَّه الانفلات عن الجاذبيَّة الأرضيَّة لعظيمِ سرعته في الصالحات .

الفصل الأول:

هِلالُ الشَّهْرِ الْمُبارَكِ
رُؤْيَةٌ مُتَرَوِّيَةٌ

الفصل الأول:
هِلالُ الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ رُؤْيَةٌ مُتَرَوِّيَةٌ [1]

أيكون الغد من رمضان أم لا يكون؟

أَيعلن بعد غروب شمس يومنا هذا أنَّ الليلة هي الأولى من ليالي رمضان أم لا يُعْلن؟ أنصلِّي اللَّيلة التَّراويح في المساجد أم نبقى مُعلَّقين إلى ما بعد انصرافنا من صلاة العشاء؟

سبحان مَنْ لا يعلم الغيب أحدٌ سواه!

سبحان مَنْ جعل القلوب معلَّقةً بعلمِهِ في هذه اللَّحظات تعلُّقًا كاملًا لمعرفة هذا الخبر!

سبحان من ابتَدَأنا بعبادة القلوب، وهي تترقَّب مطلع رمضان قبل عبادة ترك الشهوة والشراب والطعام .. !

وسبحان مَنْ جعل فرح دخول رمضان لا يعادله فرح الإفطار ولا فرح العيد .. أليس هو العمر الجديد مع رمضان جديد ... فكأن فرح كل يوم عند الإفطار اجتمع في لحظة دخوله؟!

---

(١) أحسب أنَّ أحسن طريقةٍ للانتفاع بمواضيعِ هذا الكتَاب هي معايشته، وأحسن طريقةٍ لمعايشته أن يجتمع القلب والعقل على قراءته، كلُّ موضوع يُقرأ في نفس موقفه أو قبله بقليل، فهذا الموضوع مثلًا لو بعد آخر عصر شمس اليوم الأخير من شعبان أو بُعيدَ المغرِبِ لكان أنفعَ، والله أعلم.

فقلوب المؤمنين أجمعين مستشرفةٌ كشفَ الغيوب بعد الغروب ، ولسان القلب يتساءل: يا ربِّ، هل غدًا من رمضان أم نكمل عدة شعبان؟

لك الحمد ربَّنا[1] على أنْ عَلَّقت قلوبنا وأبصارنا بذاك الهلال العالي، وجعلت مطلعَه المتلالي علامةً على مطلع رمضان ذي القدر العالي، وجعلت عِلْم بدايته على الخلق غير مقطوعٍ به ... فبقيتْ القلوبُ - لأجل هذا – معلقةً في هذه السَّاعات حتَّى يدخل رمضان متعبِّدةً حتَّى لو لم يُرَ الهلال، فعندها يزداد تعبُّد قلوب الأمَّة كلِّها بمزيد الانتظار حتى إتمام العدة، والعلم بدخوله بغروب شمس الغد لا يخفِّف عبادة الانتظار ويطفئ شدَّة الاشتياق كما لا يخفِّف شوق الأهل إلى ولدهم الحبيب المغترب منذ عامٍ مع علمهم بوصوله في الموعد المحدَّد المعلوم .

كيف لا.. ونحن إذا قطعنا بدخول رمضان بغروب شمس الغد لم نقطع بغروب شمس حياتنا أو بقائها إلى الغد .. فيا لحرارة الجوف وقد التهبتْ فيه حرارة الخوف وحرارة الحبِّ والاشتياق .

لك الحمد ربَّنا على أنْ جعلتنا نتطلَّع إلى أعلى ... إلى السَّماء بانتظار مطلع الهلال المبصبص من خلف أقطار الفضاء على مَهَلٍ في جوِّ السَّماء ... نتطلَّع إليه تطلُّع مَنْ ينتظر الفرج من الله ... ينزل عليه من السَّماء.

(١) رجائي من القارئ ألَّا يجعل أي مناشدةٍ لله تعالى في الكتاب مناشدة من المؤلف لربه، إنما هي ما ينبغي أن تنطق به الحقيقة الإيمانية المتولدة من تفاعل قلب القارئ مع الموقف نفسه؛ لأن هذا التصور يفسد المقصود بالمناشدة .. فأرجوك ثانيةً أن يغيب شخصُ المؤلف واسمُهُ عن قلبك، وأنت تقرأ المناشدة ، فطريق ربك لا يقبل إلا التوحيد، فاستخرج هذا الخطاب من قلبك مباشرةً لربك .. ومَنْ عاش المكتوب جيدًا علم أنها مناشدة قلبه هو لربه سبحانه.

لك الحمد ربَّنا أَنْ جعلتَ التَّطلُّع إلى أعلى؛ معنىً وحسًّا... تطلُّعًا يتواطأُ عليه البصر والبصيرة .. فبينا القلب يتطلَّع إلى الله العليِّ الأعلى، فإنَّ البصر يَتْبَعه في البحث عن الهلال الواقع في الأعلى؛ إذ أبواب الجنة في الأعلى، وتَنَزُّلُ الملائكة والرُّوح من الأعلى والرَّحمة من الأعلى، وأمر العتق من النِّيران من الأعلى، وكلُّ خيرٍ من الأعلى .

وهكذا يفرض الله الصيام بنصِّ القرآن كما يفرض الصلاة نصًّا في القرآن.

وكما علَّق شأن رمضان بالهلال فقد علَّق توقيت الصَّلوات بالشمس، وكلاهما في السَّماء .

يا ربِّ: هل تمضي اللَّيلة كبقيَّة ليالي العام أم تفرج برمضان، فانتظار الفرج بقدومه لَهُوَ عبادةٌ من أعظم العبادات ؛ لأنَّه عبادةُ حبٍّ في الله لما يحبُّه الله، وفرحٌ بنعمة الله، وأُنْسٌ بطاعة الله ... واللهِ سبحانه يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، وهذه القاعدة في المحبَّة تسير على منهجيَّة المصطفى ﷺ الذي علَّمنا أن نقول: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ مَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ**»(١).

أرأيت الجيش إذا أعلن حالة الاستنفار القصوى ... ؟!

كذلك حال قلوب أُمَّة مُحمَّدٍ في مرحلة الانتظار هذه، لكنَّه استنفار الحبِّ لأجل هذه الفترة المباركة من الزمان واستنفار الفرح بمقدمها لله وحده .

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٣٤٩١)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (١٤٦٩)، وضعفه الألباني في سنن الترمذي.

إنَّها صورةٌ عامَّةٌ نادرةٌ تتكشَّف فيها عبوديَّة القلب الباطنة، وتتجلَّى حتَّى لكأنَّ المتأمِّل يرى قلوب الأمَّة جميعًا بعينيه وهي تَهُبُّ عن بَكْرَةِ أبيها لتبايع على عبوديَّة الله في هذا الشَّهر العظيم القادم تحت شجرة الرِّضوان في ظلال رمضان .

هذه العبوديَّة القلبيَّة الحقيقيَّة، هي الَّتي لا يقوى عليها منافقٌ؛ لأنَّها إسلام القلب لله ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات:١٤].

العبد منتظرٌ ... مستسلمٌ لأيِّ حكمٍ يريده الله، مستسلمٌ لحكم الله في أخصِّ الأشياء؛ في طعامه وشرابه، في شهوته وَجِمَاعه ... مستسلمٌ مقدَّمًا في ليله ونهاره .. مستسلمٌ في حياته وتقلُّباته .. كلُّ ذلك معلَّق بإعلان رؤية الهلال .. وهذا التَّعبُّد بهذا الاستسلام لم يكن لو لم يعلِّق النَّبيُّ ﷺ أمر الصِّيام بالرُّؤية، وليس هو الاستسلامَ لِلحُكْم والطَّاعة والاتِّباع فقط .. وإنَّما هو شيءٌ أعلى من ذلك كلِّه .. وأبعد منه، فإنَّ القلب يحدِّث نفسه حديث المضطرب من الفرح .. المترنِّح من شدَّة الاشتياق ... حماسةٌ مكبوتةٌ دون أن يُنَفِّس عنها، هل غدًا رمضان أم لا؟

ألا تدري أنِّي أرى نفسي على برزخ الزَّمان الفاصل.. ما بين أشهر السَّنَة وبين شاطئ رمضان؟

ألا تدري أنَّني الآن منتظرٌ على أعراف الزَّمان ما بين بقاء أبواب النِّيران مفتوحةً وما بين إيصادها كلِّها .. ما بين وضع الجنان المعتاد طوال العام وبين تفتُّح أبوابها؟!

أيُّ حقيقةٍ يمكن أن يتوفَّز لها القلب أعظم من هذه التَّغييرات العظمى في نظام ملك ربِّنا سبحانه والقلب يرى أن دونها غروب آخر شمسٍ لشعبان؟!

ويا للقلب: كأنَّ القلب كان مستقرًا في عالمٍ وهو ينتظر العبور الآن إلى عالمٍ آخر .. !

غربت الشمس .. أظلم الليل .. ولَمَّا نعلمْ بعدُ: أَرُؤِيَ الهلالُ أم لَمْ يُرَ؟

يا ربِّ أنحن الآن في رمضان أم لَمَّا يحِن بعد؟!

هل افتتحت أبواب الجنَّة لنا الآن أم لَمَّا بَعْدُ.. أأغلقت أبواب النَّار السَّبعة أم لَمَّا بَعْدُ؟!

هل صُفِّدت الشَّياطين ومردة الجنِّ أم لمَّا بَعْدُ؟

هل هذه الأجواء الخارجيَّة أجواء رمضان وقد أظلَّتنا أم لمَّا بَعْدُ؟ هكذا يُنْشِئ رمضان التَّقوى في القلب إنشاءً ... وتتولَّد التَّقوى باحتمال ولادة رمضان، هكذا تصبح ولادة التَّقوى ولادةً طبيعيَّةً وكأنَّه قد نبع مِنْ رحم رمضان وذاته ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

التَّقوى في ألَّا ينام المسلم اللَّيلة إلَّا وقد أعدَّ القلبُ عُدَّة التَّقوى الخاصَّة، فلابد أن يستبين له: إنْ كان غدًا أوَّل رمضان أم آخر شعبان؟

فهل يستغرب أحدٌ من عِظَمِ تغيير حال الأمة في رمضان .. والتغيير قد تغلغل في أعماقها؟

والأهم أن التَّغيير بالتقوى قد ابتدأ من لحظة تطلُّعها إلى هلالها؟!

وليس ذلك فحسب، وإنَّما التَّقوى في أن ننوي الصِّيام أم لا ننوي .. في أن نغيِّر النُّفوس أساسًا لأجل رمضان أم نجعلها تسير على وتيرتها؟ وتغيير النُّفوس هذا هو أُسُّ التَّغيير الصَّحيح، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ

﴿ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١]، أليس من العجب أنَّ كلَّ هذه الشُّحنة من التَّقوى جاءت لمجرَّد توقُّع أنَّ غدًا من رمضان، فكيف إذا دخل؟!

حقًّا إنَّ الأشهر كلها تثبت بالرُّؤية، لكنَّ الرُّؤية لرمضان شيءٌ آخر عند رسول الله ﷺ، فعن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ يتحفظ من شعبان ما لا يتحفَّظ من غيره، ثمَّ يصوم لرؤية رمضان، فإنْ غمَّ عليه عدَّ ثلاثين يومًا ثمَّ صام[1]، فكيف لا تكون كذلك عند المؤمنين؟

فسبحان مَنْ علَّق أمر هذه العبادة بمقدورنا! ومقدورنا هنا هو الرؤية .. فإن أمكنت الرُّؤية فقد لزمت، إلَّا أن يكون غمامٌ أو قترٌ، فالتقدير، وهو إتمام الشهر ثلاثين، واللهُ يتقبَّله منَّا ... فاللَّهمَّ لك الحمد ولك الفضل على هذا التيسير، وعلى التكليف بالمستطاع، وعلى هذا العفو.. وإذا كان هذا العفو في الابتداء فكيف هو عند الانتهاء .. ؟!

(١) رواه أبو داود في سننه (٢٣٢٥)، قال ابن الملقن في الإعلام (٥/ ١٨٢): إسناده على شرط الصحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

المَزَايَا الشَّامِلَةُ

هاتِ كلَّ فضائل رمضان الآن واحدةً واحدةً ... هاتِ النُّصوص مُبتدئًا بالقرآن العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة:١٨٥] وبعدها: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

هاتِ بعد ذلك أحاديث فضائل الصِّيام، وأَعقِبْها بأحاديث فضائل رمضان خاصَّةً.

انظر في ذلك متأمِّلًا كلَّ فضيلةٍ تأمُّلًا مستقلًا، ثمَّ اربط الفضائل مجتمعةً وتأمَّلها ثانيةً .

ستجد مزايا عديدةً لرمضان على غيره، لكنَّ المزايا الشاملة - والله أعلم - هي المزايا الآتية:

المزيَّة الأولى: فضائل رمضان شاملة:

مزيَّةٌ مهمةٌ لفضائل رمضان، وهي أنها شملت الصَّائم؛ ظاهرًا وباطنًا.. قاعدًا

وقائمًا.. يقظان ونائمًا.. فرمضان زمانٌ وليس مكانًا.. والزَّمان بطبيعته يُدْرِكُ العبدَ؛ شاء أم أبى.. كيف لا وهو عمره؟! ولا يتوقَّف هذا الإدراك والتَّلازم إلَّا إذا توقَّف العمر، فيدخل في حساب زمانٍ غير هذا الزَّمان وهو البرزخ .

أعظم فضائل الله علينا إذ جعله زمانًا يغطِّي كلَّ مَنْ فيه، ويحويه دون استثناءٍ؛ ولذا فإنَّ فضائله مُلْتصقةٌ بكلِّ صائمٍ الْتصاق الزَّمان بهم، والْتصاق الإنسان بعُمُرِهِ.

وما ألطف الإشارة وأدقَّها وأعظمها إلى هذا المعنى بلفظ الـ«**شهر**» في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، فلو أنَّ الله سبحانه قال: «**رمضان الَّذي أنزل ...**» لما جهل أحدٌ أنَّ المقصود هو الشَّهر المعروف عند العرب سَلفًا، وكأنَّه قيل: أرأيت رمضان .. ؟! أرأيت فضائله؟! إنه زمانٌ .. أتدري ماذا يعني الزمان .. ؟! إنه قطعةٌ كاملةٌ من عُمُرك .. بهذا الالتصاق والتَّلازم.

إنَّ التَّنصيص على أنَّه «**شهر**» إنما هو تنصيص صفتُه الزمانية الملازمة لفضائله ضرورة .. تلك الفضائل التي لا تنفكُّ عن الشهر قدرًا مقدورًا، ولن تنفكَّ عنه شرعًا منصوصًا.

وكما أن ذكر هذه الحكمة العجيبة هي لازمة رمضان بوصفه «**شَهْرًا**»، فإنَّها لازمة فضائل ليلة القدر بكونها «**ليلة**».

ولا يعكر على هذا ما ورد من ذِكْر فضائل لأيَّامٍ وليالٍ في القرآن الكريم، فإنَّا نقول فيها ما قلنا في رمضان، ولكن كلٌّ حسب فضائله، كما أنَّ هذا لا ينفي عن هذه الفترة الزَّمانيَّة فضائلها .

إنَّ ربط الفضيلة بالعمل شيءٌ عظيمٌ، لكن الَّذي هو أعظم منه هو أن يجعل الزَّمن هو الفضيلة، وهذا هو سرٌّ عظيم لتميُّز الصوم في رمضان عن الصوم في غيره، فالفضيلة تُدْرِكُ صاحبها ما أدركه الزَّمن، وأيُّ زمن للصيام مثل الصِّيام في شهر رمضان؟ ولو أنَّ الفضيلة ربطت بالمكان لكان الخروج من المكان خروجًا من الفضائل ... ومصدر كلِّ هذا قوله تعالى: «شَهْرُ»، فالزَّمان يدرك - المكان وما حوى ما أدركه الليل والنهار .

المزيَّة الثَّانية: «دوامها شهرًا»:

تساوت بعض الأوقات مع رمضان - في بعض الفضائل، وافترق رمضان عنها بفروقٍ عديدةٍ، منها دوام فضائله شهرًا كاملًا؛ ولذا فإنَّ الفضيلة المؤقَّتة بوقتٍ مُعيَّنٍ في «رمضان» تتكرَّر كلَّ يوم من أيَّام الشَّهر؛ كالعتق، والدَّعوة المجابة، وفتح أبواب الجنة، وإغلاق أبواب النار؛ ولذا كان التنصيص على كونه «**شهرًا**» يحمل مِنَّةً عظيمةً لا يحملها أيُّ زمانٍ آخر؛ ولذا جاء في هذا الموضع لفظ «**شهر**» وجاء في الآية الثانية ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فإنَّه التَّأكيد على وصف الزَّمان له .

ومزيَّةٌ عظمى في تغيير النُّفوس وتغيير الأمَّة هي أنَّ كلَّ عنصرٍ من عناصر التَّقوى الَّتي هي غاية رمضان يستمرُّ ترسيخها في النفس وفي الأمة «**شهرًا**» بأكمله .

فأيُّ نفسٍ هذه التي تُوضَع على طريقٍ شهرًا كاملًا ثمَّ لا تسلكه بعد ذلك؟! وسوف ترى انفراد رمضان بهذه المزيَّة من بين كلِّ العبادات - بإذن الله - وأنه وحده كافٍ لنقل الفرد والأسرة والمجتمع والأمة النَّقلة الكبرى إذا ما أعطي حقه، وما أسهل ذلك إذا صدقت النوايا وعَلَت الهمم بعد توفيق الله ﷻ، وما كُتبَ هذا الكتابُ إلَّا لتحقيق هذه الغاية، فاللَّهمَّ وَفِّقْ .

المزيَّة الثَّالثة: تغييراتٌ كونيَّةٌ كبرى:

اصطحبت تغييرات رمضان بتغييراتٍ كونيَّةٍ عظمى، بل التَّغييرات العظمى كانت لأجل رمضان تلك التَّغييرات الَّتي شملت الأرض والسماء، اللَّيل والنَّهار، عالم الملائكة والجنِّ، الدُّنيا والآخرة.

فحديث النَّبيِّ ﷺ: «**إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ**»(1) واضح في الدَّلالة على عظم التغييرات التي أحدثها ربُّنا العظيم - سبحانه - على ما ذكرنا، فإذا أضفنا له ما ورد من فضائل ثابتةٍ في أحاديث أخرى اتَّضح الأمر أكثر، وسيأتي - إن شاء الله.

المزيَّة الرَّابعة: شمول مزايا رمضان للدُّنيا والآخرة:

أمَّا مزاياه للدُّنيا فقد مرَّت معنا في الحديث السابق وغيره، مِن تفتيحِ أبواب الجنان، وإغلاق أبواب النيران، فإنَّها وإن كانت أحداثًا في عالم الآخرة إلَّا أنَّ حدوثها وقع في هذه الفترة من عمر الدنيا.. في رمضان الذي نعيشه الآن، والذي عايشه مِنْ قبلِنا مَنْ عايشه، فهي من هذه الجهة تتبع الدنيا، أمَّا كون مزايا رمضان شملت الآخرة فكلُّ هذه الفضائل في حقيقتها فضائل أخرويَّة، وما وجودها في الدُّنيا إلَّا مجرد بشائر.

المزيَّة الخامسة: فضيلةُ مَنْ مات في رمضان من المسلمين:

لا أعرف آيةً ولا حديثًا ينصُّ على فضيلةِ مَنْ مات في رمضان نَصًّا صريحًا،

---

(1) رواه الترمذي في سننه (٦٨٢)، وصححه الألباني.

لكن لو أنَّا تناولنا فضائل رمضان لمنْ يموت في رمضان لوجدنا من ذلك مزايا عديدة، وإليك أكثرها أهميةً:

الأولى: دخول الجنَّة:

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1].

وهذا الحديث نصٌّ صحيحٌ صريحٌ في فضيلة الختام بالصيام وخصوصيَّة ذلك، ومما لا خلاف فيه أن صوم رمضان هو أفضل الصيام.

الثانية: شاهد حسن الخاتمة:

عَنْ عمرِو بنِ الحَمِقِ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا عَسَّلَهُ**» قال: يا رسول الله، وما عَسَّله؟ قال: «**يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ** -أو قال: **مَنْ حَوْلَهُ**»[2].

وعن أنسٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**»، قيل: كيف يستعمله؟ قال: «**يُوفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ**»[3].

أليس الصِّيام عملًا صَالحًا... ؟ أليس الصِّيام هو العمل الصَّالح الذي لا مِثْل له، كما صحَّ في الحديث عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، دُلَّني على

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٩١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨٥).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٨).

(٣) رواه الترمذي في سننه (٢١٤٢)، والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٧).

عملٍ، قال: «**عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لا عِدْلَ لَهُ**»[1]، إذًا، فقبضُ الرُّوح في هذا الحال هو قبضٌ على أحسن حالٍ، وليس الفضيلة فيه أنَّه عملٌ صالحٌ فحسب، بل عملٌ خالصٌ لا شائبةَ فيه، مستخلصٌ ليس لأحدٍ فيه مع الله من شيءٍ؛ هذا هو سرُّ الخصوصيَّة فيه من بين الأعمال؛ لقوله ﷺ في الحديث: «**الصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، وها قد جاء وقت الجزاء.

قال ابن حجر رحمه الله في بيان قوله: «**إيمانًا واحتسابًا**»: (والمراد بـ «**الإيمان**»: الاعتقاد بحق فرضيَّة صومه .. وبـ «**الاحتساب**»: طلب الثَّواب من الله تعالى، وقال الخَطَّابِيُّ: «**احتسابًا**» أي: عزيمةً، وهو أن يصومه على معنى الرَّغبة في ثوابه، طيبةً نفسه بذلك غير مستثقلٍ لصيامه، ولا مستطيلٍ لأيَّامه[2].

الثالثة: اجتماعُ المِسْكَيْنِ:

أقصدُ مِسْكَ خُلوفِ فم الصائم، وهو أطيب المسك، ومسك رائحة الرُّوح الخارجة، وهي كذلك أطيب من المسك، فعن أَبِي هُريرة رضي الله عنه قَال: قال رسُولُ الله ﷺ: «**وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»[3].

هذا بالنِّسبة للخلوف، أمَّا روح المؤمن حين تخرج فإنَّ رائحتها تكون أطيب من ريح المسك كما صحَّ في ذلك الحديث: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ**

---

(١) رواه النسائي في سننه (٢٢٢٢)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٢٦)، والحديث صححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان، والألباني في صحيح سنن النسائي.

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١١٥).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١١٥١).

مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ – يَعْنِي بِهَا – عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ...»(١).

فإن توافق خروج الرُّوح الطيبة مع خُلوف فم هذا الصائم وهما أطيب عند الله من رائحة المسك فهذا توافقٌ عجيبٌ، بل توفيقٌ من الله لمن ماتَ على ذلك، ثمَّ إنَّ الظاهر أنَّ الروح تخرج من فم الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣]، قال الإمام الطبري في تفسير الآية: (فهلَّا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجسادكم أيُّها الناس، حلاقيمكم)(٢)؛ ولذا كان آخر عمل عمله النبي ﷺ قبل خروج رُوحِه الشريفة هو تطهير فمه بالسواك، فالاستياك طاعةٌ، والصومُ طاعةٌ، والاستياكُ يطهر الفم وهو يحبُّه الله، والخلوف أثر طاعةٍ وهو كذلك يحبُّه الله .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧)، من حديث البراء بن عازب ﷺ، والحديث صححه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٠٠)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيقه على المسند، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٥٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٣٧٣).

قال ابن حجر رحمه الله في «**الفتح**»: (قال الْمَازِرِيُّ: فالمعنى أنه أطيب عند الله من ريح المسك عندكم، أي: يقرب إليه أكثر من تقريب المسك إليكم، وإلى ذلك أشار ابن عبد البر، وقيل: المراد أنَّ ذلك في حقِّ الملائكة، وإنَّهم يستطيبون ريح الخلوف أكثر ممَّا تستطيبون ريح المسك)[1].

ولمكانة هذا (الخلوف) اختلف العلماء: أهو أطيب أم دم الشهيد؟ قال ابن حجر رحمه الله: «**أطيب عند الله من ريح المسك**» أنَّ الخلوف أعظم من دم الشهادة؛ لأنَّ دم الشهيد شبه ريحه بريح المسك، والخلوف وصف بأنَّه أطيب، ولا يلزم من ذلك أن يكون الصِّيام أفضل من الشهادة لما لا يخفى، ولعلَّ سبب ذلك النظر إلى أصل كلٍّ منهما، فإنَّ أصل الخلوف طاهرٌ، وأصل الدم بخلافه، فكان ما أصله طاهرٌ أطيب ريحًا)[2].

الرابعة: اجتماع الفرحتين:

لقد صحَّ في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا، إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِلِقَائِهِ**»[3]، والصَّائم في أيِّ لحظةٍ من لحظات نهاره متطلعٌ للحظةِ إفطاره، لما فيها من مزايا، ولما فيها من تمام طاعة اليوم، وعليه فإنَّه إذا قبض في هذه الفترة فإنَّما انتقل فعليًا من فرحته بفطره إلى مرحلة فرحه بلقاء ربِّه سبحانه .. والله سبحانه أكرم من أن يحرم الصائم فرحه بفطر يومه، ثمَّ هو لا يُعوِّضه بفرحٍ بل أفراح، فالحسنة مضاعفةٌ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، بل قد كان السَّلف يتقصَّدون الصوم عند اقتراب

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١٠٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١٠٦).

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

الأجل، ومنهم من يدعو الله أن يُقبَض صائمًا، وكم من واحدٍ قُدِّم للقتل واختار أن يكون صائمًا[1].

فقد صحَّ أنَّ عثمان صام عند موته .. ففي اليوم الَّذي قتل فيه عثمان أصبح يُحدِّث النَّاس لَيَقْتُلُنِّي القومُ، ثمَّ قال: رأيت النَّبيَّ ﷺ في المنام ومعه أبو بكرٍ وعُمر، فقال النبيُّ ﷺ: «**يا عُثْمَانُ، أَفْطِرْ عِنْدَنَا**» فأصبح صائمًا، وقتل من يومه[2].

الخامسة: أنه قُبِضَ في زمن المغفرة:

وحريٌّ بمَنْ قبض في زمن المغفرة أن يُغفَر له، وليس لمسلمٍ يدرك رمضان إلَّا أن يغفر له، هذا هو الأصل، فعن حارث بن الحويرث قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فلما رقي عتبةً قال: «**آمين**»، ثمَّ رقي عتبةً أخرى، فقال: «**آمين**» ثمَّ رقي عتبةً ثالثةً، فقال: «**آمين**» ثمَّ قال: «**أتاني جبريلُ فقال: يا محمدُ، مَنْ أدرك رمضانَ فلم يغفر له فأبعده اللهُ، قلت: آمين، قال: ومن أدرك والديه أو أحدَهما فدخل النارَ فأبعده اللهُ، قلت: آمين، فقال: ومَنْ ذُكِرت عنده ولم يُصَلِّ عليك فأبعده اللهُ قل: آمين، فقلت: آمين**»[3].

ومَنْ شَكَّ في حصول هذه الفضيلة، فماذا يقول فيمن مات و هو صائم يوم عرفة وقد وعد بمغفرة سنتين؛ لقول المصطفى ﷺ: «**صومُ يومِ عرفةَ كفَّارةُ السَّنةِ الماضيةِ والسنةِ المستقبلةِ**»، ولا شكَّ أنَّ صيام أيِّ يومٍ من رمضان أفضل

---

(١) كالإمام الحجة سعيد بن جبير رحمه الله حين قدم للقتل في زمن الحجاج.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه (٤٥٥٤)، وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التلخيص.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٠٩)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره، وكذا قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٩٦).

من صيام عرفة .. إذْ لا مقارنة بين صوم الفريضة وصوم النافلة، كما أنَّه لا مقارنة بين صلاة الفريضة وصلاة النَّافلة، والنبيُّ ﷺ يقول فيما يرويه عن ربِّه: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضت عليه ...**»(١).

وأجرُ مَنْ صام رمضان متحقِّقٌ لهذا الميِّت وهو المغفرة والجنَّة؛ وذلك لأنَّه ختم له بعملٍ منصوصٍ على دخول صاحبه الجنَّة ولم يتلبَّس بعملٍ بعده؛ لقوله: «**مَنْ صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدَّم من ذنبِه**»(٢).

والأظهر من هذا كلِّه هو ما ذكر ابن حجر رحمه الله من زيادةٍ مهمةٍ على حديث أبي هريرة المتقدم وهي قوله: «**ومَنْ صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدَّم من ذنبِه**»(٣)، تلك الزِّيادة هي قوله: «**وما تأخر**»(٤).

فهذا يعني أنَّه مات في زمن المغفرة الشاملة التي لم تخالطها - بعد - ذنوبٌ، أو تعقبها سيئاتٌ، ثمَّ إنَّ الحديث خاصٌّ بصوم رمضان وليس بكلِّ صومٍ، ولك أن تتصوَّر خصوصيَّة مَنْ ذهب للآخرة وعنده ضمانٌ بمغفرة ما تأخَّر .. !

السادسة: أَجْره على قَدْر نِيَّته:

وما من مسلمٍ يبتدئ بصيامِ رمضان إلَّا وهو ينوي أن يكمل رمضان كلَّه،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: فتح الباري (٤/ ١١٥).

(٤) هذه الزيادة رواها أحمد في مسنده (٢/ ٣٨٥)، وقد حكم جمع من أهل العلم بشذوذها، منهم الحافظ ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٠٥)، وكذا شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على المسند، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٤/ ١٣٨): ليس بمنكر، وله متابعة، وقد صحح هذه الزيادة السفاريني الحنبلي في كشف اللثام (٣/ ٤٨٢).

وهذا وحده كافٍ في تحقيق الأجر؛ لقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأعمال بالنيَّة**»[1]... وهذا غير مَنْ نوى ولم يدخل في رمضان، فإنَّ صاحبنا قُبِض حالَ تلبُّسه بالطاعة ... فقد صدَّق عملُه نيَّته، والفارق بينه وبين مَنْ لم يدخل عليه رمضان مع صادق نِيَّته لعلَّه كالفارق ما بين مَنْ ينوي الشهادة ويُقتل في المعركة وبين مَنْ ينويها ويدعو بها ويموت على فراشِهِ، أو بين مَنْ ينوي الإنفاق لو كان عنده مالٌ وبين مَنْ أنفق فعلًا .

السابعة: الوقاية من النار:

فقد صحَّ في الحديث: «**الصومُ جُنةٌ من عذابِ اللهِ**»[2].

وقال: «**الصومُ جُنَّةٌ من النارِ كَجُنَّةِ أحدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ**»[3].

قال المناوِيُّ: (الصوم جُنَّةٌ من عذاب الله، فليس للنار عليه سبيلٌ كما لا سبيل لها على مواضع الوضوء؛ لأنَّ الصوم يغمر البدن كلَّه، فهو جُنَّةٌ لجميعه برحمة الله من النار) [4].

فإنَّ وجه الدَّلالة من هذا واضحٌ، هو أنَّ قبض روح العبد وهو في رمضان يعني سلامة الصِّيام من الآثام التي اعتاد العبادُ فعلَها بعد رمضان، وإنْ كانوا يفعلونها في رمضان، وهذا ما يسمَّى في الحديث بـ «**التخريق**»، فقد صحَّ في

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧) كلاهما عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢١٧) من حديث عثمان بن أبي العاص، قال شعيب الأرنؤوط: (إسناده صحيح على شرط مسلم)، وكذا صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٦٦).

(٣) رواه النسائي من حديث عثمان بن أبي العاص، وصححه الألباني.

(٤) انظر: فيض القدير (٤ / ٢٤٢ – ٢٥٠).

حديث أبي عبيدة: «**الصومُ جُنَّةٌ ما لم يخرِّقْها**»[1]، وإنَّ قبض روحه أثناء صيامه كقبض روح العبد أثناء صلاته، فإذا أصاب هذا في صلاته بعض الغفلة كما لو أصاب هذا في صيامه بعض التقصير فإنَّ التلبُّس بهذا الفعل الكبير والركن العظيم أبلغُ شاهدٍ على سلامة الخاتمة وسلامة الصِّيام من التَّخريق، هذا هو الأصل، وهو المفترض في الصَّائم في رمضان حتَّى وإنْ فعل البعض بعضَ الذنوب فإنَّ هذا استثناءٌ وليس هو الأصل، كما أنَّ استمرار صيامه يعني استمرار الطَّاعة المكفرة؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، ولحديث: «**الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمعةُ إلى الجُمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ مُكفِّراتٌ ما بينهُنَّ إذا اجتنب الكبائِر**»[2].

الثامنة: أن الجزاء من جنسِ العمل:

فما جزاء مَنْ مات عَطِشًا في سبيل الله، وما جزاء مَنْ مات جَائعًا لوجه الله، وما جزاء مَنْ مات تاركًا شهوته وهو يحبُّها لوجه الله؟ فعن أبي هريرة ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «**الصِّيام جنَّةٌ، فلا يرفث ولا يجهل، وإنِ امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقل إنِّي صائِمٌ مرَّتيْنِ، والَّذِي نفسِي بِيدِهِ، لخلوفُ فمِ الصَّائِمِ أطيبُ عِندَ اللهِ تعالى من رِيحِ المِسكِ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصِّيام لِي وأنَا أَجْزِي بِهِ، والحسنة بِعشرِ أمثالِها**»[3].

فهذا الحديث عامٌّ، أمَّا كلامنا فهو فيمَنْ مات متلبسًا بصيام رمضان: مسلمٌ

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٩٥) من حديث أبي عبيدة الجراح ﷺ، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

أقبل على الله وهو تاركٌ طعامَه وشرابَه وشهوتَه فماذا ترى الله سبحانه مكافئه؟ وقد عوَّدنا ربنا سبحانه على أنَّ الجزاء من جنس العمل، كما عوَّدنا ابتدار الرحمة وملائكة الرحمة للميِّت بما يناسب ما ختم له به، وقد ثبت أن حنظلة ﷺ غسَّلته الملائكة حين مات جُنُبًا، فعن يحيى بن عبَّاد بنِ عبد الله، عن أبيه، عن جده قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول عندما قتل حنظلة بن أبي عامرٍ، بعد أن الْتَقَى هو وأبو سفيان بنُ الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف، فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ صاحبَكم تغسلُه الملائكةُ**»، فسألوا صاحبته، فقالت: إنَّهُ خرج لمَّا سمع الهائعة[1]، وهو جُنُبٌ، فقال رسول الله: «**لذلك غسَّلته الملائكةُ**»[2].

ولمَّا قطعت يدا جعفر الطيار ﷺ في مؤتة قال النَّبيُّ ﷺ: «**رأيت جعفرَ بنَ أبي طالب ملكًا في الجنةِ، مضرجةٌ قوادِمُهُ بالدماءِ، يطيرُ في الجنةِ**»[3].

وقد قال النبي ﷺ: «**الحُمَّى حظُّ المؤمنِ من النَّار يومَ القيامةِ**»[4].

التاسعة: له دعوةٌ مجابةٌ قبل موتِهِ:

ففي الحديث: «**ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٌ؛ دعوةُ الصائمِ، ودعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ**»[5].

---

(١) الهائعة: الصائحة.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤٩١٧)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٢٦).

(٣) رواه الطبراني في معجمه الكبير (١٤٦٧)، قال الألباني: صحيح لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٣٦٢).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا عن عثمان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٨٦).

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٥٩٤)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٣٠٣٠).

فإذا قلنا: إن له دعوةً مجابةً قبل فطرِهِ، فماذا ترى مَنْ جاءه الموت ومكَّنه الله سبحانه أن يدعوَ وهو على هذا الحال إلَّا أن يدعوَ بالعتق من النيران ودخول الجنة ومرضاة ربِّه سبحانه، ثمَّ إنَّ الله سبحانه قد ذكر طلباتٍ للكافرين عند الموت فردَّها، أفلا يُمكِّن المؤمنين من الدعاء لأنفسهم، بل يُلْهِمهم سبحانه بكرمه وفضله، وذلك أَوْلى وأحقُّ، ورحمتُه سبقت غضبَه، وكُتُبُ الحديثِ والتاريخِ مشحونةٌ بدعوات الأنبياءِ والصالحين في آخر حياتهم لأنفسهم، ابتداءً من رسول الله ﷺ الذي دعا ربَّه فقال: «**اللَّهمَّ اغفرْ لي وارحمني، وألحقني بالرفيقِ الأعلى**»(١)، مرورًا بالخلفاء والعلماء والمجاهدين، وهي مستمرَّةٌ إلى يوم القيامة، وهذا من عظيم فضل الله على المؤمن هو وخصوصًا في آخر حياته، حيث هو أشدُّ ما يكون حاجةً، وأمَّا إنْ مات في ليل رمضان، فقد مات فيما هو أفضل إِذْ مَحطُّ نزولِ الرحمة ونزولِ القرآن ونزولِ ليلة القدر، وهل رمضان إلَّا ليلٌ ونهارٌ؟!

العاشرة: إنَّ شيطانه أضعف ما يكون:

فسواءٌ كانت كلُّ الشياطين محبوسةً أم كانت المرَدَة هي المحبوسة - كما هو الرَّاجح، نعوذ بالله منهم أجمعين - فإنَّ الشياطين في رمضان أعظم ما تكون ضَعْفًا وهوانًا وخُنُوسًا، ثمَّ إنَّ في كلِّ عوامل الخير ودواعيه وأنصاره وملائكته ونحو ذلك إضْعَافًا وأيُّ إِضْعافٍ للشَّيطان .

قال بعض العلماء في بيان معنى «**سلسلت الشياطين**»: (المراد بالشياطين: بعضهم، وهم المردة منهم، وترجم لذلك ابن خزيمة في «صحيحه»، وأورد عن أبي

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٠).

هريرة ﷺ بلفظ: «**إذا كان أوَّلُ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ صُفِّدت الشياطينُ ومردةُ الجنِّ**».

قال عياض رحمه الله: يحتمل أنَّه على ظاهره وحقيقته، وأنَّ ذلك كلَّه علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته، ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين، ويحتمل أن يكون إشارةً إلى كثرة الثواب والعفو، وأنَّ الشياطين يقلُّ إغواؤهم فيصيرون كالمصفَّدين، قال: ويؤيد هذا الاحتمال الثاني قوله في رواية يونس عن ابن شهابٍ عند مسلمٍ: «**فتحت أبواب الرحمة**» قال: ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتحه الله لعباده من الطاعات، وذلك أسبابٌ لدخول الجنَّة، وغلقُ أبوابِ النار عبارةٌ عن صرف الهمم عن المعاصي الآئلة بأصحابها إلى النار، وتصفيدُ الشياطين عبارةٌ عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات.

قال الزَّينُ ابنُ المُنَيِّرِ: (والأوَّل أوجه، ولا ضرورة تدعو إلى صرف اللَّفظ عن ظاهره)[1].

وأخيرًا، فإنَّ هذا لا يدفعنا لأنْ نتمنَّى الموت في رمضان أو غيره فضلًا أن نتمنَّى الموت في رمضان القادم أو الذي بعده، لكن ذلك يدفعنا إلى أمورٍ عظيمةٍ سنأتي على ذكرها في هذا الفصل خاصةً، فصل (التهيئة لرمضان) إن شاء الله، لكن أذكر أثرها المباشر وظلَّها الملازم، وهو: أن يصوم المسلم رمضانَ صيام مودعٍ، فإذا كان النبيُّ ﷺ قد وعظ ذاك الرجل فقال له: «**إذا قمت في صلاتك فَصَلِّ صلاةَ مُودِّعٍ**»[2]، وليس بين الصلاة والصلاة إلَّا سُويْعات أو أقل، وربما ما يذهب في هذه الصلاة يدرك في التي وراءها لكثرة الصلوات في اليوم واللَّيلة .. أفلا نحرِّض أنفسنا ونحضُّها على تذكُّر الموت وما بين رمضان ورمضان

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١١٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٢).

عامٌ .. وأنَّى له إذا فات أن يُدْركَ؟!... فهل ترى مَنْ يصوم صيام مودعٍ لرمضان الأخير في هذه الرِّحلة كمن أَمْهل، وأَمَّل المفقود بالتَّعويض؟! وأي خسارةٍ يخسرها الصَّائم إذا صام صيام مُودِّعٍ؟! ثمَّ هل من أحدٍ إلَّا وسيموت في رمضان أو ما بين رمضان ورمضان؟

بحرٌ من الغيب مُدْلهِمٌّ .. عريضٌ.. عميقٌ.. ما بين شاطئ رمضان هذا والَّذي بعده .. فأنَّى لهذا السَّابح أن يُدْركَ .. وأنَّى له أن يَسْلم.. وأنَّى له أن يبلغ .. بهذا تصبح كلُّ فرصةٍ في رمضان الفرصة الأخيرة، ويصبح الحرص عليها حِرْصَ مَنْ لا عوض له ولا استدراك، أو حرص مَنْ أعيد إلى الدُّنيا ليعمل عمله الأخير ثمَّ يرحل .

قُمْ ليلة القدر قيامَ مودعٍ .. قم رمضان قيامَ مودعٍ .. احرص على العتق من النَّار حرص مودعٍ .. أنفق في رمضان إنفاقَ مودعٍ .. ادع الله في ساعات الإجابة دعاءَ مودعٍ .... عِشْ ليالي رمضان والنَّاس مِنْ حولك يَلْهون عيش المودعِ .. اعتكف اعتكافَ مودعٍ .

مودِّع قد بلغ به التَّوديع غاية جِدِّيته، وغاية حزنه، وغاية رجائه، وغاية خوفه .. وغاية استعداده، فما بالك بعبدٍ قد علم أنَّ ما بعد عمله هذا إلَّا لقاء الله تعالى؟

عَزْمُ الْقَلبِ عَلَى الْمَزِيدِ

عندما يبتدئ التَّفكير الجادُّ ورمضان على مشارف الدُّخول يبدأ القلب يستجمع كلَّ عبادةٍ عَمِلَ بها صاحبها من قبل .

يسترجع كلَّ أعماله في رمضان السَّابق .. والَّذي قبله إلى نهايةِ ذاكرتِهِ .

يذهب هنا وهناك .. يجول في دواوين العبادات وبُحُورها.. بحثًا عن منهجيَّةٍ يَشْفي بها عَزْمَ هذا العام المتجدِّد، ويُبرد بها بُركان همِّه المتوقِّد .

فلا يجد إلَّا العزم على المزيد أكثر مِمَّا قدَّمه من قبل .. والثَّبات على ذلك المزيد .. لكنَّه يرى أنَّه في العام الَّذي مضى ربَّما عمل نفس العمل الَّذي عزم عليه الآن .. فيعزم على المرابطة على هذا العمل لعلَّ المرابطة هي الجديد .. لكنَّه يرى أنَّه ربَّما كان قَدْ رابط!

فلا يزال القلب باحثًا حتَّى يجدَ دواءَه .. ! دواؤه هو عزم القلب الفذِّ الفريد على أن يرابط حارسًا لا ينام ... متوقِّدًا أبدا طوال الشَّهر حتَّى في المنام، عازمًا على المزيد وإن لم يزدْ في ظاهر الأعمال، متوهِّجًا يبعث شحنات الإيمان إلى جلده وشعرِهِ وبَشرِهِ.. إلى وجهه ونَفَسِه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] فكأنَّ القلب لشدَّة توهُّجه يعدُّ اللَّيل كلَّه الثُّلث الأخير من اللَّيل، وكأنَّ النَّهار كلَّه ساعة الإجابة .. وكأنَّ الليالي كلَّها ليلة القدر ..

وكأنَّ النَّهار كلَّه نهار عرفة، فإذا رمضان معراجُ قربٍ من الزَّمن للقلب لا يكاد يمرُّ بمثلها أبدًا.

هكذا حوَّل عزمُ القلب الحياةَ... حوَّلها إلى حياة التَّقوى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ... الحياة الَّتي نَبعَتْ من تقوى القلوب .

عجبًا! كيف تتجاوب الأعضاء إذا عزم القلب ... كيف تَتَّقي اللهَ الأعضاءُ إذا اتَّقت اللهَ القلوبُ .. كيف تتَّبع .. كيف تطيع وتسمع .. كيف تسرع؟

يتجاوب اللِّسان وكأنَّه يحلف - واللهِ - الأَيْمان .. يقول: لا عشت إنْ فترتُ عن الذِّكر عالمًا عامدًا قاصدًا .. فاللَّهم إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفو فاعفُ عنِّي .

وتتجاوب الرِّجْلان: بئس حاملا بدنِ العابدِ إنْ قصَّرنا في حَمْله هذا الشهر إلى المساجد، وإلى كلِّ موضعٍ يحبُّ الله رؤية صاحبي، وغيابه عن كلِّ موضع يكره الله رؤيتي فيه .

كيف أقعد اليوم عن حمل البدن وأنا أرجو من الله أنْ أحمله على الصِّراط من غير أن تمسَّنا النَّار حين تكون سرعتنا كالبرق إذا خطف .. ؟

كيف يطيب لي القعود وأنا أستمع لمنادي الله في كلِّ ميدانٍ ومن كلِّ اتِّجاهٍ ... **«يا باغِيَ الخيرِ أَقْبِلْ»**؟!

كيف أصبر في هذا الشَّهر عن الاستجابة لنداء مسلمٍ مستغيثٍ أو مستشفعٍ، أو مسكينٍ، أو محبوسٍ، أو مريضٍ، أو مفزوعٍ، أو جنازة ميِّتٍ في هذا الشَّهر .

أمَّا حملُ البدن بين يدي الله وتحمُّل ثِقَله بقيام اللَّيل وطوله ... فهذه - والله - فرصة الشُّكر المدَّخرة .. فرصة الطَّاقة والقوَّة المذخورة لهذه اللَّيالي، فيا رمضان اشْهَدْ!

وتلبِّي دعوةَ القلبِ اليدان وقد عَزمَتَا على البسط بالعطاء بسطًا لم يحدث مثله طوال العام.. والنُّصرة والإنقاذ، والرَّفع عن طالب الحِمْل، والرَّفع عن الْكَلِّ.

وما كان لكلِّ الجوارح إلَّا أن تستجيب طوعًا أو كرهًا.. ذلك أنَّ القلب أَمَرَ.. وهل الجوارح إلَّا جنودٌ.. وهل يملك القلب ألَّا يأمر وقد دخلته التَّقوى؟ فالعينان في غاية التَّقوى في هذا الشَّهر المبارك... ألَا ترى كيف يقطع المسلم ما كان معتادًا النَّظر إليه، وما كان يتساهل في النَّظر إليه، ألَا تراه كيف يُفرِّغ عينيه للنَّظر في كتاب الله تعالى؟

إنَّ وصف هذه الحالة بوصف الاستسلام الكلِّيِّ لأمر الله .... دخول في السِّلم كافَّةً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

إنَّه استيفاء شروط دخول الجنَّة؛ لقوله ﷺ: **«مَنْ يضمنْ لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجْلَيهِ أَضْمَنْ لهُ الجنَّةَ»**(١).

فيا سعادة مَنْ عوَّد ما بين لحييه وما بين فخذيه على ممارسة التَّقوى عملًا حتى تُبادل الصائمَ التَّأثير من الظَّاهر إلى الباطن ومن الباطن إلى الظاهر .. فالتَّقوى نَبْعٌ من القلب إلى الظَّاهر أساسًا، ولكنَّه تأثيرٌ بليغٌ على القلب من طاعات الظاهر، فالإيمان يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية، والتَّقوى تزيد بممارسة التَّقوى، وهذان الأمران قد اجتمعا في هذا الشَّهر على أكملِ وجهٍ .

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

وكما وصف الله التَّقوى بأنَّها تقوى القلوب فقد وصفها بأنها زادٌ، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وكما جعل التَّقوى في القلب، فقال: «**المسلِمُ أخُو المسلِمِ، لا يخُونُهُ ولا يكذِبُهُ ولا يخذُلُهُ، كُلُّ المسلِمِ على المسلِمِ حرامٌ، عِرضُهُ ومالُهُ ودمُهُ ، التَّقوى ههُنا، بِحسبِ امرِئٍ مِن الشَّرِّ أن يحتقِر أخاهُ المسلِمَ**»(١).

فكذلك جُعِلت التقوى عملًا؛ فعلًا وتركًا، فعن عاصِمٍ، قال: قلنا لِطَلْقِ بنِ حَبِيبٍ: صِفْ لنا التَّقوى، قال: التَّقوى عملٌ بِطاعةِ اللهِ، رجاءَ رحمةِ اللهِ، على نُورٍ من اللهِ، والتَّقوى تركُ معصِيةِ اللهِ، مخافةَ اللهِ، على نُورٍ مِنَ اللهِ(٢).

ومن الإعداد المعروف الذي لا ينبغي أن يفوت مسلمًا.. وإنَّما أشير له هنا إشارةً، هو الإعداد العلمي: - فالفرد البالغ العاقل لا يُعْذر بجهلِهِ بمسائل الصِّيام الواضحة، أمَّا دقائقه فهذه تفوت حتَّى على العلماء أحيانًا، وكذلك على وليِّ الأمر أن يتنبَّه لمن بلغ من أولاده وبناته فيعلمهم أحكام الصِّيام بوضوحٍ ومن غير تحرُّجٍ .. فلن ينسَى هؤلاء هذا الموقف، ولسوف يَرْوُونه عملًا لذراريهم، فتكون سُنَّةً حسنةً من خلال جلسةٍ حسنةٍ أو جلساتٍ، أمَّا أئمَّة المساجد وأهل العلم فإنَّ الإعداد العلميَّ لرمضان ينبغي أن يكون بمستوى رمضان الذي يستحقُّه .. فلْتُعْمَل لأجل هذا الشهر الأربطة الخاصة بعلم رمضان وتربيته وصناعته، ولْتُعْقد قبل دخوله سلاسل الدروس والحلقات، وليمشِ بين المسلمين أصحاب الغَيرة من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر بواجبهم

(١) رواه الترمذي (١٩٢٧) بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.
(٢) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه (١٣ / ٤٨٨).

تجاه مَنْ صدَّ الناس عن منادِي الله فدعا بدعوةٍ مضادةٍ تقول: «**يا باغيَ الشرِّ أقبلْ، ويا باغيَ الخيرِ أدبرْ**» وليكن ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة[1].

(١) سيأتي معنا صور التهيئة لرمضان في «التزامات السابقين».

ادْخُلوا رَمَضانَ طَاهِرِينَ

لا ينبغي لعبدٍ أن يدخل رمضان وقلبُهُ منعقدٌ على معصية الله بعد رمضان ... أو يدخل عليه النهار وقلبهُ منعقدٌ على معصية الله في الليل... فضلًا أن يكون ممارسًا لمعصية الله مقيمًا عليها في نهار رمضان ولياليه كمَنْ هو مقيمٌ على العمل الرِّبويِّ المحرَّم، أو العمل في حانات خمرٍ، أو يكون دليلًا على محرماتٍ وداعيًا لها، عن أبِي هُريرة ﷺ أنَّ رسول اللهِ كان يقُولُ: «**الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمعةُ إِلى الجُمعةِ، ورمضانُ إِلى رمضانَ مُكفِّراتٌ مَا بينهُنَّ إذا اجتُنِبت الكبائِرُ**»[1].

إذًا، فلابدَّ من التوبة الصادقة التي تفكُّ عُقَد الإصرار مهما تمكَّنت من القلب؛ إذ القلب هو موطن التقوى الأساس، وبدون تقوى القلوب لا قيمةَ للتقوى، لابدَّ من التوبة التي تجري ماءً مطهرًا على أدران المال .

وإنَّ الحديث عن التوبة من كبائر الذنوب أمرٌ واجبٌ وواضحٌ، لكن ثمَّة حديث عن ذنوبٍ عمليَّةٍ يعاني منها أصحابها ينبغي للمتصدرين للتربية والنصح التنبُّه لها والتَّنبيه عليها؛ لأنها تفوت كثيرًا:

أولًا: قطع ابتزاز الشياطين: لا ينبغي للرجل أو المرأة أن يستسلم لابتزاز الشيطان بحيث يجعله أسير ذنبه مدى عُمُره ... مُتردِّدًا ما بين التوبة وبين

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

الفضيحة، فيختار الإصرار على الذنب حتَّى مع دخول رمضان، فيفوته هذا الخير العظيم، ويفوِّت الفرصةَ الكبرى، ويُؤثِر الدنيا على الآخرة، ومن أمثال هؤلاء:

المرأة أو البنت التي أَوْقعها بعض المبتزين في اتِّصالٍ هاتفيٍّ سَجَّلوه عليها، أو أخذوا منها صورةً شخصيَّةً، أو رسالةً، أو نحو ذلك .. فإنَّهم لا يزالون يبتزُّونها بهذا، ويهدِّدونها بأهلها وفضحها على الملأ وعلى المواقع العنكبوتيَّة ومع القريب والبعيد إنْ لم تستجب لهم .. وما هذه إلَّا الصورة الفعليَّة لتطبيق الطريقة الشيطانيَّة التي حذَّر الله منها أبانا آدم عليه السلام وذريَّته بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة:٢٠٨].

فإنَّ الذِّلَّة لهؤلاء الشياطين المبتزين – نعوذ بالله منهم – والاستجابة لهم في أيِّ خطوةٍ جديدةٍ يعني في نهاية الأمر الوقوع في الفاحشة، كما قال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور:٢١].

ومن أمثلة هؤلاء: مَنْ يشتري العدوُّ ضمائرَهم بعدما يُغْويهم الأعداء ويُصوِّرونهم وهم في حالةٍ فاضحةٍ مع النساء «**فإن أوَّل فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساءِ**»[1]، وربَّما يُوقِعُهم مع المُرْدان من الولدان.

ورُبَّما ورُبَّما.. فيكون هذا التَّصوير والتَّوثيق عربون الابتزاز، وأحيانًا تُبتَزُّ

(١) رواه مسلم (٢٧٢٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

البنت نفسُها، وأحيانًا أسرتها وصويحباتها، وأحيانًا يكون ابتزازه على دولته أو أُمَّته .

لذا ليس ثَمَّة من علاجٍ لهؤلاء إلَّا قطع الطريق على قُطَّاع الطريق، وقطع المسير في خطوات الشيطان، وتحمل كل التَّبِعَات في ذلك، مع اليقين بأنَّ الله سبحانه لن يترك من اختاره، ولن يطرد مَنْ أوَى إليه ورضي بحكمه واستسلم لقضائه، وإنه سبحانه سوف يجعل كيدَهم يبور، وتدميرَهم في تدبيرهم.. حتَّى وإن اضطر الأمر إلى الاعتراف بالذنب للأهل مع الاعتراف بالتوبة لله، وهذا - والله - مصدرُ فخرٍ، ومَنْ ذا الذي لم يذنب؟! لكن منهم مَنْ ستره الله، ومنهم مَنْ انكشف، ومنهم مَنِ اعترف، وكلُّ الأصناف موجودةٌ في الكتاب والسُّنَّة، وما أحسن وأجمل ما قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك: **«إنْ كنتِ بريئةً فسيبرئكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري اللهَ وتوبي إليه»**[(1)]!!

إنَّ مكمن المصيبة حين يُصوِّر الشيطان - نعوذ بالله منه - لهذه المرأة وذاك العميل أنَّ هؤلاء المجرمين هم أصحاب الشِّرِّ، وأنَّ الخطر في انكشاف السِّرِّ على الأهل أو على البلد! عندها يصبح الأهل هم العدو المشترك، ويصبح التعاون على الإثم والعدوان هو منهج أولئك !

ومن النَّاس مَنْ يأتيه رمضان وعنده بعض الاختلاسات الماليَّة، أو الأموال المشبوهة التي لأناسٍ عليه يعلمونها أو لا يعلمونها، فتُحدِّثه نفسُهُ بالتَّوبة قبل رمضان كما تُحدِّث المسلمين نُفوسُهُم اللَّوَّامة .. ولكن لا يلبث حتى يُخرس هذا النداء الداخلي بصراخ النفس الأمارة بالسوء مُذكِّرًا إياها بخطر الفضيحة

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٦٩٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

والتَّبِعَات، وأنَّه لعلَّه يتمكَّن من ردِّ الحقوق، ولعلَّه ينسى، ولعلَّ الله يسامحه، ولعله ولعله! فتكثر له المخارج، فيترك خشية الفضيحة إلى هذه المخارج، وهو في الحقيقة إنَّما يختار الإصرار على الاختلاس والغلول بدلًا عن اختيار التوبة وتحمل تَبِعَاتها.. وفي الحديث عن عدي بن عميرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنِ استعملناه منكم على عملٍ فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولًا يأتي به يومَ القيامةِ**»، فقام إليه رجلٌ أسود من الأنصار كأنِّي أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عنِّي عملك، قال: «**وما لك؟**»، قال: سمعتُك تقول: كذا وكذا، قال: «**وأنا أقول الآن: من استعملناه منكم على عملٍ فليجئ بقليلِهِ وكثيرِهِ، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى**»(١).

ولو عَلِمَ هؤلاء بسُنَّة الله تعالى مع أمثالهم لتابوا سريعًا وعجَّلوا التوبة وتحمَّلوا تبعاتها الحالية، فإنِّي ما رأيت الله سبحانه وتعالى يفضح مذنبًا من أوَّل مرةٍ يقع في ذنبه، لكن كم يدفع من افتُضِحَ بعد ذلك؟! إنه يتمنَّى أنَّه قد دفع ماله كلَّه، بل يتمنَّى أنَّه ما ولد قبل اليوم!.

فعن عبادة بن الصامت ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ بعثه على الصدقة، فقال: «**يا أبا الوليد، اتَّق الله، لا تأتي يوم القيامة ببعيرٍ تحمله له رغاء، أو بقرةٍ لها خوارٌ، أو شاةٍ لها ثغاء**»، قال: يا رسول الله، إنَّ ذلك لكذلك؟ قال: «**إي والَّذي نفسي بيده**»، قال: فوالَّذي بعثك بالحقِّ، لا أعمل لك على شيءٍ أبدًا(٢).

ومن صور الابتزاز الشيطاني - نعوذ بالله منه: ترك العمل بالفضائل، وترك

---

(١) رواه مسلم (١٨٣٣).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٨٩): رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٧٨٠).

الالتزام بالسُّنَّة خوفَ التَّعيير، فالشيطان وصحبه منهم لطالما منعوا أناسًا من التوبة من الكفر إلى الإسلام تخويفًا من تَعْيير الناس، وما قصَّة أبي طالبٍ عنا ببعيدةٍ، فكيف لا يمنع شابًا من التزام هدي المصطفى ﷺ في ثيابه ومظهره وحياته خوفًا من تعيير الناس؟! وكيف لا يمنع المسلمة من ترك أفضل صور الحجاب في رمضان خشية التَّعيير واللَّمْز؟! وهي لا حُجَّة لها إلَّا أنها مستندةٌ على عادتها أو عادة صويحباتها أو مُصرَّة بجهل على فعلتها، بينما هي عند الله وعند رسوله ﷺ كاشفةٌ بعض عورتها، عاصيةٌ طوال يوم صومها، فهي آثمةٌ إذ هي صائمةٌ .. ؟! بل إثمها متعدٍّ؛ لأنَّ كلَّ عينٍ ناظرةٌ إليها، فتلك العين زانية فكيف إذا كثرت العيون .. ؟ وكم يُشْفق الغَيورُ على صائماتٍ قائماتٍ يعملن أعمالًا يَرَاهُنَّ فيها الرجال، كالأسواق والمطارات .. و هو يرى الأعداد الهائلة التي تمرُّ عليها كلَّ يومٍ .. والجميعُ ينظر إلى أجزاء عورتها المكشوفة وزينتها المفضوحة .

ينظر ويفتن، ثمَّ يمرُّ، ويأتي الآخر وهكذا .. وكلٌّ يُتْبِعُ النظرةَ النظرةَ، فكم ستحصل هذه المرأة في ختام عملِ يومِها أو ليلتها من أوزارٍ؟! .. والمسكينة فرِحةٌ بزينتها وجمالها مع صيامها، ولو أنَّها سترت نفسها لَحَجَبَتْ كلَّ هذه الآثام عن الناس ومثلها من الآثام عن نفسها .

ومثل هذه الصورة صورٌ عديدةٌ .. فليس للمسلم والمسلمة في استقباله رمضان إلَّا أن يستجيب وإلَّا فليقارن ما يفوِّت هذا الإصرار عليه في هذا الشهر؟ فالجنَّة مفتَّحة الأبواب، ومنادي الله ينادي كلَّ يومٍ: **«يا باغيَ الخيرِ أقبلْ، ويا باغيَ الشَّرِّ أقصرْ»**، وعتق الرِّقاب من النار يوزع كلَّ يومٍ على الخلق ... بينما يغضب هو مستمسكٌ بما يغضب الله ورسوله ﷺ .

لم الإصرار يا هذا ويا هذه؟! اخرج من قَوْقعتِكَ هذه واشترِ رضا ربِّك ... وليكن ما يكون، ستذهب كلُّ الوجوه التي جاملتَهَا، ويبقى وجه ربِّك ذي الجلال والإكرام، فماذا أنت صانعٌ؟

ماذا ستغني عنك تلك الوجوه؟![1].

ولا ينبغي للمرء أن يغترَّ بمرور رمضان عليه من قبل مرارًا، ما دام في كلِّ رمضان كان مُصرًّا على ذنبِهِ.

ها قد جاء رمضان الحزم والعزم، رمضان التَّوبة والتَّقوى .. وربما رمضان الوداع، نسأل الله أن يطيل أعمارنا وأعماركم على طاعته ..

ثانيًا: طاهرين من المال الحرام: إنَّ جَعْلَ اللهِ سبحانَه التقوى غاية رمضان كلها، ليَجْعَل المسلم يتتبع التقوى في القرآن والسُّنَّة ليحقِّقها، وبتحقيقها يبلغ غاية الصِّيام.

والآن فلننظر: ألم يأمرنا ربُّنا سبحانه بتقوى الله في الأكل، فقال سبحانه:

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة:٨٨].

فما تقولون فيمن يفطر على ما حرَّم الله كلَّ يومٍ.. بل يصوم طوال النَّهار عن الحرام، ثمَّ يفطر على الميتة.. ألم يقل الله سبحانه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

(١) سيأتي الحديث عن التدخين بعنوان «نفثات عند المسجد الحرام».

﴿رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٣] أليس الحيوان الميِّت بالصَّعق الكهربائيِّ من الميتة بالاتفاق؟ فماذا يعني مَنْ يأكل الدَّجاج المصعوق على مائدته في رمضان إلَّا أنَّه يأكل الميتة؟ أيُّ فسقٍ مثل هذا الفسق؟! .. ألم يقل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١] فهل وفَّى شرط المغفرة في رمضان مَنْ أكل الميتة، وقد قال المصطفى ﷺ: «**إذا كان يومُ صومِ أحدِكُم فلا يرفُث ولا يفسُق، ولا يجهل**»(١)؟! وأكل الميتة كما رأيت بنص القرآن فِسْقٌ ... كما أنَّ الميتة إذا اختلطت بالمذكاة لا يجوز أكل منهما.

فكيف إذا علمنا أن أكثر من (٣٠٪) من الدجاج يموت بالصَّعق فورًا قبل أن تأتي عليه سِكِّين المصنع، وتبقى في البقيَّة حياةٌ غير مستقرةٍ؟ أمَّا الحيوانات الأخرى فيتمُّ صعق الحيوان الواحد بـ(٣٠٠ فولت) أو يضرب بمسدسٍ حديديٍّ خاصٍّ على الرأس(٢)، وما هذه إلَّا صورةٌ من أعظم صور تعذيب الحيوان في هذا العصر .. فمن ينقذ هذه البهائم من هذه الوحشيَّة البشريَّة؟!

سبحان الله الذي نهانا عن شرب شيءٍ ما دمنا صيامًا وإنْ كان حلالًا شرعًا... حرَّم تجاوز القطرة من البلعوم إلى الجوف .. وجعل الشَّراب الحلال في ذلك كالشَّراب الحرام وقتَ الإفطار، فتقوى الله بالتزام هذا في رمضان كتقوى الله في التزام ذاك خارج الصِّيام، فقال ﷺ: «**مَنْ يضمن لي ما بين لحييهِ وما بين رِجليهِ**

(١) رواه أحمد في مسنده (٢ / ٣٥٦) بهذا اللفظ، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) موقع موسوعة ويكيبيديا.

أضمنْ له الجنَّةَ»[1]، فهل من تقوى الله أن نتعاطى الدُّخان عند الإفطار أو في اللَّيل .. أو بعد رمضان .. إنَّ تقوى القلب تمنع صاحبها أن يعقد عهدًا مع هواه أو مع شيطانه على تعاطي الدُّخان بعد رمضان، بَلْهَ عن ليله، أو بيعه أو إهدائه أو كفالة باعته ومشاركتهم، أو يصرُّ على مصدر رزقِهِ وهو حرامٌ يذهب في رمضان إلى وظيفته كقاضٍ وضعيٍّ أو موظفٍ ربويٍّ، أو نادل ليلي، أو نحو ذلك.

يا ربَّنا: أمرتنا بأخذ الزِّينة عند المساجد، وأمرتنا بلبس الطَّيِّبات ونحو ذلك.. لكنَّ بعضنا يركب في رمضان الحرامَ، ويسكن الحرامَ، ويلبس الحرامَ، فضلًا عن أنَّه يأكل الحرامَ، ويتعاطى الحرامَ، ويتقلَّب في الحرام، ويطعم أبناءه الحرام.. فأنَّى له أن يبلغ غايةَ رمضان وهو مُصِرٌّ على أكل الحرام؟!. أنَّى لآكل المال الحرام أو المقيم على أكله... أو المُصِرِّ على أَكْلِهِ أن يكون تَقِيًا حَاصلًا على ثمرة رمضان؟!.. إنَّه الحرمان.

فما أكثر ما أحكمتَ ربَّنا الوَثَاقَ بين التَّقوى والمال، وما أكثر ما أَوْصيتنا بالتَّقوى عند المال .. فلقد ربط الله أنواع التصرف بالمال بالتقوى – وهو غاية رمضان – من ذلك في قول الله سبحانه: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ولقوله سبحانه: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:٩].

كيف يَعدُّ نفسه من المتقين ومن مجابي الدَّعوة .. وهو صاحب المدخول المالي الحرام؟! ولقد قال النَّبيُّ ﷺ: **«أيُّها الناسُ، إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا،**

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنين بمَا أمرَ به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١]، **وقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٧٢]، **ثمَّ ذكر الرَّجلَ يُطيل السَّفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يديه إلى السَّماءِ: يا ربِّ يا ربِّ ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ، فأنَّى يُستجَابُ لِذَلِكَ»**[1].

تأمَّل هذا الرجل وما الذي حالَ بين دعائه وبين الإجابة: أليس هو مسافرًا، بل مطيلًا للسفر، ودعاءُ المسافر مجابٌ؟!

أليس هو أشعث أغبر **«ورُبَّ أشعثَ أغبرَ لو أقسمَ على اللهِ لأبَرَّه»**[2]؟! أليس الله سبحانه يستحيي أن يردَّ يدي عبده إذا مَدَّهما صفرًا وقد مدَّ هذا يديه؟ !

أليس هذا الداعي يدعو الله بأسمائه، ويتوسَّل له باسمه «الرب» وهو من الأسماء التي قال البعض: إنَّها الاسم الأعظم؟! .. فلم لا يستجاب له؟ ما الذي حال بين عمله وبين القبول ، وبين دعائه وبين الإجابة؟!

لا غرابة ألَّا يستجاب له: أليست لقمتُهُ حرامًا؟! ألم تتحوَّل اللُّقمة إلى الدَّم الَّذي هو مِداد حياة القلب والسَّمع والبصر والتَّفكير، واليد والرِّجل والقوَّة، وما إلى ذلك .. فكيف يستجاب له؟!

أليست سيارته وثياب أبنائه، وطعامهم وشرابهم ولباسهم من ماله، ومالُهُ حرامٌ .. ؟! فأنَّى يُستجاب له، والخوف أنَّ أجسادهم نَبَتَتْ على السُّحت، إذًا فالنَّار أَوْلَى بها ما داموا مكلَّفين وراضين .

(١) رواه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) رواه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

لا تقل: أنا لم أنهب أموال الناس .. ليس وصف الحرام أو الحلال وصفًا يملكه البشر، بل الله هو مَنْ يطلق هذا الوصف على ما يشاء سبحانه؟ ألم يحرم الله الرِّبا؟ ألم يحرِّم الله القمار؟ ألم يحرم الله الأموال المكتسبة من حرامٍ كأموال الحفلات المحرَّمة، والتجارة المحرَّمة، وأموال الغصب والنهب والاختلاس وما إلى ذلك؟

واللهِ، لو دخلتَ رمضان طاهرًا من كلِّ حرامٍ حتَّى لم يبقَ في حسابك درهمٌ واحدٌ من ملكيَّتك الكبيرة لكان خيرًا لك من أن تنصبَ للصَّائمين موائدَ الإفطار من الحرام.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ جمعَ مالا حَرامًا، ثمَّ تصدَّقَ به لمْ يكنْ لَهُ فيه أجرٌ، وَكَانَ إصرُهُ عليه»**[(1)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«لا تقبل صلاةٌ بغيرِ طهورٍ، ولا صدقةٌ من غُلولٍ»**[(2)].

رفقًا بزوجك وطعامها.. رفقًا بِلَبنِ ولدك الرَّضيع .. رفقًا بأجساد أبنائك التي تُغذِّيها من طعام النار **«كلُّ جسدٍ نَبتَ من سحتٍ فالنارُ أَوْلى به»**[(3)].

ولقد أصبحت التوبة أمرًا سهلا حتَّى ممن يملك بنكًا ربويًّا أو شركة تأمين محرمة ... إنه أمر إجرائي لا يحتاج أكثر من صدق نية المالكين .. دون أن يخسروا شيئًا، لأن عماد التوبة هنا عند المفتين هي قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٢١٦)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه مسلم (٢٢٤).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٧٥٩)، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع (٤٥١٩).

مِن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وليس المطلوب كي تكون تقيًا أن تترك الحرام وحده ...

لا ، فَثَمَّة أمورٌ مشتبهةٌ، وأمورٌ حلالٌ في نفسها ، لكنَّها رُبَّما تُفْضي إلى حرامٍ، فعن عطيَّة السَّعديِّ قال: قال رسول الله : «**لا يبلغ العبدُ أن يكون من المتَّقين حتَّى يدع ما لا بأس به حذرًا ممَّا به البأس**»(١).

عن رفاعة بن رافع ﷺ أنَّه خرج مع النَّبيِّ ﷺ فرأى النَّاس يتبايعون، فقال: «**يا معشر التُّجار**» فاستجابوا الرسول الله ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «**إنَّ التُّجَّار يبعثون يوم القيامة فجَّارًا إلَّا من اتَّقى اللهَ وبرَّ وصدق**»(٢).

أيَّتها الأسرة.. أيَّتها الزوجة .. يا أيُّها الشباب والفتيان، يا أيُّها الصِّغار والعَجَزة، لو كان في هذا الطَّعام مرضٌ لما رضيتُم أكله من يدِ أقربِ الناس لكم، فكيف تأكلونه وفيه سخطُ اللهِ وعذابه وأنتم تعلمون؟!

لو عدتم جَوْعى لا طعام لكم إلَّا تمرات تأكلونها، وحسوات ماء تحتسونها لكان خيرًا لكم من طعام المترفين، وعاقبتُهُ عذاب الله!

وفي الحديث عن أمِّ سلمة ﵂ زوج النَّبيِّ عن النَّبيِّ ﷺ، أنه قال: «**إنَّه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومَنْ أنكر فقد**

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١)، وضعفه الألباني، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٩٩٤٢).

(٢) رواه الترمذي (١٢١٠)، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٩٤).

سَلِمَ، ولكن مَنْ رضي وتابع»[1].

هكذا الرضا والمتابعة في الأمور العامَّة، فكيف بأمور الطعام والشراب وأمور أسرتكم الخاصة؟!

إن سكوتكم مشاركةٌ ورضا.

وكثيرًا ما تتهاونُ الشركات المسؤولة عن تغذيةِ المستشفيات والجيوش والشُّرط والطيران ونحو ذلك، حيثُ تقدِّم لهم لحومًا غير مذبوحةٍ ذبحًا شرعيًّا ... وذلك لفرق السعر، وليس هذا بعذرٍ عند الله سبحانه!.

بينكم وبين التقوى بونٌ بعيدٌ ما دامت لقمتكم من حرام.. ألم يقل الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:٨٨].

يا للقمة الطعام .. ما أعظم خطرها! وما أعظم أثرها! وما أعظم الهالكين بسببها!

أبونا آدم عليه السلام أُخْرج من الجنة بالطعام، فكيف تريدون دخولها وقد اتخذتم سبب الخروج منها في رمضان وهي مفتَّحة الأبواب؟!

إنَّ اليهود وقعوا باللَّعنة مرارًا بسبب الطعام، وتُكرِّرون أنتم سبب اللعن ثمَّ تَرْجون المغفرة، ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣].

والنبي ﷺ يقول: **«قاتلَ اللهُ اليهودَ، حرَّم اللهُ عليهِم الشُّحُومَ فباعُوها وأكلُوا**

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٤).

أثمانها»[1].

ومن بعدهم أصحاب عيسى عليه السلام وقعوا بسبب الطعام: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

لا تقل: إنه وليُّ أمري ولا أستطيع الإنكار عليه.. أنكِر ولكن بحكمةٍ، فإنكم في سفينةٍ واحدةٍ، سواء في سفينة البلد، أو سفينة الأسرة، أو سفينة العمل ..

رَوى النعمانُ بنُ بشيرٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَثَلُ القائمِ على حدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الَّذين في أسفلِهَا إذا استقوا من الماءِ مرُّوا على مَنْ فوقَهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبِنا خرقًا ولمْ نؤذِ مَنْ فوقنا؟ فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإنْ أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»**[2].

ثالثًا: طاهرين من آخر ذرة كبرٍ:

يا مَنْ ذهب بنفسِهِ بعيدًا.. ورفع مقام ذاتِهِ على خلق الله عاليًا، حتَّى احتقر الخلق .. وردَّ نصحهم، ألا ترى أبواب الجنَّة المفتَّحة .. وأبواب النَّار الموصدة

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٢٢٣)، ومسلم (١٥٨٢) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٢٤٩٣).

... اعلم أنَّ عندك ذنبًا خطيرًا حيث إنَّ ذرةً واحدةً من الكِبْر كفيلةٌ بحرمانك من دخول هذه الأبواب المفتَّحة مع الداخلين ..

لابدَّ لك أن تتخلَّص من كلِّ ذرةٍ.. وتسلم من كلِّ ذرةٍ.. فإنَّ كلفة هذه الذرَّة في القلب مهلكة! ولذا فإنَّ خوف هذه الذرَّة صَنَعتْ بالمتَّقين الأوَّلين ما صنعتْ!

فعن أبي سلمة بن عبد الرَّحمن بن عوف ﷺ قال: الْتَقَى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ على المروة فتحدَّثا، ثمَّ مضى عبد الله بن عمرو ﷺ، وبقي عبد الله بن عمر يبكي، فقال له رجلٌ: ما يبكيك يا أبا عبد الرَّحمن؟ قال: هذا - يعني ابن عمرو - زعم أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ كان في قلبه مثقال حبَّةٍ من خردلٍ من كبرٍ أكبَّه اللهُ لوجهه في النَّارِ»**[1].

وعن عبد الله بن حنظلة أنَّ عبد الله بن سلام مرَّ في السُّوق وعليه حزمةٌ من حطبٍ، فقيل له: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله من هذا؟ قال: أردتُ أن أدفع الكبرَ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل الجنَّةَ مَنْ في قلبه مثقال خردلةٍ من كبرٍ»**[2].

وعن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«لا يدخل الجنَّةَ مَنْ كان في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من كبرٍ»** قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢١٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٠٤): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٩١٠).

حسنةً، قال: «**إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكبرُ بطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ**»[1].

فاقتلعها من قلبك وأنت على أبواب شهر التَّقوى إلى الأبد، فإنها تنافي التَّقوى.

فعن عقبة بن عامر ﷺ قال: أُهدِيَ إلى النَّبيِّ ﷺ فَرُّوجُ حريرٍ[2]، فلبسه، فصلَّى فيه ثمَّ انصرف، فنزعه نزعًا شديدًا كالكاره له، وقال: «**لا ينبغي هذا للمتَّقين**»[3].

فلابدَّ للعبد أن يغلق هذا الباب وتوابعه إلى الأبد عن صحيفته، فإنَّ ضرره ليس كضرر سيئاتٍ قاصرةٍ، إنَّما هي المهلكات الَّتي لا تُبْقي على صاحبها ولا تذر، ومن ذلك التَّفاخر بالأحساب، عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو لم تذنبوا لخشيتُ عليكم ما هو أكبر منه: العُجْبُ**»[4].

ومن هذه المهلكات التَّبختر بالمركوب، أو الملبس، أو المشية، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يتبختر، يمشي في برديه قد أعجبته**

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) الفَرُّوج: ثوب ضيف الكمين والوسط، مشقوق من الخلف. قيل: هذا كان قبل تحريم لبس الحرير للرجال، لقوله: «فنزعه نزعًا شديدًا»، مما يؤكد أن التحريم وقع حينئذٍ للتَّو، ولقوله ﷺ كما في رواية مسلم من حديث جابر بن عبد الله: «نهاني عنه جبريل». ويحتمل أن يكون هذا بعد التحريم لكنه نزعه لكونه حريرًا خالصًا وقد رخص في الخطوط اليسيرة. راجع: فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٨٢).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٧٥)، ومسلم (٢٠٧٥).

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٢): رواه البزار وإسناده جيد، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٢١).

نفسه، فخسف الله به، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[١].

إنَّ رمضان فرصةٌ لنسف كلِّ هذه النجاسات وكنسها من ساحة القلب .. ذلك أنَّ رمضان شهر التَّقوى، والمسلم لا يملك إلَّا أن يحمل في رمضان – وإلى الأبد – وصف «المؤمن التَّقي»، كما قال المصطفى ﷺ: «لَينتهِيَنَّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الَّذين ماتوا إنَّما هم فحمُ جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعلِ الذي يُدَهْدِهُ الخُرءَ بأنفِهِ، إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّة، إنَّما هو مؤمنٌ تقيٌّ وفاجرٌ شقيٌّ، النَّاس كلُّهم بنو آدم، وآدمُ خلق من ترابٍ»[٢].

لا يُطلَب من المسلم أن يكون وسِخًا قذِرًا ذا رائحةٍ منتنةٍ وشعرٍ ثائرٍ كأنَّه شيطانٌ، بل هذه ممَّا نهى عنها النبيُّ ﷺ، ويكرهها الله ﷻ وتتأذَّى منها الملائكة، ولا تليق بمقام القدوة ولا الدَّعوة .. لكنَّ العلاج علاج القلب في الأساس، والتزام الضَّوابط الشَّرعيَّة الَّتي لا يجوز الخروج عنها ... كَمَنْ يبقى طوال رمضان وهو يلبس حلقة ؛ لأنَّها عادته، أو هديَّة زوجته .. !! ثمَّ هو يرجو النَّجاة من النار والعتق منها في رمضان، بينما هو متقلدٌ لما وعد عليه الشَّفيع ﷺ بالنار، فقال: «يَعْمد أحدُكم إلى جمرةٍ من نارٍ فيجعلها في يدِه»[٣].

إنَّ على المسلم مع علاج قلبِهِ أن يمارس أعمال التَّواضع فعليًّا غيرَ مراءٍ بممارسته .. فإنَّ للممارسة الصَّحيحة أثرًا في صحَّة القلب، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ: «ما استكبر مَنْ أكل مع خادمه، وركب الحمار بالأسواق،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٣٩٥٥)، قال الألباني: حسن.

(٣)رواه مسلم (٢٠١٩).

واعتقل الشاةَ فحلبها»[1]، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: تقولون فيَّ التِّيهُ «أي: الكبر»، وقد رَكِبْتُ الحمارَ ولبستُ الشملةَ، وقد حلبتُ الشاةَ، وقد قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ فَعَلَ هذا فليس فيه مِنَ الكِبْرِ شيءٌ»**[2].

ليس للتواضع صورةٌ معينةٌ... فلرُبَّما يكون في أعلى المراتب الاجتماعية والمالية، لكنَّه يقبل الحق من الأصغر، ويتواضع للأَمَةِ وهو في نفسه صغيرٌ، لكنَّه عند ربِّه كبيرٌ كبيرٌ، وربما يكون في مهنة من أحقر المهن في أعين الناس، لكنه يستكبر على أمثاله ويحتقرهم، ولا يقبل منهم نصيحةً؟؟

حقًّا إنَّه القلب: لكن لابدَّ لإزالة الكبر من الممارسة .. إنَّه ميزانٌ، وكلُّ واحدٍ يعرف نفسه، ويحاسب نفسه، بل يتَّهم نفسه، ويستعيذ بالله من شرِّها.

وعن معاذ بن أنسٍ الجهني رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ تَركَ اللِّباسَ تواضعًا لله وهو يقدر عليه، دعاه اللهُ يومَ القيامةِ على رؤوسِ الخلائقِ حتَّى يخيره من أيِّ حللِ الإيمانِ شاء يلبسها»**[3]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عائشةُ، لو شئتُ لسارتْ معي جبالُ الذَّهب، جاءني مَلَكٌ إنَّ حُجْزَتَهُ لَتُساوِي الكعبة، فقال: إنَّ ربَّك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت نبيًّا عبدًا، وإنْ شئتَ نبيًّا ملكًا، قال: فنظرت إلى جبريل، قال: فأشار إليَّ أن ضَعْ نفسك قال: فقلتُ: نبيًّا عبدًا»**، قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول: **«آكلُ كَمَا يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كَمَا يجلسُ العبدُ»**[4].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٠)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠١)، قال الألباني: صحيح الإسناد.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨١) وحسنه الألباني.

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٩٢٠)، قال الألباني: لعله حسن لغيره وللحديث شواهد أخرى، انظر: «بداية السول في تفضيل الرسول» تحقيق الألباني (٦٤).

وعن أبي الدَّرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ابغوني في ضعفائكم، فإنَّما تُرزقون وتُنْصرون بضعفائكم**»(١).

وعن حارثةَ بنِ وهبٍ الخزاعيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأهلِ الجنَّةِ؟ كلُّ ضعيفٍ متضعفٍ، لو أقْسَمَ على اللهِ لأبرَّه، ألا أخبركم بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مستكبر**»(٢)، وعن أنسٍ ﷺ قال: كانت ناقةٌ لرسول الله ﷺ تُسمَّى العضباء، وكانت لا تُسْبَق، فجاء أعرابيٌّ على قَعُودٍ له فسبقها، فاشتدَّ ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبِقَت العضباء، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ حقًّا على الله ألَّا يرفع شيئًا من الدُّنيا إلَّا وضعه**»(٣).

فاصنع ما بدا لك حتَّى تتأكَّد من سلامتك .. فالتَّقوى ليست للمظاهر وحدها.

رابعًا: طاهرين من العقوق:

أمَّا أنت يا من تُمَنِّي نفسك بمغفرة الله .. فاعلم أنَّ الله قد ربط رباطًا من ثلاثٍ، لا يحلُّه ــ واللهِ ـ إلَّا الله وحده .. ذلك هو الصَّلاة على رسول الله ﷺ، وبرُّ الوالدين، ورمضان.

فَعدمُ أداء حقِّ أيِّ واحدٍ منهم مصيرُهُ النارُ.

عن مالك بن الحسن بن مالك بن الحويرث، عن أبيه، عن جدِّه قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فلما رقي عتبةً قال: «آمين»، ثمَّ رقي عتبةً أخرى، فقال: «آمين» ثمَّ رقي عتبةً ثالثةً، فقال: «آمين»، ثمَّ قال: «**أتاني جبريل فقال: يا محمد،**

(١) رواه الترمذي (١٧٠٢)، وصححه الألباني.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٧١)، ومسلم (٢٨٥٣).

(٣) رواه البخاري (٦٥٠١).

مَنْ أدرك رمضان فلم يغفر له فأبعده الله، قلت: آمين، قال: ومَنْ أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله، قلت: آمين، فقال: وَمَنْ ذُكِرْتُ عنده فلمْ يُصَلِّ عليك فأبعده الله قل: آمين، فقلت: آمين»[1].

أَيُصَدِّقُ عاقلٌ أنَّ رجلًا مسلمًا يدخل عليه رمضان وهو عاقٌّ لوالديه؟ حتَّى لو كان الوالد ظَلَمك أو حَرَمك أو طردك أو فعل بك ما فعل .. فكيف تعقُّه؟

أحقُّك أعظم من حقِّ الله؟ فالله سبحانه يقول لك عن واجبك إذا اعتدى والدك على حقِّه هو سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥]، كلُّ هذا البر مع أن العدوان على الله..

ورغم مجاهدة والديك لك لكي تشرك بالله، ثـمَّ الله سبحانه يقول لك عن حقِّ هذين الوالدين تحديدًا: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾.

فكيف إذا كان العدوان من الولد عليهما؟ وكيف إذا كان لأجل زوجتِهِ؟ كيف إذا كان عداؤهما لأجل صغارِهِ؟ كيف إذا كان لأجل المال والدُّنيا؟ كيف ورمضان على الأبواب أو قد حطَّ رحاله؟

كيف يُغفَر له وفي مقابل ذلك دعاء جبريل وسيد الأوَّلين والآخرين - عليهما الصلاة والتسليم - وهما يرقيان المنبر؟!

خامسًا: طاهرين من الظلم:

كم من رجلٍ يعظ غيره ويحذِّره من الظُّلم، ولكنَّه ينام ظالمًا ويستيقظ ظالمًا!

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٠٩)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح لغيره، وكذا قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٩٦).

كيف يرجو المغفرة والعتق من النَّار وهو لم يعتق نفسه من الظلم في هذا الشَّهر؟!

ظالمٌ لزوجته، أو ظالمٌ لإحدى زوجاته، وذاك ظالمٌ بالتَّفريق بين أولاده .

وثالثٌ موصٍ بوصيةٍ ليحرم بها بعضَ ورثتِهِ ..

إنَّ تقوى الله الَّتي هي غاية الصِّيام تنفِّر من الظلم غايةَ النفرة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كانت له امرأتانِ فمالَ إلى إحداهما جاء يومَ القيامةِ وشقُّه مائلٌ»**[1] .

عن هشام بن حكيم بن حزام أنَّه مرَّ بالشَّام على أناسٍ، وقد أقيموا في الشَّمس، وصبَّ على رؤوسهم الزَّيت، فقال: ما هذا؟: قيل: يُعَذَّبون في الخراج، فقال: أمَّا إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ الله يعذِّب الَّذين يعذِّبون الناسَ في الدُّنيا»**[2] .

ألا فلتنخل سجونُ المسلمين قبلَ رمضانَ نخلًا حتَّى لا يبقى فيها مظلومٌ بحقٍّ ولا مظلومٌ بشبهةٍ، ويا ويلَ مَنْ تهاونَ فتصاعدَتْ عليه من هناك دَعواتٌ في أسحارِ رمضانَ وقُبيلَ الإفطارِ مع مَرارةِ الظُّلم والقهر والتَّفريق بينه وبين أهله، فأيُّ عاقلٍ يجازف هذه المجازفة؟! وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«صنفان من أهل النَّار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها النَّاس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنَّة ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»**[3] .

---

(١) رواه أبو داود (٢١٣٣)، قال الألباني: صحيح.

(٢) رواه مسلم (٢٦٣١).

(٣) رواه مسلم (٢١٢٨).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كانت عنده مظلمةٌ لأخيه من عِرْضه أو من شيءٌ فليتحلَّله منه اليوم قبل ألَّا يكون دينارٌ ولا درهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ أخذ منه بقدر مظلمتِهِ، وإنْ لم تكن له حسناتٌ أخذ من سيِّئات صاحبه فَحُمِلَ عليه»**(١).

وعن عمَّار بن ياسرٍ ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«مَنْ ضرب مملوكَه ظلمًا أُقِيدَ منه يوم القيامةِ»**(٢).

وعن عائشة ﷺ أنَّها قالت لأبي سلمة بن عبد الرَّحمن وكان بينه وبين أناسٍ خصومةٌ: يا أبا سلمة، اجتنب الأرض، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«مَنْ ظُلِمَ قِيدَ شبرٍ من الأرض طوِّقَه من سبع أَرَضين»**(٣). عن معقل بن يسارٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يلبث الجور بعدي إلَّا قليلًا حتَّى يطلع، فكلَّما طلع من الجور شيءٌ ذهب من العدل مثله حتَّى يولد في الجور مَنْ لا يعرف غيره، ثمَّ يأتي الله - تبارك وتعالى - بالعدل، فكلَّما جاء من العدل شيءٌ ذهب من الجور مثله حتَّى يولد في العدل مَنْ لا يعرف غيره»**(٤).

وعن النُّعمان بن بشيرٍ ﷺ قال: تصدَّق عليَّ أبي ببعض مالِهِ، فقالت أمِّي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتَّى تشهد رسول الله ﷺ، فانطلق أبي إلى النَّبيِّ ﷺ ليشهده على صدقتي، فقال له رسول اللهِ ﷺ: **«أفعلت هذا بولدك**

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤ / ٣٧٨)، قال الألباني: حسن، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٣٥٢).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦)، قال العراقي في محجة القرب (١٧٧): حسن، وضعفه شعيب الأرنؤوط.

كلِّهم؟» قال: لا، قال: «اتَّقوا الله، واعدلوا في أولادكم»[1]، فرجع أبي، فردَّ تلك الصَّدقة .

إنَّ لرمضان غايةً، وإنَّ غاية كلِّ واحدٍ هي أن يخرج مغفورًا له، ودون تحقُّق هذه الغاية النار .. هذه هي الخطورة الحقيقيَّة التي لا تدع للصَّائم مجالًا للتَّعويض إلَّا أن يشاء الله كما في حديث دعاء جبريل والنَّبي ﷺ وتأمينهما وهما يرتقيان المنبر .

ليست هذه كلَّ الذُّنوب الَّتي ذكرناها .. فكلٌّ أعلمُ بنفسِهِ .. وكلٌّ أدرَى بسرِّه، وهذه هي التَّقوى التي ينشئها رمضان ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة:٢٣٥].

حتَّى لو وقعتَ قبل رمضان بذنبٍ .. بل لو وقعتَ في رمضان فلا تيأس، عاود قبل أن ينفلت الشهر وتحمل فيه وزرًا.. وهذه التقوى الرَّجَّاعة صاحبها سريعًا إلى الحقِّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فِرَّ سريعًا إلى الله .. سارع إلى الجنَّة المفتحة الأبواب اليوم.. ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

---

(١) رواه مسلم (١٦٢٣).

سادسًا: طاهرين من مخالفة سُنَّته ﷺ:

كما حسِبتَ للقاء الله حسابًا فاحسب للقاء رسول الله ﷺ حسابه ، فإنَّه لابدَّ وأنَّك ملاقيه، وقد قال سبحانه لرسوله ﷺ عن موسى عليه السلام: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السجدة:٢٣]، وإنَّه قد ضرب لبعض الصحابة مواعيد منها على الحوض، ومنها على غيره، وأخبر بأقرب الناس منه، وبأحقِّ الناس بشفاعته، فكيف تحب أن تلاقيه .. كيف تحبُّ أن يراك؟ وهذا يقتضي أن تحرص أن تكون أشبه النَّاس به لتكون أقرب النَّاس منه حين تكون على سُنَّته في هيئته، وتكون أكثر ما تكون صلاةً عليه، وخصوصًا يوم الجمعة؛ فإنَّه مع كلِّ صلاةٍ لك عليه يعرض المَلَك - الذي عند قبره ومعه أسماء الخلائق - اسمكَ عليه، فكم تريد أن يتكرَّر اسمك عنده ، وتكون أعظم ما تكون ذبًّا عن عِرْضه وعن سُنَّته ليذبَّ الله عنك النار لأجله ﷺ.

لا يوجد جوٌّ لمراجعة سُنَّة المصطفى في كلِّ حالاته وحياته مثل رمضان.

ينبغي للفرد أن يقفز في عالم اتِّباع النَّبيِّ ﷺ حتَّى لا يدع مجالًا من مجالات حياته إلَّا صُبغ بالسُّنَّة.

إنَّه لمن الخطأ البيِّن أن يُقْتصَر فَهْمُ السُّنة على أنَّها المستحبات، ويُحَجَّرَ فَهْمُ السُّنة على الأَشْكالِ والهيئاتِ، أو يُقْتصَرَ على ما أُظْهِرَ للناس، إنَّها الحياة على منهج المصطفى ﷺ ، قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تمنعوا نساءكم

المساجد إذا استأذنَّكم إليها»، فقال بلال بن عبدالله: واللهِ، لنمنعهنَّ، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سبًّا سيئًا، ما سمعته سبَّه مثلَه قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: واللهِ لنمنعهنَّ(١)!

عن أبي وائلٍ قال: جلستُ إلى شيبةَ في هذا المسجد، قال: جلس إليَّ عُمَر في مجلسك هذا فقال: هممتُ ألَّا أدعَ فيها صفراء ولا بيضاء إلَّا قسمتها بين المسلمين، قال: ما أنت بفاعلٍ، قال: لِمَ؟ قلت: لَمْ يفعله صاحباك: قال هما المرءان يقتدي بهما(٢).

سابعًا: طاهرين من المماطلة بالدَّينِ وإلَّا فالمسامحة:

لا يحبسنَّك عن الجنَّة حابسٌ بعدما تفتَّحت أبوابها، فإنَّ مَنْ عَلِم أنَّ حقوق العباد لا تُغفَر حتَّى يغفرها العباد، سارَعَ إلى إزالة هذا العائق ومجاوزة هذه العقبة، ومَنْ علم أنَّ الميِّت مرهونٌ حسابه ومحبوسٌ عن مكافأته بِدَيْنِهِ حتَّى لو مات في رمضان وحتى لو مات شهيدًا، لم ينتظر حتَّى يسدِّد عنه ورثته ديونَهُ، بل سارع إنْ كان مستطيعًا إلى سدادها في موعدها، أو التَّسامح من أهلها وطلب إنظاره، وكتابة الوصيَّة بذلك، ومن عَلِمَ أنَّ ما أُنْزِل في التَّغليظ في شأن الدَّيْن قد أخاف النَّبيَّ ﷺ فسارع لقضائه ما دام مستطيعًا.. فمن ذلك: ما جاء عن محمد ابن عبد الله بن جحش قال: كان رسول الله ﷺ قاعدًا حيث تُوضَع الجنائز، فرفع رأسه قبل السماء، ثمَّ خفض بصره، فوضع يده على جبهته، فقال: «**سبحان الله! سبحان الله! ما أُنْزِل من التَّشديد**»، قال: فعرفنا وسكتنا، حتَّى إذا كان الغد سألت رسول الله ﷺ فقلنا: ما التَّشديد الذي نزل؟ قال: «**في الدَّيْن، والذي نفسي بيده،**

(١) رواه مسلم (٤٤٢).

(٢) رواه البخاري (٧٢٧٥).

لو قُتِلَ رجلٌ في سبيل الله، ثمَّ عاش، ثمَّ قتل، ثمَّ عاش، ثمَّ قتل وعليه دَيْنٌ ما دخل الجنة حتَّى يُقضى دَيْنُه»[1].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ مات وعليه دينارٌ أو درهمٌ قُضِيَ من حسناته، ليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهمٌ»**[2]، ومع هذا فلا يستوي مَنْ أخذ الدَّين وهو ينوي قضاءه ويجتهد في أدائه، مع مَنْ أخذه بغير نيَّة قضاءٍ، ولا يسعى في قضائه، بل عدَّه من ماله وينتظر حتَّى يفيض عليه المال، وربَّما قضاه من فضول ماله! هكذا فرَّق رسول الله ﷺ بين هذين الاثنين، فقد روى البخاريُّ وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَخذَ أموالَ النَّاسِ يريدُ أداءَها أدَّى اللهُ عنه، ومَنْ أخذَ أموالَ النَّاسِ يريدُ إتلافَها أتلفه اللهُ»**[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ حمل مِنْ أُمَّتي دَينًا، ثمَّ جهد في قضائِهِ، ثمَّ مات قبل أن يقضيَه فأنا وليُّه»**[4]، فإنَّ الخطورة كلَّ الخطورة هي عزيمة المستدين ألَّا يردَّ دينه ابتداءً، أو مماطلة وهو قادرٌ على السَّداد مع حلول الموعد وفواته أو تهاونه مع عدم مسامحة الدائن له لقرابته أو ميانته، فعن صهيب الخير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيُّما رجلٍ تديَّن دَيْنًا وهو مجمعٌ ألا يوفِّيه إيَّاه لقي الله سارقًا»**[5]، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه النسائي (٤٦٨٤)، والحاكم في المستدرك (٢٢١٢)، وحسنه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٠٤).

(٢) رواه ابن ماجة (٢٤١٤)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٢٣٨٧).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٧٤)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٥) رواه ابن ماجه (٢٤١٠)، قال الألباني: حسن صحيح.

«مَنْ تزوَّج امرأةً على صداقٍ وهو ينوي ألا يؤدِّيه إليها فهو زانٍ، ومَنِ ادَّانَ دَيْنًا وهو ينوي ألا يؤدِّيه إلى صاحبه، أحسبه قال: **فهو سارقٌ»**(١)، ومع هذا فإنَّ قدوم رمضان أعظم حافزٍ لمن رجا عفو الله عنه أن يعفو عمَّن يستطيع ممَّن يطلبه دينًا وهو معسرٌ أو يسقِطَ عنه بعض دَيْنه إنْ لم يسقطه كلَّه، فهذا من أحسن ما يقدم بين يدي قدوم رمضان، فإنَّ الجزاء من جنس العمل، والمسامحة بالمسامحة، والعفو بالعفو.

عن أبي قتادة ﷺ، أنَّه طلب غريمًا له، فتوارى عنه، ثمَّ وجده، فقال: إنِّي معسرٌ، قال: آلله، قال: آلله. قال: فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ سَرَّه أن يُنجيَه اللهُ من كربِ يومِ القيامةِ فلينفِّس عن معسرٍ أو يضع عنه»**(٢).

وعن أبي مسعود البدريِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُوسِب رجلٌ مِمَّن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيءٌ إلَّا أنَّه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله تعالى: نحن أحقُّ بذلك، تجاوزوا عنه»**(٣).

وعن بريدة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ أنظر معسرًا فله كل يوم مثله صدقة»**، ثمَّ سمعتُهُ يقول: **«مَنْ أنظر معسرًا فله كلُّ يومٍ مثليه صدقةٌ»**، فقلت: يا رسول الله، سمعتك تقول: **«من أنظر معسرًا فله كل يوم مثله صدقة»**،

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٣٤): رواه البزار، قال الألباني: صحيح لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٨٠٦).

(٢) رواه مسلم (١٥٦٣).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦١)، واللفظ له.

ثم سمعتك تقول: «**مَنْ أَنظَر معسرًا فله كل يومٍ مثليه صدقةٌ**»، قال: «**له كل يومٍ مثله صدقةٌ قبل أن يحلَّ الدَّيْن، فإذا حلَّ فأنظره، فله بكلِّ يومٍ مثليه صدقةٌ**»(١).

وعنه ﷺ أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أنظر معسرًا أو وَضَعَ له لأظلَّه اللهُ يومَ القيامةِ تحت ظلِّ عرشِه يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه**»(٢).

وعن أبي قتادة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ غريمِه أو مَحَا عنه كان في ظلِّ العرشِ يومَ القيامةِ**»(٣).

ورُوِيَ عن أسعد بن زرارة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سرَّه أن يظلَّه اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه فلييسِّر على معسرٍ أو ليضع عنه**»(٤).

جِدِّيَّة التَّطهُّر قبل الدُّخول:

عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حيثما كنت، وأتبع السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحها، وخالق النَّاسَ بخلقٍ حسنٍ**»(٥).

عن عطيَّة السَّعديِّ ﷺ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**لا يبلغ العبدُ أن يكون من**

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٠)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه الترمذي (١٣٠٦)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البغوي في شرح السنة (٢١٤٣)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب(٩١١).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨٩٩)، قال الألباني: صحيح لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٩١٢).

(٥) رواه الترمذي (١٩٨٧)، قال الألباني: حسن.

المتَّقين حتَّى يدع ما لا بأس به حَذَرًا مِمَّا به البأس»[1]، فالأمر حازمٌ في بداية دخول رمضان وله ما بعده:

فهو اختبار التَّوبة الحقيقيُّ: إنَّ «تقوى الله» سبحانه أكثر ما تُختبر عند المال لأصحاب المال وعاشقيه، وأكثر ما تُختَبَر لأصحاب الشُّهرة في مواقف الشُّهرة، وأكثر ما تُختبر عند الرِّئاسة لمُحبِّي التَّرؤس عند الصراع عليها.. وأثر رمضان يظهر على حقيقته عند هذه المواقف وأمثالها، يظهر مدى بلوغ التَّقوى القلب، وبلوغ مخافة الله القلبَ .. ومدى عمقها فيه أو رِقَّتها، ألم يقل الله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٥-١٦].

ويقول سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصيَّة للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبًا - على أصحِّ القولين - قبل نزول آية المواريث، فلمَّا نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدَّرة فريضةً من الله، يأخذها أهلوها حتمًا من غير وَصيَّةٍ ولا تحمُّلِ منَّة الموصي؛ ولهذا جاء الحديث في السُّنن وغيرها عن عَمْرو بن خارجة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إنَّ اللهَ قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه، فلا وصيَّةَ لوارثٍ»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١)، وضعفه الألباني، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٩٩٤٢).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٢٨٧٠)، وقال الألباني: حسن صحيح.

إنَّ للتَّقوى هنا ثمنًا ظاهرًا، ورُبَّما باهظًا في أَوَّلِه.. إنَّه يقتضي إيقاف حساباتٍ، ورُبَّما سحب أموالٍ، ورُبَّما التَّنازل عن أموالٍ، وَرُبَّما تحدِّي رجالٍ، وَرُبَّما التَّنازل عن شركاتٍ، ورُبَّما تغيير وصايا ظالمةٍ، إنَّه في الحقيقة صراع النَّفس على الثِّقة بالله أو الثِّقة بما في اليد، لا شكَّ أنَّ للحرام كثرته، لكن له تَبِعاتُهُ وعقابُهُ.

فالصَّائم الَّذي امتنع عن مدِّ يده إلى أمواله الحلال أحْرى به أن يمتنع عن مدِّ يده إلى أموالٍ لا تحلُّ له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[النساء:٢٩].

والصَّائم الَّذي ترك مدَّ لسانه إلى غيره بالباطل، بل ترك حتَّى الدِّفاع عن نفسه وشخصه وإنِ اعتدى عليه أخوه المسلم في شهر رمضان... كان أقدرَ على أن يمسك لسانه عن العدوان.

فإذا امتنعت طرائق المُحرَّمات وسُبُل فعلها من خلال التَّقوى الَّتي صنعها صيام رمضان وسيصنعها - بإذن الله - فكيف يمكن أن تقترف أعضاؤه وجوارحه إثمًا.. كيف يستثمر الأمر في شهر المغفرة.. ألم يقل النَّبيُّ ﷺ: «**هل تدرون مَنِ المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا يا رسول الله مَنْ لا دِرْهم له ولا متاع، قال: «**إنَّ المفلسَ من أُمَّتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصيامٍ وصلاةٍ وزكاةٍ، ويأتي وقد شتم عِرْضَ هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، فيُقعَد، فيَقْتصُّ هذا من حسناتِه، وهذا من حسناتِه، فإن فَنِيَتْ حسناتُه قبل أن يقضي ما تركَ من الخطايا أُخِذَ مِنْ خطاياهم فَطُرِحَت عليه ثمَّ طُرِحَ في النارِ**»[١].

فالتَّقوى تمنع الإفلاس.. فهذا المفلس جاء بصيامٍ لكنَّه ما جاء بالتَّقوى.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«الليلةُ الأُولَى»(١)

أرأيت الكريم إذا حلَّ به ضيفٌ .. مُحبٌّ.. كريمٌ .. كبيرٌ كيف يضطرب فرحًا لإكرامه بكلِّ مستطاعٍ .. هكذا يفرُّ القلب فرارًا .. يَطْرُدُ في الأودية والشِّعاب يبحثُ بما يُكرم رمضان في اللَّيلة الأولى.. فلا يجد أحسن من العزم على إبقاء قلبه متيقظًا في حراسةِ الذِّكر، وتثبيت لسانه على الذِّكر حتَّى لا يكاد يفتر عنه هذه اللَّيلة إلَّا بغلبةِ نومٍ، وحتَّى لو انشغلت الجوارح هنا وهناك، فالقلب الغائب عن البصر ... مستغرقٌ في التَّأمُّل والتَّفكُّر والنَّظر ..

لا، لن أجد أفضل لهذه اللَّيلة من أن أُوقِّتَ قلبي من لحظة الغروب على قيام ثُلُثها الأخير - بإذن الله .

إنِّي لما قرأت قول ربِّي سبحانه عن هذا الشَّهر، وهو سبحانه يصفه بأنَّه ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ حسبت الأمر كما قدَّره لي ربِّي، فقلت: ما دام شهر رمضان شهرًا كسائر أشهر العام إلَّا أنَّ أيَّامه معدوداتٌ كما وصفه سبحانه، فلأعدنَّ ساعاته عدًّا؛ لأنَّ ساعاته بالنسبة لأيَّامه معدوداتٌ، وعليه فإنَّ فوات ساعةٍ من السَّاعات المعدودات مُؤْذِنٌ بذهاب ليلتها ويومها.. فأصل اليوم ساعاتٌ، وتَتَابعُ هدر السَّاعات يُؤْذِنُ بهدر الأيَّام ... ومَنْ أدرك سَاعةً فعَمَّرها وغَرَس فيها

(١) جعلنا هذا الموضوع في الفصل الأول مع أنه يتبع الليلة الأولى لأجل الاستعداد لليلة الأولى فليقرأ قبلها أو في أولها.

قبل صاحبه لم يدركه صاحبُهُ وإنْ أدرك ما بعدها من ساعاتٍ ... ويفترق فرسَا الرِّهان عند السِّباق بالتفاتةٍ .. أو فوات لحظةٍ .. أو تأخُّر خُطْوةٍ ... فكيف بساعةٍ في سباق الأيَّام المعدودات ؟!

يا راغب السَّبق هذا العام: انظر كم يغفل النَّاس عن الجديَّة في السَّباق في ساعات رمضان الأولى.. وكم يَشْغلون أنفسهم بالإعداد للياليه وأيَّامه القادمة وحقُّه الإعداد قبله .

فرصتك أيُّها المتسابق أن تسبق بمسافات شاسعة أقرانًا نافسوك إلى الله في كلِّ شيء... أن تفترق عنهم بأوَّل السَّاعات ... قِفْ عند أبواب الجنان عند أوَّل تفتُّحها.. كن أوَّل المرابطين هناك .. كن أوَّل المجيبين لداعي الله: **«يا باغي الخير»**.

فإذا جدَّ الصَّحْب بعد ذلك كنت – بإذن الله – قد بلغت المنزل، فقاعدة النَّصر تقول: وعندَ الصَّباحِ يحمَدُ القومُ السُّرَى، ولسانُ حالك يقول: إن تنافسنا بعد ذلك فقد حقَّقت السبق من أوَّل ليلةٍ ..

وأيُّ برمجةٍ لليلة الأولى أعظم من يقظة القلب وانتباهته للحظة الغروب الفاصلة.. وهل شرع ترصد الهلال إلَّا لهذا الأمر العظيم .. ؟ وهل يُبْتدئ ترصُّد الهلال إلَّا من قبل الغروب بلحظاتٍ وبعده مباشرةً؟ وهل كان ترصُّد الهلال فرديًّا أم كان جماعيًّا؟ حتَّى لا يكاد أحد إلَّا أخذه الهمُّ لهذا الأمرِ، وأطلق البصرَ في الآفاق .. وانتظر الخبر من الأبعدين والأقربين، وهو حديث الرِّفاق .

فالقلب هو المنتبه الأول عندهم .. والبصيرة مُتطلِّعةٌ كما البصر ... لهذا الفتح العظيم المنتظَر .

تأمَّل في حديث ترصُّد الهلال أيَّام النَّبيِّ ﷺ حيث يقول أحد المترصِّدين من تلك الجموع .. وهو صغيرٌ قد أخذه الهمُّ الَّذي أخذ المجتمع .

وهو ابن عمر رضي الله عنهما الذي قال: تراءى النَّاس الهلال، فأخبرت رسول الله أنِّي رأيته، فصام، وأمر النَّاس بالصِّيام(١) .

فما كان ترصُّد الهلال فرديًا، وما كانت الأُمَّة متفرجةً تنتظر الخبر، هذا هو مَعْقِدُ السَّبْق إنَّه القلب .. ويا للقلب في اللَّحظات الأولى والسَّاعات الأولى واللَّيلة الأولى، كيف يَشْحَنُ الهِمَّة ويَستجمعُ العزم الفذَّ، ويلتقط أنفاس السَّبق، فيربض كالَّذي يكمن قبل أن ينتفض ثمَّ ينقضَّ.

فأنَّى لمن أطلق للسانه الذِّكر، ولقلبه الفكر منذ السَّاعة الأولى أن يُلحَق؟

وأنَّى لمن ابتدأ صَحْبَه ختمة القرآن من اللَّيلة الأولى أن يُدْرَك؟ وأنَّى لمن أحيا ليله وخصوصًا الثُّلث الأخير لليلة الأولى أن يُنال؟ لقد خطف هؤلاء أشرعة مراكبهم عند أوَّل هبوبِ رحمةِ الله في رمضان، فطارت بمراكبهم بعيدًا بعيدًا، والآخرون ما زالوا مُنْشغلين في وضع الأَشْرعة ولَمَّا يخطفوا بعد .

كأني أسمع حديثَ نفسٍ ذاك العازم الحازم يقول: نعم، فات رمضان ورمضان ورمضان ... ورمضانات عديدة .. مضت محملةً – بإذن الله – بما يسَّر الله سبحانه، ويغفر سبحانه ما دون ذلك، أمَّا رمضان هذا فلن يكون مثلها ولا نسخة منها مهما بلغتْ منزلتها فيما سلف، فإنَّ القلب يبحث عن الخلل الَّذي مضى، وما أكثر الخلل عند البشر! يبحث عن الفجوة والفجوات، يبحث عن نقاط الضَّعف الإيمانيِّ والعمليِّ في شهور الصِّيام تلك .. يبحث عن أسرارٍ بها سُبِقَتُ وتَأَخَّرتُ عن أمثالي .

(١) رواه أبو داود (٢٣٤٢)، وصححه الألباني.

فات رمضان؟!

لا والله، لن يفوت هذا – بإذن الله – ! كلُّ شيءٍ قد أعددتُ .. بكلِّ الأسباب قد أخذتُ ... كلُّ العُدَّة مُتوفِّرةٌ لي .

هنا كانت الإفاقة الحقيقيَّة: أتحسب الأمر بيدك؟ أم تحسب قلبَك رَهْنَ إشارَتِك؟!

إيَّاك أن تذهب بالأسباب بعيدًا .. !

إيَّاك أن تشغل قلبك بالأسباب فتلهو بها عمَّن بيده الأسباب ومسبِّباتها .

أرأيتك إذا دعوت الله تعالى: أتدعوه أن يَهَبَ لك الأسباب أم تدعوه دعاءً مطلقًا وهو سبحانه له الحكم، إنْ شاء وَهَبَك الأسباب الموصلة لغايتك، وإنْ شاء أوصلك وأعطاك غايتك مباشرةً .

أتراك وقد أرهقك التَّفكير بالدِّين تدعوه أن يأتيك المال من فلانٍ وفلانٍ كي تُسدِّد ما عليك، أم تدعوه أن يقضي عنك دَيْنك – سبحانه؟

أرأيت كيف تدعوه بالشِّفاء إنْ كنت مريضًا؟ فَإِنْ شاء شفاك من غير طبيبٍ ولا دواءٍ، وإن شاء دلَّك على الطَّبيب الَّذي يعالجك أو الدَّواء الَّذي تأخذه .

إنَّ من وساوس الشَّيطان أن يُعلِّق القلب بالأسباب .

يا ربِّ: توجَّهت إليك منطرحًا بلا حولٍ ولا قوَّةٍ... يا ربِّ، فأعنِّي على شكرك وذكرك وحسن عبادتك .

يا ربِّ: قد طرقَ الخَلْقُ بابَك يرجون رحمتك، ويخافون عذابك فارِّين من ذنوبهم إليك، وأنا يا ربِّ واحدٌ من هؤلاء الخلق، فارقتُ هواي وقُواي، فلا حول لي ولا طول، ولا قوَّة ... أرجو رحمتك وأخشى عذابك، إنَّ عذابك الجدَّ بالكفَّار مُلْحِق .

يا ربِّ: هذه ساعاتُ رمضان قد ابتدأتْ، يا ربِّ أريد قلبي، وقلبي ليس في يدي إنَّما هو بِيَدِك، فيا ربِّ لا تَقْلِبْه إلَّا إلى ما تحب وترضى، فيا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.

يا ربِّ: أعلم أنَّ السَّبق اليوم سبق القلوب قبل أن يكون سبق الأعمال والجوارح، فيا ربِّ لا تجعل جوارحي في وادٍ وقلبي في وادٍ، أو أن تكون جوارحي تسبق قلبي .

يا لها من أيَّامٍ معدوداتٍ قد انطلقت، فلينطلق القلب من آسار الأسباب، وليفرَّ من رِقِّها والنَّظر إليها ... مع كامل الأخذ بالمستطاع منها .

إي والله، كم من النَّاس مَنْ أخذ بالأسباب على أبلغ وجهٍ ولم يصل! كَمْ من المترفين قد أعدَّ كلَّ ما حوله بكلِّ ما يملك من الأسباب ولم يصل..؟ وكم من فقيرٍ متلفعٍ بمِرْطه الَّذي لا يملك سواه .. ليس له جُيوبٌ فيدَّخر فيه دينارًا ولا درهمًا.. كأنَّه لابسٌ كَفَنه لكنَّه بلونٍ آخر .. قد أخذ زاويةً في الحَرَمِ .. لم يأبه له الخلقُ، ولم يحفل هو بالخلق، قد هيَّج ملائكة السَّماء ببكائه وإشفاقه على نفسه وإلحاحه على ربِّه ... يسمع القرآن كأنَّه يسمعه لأوَّل مرَّةٍ، ولو سمعه ألف مرَّةٍ لَبكى في المرَّة الألفِ أكثر من المرَّة الأولى، تتفتَّق له المعاني عن عجائب .. وتُومِض في كلِّ مرَّةٍ لقلبه كلماتُ الله بما يُذْهله عمَّا حوله، فلا يملك إخفاء دموعٍ تفيض، ولا كبت أزيزٍ يزلزله، ولا إسكات نحيبٍ يكشفه، ولو جئت تطلب منه الإفصاح عن مكنونه الَّذي فاض لم يُحسِن التَّعبير عن كلِّ ذلك بكلماتٍ معدوداتٍ ... ولسانُ حاله يقول لك: هل يملك مَنْ رأى - أو كأنَّه رأى - ما فوق التَّصوُّر أن يصوِّره في كلماتٍ.

نعم والله: لكأنَّ هذا العبد المحتقر في عين البشر لعظيم يقينه وإحسانه دخل النَّار، ثمَّ هرب ... ودخل الجنَّة فهاج فرحًا ثمَّ عاد منها فانتحب ... ووقف على الأعراف فارتعب ... وأُرِيَ ملكوت السَّموات والأرض فأصبح من خلال سماعه القرآن من الموقنين ... وانتقل مع الآيات وعاش مع النَّبيِّين عليهم السلام ... كأنَّه معهم ... يتنقَّل داعيًا بين البُيُوت والخِيام ... والمجالس والإيوان .. فلا يجد من الملأ إلَّا الكره والانتقام والتَّوعُّد، بل الإعداد لأصعب مِيتَةٍ .. لا يجد ذاك النَّبيَّ والقلَّة معه إلَّا الله، ودونك قلبًا لم يجد إلَّا الله ..... فلجأ إليه لجوء الحبيب الموقن.. لجوء المتضرِّع المضطرِّ.

أيُّ شيءٍ يمكن أن يتكلَّم به هذا المسكين وهو الَّذي كأنه رأى الله سبحانه.

وأخيرًا يا هذا: أَفْصِح..!

عن أيِّ شيءٍ تريد أن أُفصح؟ دونك القرآن فاقرأه قراءةً، اقرؤوه يا طلَّاب رمضان! اقرؤوه ، واسمعوه وكأنَّكم ترون ربَّكم... ثمَّ أفصحوا بعد ذلك إن استطعتم!.

تجديد التزامات السابقين للصائمين:

أبى القلب إلَّا أن يحوِّل هذا العزمَ الإيمانيَّ لقدوم هذا الشهر إلى التزام منهجيٍّ في نقاطٍ، فكانت هذه الالتزامات التي التزمتها الصحابة رضي الله عنهم سأذكرها هنا مقتصرًا على ذكر الالتزام ودليله، تاركًا لكل قارئٍ حظَّه منها:

الالتزام الأوَّل: دوام الطَّهارة طوال الشَّهر لتصبح بعد ذلك طوال الدَّهر، فقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ: **«لا يحافظ على الوضوء إلَّا مؤمنٌ»**[1].

---

(١) رواه ابن ماجة (٢٢٧) من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني.

الالتزام الثاني: المحافظة على صلاةٍ بعد الطهارة؛ لحديث بلالٍ، فعن أبي بريدة قال: أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالًا، فقال: «**يا بلالُ، بِمَ سبقتني إلى الجنةِ؟ ما دخلتُ الجنةَ قط إلَّا سمعتُ خشخشتَكَ أمامي، دخلتُ البارحةَ الجنةَ فسمعت خشخشتك أمامي ....**» فقال بلال: يا رسول الله، ما أذنت قط إلَّا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلَّا توضأت عندها ورأيت أن لله عليَّ ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: «**بهما**»[(١)].

الالتزام الثَّالث: دوام الذكر: «لا يزال لسانُك رطبًا بذكرِ اللهِ»[(٢)].

الالتزام الرَّابع: المحافظة على صلاة الجماعة في المسجد، فعن عبدِ الله قال: «من سَرَّه أن يلقى الله غدًا مُسْلِمًا فليحافظْ على هؤلاءِ الصَّلوات حيث ينادى بِهِنَّ، فإنَّ الله شرع لِنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنَّهُنَّ مِن سننِ الهدى، ولو أنَّكم صلَّيتم فِي بيوتِكم كما يصلِّي هذا المتخلِّف فِي بيتِهِ لتركتم سنَّة نبيِكم، ولو تركتم سنَّة نبيِكم لضللتم، وما مِن رجلٍ يتطهَّر فيحسِن الطُّهور ثمَّ يعمِد إلى مسجدٍ من هذه المساجِدِ إلَّا كتب الله له بِكلِّ خطوةٍ يخطوها حسنةً، ويرفعه بِها درجةً، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلَّف عنها إلَّا منافِقٌ معلوم النِّفاقِ، ولقد كان الرَّجل يؤتى بِهِ يهادى بين الرَّجلينِ حتَّى يُقام في الصَّفِّ»[(٣)].

إنَّ الضَّحيَّة الدَّائمة في رمضان عند كثيرٍ من الشَّباب والشَّابَّات هي صلاة: العصر ـ وهي الصَّلاة الوسطى على الأرجح ـ وصلاة الفجر ـ وهي الصَّلاة المشهودة ـ سواء كان ذلك بذهابهما في جماعة، أو حتَّى بخروج وقتهما.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٩)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٦٥٤).

فهذا مُوظَّفٌ عائدٌ من وظيفته بعد الظُّهر ينام حتَّى تذهب صلاة العصر جماعةً، وأحيانًا ينام حتَّى الإفطار أو قبيله بقليلٍ!

وذاك يسهر طوال اللَّيل حتَّى إذا اقترب الفجر نام حتَّى لا يستيقظ إلَّا قُبيل ذهابه إلى المدرسة أو الوظيفة .. وكلا الاثنين قد طلعت عليهما الشَّمس، ورغم فوات هؤلاء الأجر العظيم وربَّما تحقَّق الإثم العظيم عليهما إلَّا أنهما لم يقدما سبب أعظم ما في الجنة؛ ألا إنه رؤية الله سبحانه! فعن جرير بن عبد الله البجليِّ ﷺ قال: كُنَّا جُلوسًا عند النَّبيِّ ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر ليلة أربع عشرة، فقال: **«إنكم سترون ربَّكم كمَا ترون هذا لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألَّا تغلبوا عن صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وصلاةٍ قبلَ غروبِهَا فافعلوا»**[1].

الالتزام الخامس: المحافظة على تكبيرة الإحرام .. فعن أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ قال: **«مَنْ صَلَّى فِي جَمَاعةٍ أربعين يومًا لا تفوته التكبيرة الأولى كتب الله له براءةً من النار، وبراءةً من النفاق»**[2].

الالتزام السادس: تقديم ثمن الدعوة من أبواب الجنة الثمانية، يجمعها ولو في يومٍ واحدٍ من أيَّام رمضان - بإذن الله - فَعَنْ أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أصبح منكم اليوم صائمًا؟»** قال أبو بكرٍ ﷺ: أنا، فقال: **«مَنْ أطعم منكم اليوم مسكينًا؟»** قال أبو بكر: أنا، قال: **«مَنْ عاد منكم اليوم مريضًا؟»** فقال أبو بكرٍ: أنا، فقال: **«مَنْ تبع منكم اليوم جنازةً؟»** قال أبو بكرٍ: أنا، فقال رسول الله

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٢٢١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤١)، وحسنه الألباني.

ﷺ: «**ما اجتمعت هذه الخصالُ قطُّ في رجلٍ إلَّا دخلَ الجنةَ**»(١).

الالتزام السَّابع: الحج مع رسول الله ﷺ أو ما يعادلها، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا رجع النَّبيُّ ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية: «**ما منعك من الحج؟**» قالت: أبو فلان - تعني زوجها - كان له ناضحان، حج على أحدهما، والآخر يسقي أرضًا لنا، قال: «**فإنَّ عمرةً في رمضان تقضي حجةً معي**»(٢).

الالتزام الثَّامن: أن يقطع واردات السوء إلى قلبه عن طريق عينه وأذنه وكلامه: عنِ ابنِ بُريدة عن أبيهِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «**يَا عليُّ، لا تُتبِعْ النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّ لك الأُولى وليست لك الآخِرةُ**»(٣).

الالتزام التَّاسع: القيام بالحق في كل مكان:

عن عُبادةَ بنِ الصَّامِت رضي الله عنه قال: بايعْنا رسُولَ اللهِ ﷺ على السَّمع والطَّاعةِ فِي المنشطِ والمكرهِ، وألَّا نُنازع الأمر أهلهُ، وأن نقُوم - أو نقُول - بالحقِّ حيثُما كُنَّا، لا نخافُ في الله لومةَ لائمٍ(٤).

الالتزام العاشر: ترك سؤال النَّاس والطَّلب منهم أي طلبٍ:

عن أبي عبد الرحمن عوف بن مالكٍ الأشجعي رضي الله عنه قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنَّا حديثي عهدٍ ببيعةٍ، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثمَّ قال: «**ألا تبايعون؟**» فبسطنا أيدينا وقلنا:

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢١٣١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٧٣).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦).

(٣) رواه أبو داود (٢١٤٩)، وصححه الألباني.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٨٤٠).

قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «**أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا**» وأسرَّ كلمةً خفيةً: «**ولا تسألوا الناس شيئًا**»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سَوْط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إيَّاه[1].

الالتزام الحادي عشر: الصلاة مع الإمام العشاء والتراويح حتَّى ينصرف الإمام في كل ليلة:

عن أبِي ذرٍّ ﷺ قال: صمنا مع رسولِ الله ﷺ، فلم يصلِّ بِنا حتَّى بقِي سبعٌ مِن الشَّهرِ، فقام بِنا حتَّى ذهب ثلث اللَّيلِ، ثمَّ لم يقم بِنا في السَّادِسةِ، وقام بِنا في الخامِسةِ حتَّى ذهب شطر اللَّيل، فقلنا له: يا رسول اللهِ، لو نفَّلتنا بقِيَّة ليلتِنا هذِهِ، فقال: «**إِنَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الإِمامِ حَتَّى يَنْصرِف كتِب له قِيام ليلةٍ**»، ثمَّ لم يصلِّ بنا حتَّى بقِي ثلاثٌ مِن الشَّهرِ، وصلَّى بِنا في الثَّالِثةِ، ودعا أهله ونِساءه، فقام بِنا حتَّى تخوَّفنا الفلاح، قلت له: وما الفلاح؟ قال: السُّحور[2].

قال أبو عِيسى: هذا حدِيثٌ حسنٌ صحِيحٌ، واختلف أهل العِلمِ فِي قِيامِ رمضان، فرأى بعضهم أن يصلِّي إِحدى وأربعِين ركعةً مع الوِترِ، وهو قول أهلِ المدِينةِ، والعمل على هذا عِندهم بِالمدِينةِ، وأكثر أهلِ العِلمِ على ما روِي عن عمر وعلِيٍّ وغيرِهِما مِن أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ عِشرِين ركعةً، وهو قول الثَّورِيِّ وابنِ المباركِ والشَّافِعِيِّ، وقال الشَّافِعِيُّ: وَهَكذا أدركت بِبلدِنا بِمكَّة يصلُّون عِشرِين ركعةً، وقال أحمد: روِي فِي هذا ألوانٌ، ولم يقض فِيهِ بِشيءٍ، وقال إِسحاق: بل نختار إِحدى وأربعِين ركعةً على ما روِي عن أبيِّ بنِ كعبٍ، واختار ابن المبارِك

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٣).

(٢) رواه الترمذي(٨٠٦)، وصححه الألباني.

وأحمد وإسحاق الصَّلاة مع الإمامِ في شهرِ رمضان، واختار الشَّافِعِيُّ أن يصلِّي الرَّجل وحده إذا كان قارِئًا، وفي الباب عن عائِشة والنُّعمانِ بن بشير وابنِ عبَّاسٍ.

الالتزام الثاني عشر: قيام الثلث الأخير كلَّ ليلةٍ كُلّه أو أكثرُهُ أو بعضه:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخرِ، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[1].

الالتزام الثالث عشر: قيام ما بين المغرب والعشاء صلاةً ولو مرةً واحدةً .... وهذه يمكن العمل بها بسهولةٍ، وخصوصًا في العمرة وليالي الاعتكاف .

عن أنس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة:١٦] نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة[2]، وفي رواية أبي داود قال في سبب النزول: كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء يصلون، وكان الحسن يقول: قيام الليل[3].

وعن حذيفة ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فصليت معه المغرب، فصلى حتَّى صلى العشاء[4].

الالتزام الرابع عشر: التبكير للجمعة: عن أوسِ بنِ أوسٍ الثَّقفِيِّ ﷺ قال: سمِعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**مَنْ غسَّل واغتسل يومَ الجُمُعةِ، وبكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، فدنا مِن الإمامِ واستمع ولم يلغُ كان لهُ بِكُلِّ خُطوةٍ أجرُ سنةٍ**

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).
(٢) رواه الترمذي (٣١٩٦)، وصححه الألباني.
(٣) رواه أبو داود (١٣٢١)، وصححه الألباني.
(٤) رواه الترمذي (٣٧٨١) وصححه الألباني.

صيامِها وقِيامِها»[1].

الالتزام الخامس عشر: عتق رقبة واحدة على الأقل والسعي في هداية كافر أو كافرة.

عن أبي هُريرة ﷺ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: **«مَنْ أعتق رقبةً مُسلِمةً أعتق اللهُ بِكُلِّ عُضوٍ مِنهُ عُضوًا مِن النَّارِ حتَّى فرجهُ بِفرجِهِ»**[2].

والأفضل منها أن يهدي الله على يديك رجلا إلى الإسلام لحديث: **«لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمُرُ النَّعَمِ»**[3].

وطرق هذه الهداية ميسورةٌ اليوم - والحمد لله - مع التَّأكيد على مراعاة المهتدي الجديد حتَّى يتعلَّم ويتحوَّل إلى داعيةٍ - بإذن الله.

الالتزام السادس عشر: الالتزام بسنن الطعام: وعلى الأخص منها سُنَّة التَّثلِيث.

عن المقدام بن معدي كرب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مَا مَلأَ ابنُ آدمَ شرًّا من بطنٍ، حسبُ ابنِ آدمَ أُكُلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإن كان لابد فثلثٌ لطعامِهِ، وثلثٌ لشرابِهِ، وثلثٌ لنفسِهِ»**[4].

الالتزام السابع عشر: اقتطاع وقتٍ مخصوصٍ يوميٍّ للأسرة خاصةً للتربية الإيمانيَّة والأخلاقيَّة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، وتقول عائشة ﷺ: إن النبي ﷺ كان إذا صلَّى ركعتي الفجر: فإنْ كنتُ مستيقظةً حدَّثني، وإلَّا

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ٩)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) رواه البخاري (٦٧١٥).

(٣) **متفق عليه:** رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٤) رواه ابن حبان (٦٧٤)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرح مسلم.

اضطجع حتَّى يؤذن بالصلاة[1].

الالتزام الثامن عشر: أن يكون خير الناس لأهله.. «**خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ، وأنا خيرُكم لأهلي**»[2]، وهذه الصِّفة لا يمكن أن تتحقَّق ما لم يكن لها برمجةٌ عمليَّةٌ وإخضاع للنفس على التزام ذلك، عن هِشامِ بنِ عُروة، عن أبِيهِ، عن عائِشة رضي الله عنها **أنَّها سُئِلت ما كان النَّبِيُّ ﷺ يعملُ فِي بيتِهِ؟ قالت: كان يخِيطُ ثوبهُ، ويخصِفُ نعلهُ، قالت: وكان يعملُ ما يعملُ الرِّجالُ فِي بُيُوتِهِم**[3].

وكذلك تنافس المرأة زوجها في الخيريَّة، بحسن الخلق على وجه الخصوص ليصفو مورد الحسنات الَّتي ينفقها بعض الأزواج والزوجات في رمضان يومًا بيوم وليلةً بليلةٍ بسوء الخلق، وعظيم الضَّجَر، وكثرة الكفران والنكران، والتزام المراء.. ! فقد آن لباب إتلاف حسنات يوم الصِّيام أن يغلق إلى الأبد.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٦١)، ومسلم (٧٤٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٨٩٥)، وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١٢١)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

اسْتِقْبَالُ رَمَضَانَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ[1]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمنَ ليدركُ بحسنِ خلقِهِ درجةَ الصَّائمِ القائمِ**»[2].

ثمةَ حبلٌ سِرِّيٌّ ما بين رمضان وبين الأخلاق ليس له مثلٌ ....

فإن علاقة الأخلاق برمضان أبعد وأعمق من أن تكون موعظة سطحية وعلاقةً نظريَّةً ... إنَّ تحويل الأخلاق السَّيئة وصياغتها في رمضان أمرٌ عجيبٌ، إنَّه كتحوُّل السماد قوة في الثمر بأعلى الشجر، وكتحول المواد في الصِّناعات التحويليَّة للأوراق المستخدمة والسيارات التَّالفة والمعادن الخردة ونحوها! حيث تُعاد ثانية على شكل أوراقٍ جديدةٍ وسياراتٍ حديثةٍ، وما إلى ذلك .

يدخل المسلم في رمضان كما يدخل المعدن والمادة الخام إلى قالب المصنع، ويستقرُّ في هذا المصنع شهرًا كاملًا ... ليخرج أنقى وأرقى وأبقى. ومن عرف السرَّ الرابط ما بين حسن الخلق ورمضان لم يستغرب التحول للخلق في رمضان .

الرابط الأول: أن رمضان يُلْهم النفس - بأمر الله - تقواها، فيكون هذا الخلق الجديد إن ابتدأ مجاهدةً ظاهريَّةً، فإنَّه ينتهي إلى ظاهرةٍ أخلاقيَّةٍ ... بلغ عمق

---

(١) لأهمية هذا الموضوع أفردناه في استقبال رمضان، فمن اعتاده من ابتداء الشهر حتى منتهاه.. لم يتركه طوال عمره بإذن الله.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٧٨)، وصححه الألباني.

التَّغيير فيها تغيير القلب والنَّفس، فأصبح ما تراه من ظاهر إنما هو من تقوى القلوب الَّذي أنشأه رمضان إنشاءً، فكأنَّ رمضان والتَّقوى والخلق الحسن شيءٌ واحدٌ، أو أضلاع لمثلث واحد .. أو كأن رمضان الأرض الخصبة، والتقوى شجرتها الَّتي نبتت فيها، والخلق الحسن ثمرة تلك الشجرة .

عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتبع السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحها، وخالقِ النَّاس بخلقٍ حسنٍ**»(١) .

عن أبي الدرداء قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمنِ يوم القيامة من خلق حسنٍ، وإنَّ اللهَ ليبغض الفاحشَ البذيءَ**»(٢) .

والإسلام - كما مر معنا - لا يترك أمر حسن الخلق في رمضان عائدًا إلى اجتهادَ الشخص وتقواه، بل يُحدِّد تَصرُّف الصَّائم في رمضان .

عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الصِّيامُ جُنَّةٌ، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقل: إِنِّي صائِمٌ مرَّتيْنِ، والَّذِي نفسِي بِيدِهِ، لخُلُوف فمِ الصَّائِمِ أطيب عِندَ اللهِ تعالى مِنْ رِيحِ المِسْكِ، يترك طعامَه وشرابَه وشهوتَه مِن أجلي، الصِّيام لي وأنا أجزِي بِهِ، والحسنة بِعشرِ أمثالِها**»(٣) .

لقد بلغت الحيطة لأمر الصَّوم وحساسيته أنَّ يرى أصحاب النَّبيِّ ﷺ كأبي عبيدة بن الجراح بأن الغيبة تضرُّ الصِّيام، وقد حُكي عن عائشة ﵂ ، وبه قال الأوزاعيُّ: إنَّ الغيبة تفطر الصائم، وتُوجب عليه قضاء ذلك اليوم، وأفرط ابن

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٧٨)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧)، قال الألباني: حسن.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

حزم فقال: يبطله كلُّ معصيةٍ من متعمد لها، ذاكرٍ لصومه، سواء كانت فعلًا أو قولًا، لعموم قوله: «**فلا يرفث ولا يجهل**»، ولقوله ﷺ في الحديث: «**مَنْ لَمْ يدعْ قولَ الزُّورِ والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه**»، والجمهور وإن حملوا النهي على التحريم إلَّا أنَّهم خصُّوا الفطر بالأكل والشُّرب والجماع[1].

بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ نفسه نهى الصَّائم خاصةً عن الكلام الفاحش، وحتَّى الكلام في الجماع، والجماع له حلالٌ في الأصل، ولذا فسَّر العلماء قوله: «**لا يرفث**»، والرفث هو: الكلام الفاحش، وهو يطلق على هذا وعلى الجماع، وعلى مقدماته وعلى ذكره مع النساء أو مطلقًا، ويحتمل أن يكون لما هو أعم منها، قوله: «ولا يجهل»، أي: لا يفعل شيئًا من أفعال أهل الجهل كالصِّياح والسفه ونحو ذلك، ولسعيد بن منصور رحمه الله من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه: «فلا يرفث ولا يجادل»، قال القرطبي: لا يفهم من هذا أن غير الصَّوم يباح فيه ما ذكر، وإنَّما المراد أنَّ المنع من ذلك يتأكَّد بالصَّوم، بل إنَّ أمر الخُلُق مع مَنْ يعتدي إلى مرحلةٍ أبعد.. أبعد من «كُفُّوا أيديكم» إلى «كُفُّوا ألسنتكم»، وإن اعتدى عليكم، فقوله في الحديث: «**وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمه**» جاء في رواياتٍ عديدةٍ توضِّح عمق بناء الإسلام هذا الخلق، كما تبين سعة الممنوعات من الرَّدِّ وقاية من سوء الخلق، وضبطًا لحسن الخلق.. يقول ابن حجر: «**وإنِ امرؤ**» بتخفيف النون «قاتله أو شاتمه»، وفي رواية صالح: «**فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتله**» ولأبي قرة من طريق سهيل عن أبيه: «**وإن شتمه إنسانٌ فلا يكلِّمه**» ونحوه في رواية هشام عن أبي هريرة عند أحمد، ولسعيد بن منصورٍ من طريق سهيلٍ: «**فإن سابَّه أحدٌ أَوْ مَاراه**» أي: جادله، ولابن خزيمة من طريق عجلان مولى المشمعل

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١٠٤).

عن أبي هريرة ﷺ: «**فإنْ سابَّك أحدٌ فقل: إِنِّي صائمٌ، وإن كنت قائمًا فاجلسْ**»، ولأحمد والترمذي من طريق ابن المسيب، عن أبي هريرة ﷺ: «**فإنْ جهل على أحدكم جاهلٌ وهو صائمٌ**» وللنسائي من حديث عائشة ﷺ: «**وإن امرؤٌ جهل عليه فلا يشتمه ولا يسبه**»، واتفقت الروايات كلها على أنه يقول: «**إِنِّي صائمٌ**» فمنهم مَنْ ذكرها مرَّتين، ومنهم مَنِ اقتصر على واحدةٍ، وقد استشكل ظاهره بأنَّ المفاعلة تقتضي وقوع الفعل من الجانبين، والصَّائم لا تصدر منه الأفعال التي رتَّب عليها الجواب، خصوصًا المقاتلة، والجواب عن ذلك أنَّ المراد بالمفاعلة التهيؤ لها، أي: إن تهيَّأ أحدٌ لمقاتلته أو مشاتمته فليقل: إِنِّي صائمٌ، فإنَّه إذا قال ذلك أمكن أن يكفَّ عنه، فإن أصرَّ دفعه بالأخفِّ فالأخفِّ كالصَّائل، هذا فيمن يروم مقاتلته حقيقةً، فإن كان المراد بقوله: «**قاتله**»: شاتمه؛ لأنَّ القتل يطلق على اللَّعنِ، واللَّعنُ من جملة السَّبِّ، ويؤيِّده ما ذكرت من الألفاظ المختلفة، فإنَّ حاصلها يرجع إلى الشتم، فالمراد من الحديث أنَّه لا يعامله بمثل عمله، بل يقتصر على قوله: «**إِنِّي صائمٌ**»[1].

فإذا تأمَّل المتأمِّل سِرَّ ذكرِ هذه الصورة تحديدًا فلا يرفث ولا يجهل، والتَّأكيد عليها «**وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقل: إِنِّي صَائمٌ**» مرَّتين، سيجد أنَّ النَّبيَّ ﷺ هذَّب وشذَّب من خلال الصِّيام أخطر طبيعتين؛ الأولى: الطَّبيعة الشَّهوانيَّة، والثَّانية: الطَّبيعة الغضبيَّة.

أمَّا الطبيعة الأولى: وهي الغريزة الشهوانيَّة: فإن ثمَّة أمرًا لا يتفطَّن له أغلب الناس، ذلك أنَّ علاج الصوم للشهوة ليس من باب أن الصوم يُضْعف الشَّهْوة أو يقتلها، بل الصوم يثيرها ويزيدها؛ لأن الجوع يهيِّجها في بادئ الأمر،

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١٠٥).

وهذا على خلاف ما يظنه البعض من أن الصوم يطفئ الشهوة كما يطفئ الماءُ النارَ!.

إذًا، ماذا يصنع هؤلاء الشباب الَّذين أوصاهم النبيُّ ﷺ بالصَّوم إذا حلَّ اللَّيلُ؟! ثمَّ ماذا يصنع المسلمون بعد رمضان! إنَّ علاج الصَّوم للشَّهوة أبعد وأعمق وأبلغ تأثيرًا من أن يكون مسحةً في وقت الإمساك لا تلبث أن تزول، وكأنَّ المطلوب من الشَّبابِ أن يبقى صائمًا طوال الدَّهر.... طوال اللَّيل والنهار!.

إنَّ الحقيقة هي أنَّ الصوم يُقوِّي الشهوة خصوصًا عند بداية الجوع وبداية الأيَّام؛ ولذا كانت أحسن وقايةٍ هو أن يدخل الإسلام الصائم هذا الجو من التَّقوى حين تكون شهوته الداخليَّة أقوى من الأوضاع العادية .. وهناك يأمره بالتحكُّم فيها ويأمره بالتَّقوى، فإذا ما تحكَّم فيها وهي أقوى ما تكون فقد أمسك بزمام الشَّهوة، أرأيت كيف يعطي الأطباء طُعم الوقاية من مرض الكوليرا - مثلًا - في قوته .. غير مريض بأي مرض حتَّى يتمكن جسمه القوي من السيطرة على جرثومة المرض التي أعطيت له، أما لو كان ذاك الإنسان ضعيفًا وأعطي تلك الجرثومة فربما أصيب بالمرض نفسه، فإن قدر على التحكم فيها في وقتِ تهيُّجها فهو أقدرُ على التحكُّم بها في حالات الشَّبع، وهذا على خلاف ما يظنُّه البعض من أنَّ الصوم يطفئ الشَّهوة، وماذا يصنع هؤلاء الشَّباب الَّذين أوصاهم النبيُّ ﷺ بالصَّوم إذا حلَّ اللَّيلُ، لو كان الصَّوم يضعف الشَّهوة؟! ثمَّ ماذا يصنع المسلمون بعد رمضان؟

ولذا قال ابن حجر: (قوله: «**فعليه بالصوم؛ فإنَّه له وِجاء**» بكسر الواو وبجيمٍ ومدٍّ، وهو رضُّ الخصيتين، وقيل: رضُّ عروقهما، ومَنْ يفعل به ذلك تنقطع

شهوته، ومقتضاه أن الصوم قامع لشهوة النكاح، واستشكل بأنَّ الصوم يزيد في تهييج الحرارة، وذلك ممَّا يثير الشَّهوة، لكنَّ ذلك إنَّما يقع في مبدأ الأمر، فإذا تمادى عليه و اعتاده سكن ذلك، والله أعلم)[١] .

و قد أُجْرِيَتْ بحوثٌ عدَّة على أثر الصِّيام على الإخصاب عند الرِّجال[٢]:

(أجرى الدكتور/ سمير عباس، والدكتور/ عبدالله باسلامة، بكلية الطب بجامعة الملك عبد العزيز دراسةً على واحدٍ وعشرين شخصًا، ثمانية منهم أصحاء، وعشرة يعانون من نقص المنويات (Oligospernia)، وثلاثة ليست لديهم منويات (Azospermia) وأخذت عينات من الدم والمني في خلال شهر شعبان ورمضان منهم وشوال لتحليل المني، والهرمونات التالية:

- التيستوستيرون (Testosterone) .
- البرولاكتين (Prolactin) .
- الهرمون الملتون (H.L).
- الهرمون المنبه للجريب (FSH) .

وذلك لمعرفةِ تأثيرِ صيامِ شهر رمضان على خصوبةِ الرِّجال، وقد أظهرت نتائج البحث أنَّ هناك تغيُّرات حيويَّة بين الأشخاص الطبيعيِّين حيث يتحسَّن أداء هرمون الذُّكورة (Testosterone)، لكن لم يحصل في مستواه أيُّ ارتفاعٍ حيويٍّ خلال الأشهر الثَّلاثة من البحث، كما أنَّ حجم المني والعدد الكليّ

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١١٩).
(٢) هذه الفقرة بكاملها من كتاب: نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان للشيخ الدكتور سيد بن حسين العفاني.

للمنويـات ازداد ازديـادًا ملحوظًـا أثنـاء شـهر الصِّيام، ولاحـظ الباحثـان مـن إحصائيَّات المستشفى الجامعي أنَّ عدد حالات الحمل تصل إلى معدلٍ كبيرٍ في شهر شوال، كما وجد أن هناك تحسُّنًا في نسبة المنويَّات الحيَّة، وانخفاضًا في نسبة المنويَّات الميتة أثناء شهر الصِّيام.

كما أنَّ الهرمون المنبِّه للجريب (FSH)، يزداد ازديادًا ملحوظًا خلال شهر رمضان، مقارنةً بمستواه قبل وبعد الصِّيام في الأشخاص الطبيعيِّين، ويقلُّ عن شهر شوَّالٍ في الأشخاص الَّذين يُعانون من نقص المنويَّات، أو انعدامها، وهذا الهرمون له علاقةٌ بتصنيع المركبات الإستريويدية في نسيج الخصية، كما يمكن أن يُعْزى التَّغيُّر في مستوى التيستوستيرون إلى التَّغيُّر في مستوى هذا الهرمون، كما أن الهرمون الملتون (LH) ازداد زيادة ملحوظة أثناء الصيام، ونقص بعده في الأشخاص الطبيعيين، كما أنه لم تسجل له أيُّ تغيُّراتٍ هامَّةٍ عند الأشخاص المرضى بنقص المنويَّات وحدث نقصٌ هامٌّ عند المرض بانعدام المنويَّات، وهذا الهرمون له علاقة بتكون المنويَّات الحيَّة في الخصية، كما سُجِّلت زيادةٌ في البرولاكتين أثناء وبعد رمضان عند الأشخاص الطبيعيِّين، ونقصٌ بعد الصيام عند المرضى بقلَّة المنويَّات، وارتفاعٌ عالٍ عند المرضى بانعدام المنويَّات، بالمقارنة مع المجموعات الأخرى، وهذا الهرمون له تأثيرٌ مثبِّطٌ على تكون الإندروجين الناتج من الخصية.

وخلص الباحثان إلى أن للصِّيام أثرًا مفيدًا على تكوُّن المنويَّات، إمَّا عن طريق محور التَّأثير الهرموني، أو عن طريق التَّأثير المباشر على الخصيتين).

فكون الصَّوم وِجاءً أبعد من أن يكون وقايةً في نهار رمضان أو وقت رمضان..

ثم إن من تُرَضُّ خِصْيتاه أو عروقهما كما هو غاية نُصْح النبيِّ ﷺ للشَّباب بقوله: «فإنَّه له وجاءٌ»، أبعد من أن يكون الشباب قد عولج علاجا وقتيًا، إنَّهُ علاج جذريٌّ لموضوع الشَّهوة؛ ولذا قال ابن حجر: (ومن يفعل به ذلك تنقطع شهوته)، لكن من المستحيل أن يفهم أحد أن مقصود الإسلام هو قطع الشهوة من جذورها، وإنما أصبح الصائم من التحكم بالشهوة حتَّى لكأنه قطع فعل الحرام واتباع شهوته من جذوره كما قطع المرضوض شهوته كليَّةً.

إن هيجان الشهوة مسألةٌ واقعيَّةٌ ومشكلةٌ فعليَّةٌ تُواجه الصَّائم في نهاره... تهجم عليه بصورٍ مختلفةٍ، ومن جهاتٍ مختلفةٍ، وخصوصًا الشَّباب ذو الشَّبَق، أو الشَّباب المتزوِّج حديثًا.. إنَّ الشَّهوة تأتي الصَّائم فجأة كالطُّوفان الَّذي يظنُّ أنَّه مجروفٌ ذاهبٌ، فيجاهد شهوته وتكاد تغلبه.. ويتصبَّر قليلًا ويضعف كثيرًا، ولا يزال في حاله العصيب هذه لا يمنعه من شهوته الحلال إلَّا تقوى الله للبوس الصيام وأجواء رمضان.. ومع مرور الأيام تبدأ الأمور عنده تتغير، وتبدأ الشهوة تستقر، لكن ليس هذا الاستقرار من ضعف الشهوة أو غورها في الأعماق، وإنما لقوة التحكم بها؛ ولذا ما إن يأتي الليل حتَّى تعود تتفجر عنده، حتَّى ثبت عن بعض أتقياء الصحابة أنه كان يفطر على الجماع كابن عمر رضي الله عنهما[1]، بينما يعود الصائم في اليوم الثاني إلى ما كان عليه من ممارسة المجاهدة، وفي الحقيقة ممارسة التحكم والانتصار، ودليل هذا أنك تجد وارد الشهوة القوي يضعف جدًّا مع مرور أيام رمضان حتَّى لكأنها غير موجودة في الوقت المنهي عن الجماع فيه، وما إن يرفع القيد الشَّرعيُّ حتَّى تعود الشَّهوة كما كانت قبل القيد الشَّرعيِّ، وربَّما بزيادةٍ.

---

(١) فقد روى الطبراني في المعجم الكبير (١٣٠٨٠) عن محمد بن سيرين أنه قال: ربما أفطر ابن عمر على الجماع، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٥٦): إسناده حسن.

فهل مثل الصِّيام من علاج حقيقي لهيجان الشَّهوة الحرام..؟ وهل في الأمم والمِلَلِ من مصنعٍ لإعادة صياغة الشَّهوة والتحكُّم بها مثل شهر رمضان؟

ويكفي دليلًا واقعيًّا على ذلك هو أن مجتمعًا بأكمله كمجتمع الصحابة ﷺ، مجتمع لم يتعود من قبل على الصِّيام.. يفرض عليهم صيام رمضان وهم الرِّجال الأشداء مُعدِّدو الزَّوجات، ثمَّ لا تجد إلَّا حالةً واحدةً أو حالتين فقط تشهد اختراقًا في نهار رمضان... إنَّهُ لَنجاحٌ فريدٌ.

فعن أبي هُريرة ﷺ قال: بينما نحنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءهُ رجُلٌ، فَقال: يَا رسُول الله، هلكتُ، قال: «**مَا لَكَ؟**» قال: وقعت على امرأتِي وأنا صائِمٌ، فقال رسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ تَجِدُ رقبةً تُعتِقُها؟**» قال: لا، قال: «**فهل تستطِيعُ أَنْ تصُوم شهرينِ مُتتابِعينِ؟**» قال: لا، فقال: «**فهل تجِدُ إِطْعام سِتِّين مِسْكِينًا؟**» قال: لا، قال: فمكث النَّبِيُّ ﷺ، فبينا نحنُ على ذلِك أُتِي النَّبِيُّ ﷺ بِعرقٍ فيها تمرٌ (والعرقُ: المِكتلُ)، قال: «**أين السَّائِلُ؟**» فقال: أنا، قال: «**خُذْهَا فتصدَّق بِهِ**» فقال الرَّجُلُ: أعلى أفقر مِنِّي يا رسُول الله، فو الله، ما بين لابتيها - يُرِيدُ الحرَّتينِ - أهلُ بيتٍ أفقرُ مِنْ أهلِ بيتِي، فضحِك النَّبِيُّ ﷺ حتَّى بدت أنيابُهُ، ثُمَّ قال: «**أطعِمْهُ أهلكَ**»[1].

إن الحزن على السُّقوط في الشَّهوة مع الزوجة أثناء الصِّيام بقدر التَّقوى المستكنَّة في قلب صاحبها في رمضان؛ ولذا فقد بلغ الحزن والتَّأثُّر لهذا الصَّحابيِّ مبلغًا عظيمًا، وقد جمع ابن حجر بطريقته الاستقرائية الفريدة الروايات في الدلالة على ذلك، فقال: (عن الزُّهريِّ: جاء رجلٌ وهو ينتف شعره

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١).

ويدقُّ صدره، ويقول: «**هلك الأبعد**»، ولمحمد بن أبي حفصة: «**يلطم وجهه**». ولحجاج بن أرطاة: «**يدعو ويله**».

وفي مرسل ابن المسيب عند الدارقطني: «**ويحثي على رأسه التُّراب**»، واستدلَّ بهذا على جواز هذا الفعل والقول مِمَّن وقعت له معصيةٌ، ويفرق بذلك بين مصيبة الدِّين والدُّنيا، فيجوز في مصيبة الدِّين لما يشعر به الحال من شدَّة النَّدم وصحَّة الإقلاع، ويحتمل أن تكون هذه الواقعة قبل النَّهي عن لطم الخدود وحلق الشَّعر عند المصيبة).

قوله: «**هلكت**» في حديث عائشة كما تقدَّم: «**احترقت**»، وفي رواية ابن أبي حفصة: «**ما أراني إلَّا قد هلكت**»، واستدلَّ به على أنَّه كان عامدًا؛ لأنَّ الهلاك والاحتراق مجازٌ عن العصيان المؤدِّي إلى ذلك، فكأنَّه جعل المتوقَّع كالواقع، وبالغ فعبَّر عنه بلفظ الماضي.

وأورده مسلمٌ وأبو داود قال: أصبتُ أهلي قال: «**تصدَّق**» قال: والله ما لي شيءٌ، قال: «**اجلس**» فجلس، فأقبل رجلٌ يسوق حمارًا عليه طعام، فقال: أين المحترق آنفًا؟ فقام الرجل، فقال: تصدَّق بهذا، فقال: أعلى غيرنا؟! فو الله إنَّا لجياعٌ، قال: كُلُوه، وقد استدلَّ به لمالكٍ حيث جزم في كفَّارة الجماع في رمضان بالإطعام دون غيره من الصِّيام والعتق، ولا حجة فيه؛ لأنَّ القصَّة واحدةٌ، وقد حفظها أبو هريرة وقصَّها على وجهها، وأوردتها عائشة مختصرةً، أشار إلى هذا الجواب الطحاويُّ، والظَّاهر أنَّ الاختصار من بعض الرُّواة، فقد رواه عبد الرحمن بن الحارث عن محمد بن جعفر بن الزبير بهذا الإسناد مفسرًا، ولفظه: كان النبيُّ ﷺ جالسًا في ظلِّ فارعٍ - يعني بالفاء والمهملة - فجاءه رجلٌ من بني

بياضة، فقال: احترقت، وقعت بامرأتي في رمضان قال: «**أعتق رقبة**» قال: لا أجدها، قال: «**أَطْعِم سِتِّين مسكينًا**» قال: ليس عندي، فذكر الحديث. أخرجه أبو داود ولم يسق لفظه)[1].

ولعلَّ قول الصاحبي كما في رواية ابن أبي شيبة حين قال له النبيُّ ﷺ: «**فصم شهرين متتابعين**»، قال: وهل أصبتُ ما أصبتُ إلَّا من الصيام؟ فهو يحتمل أن الصِّيام هيجه، كما يحتمل اعتذاره بعدم القدرة على مجانبة الشَّهوة عند الصِّيام[2].

إن الصِّيام يسلب سلطان الشهوة، ويولي بدله سلطان التقوى، فما أعظمه من تشريع!!

الطَّبيعة الثَّانية الغضبيَّة: كثيرون أولئك الذين يمرون على أمر النبيِّ ﷺ عند مواجهة الإيذاء والعدوان لقوله: «**فإذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم فلا يرفث ولا يفسق، فإنْ سابَّه أحدٌ أو شاتمه فليقل إنِّي صائمٌ إنِّي صائمٌ**» ويفهمون أنَّ المطلوب هو الصَّبر وكفى! والحقيقة هي أنَّنا لا يمكن أن نفهم أبعاد هذا الأمر بالصَّبر خاصَّةً حتَّى نضع الحديث في جوه وإطاره، نفهم الوحدة المنهجيَّة التربويَّة الهادفة.. وأنَّها جاءت بنفس منهجيَّة علاج الشَّهوة حيث يجعل الإسلام الشَّهوة في أقوى مستوياتها بالجوع، ثم يأمر بعلاجها بالتَّقوى.

وهنا الأمر كذلك.. فإن الجائع العطشان أقرب إلى الاستثارة والغضب وشدة ردة الفعل.. وهكذا هو الصائم.... وفي هذا الظرف لا يأمره النبي ﷺ بألا

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١٦٢).

(٢) **فائدة**: قال ابن حجر: (وقد اعتنى به بعض المتأخرين ممكن أدركه شيوخنا فتكلم عليه في مجلدين جمع فيهما ألف فائدة وفائدة، ومحصله -إن شاء الله تعالى- فيما لخصته مع زيادات كثيرة عليه، فلله الحمد على ما أنعم). انظر: فتح الباري (٤/ ١٧٣).

يتعدى فحسب، بل ولا يأذن له برد العدوان، إنما يأمره برده بالحسنى والحكمة، هكذا تستمر التربية شهرًا متواصلًا بأكمله.

إنَّ سَلْبَ الصِّيام الغريزةَ الغضبيَّةَ سُلطانها من المسلم وتسليمها إلى سلطان التَّقوى لا يتأتى بالمواعظ المجردة، وماذا تنفع المواعظ المجردة في مقابل الواقع والمعاناة وطلب النفس الانتقام؛ إذ هي الضعيفة بالجوع والعطش، وفوق هذا يعتدى عليها! إنها تطالب صاحبها بحفظ عزتها! وإلا فهي تطلب على الأقل ردة الفعل والمساواة، ولو كانت الكلمة بالكلمة.. ومع هذا فالنبي ﷺ ينهى عن هذا، فضلًا عن الرد بأكبر أو المبادأة! وأي صائم لا يتعرض في بيته وسوقه وفي مقر عمله وفي الشارع لمثل هذا الأمر!

واللافت في الأمر هنا: هو كما أن الصوم يزيد الشَّهوة فيعالجها الشرع عند ذاك، فإن الصوم كذلك يقلل تحمل الصائم للعدوان لما في الجوع والتَّعب من آثارٍ سلبيَّةٍ على النَّفس وسرعة نفاد الصَّبر؛ لأن هذه قد أخذت من مخزون الصبر الكثير، ومع هذا فإن النبيَّ ﷺ يأمره بالتحمُّل ... فالإسلام يصنع الجوَّ الشَّديد ويأمر المسلم بتحمُّلِ شدائده، كمن يدخل جيشه أو شرطه معسكرًا شديدًا.. هو أشدُّ من الظُّروف التي يُعَدُّ لها، ليتحمَّلوا بعد ذلك ما هو أخفُّ.. ولله المثل الأعلى، وسيأتي مزيد إيضاح لهذه المنهجيَّة في علاج الإسلام للشُّحِّ من خلال الرَّابط الثَّاني لرمضان مع الْخُلُق.

الرَّابط الثَّاني: هو أنَّ رمضان شهر القرآن، والقرآنُ هو المرجع الأعلى والأعظم للأخلاق.

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها أنَّ سعد بن هشام سألها، فقال: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: أليس تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: «فإنَّ

خلق نبيِّ اللهِ كان القرآن»[1].

ولا يزال المسلم وهو يواصل قراءة القرآن في هذا الشهر كما لم يقرأه في غيره من الأشهر فيواصل النَّهل من الأخلاق من هذا المعين الَّذي نهل منه النَّبيُّ ﷺ، وقد كان أبلغَ وصفٍ: «**كان خلقه القرآن**».

إن القرآن الكريم يُفجِّر ثورةً في الأخلاق المتعدِّية النفع، فأخلاقُه ليست أخلاقًا سلبيَّةً مثل ألَّا يرد العدوان، ولا يجيب السيئة بالسيئة، إنما هو الخلاص من هذه الطبيعة.. إنما هو تمحض الأخلاق الحسنة وتفجرها... فكيف إذا اجتمع القرآن ورمضان معًا.

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كان رسُولُ اللهِ ﷺ أجود النَّاسِ، وكان أجودَ ما يكُونُ في رمضانَ حِين يلقاهُ جِبريلُ، وكان يلقاهُ فِي كُلِّ ليلةٍ مِن رمضان فيُدارِسُهُ القُرآن، فَلَرسُولُ الله ﷺ أجودُ بِالخيرِ مِن الرِّيحِ المرسلةِ[2].

وأمرٌ آخر مهمٌّ في فلسفة العلاج الشَّرعيِّ للبخل من خلال الصِّيام هو أن الجوع يُهيِّج النفس على الأخذ لا على العطاء، وعلى الشراهة لا على القناعة، وهو في هذا الحال الَّذي صنعه الصِّيام بطبيعة الإنسان أمره بضد هذه الطبيعة... أمره بتفطير الصائمين وبمشاركتهم الإفطار والسحور وبالإنفاق كذلك؛ ولذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ ما جاء.

فهذا الحديث يذكر صفةً معيَّنةً والَّتي هي الجود، وهي عنوان الصفات الحسنة المتعدية... ويذكر ذروة الأخلاق ومرجعها في الناس رسول الله ﷺ...

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

ويذكر أثر القرآن على أخلاقه وماذا كان يفعل به؟ فكيف بفعل القرآن بمن دون رسول الله ﷺ، وكل الخلق دونه؟

يقول ابن حجر: (قوله: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أجودَ النَّاسِ**» فيه احتراسٌ بليغٌ لئلَّا يُتَخيَّلَ من قوله: «**وأجودُ ما يكونُ في رمضانَ**» أن الأجوديَّة خاصةٌ منه برمضان فيه، فأثبت له الأجودية المطلقة أولًا، ثم عطف عليها زيادة: «**ذلك في رمضان**»، قوله: «**وأجود ما يكون في رمضان**» قوله: «**لأنَّ جبريل كان يلقاه**» فيه بيان سبب الأجوديَّة المذكورة)[1].

وسبحان الله الَّذي سخَّر أولئك الرِّجال والنِّساء لصحبة النَّبيِّ ﷺ! ما أدقَّ وصفهم! وما أعظم أمانتهم!.. يكفيك أن تنظر في وصف ابن عباس رضي الله عنهما.. من أول كلمة إلى آخر كلمة.. تذهب تستجمع بنفسك كل الأوصاف والمصطلحات فلا يمكنك أن تقترب من هذا الوصف فضلا أن تحوزه: «**وكان أجود بالخير من الريح المرسلة**».

قال ابن حجر: (فيه جواز المبالغة في التشبيه، وجواز تشبيه المعنوي بالمحسوس ليقرب لفهم سامعه، وذلك أنه أثبت له أولًا وصف الأجودية، ثم أراد أن يصفه بأزيد من ذلك، فشبه جوده بالريح المرسلة، بل جعله أبلغ في ذلك منها؛ لأن الريح قد تسكن، وفيه الاحتراس؛ لأن الريح منها العقيم الضارة، ومنها المبشرة بالخير، فوصفها بالمرسلة ليعين الثانية، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا﴾ و﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ونحو ذلك، فالريح المرسلة تستمر مدة إرسالها، وكذا كان عمله ﷺ في رمضان ديمة لا ينقطع،

---

(١) انظر: فتح الباري (٩/ ٤٤).

وفيه استعمال أفعل التفضيل في الإسناد الحقيقي والمجازي؛ لأن الجود من النبي ﷺ حقيقة، ومن الريح مجاز، فكأنه استعار للريح جودًا باعتبار مجيئها بالخير، فأنزلها منزلة من جاد، وفي تقديم معمول «أجود» على المفضل عليه نكتة لطيفة، وهي أنه لو أخره لظن تعلقه بـ«المرسلة»، وهذا وإن كان لا يتغير به المعنى المراد بالوصف من الأجودية إلَّا أنه تفوت فيه المبالغة؛ لأن المراد وصفه بزيادة الأجودية على الريح المرسلة مطلقًا)[1].

ولا شك أن من مقررات كل مسلم أن الصحابة كانوا أبعد الناس عن الكلام الباطل أو الوصف المبالغ فيه بالباطل.. فهذه هي الكلمات الحق التي تمثل الحقيقة التي شهدها ابن عباس والصحابة من حياة الرسول اليومية.. وهذا هو التميز حين كان جبريل يلاقيه بالقرآن.

وسبحان الله ! كم في كلمات ابن عباس رضي الله عنهما من كنوز وفوائد.

إن دلالات زيادة الجود هي أبعد من أن تكون مجرد مظهر يعطي فيه الإنسان المال، أو يضيف فيه صائمًا على طعام، أو يجاهد نفسه بإنفاق فحسب.. إنَّه تغيُّرٌ داخليٌّ صنعه القرآن حتَّى في نفس مَنْ نزع الله من صدره كلَّ سوادٍ وسخيمةٍ وشرح صدره.. لقد أحدث القرآن في رمضان تَغْييرًا هائلًا كان من ثمرته هذه الأجوديَّة الَّتي لا نظير لها.

إنَّ تأثير القرآن العظيم ليس له منتهى... وزيادة فهم القرآن مع زيادة حبِّه تقتضي زيادة العمل به والتخلق بأخلاقه، وهل بعد أخلاق رسول الله ﷺ منتهى ... إنها «**الأخلاق**» التي لم يجد ابن عباس رضي الله عنهما كلمة يصف بها تأثير القرآن فيها أكثر من لفظ «**المرسلة**».

---

(١) انظر: فتح الباري (٩/ ٤٥).

قال ابن حجر: (قيل: الحكمة فيه أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود، والجود في الشرع: إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وهو أعم من الصدقة، وأيضًا فرمضان موسم الخيرات؛ لأن نعم الله على عباده فيه زائدة على غيره، فكان النبي ﷺ يؤثر متابعة سنة الله في عباده، فبمجموع ما ذكر من الوقت والمنزول به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود والعلم عند الله تعالى.

قوله: و«**المرسَلة**» أي: المطلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبر بـ «**المرسَلة**» إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، وإلى عموم النفع بجوده كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه.

ووقع عند أحمد في آخر هذا الحديث: «**لا يُسألُ شيئًا إلَّا أعطاه**»، وثبتت هذه الزيادة في الصحيح من حديث جابر: «ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ شيئًا فقال لا»[(١)].

إن التحرر من عقدة «**لا**» منزلة يتقاصر عن بلوغها عموم المسلمين، بل وخصوصهم، اللهم إلَّا أفرادًا معدودين في كل جيل من الأجيال، وهذه غاية ينبغي أن نبلغها في رمضان، وعقبة أخلاقية ينبغي أن نقتحمها في رمضان ، وعقدة ينبغي أن نتحرر منها في رمضان، فكم يعزم الإنسان عليها لكنه يؤتي بطلبات تصادم هواه فيردها.. فيستحضر الحديث فيدخل ويخرج من باب خلفي بمقتضى «**لا**» دون أن يقول، لكن رسول الله ﷺ تجاوزها إلى سبق الريح المرسلة بالجود، ورضي الله عن ابن عباس وعن أبيه الَّذي أطلق هذا الوصف،

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٣١).

فأطلقت وراءه صقور العقول فلم تتمكن من حده في فضاء الأفهام عن اصطياده بإدراك حقيقته.

الرابط الثالث: أن تلبس الصائم بصومه كتلبس المتخلق بأخلاقه. وكلاهما ذو ثقل عظيم في الميزان ... وهل مقصود الصِّيام إلَّا ثقل الميزان والعتق من النيران ومرضاة الرحمن؟!

بل إن حسن الخلق ربَّما يفوق نفل صيام التَّطوُّع كما قال المصطفى ﷺ: «**وإنَّ صاحبَ حُسنِ الخلقِ ليبلغ به درجةَ صاحبِ الصَّومِ والصَّلاةِ**»(١)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المؤمنَ ليدرك بحسن خلقه درجةَ الصَّائمِ القائمِ**»(٢).

وما ذاك - والله أعلم - إلَّا لأنَّ حسن الخلق يلازم صاحبه الليل والنهار، بينما الصِّيام قاصر على النهار، وأن حسن الخلق متعد، والصيام على عكسه، وأن غاية الصوم هي تقوى الله وحسن الخلق، فالصوم وسيلة ولا شك أن الغاية أعظم.

فكيف إذا تلازم الاثنان؟! وهذا هو ما يصنعه رمضان في الصيام، وهو ما يصنعه رمضان في أمة القرآن؛ ولذا فإنه المحضن الأنسب لصناعة أمة محمد وتأهيلها حتَّى تتحمل رسالة النبي ﷺ وتحملها إلى العالمين..

اللهم وفقنا لحسن الصِّيام والقيام ومكارم الأخلاق، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**إنَّما بعثتُ لأُتمِّم مكارمَ الأخلاقِ**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٣)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤٩٧٨)، وصححه الألباني.

(٣)رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩١)، وانظر: السلسلة الصحيحة (٤٥).

الفصل الثاني

وَابْتَدَأَ الشَّهْرُ الْكَرِيمُ

الفصل الثاني
وَابْتَدَأَ الشَّهْرُ الْكَرِيمُ

ذهبتُ لصلاة فجر أَوَّل يومٍ من أَيَّام رمضان المبارك، فإذا بالمسجد قد اختلف عن فجر الأمس.

فيه الزِّحام من المُصلِّين.. فيه الصِّغار والكبار، والأهمُّ فيه الشَّباب بكثرةٍ.. فيه غير العرب من المسلمين بكثرةٍ! ما الَّذي حدث حتَّى جاء كلُّ هؤلاء..؟!

جاءت صلاة الظُّهر كان النَّاس كذلك!

جاءت صلاة العصر فالنَّاس - بحمد الله - في مزيدٍ..!

تذكَّرت أنَّ البعض سوف يخاطبهم أو ينبزُهم بكلمات شماتةٍ لمجيئهم الآن وليس قبل رمضان! عقب رمضان بقوله: «**يا عُبَّاد رمضان**»!

وأيًّا كان قصد هؤلاء الوعَّاظ فإنَّه مقصدٌ غير صحيحٍ.

كيف يكون صحيحًا ولسانُ حال هؤلاء يقول: يا ربِّ، لو لم تكن الاستجابة لمنادي الإيمان مقبولةً يوم القيامة لما امتدحت المؤمنين وذكرتها في القرآن: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

فكيف ولنا في رمضان نداءٌ مخصوصٌ: «**يا باغي الخير أقبلْ، ويا باغي الشَّرِّ أقصرْ**».

يا ربِّ: فهذا المنادي حين نادى أنَّ غدًا رمضان.. لأننا رأينا هلال الشهر هبَّت قلوبنا نحوك سبحانك قبل أن تهبَّ أبداننا نحو رمضان أو نحو المساجد والمصاحف.

فزعت قلوبنا مِمَّا هي فيه، فنفضنا أيدينا الملطَّخة بالدُّنيا من مشاغلها إلى كتابك.. وأرجلنا تسعى إلى بيوتك، وجوارحنا إلى ذكرك.

يا رب: إنَّا نجد أنَّ إقبالنا اليوم إلى بُيُوتك المُكرَّمة، وإلى كتابك الكريم، وإلى ما تحبُّه وترضاه إنَّما هو إقبالٌ بغير مجاهدةٍ.. إقبالٌ ذاتيٌّ.. إقبال أفئدةٍ تهفو، وقلوبٍ تفرُّ إليك فرارًا.

إقبال مَنْ قطع الآسار وطار، وكسَّر قضبان حبس الهوى وعجَّل إليك الفرار، لا يشعر بثقلٍ في رِجْلٍ، ولا انقباضٍ في يدٍ، ولا صعوبة في حركة لسانه بذكر.. فوَهَلُنا قد ذهب إليك.. وهِمَّتُنا لا ترى لكلِّ العوائق صعوبةً بل لا تراها أصلًا..

يا ربِّ: كما أجبتَ مَنْ دعاك وقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فاستجب لنا ربَّنا، فنحن أتينا حين نادى منادي الإيمان بأن غدًا رمضان...

فاجعلنا ربَّنا مِمَّنْ قلت فيهم: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ﴾ [آل عمران:١٩٥].

يا ربِّ: كيف ولنا في كلِّ ليلةٍ نداءان.. دعوتان منك سبحانك: **«يا باغيَ الخيرِ أَقْبِلْ، ويا باغيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ»**.

فكيف وأنا رجعت إلى ربي سبحانه.. كيف؟!

كيف وقد جعل الله كُلَّ مَنْ أخطأ في حقِّه.. أيًا كان خطؤه.. أو أيًا كان إصراره.. وأيًا كانت مدة استمراره.. وأيًا كان إسرافه.. جعله الله على جهالةٍ، وتوبتُه مقبولةٌ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٧].

سبحان ربِّي سبحانه! فما أعظمَ فرحَ الله سبحانه في رمضان بعبادِهِ، أسمعتم بفرح أعظم مَنْ فرح من خرج من فم الموت المحقَّق وعاد إلى الحياة مَرَّةً ثانيةً؟

إذا عرفتم عظم هذا الفرح فإنَّ فرح الله أعظم منه.. فالمصطفى ﷺ يخبرنا فيقول: «لَلَّهُ أَفرحُ بتوبة العبدِ من رجلٍ نزل منزلًا وبه مهلكةٌ ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته حتَّى اشتدَّ عليه الحرُّ والعطش أو ما شاء الله، قال: أَرْجِعُ إلى مكاني، فرجع فنامَ نومةً، ثمَّ رفع رأسه، فإذا راحلته عنده»[1] هذا فرحه سبحانه بعبدٍ واحدٍ - وله المَثَل الأعلى -.. فكيف وقد جاءته جموع الأمة عن آخرها لا يشذ عنها إلَّا هالك..؟! كيف ووصفُ كلِّ القادمين اليوم أنَّهم جاؤوا تائبين طالبين العفو من رب العالمين وقد غدا أغلى أدعيتهم: «اللَّهمَّ إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفو فاعفُ عنَّا».

والله، لو لم يكن لي من جزاءٍ إلَّا فرحُ ربِّ العالمين سبحانه لكفاني وأغناني.. فكيف والله - سبحانه - هو ربُّنا الأكرم الرَّحمن الرَّحيم.. الغنيُّ الحليم.. القريب الودود.. الله الكريم..؟!

سبحانك ربَّنا! ما عبدناك حقَّ عبادتك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

مَنْ يعتب عليَّ إذا قدِمت في هذا الشَّهر على ربِّي سبحانه لا على سواه..

كيف وأنا جئتُ اليوم على الموعد.. كيف وقد جئت بناءً على دعوة كريمةٍ من ربِّي سبحانه.. «**يا باغي الخيرِ أقبلْ، ويا باغي الشَّرِّ أَقْصِرْ**».

يا رب: كنتُ أبغي الشَّرَّ لكنِّي لما سمعتُ نداءك أقصرت، فهل عليّ من ملامة حين استجبتُ لمناديك؟!

يا باغي الشَّرِّ.. ليكنْ شرُّك الَّذي تبغيه ما يكون.. فعلته من قبل، وتريد تكراره وأنت مصرٌّ عليه..

يا باغي الشَّرِّ.. سواء كنت شريرًا في نفسك أم كنت داعيًا إلى الشَّرِّ، سواء كنت حاميًا للشرِّ أم مقننًا له بقوانين.. سواء كان شَرُّك فسقًا أو كان كفرًا.. أسرع فقد جاءتك دعوة الله.. عَجِّل قبل أن يفوت الوقت.

فسبحانك ربِّي! ما أعظم رحمتكَ! وما أعظم شهركَ هذا! ما أعظم نداءك هذا حتَّى إلى دعاة الشَّرِّ وحُمَاتِه.. جنودِه وأئمتِه.

كيف لا وقد عرضتَ قبول توبة الذين أحرقوا المؤمنين المُوحِّدين بالجملة في الخنادق لو أنَّهم تابوا، فقلت سبحانك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

يا ربِّ: رجوناك، وهل يرجى أحدٌ سواك؟ أن تقبل أُمَّة نبيِّك ﷺ في هذا الشَّهر المبارك.. يا ربِّ اهدِ قلوبَ بُغاة الشَّرِّ جميعًا فيها ليأتوك تائبين مبايعين في هذا الشَّهر إلى يوم يلقونك.

يا ربِّ: هل دَعْوتنا إلَّا لتعفو عنا.. إلَّا لتقبلنا وتغفر لنا وترحمنا وتسترنا وتجبرنا وترفعنا؟!

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا نَرْجُو وَنَطْلُبُهُ مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا علَّمْتَنَا الطَّلَبَا

كيف وقد وعدت المسرفين برحمتك إن هم تابوا بالمغفرة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٣-٥٤].

فيا ربِّ، أَنَبْنَا إليك.. يا ربِّ جئناك وأنت أرحم الرَّاحمين.

أَيَعِيبُ الخَلْقُ على بعضهم إذا رأوا بعضهم يتزاحمون على الأسواق الجديدة، أو يزدحمون على العروض المغرية في الأسواق؟

كيف يَعِيبُونَ علينا ونحن إنَّما جئنا لنزاحم من سَبَقَنا من هؤلاء المجتمعين على أبواب الجنَّة الثَّمانية لمَّا تفتَّحت هذا اليوم إلى نهاية الشَّهر.

لا دار إلَّا هاتان الداران - الجنة أو النار - فأين تريدون منا أن نذهب..؟ أنذهب إلى أبواب النار؟!

أين نذهب والجموع كلَّ يوم من هذه الأيام المباركة تُنقل سجلاتها المرقومة من سِجلَّات أصحاب الجحيم إلى سِجلَّات أهل الجنَّة بأمر ربِّنا وفضله سبحانه.

أيها العبد الآبق: يمكن أن يجازف الإنسان بماله فيخسره ثم يعوضه بعد ذلك؛ لأن نفسه موجودة، يمكن أن يجازف بسيادته وجاهه فيبذله ثم يعيده أرفع مما كان؛ لأن نفسه موجودة، يمكن ويمكن، ولكن أن يجازف المرء بنفسه فكيف يعوضها.. فلا والله لا أجازف هذه المجازفة؛ لأنها مجازفة بكل رأس مالي؛ لأنها نفسي! وهل بعد النفس من شيء؟! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥].

أيكون عيبًا على رجل وجد أُمَّةً من النَّاس على نَهَرٍ جارٍ يغتسلون فيه، وَوجَدَ نفسَهُ قد تلطَّخت بالأوساخِ فسارع وألقَى نفسَه في هذا النهر الجاري كي يغتسل فيه؟..؟! فكيف يعيبُ علينا الخلقُ ونحن مُلطَّخون بالذُّنوب، وجئنا ربَّنا - سبحانه - إلى هذا البحر الخضم الزلال الطَّاهر المُطهِّر؟!

يا ربِّ: جئناك نادمين.. جئناك مُعْتذِرين.. جئناكَ ولو لم تُرِدْ لنا عفوك ما سُقْتنا لبابك، ولا هديت قلوبنا لهذا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

يا ربِّ اجعل مجيئنا لك عهدًا لا نخلفه حتَّى نلقاك.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

سَاعَةُ الإِشْفَاقِ

ما إن تؤدَّى صلاة العصر (الصَّلاة الوسطى) حتَّى تتَّجه قلوب الصَّائمين إلى ما تبقَّى من النَّهار.. إلى آخر ساعةٍ في النَّهار، وما ذلك إلَّا لتوجيه الله سبحانه القلوب إلى هذه الكنوز الموعودة المقصودة المختزنة في هذا الموضع الزمانيِّ، والذي نسير إليه قهرًا؛ شئنا أم أبينا ما دمنا أحياء.. وهو نوعٌ من الإكراه على الخير.. لكنَّ سير القلب أسرع من سير الزَّمان.

أفأتهاون فيها وهي ختام صيامي وختام نهاري؟ والحبيب ﷺ يقول: **«الأعمال بالخواتيم»**[1].

فسبحان الله ربِّنا: كيف جعل توقيت هذه السَّاعة بهذه الحكمة البالغة.. كيف جعل القلوب والبطون معًا متعلقةً بهذه السَّاعة، كل يريد غذاءه، فكلَّما اشتدَّ جوع البطون، وإرهاق الأبدان، وإعياء النُّفوس.. ازداد شوق القلب وحماسته وقوته وتطلعه لهذه الفترة، مع ما في انتظار الطعام والشراب من لهف له وتلهف لإرواء الظمأ إلَّا أن النفوس قد أصبحت أكثر ما تكون إعراضًا عن الطعام والشراب .... قد أذهلها عن حاجتها حب الله والتوجه إليه، والرغبة العارمة في إجابة دعوة ضمن باقة عظيمة من الأدعية يرفعها أحدنا إلى ربه في هذه اللحظة، فكأنَّ القلوب هديت إلى أثر هذه السَّاعة هي ساعة الإجابة، فقطعت بأنها هي، وهجمت على الدعاء فيها وكأن العبد قد أُلقي في روعه: أن ادعُ تُجَبْ.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠٧).

سبحان الله ربنا وله الحمد: إذ جعل عباده الصَّائمين، يتوجَّهون إليه، راغبين مُحبِّين أكثر من حُبِّهم للطَّعام والشراب في لحظة الجوع والعطش الشَّديد.. فرغم أن المعتاد أن المرء يتجه همه وراء بطنه الجائع وجوفه العطشان ... كطبيعة كل من يأكل ويشرب إلَّا أن العبد الصَّائم قد أصبح وكأنه من العباد الذين لا يأكلون ولا يشربون ويسبحون ويحمدون ويرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه، بل كلما اقترب وقت الغروب ازداد توجه قلوبهم إلى ربهم العظيم الرحيم سبحانه.. وازدادوا ذهولًا عن حاجيَّاتهم الضَّروريَّة ... فلقد أَسْكَتَ القلبُ صراخَ المعدةِ والبلعومِ.. وتحوَّل ذلك الجوع والعطش ليس إلى صبر فحسب، بل تحوَّل - والله - رضًا بل محبَّةً، حتَّى إن الصَّائم إذا أخذ في الدعاء في هذه السَّاعة وذهب قلبه مع الدعاء كان أعظم مطلب عنده هو أن يمتدَّ هذا الوقت أكثر هو أن يبعد الغروب أكثر وأكثر.

كيف لا؟! وهُتاف القلب في هذه اللحظة يا ربِّ.. يا ربِّ.. اللَّهمَّ.. اللَّهمَّ..

«**لا يزال النَّاسُ بخيرٍ**»: سبحانك ربَّنا! كيف ركَّبت ورتَّبت هذه الأبدان وما يَلِجُها من الطَّعام والشَّراب في الوقت الَّذي تولج الليل في النهار، وتولج النَّهار في الليل.. وأنت العليم الخبير سبحانك! ما الترابط.. ما السر..؟ آية فينا كالآية التي حولنا ... جئنا لربنا طائعين راغبين مختارين، آية نقرؤها في الكون في كل لحظة، ونحن نقرؤها اليوم فينا.. فيا لها من آية! ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧- ٤٠].

مَنْ خلق الكون ... من شرع هذا وأمر به؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

إنَّه اجتماع الخلق والأمر في هذا الشهر بأعمق مَخْبرٍ وأجلى مظهرٍ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وشأن الخلق والأمر هنا شأن إكرام وتضييف ... وفرحة لعبد أطاع الله فيما اختصه الله لنفسه «**الصوم لي**»، وإلا فليبحث الأطباء، وعلماء النفس، والتربية، والفلك، والتشريح، والتَّغذية وغيرهم.. علَّهم يدركون الحكمة قبل أن يبلغ الصَّائمون الفرحة الثَّانية.

هذا من عظمة هذه اللحظة التي نسير إليها في آخر اليوم.. بهذه الكلمة «**الصَّوم لي**»، فإن رب العالمين شرع لنا أن نفرح، وهي فرحة تفرحها الرُّوح بهذا التَّمام، وتفرحها النَّفس بهذا الطَّعام، وعظم هذه الفرحة الأكبر هو أنَّها مربوطةٌ بالفرح الأكبر، وذلك عند لقاء الله، وما يكاد المتأمِّل يجد توثيقًا للجزاء وتربيةً لليقين مثل هذا، وذلك لمدَّة شهرٍ بأكمله.. في نهاية كلِّ يومٍ من أيَّامه، فلقد أصبح الفرح القادم كأنه الواقع.. لأنهما كخيط صائد السَّمك ... فبيده طرف الخيط وفي نهايته سمكة.. فهو متيقِّنٌ من وجود سمكة.. فثقتُهُ بوجود سمكةٍ من ثقته بوجود طرف الخيط بيده.. بل أمر اليقين بجزاء الله أوثق؛ لأنَّ احتمال سقوط السَّمكة من الطَّرف الآخر واردٌ، لكنَّ هذا الوارد هنا غير وارد عند الله، فاللَّهمَّ يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك.

لو كُشف الغيب للخلق في هذه السَّاعة - ساعة ما قبل الإفطار وعنده - لرأوا من أمر الله العجب..! ألا ترى الخلق كيف يطلبون حقوقهم عند تمام عملهم..؟ ألا ترى أن الأوفياء هم الذين يؤدون للعامل أجره قبل أن يغادر

موضع عمله؟ حاشا ربنا أن يأمرنا رسول الله ﷺ بقوله: «**أعط الأجيرَ أجرَه قبلَ أن يجفَّ عرقُهُ**»[1]، ثم هو يؤخر إعطاء الصَّائمين الأجور إلى أجلٍ غير مسمًّى، تعالى سبحانه عن ذلك علوًّا كبيرًا.. بل هو سبحانه لا يؤخرنا إلى آخر رمضان إنما يعطي أجور كل يوم بيومه، ولآخر رمضان أجره المخصوص ... أو لم يقل النَّبيُّ ﷺ: «**ولله عتقاء من النَّار وذلك كلَّ ليلةٍ**»؟[2]، في رواية: «**كل يومٍ وليلةٍ لكلِّ عبدٍ منهم دعوةٌ مستجابةٌ**»[3]، وروايةٌ أخرى عند ابن ماجه: «**إنَّ للهِ عند كلِّ فطرٍ عتقاءَ، وذلك في كلِّ ليلةٍ**»[4].

قال ابن رجب: (فكلُّ زمانٍ فاضل من ليلٍ أو نهارٍ فإنَّ آخره أفضل من أوَّله كيوم عرفة ويوم الجمعة، وكذلك اللَّيل والنَّهار عمومًا، آخره أفضل من أوَّله؛ ولذلك كانت الصلاة الوسطى صلاة العصر كما دلَّت الأحاديث الصحيحة عليه وآثار السَّلف الكثيرة تدلُّ عليه، وكذلك عشر ذي الحِجَّة والمحرَّم آخرهما أفضل من أوَّلهما)[5].

إنَّ القلوب لا تملك التَّوقُّف في هذه السَّاعة تنتظر! أتكون من مُجابي الدَّعوة أم لا تكون؟! أتكون من عتقاء الله من النار أم لا تكون؟ فهي تعرف أن دعاء هذه السَّاعة دعاء ربَّما يكون فوريَّ الإجابة.. كَمَنْ تأخَّر عن انطلاقة سباق توزيع الجوائز الكبرى، لكنَّه اشتد اجتهاده السَّاعة الأخيرة حتَّى أدرك.. أو كمن لفت الانتباه لنفسه بشدة صراخه على ربان السفينة قبل أن تبحر فأدركه وأشفق عليه وأركبه، ولله المثل الأعلى.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٤٣)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٦٨٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٤)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) رواه ابن ماجه (١٦٤٣)، وصححه الألباني.

(٥)انظر: «لطائف المعارف» (١/ ١٩٦).

إنَّ الدَّاعي يعلم أنَّ إجابة دعائه الحالي ربَّما كان حالًا؛ لأنَّ هذا هو الموعد الأرجح لإجابة الدَّعوات، وللدَّعوات المجابة، وهو الموعد الأرجح للعتق من النار، ذلك هو موعد ساعة ختام النَّهار هو ختام صيام اليوم، وهي السَّاعة المثقلة بعطايا ربِّنا سبحانه.

يخطئ من يظنُّ أنَّ الجزاء في هذه السَّاعة مقتصرٌ على العتق من النار ... - وإنْ العتق من النَّار عظيمٌ وهو الأصل، وهو الأعظم وإذا لم يحصل عليه العبد فكأنَّ شيئًا لم يحصل- ولكن ثمَّة أجورٌ وأجورٌ وعلوٌّ ومقاماتٌ ومنازلُ عالياتٌ لا يعلمها إلَّا الله سبحانه.

قال العبد: أيناسب أن تكون ساعة الإجابة في هذه السَّاعة وأكون غافلًا عنها؟

لأستجمعنَّ الأدعية المجرَّبة الَّتي فتحت لها أبواب السَّموات.. لأستجمعنَّ كلَّ ما صحَّ من دعاءٍ للأنبياء والصَّالحين في القرآن، وكلَّ ما صحَّ عن رسول الله ﷺ فأرفعه كلَّ يوم في هذه اللَّحظة.. ثمَّ لأضيفنَّ لها حاجيَّاتي الأخرى.

بل فلتذهب السَّاعة كلها وأنا منشغل عن حاجياتي بالثناء على ربي سبحانه، فما أعظم أن يتقبل ثنائي عليه سبحانه! ما ألذ الثَّناء على الله سبحانه.. حتَّى إني لا أجد أنه من اللازم أن أذكر الحاجيَّات إذا شغلني الثَّناء على ربِّي عن مسألتي..

لا ضرورة لحاجيَّاتي ما ذَهَبتْ دعواتي في الثَّناء على ربِّي سبحانه.

فالثناء تعظيم ومهابة تجلل القلب والروح.

والله، حتَّى لو لم يجبني ربي لما في قلبي، ما دام ربي يحب ثنائي عليه.. فمحبة ربي لشيء مني هو أعظم مكافأة..

ألـم تُقْطـع أعنـاقٌ في حـبِّ الله وأهلُهـا في غايـة السَّـعادة، ألـم تطعـن صـدورٌ فتفجَّرت منها الدماء في حب الله وصاحبها يصيح: فزت ورب الكعبة؟ ألم يقدم رجال للقتل والابتسامة تعلو محياهم لمحبة الله لهذا؟ ألم يأت رجال بكل أموالهم لله، ويشاطر آخرون ربَّهم أموالهم - وهي أموالهم التي يحبونها - متوسلين الله أن يتقبل منهم؛ لأنه سبحانه يحب ذلك؟!

أَلَمْ يَنْقَضِ نَحْبُ رجالٍ أشداءَ سجودًا بين يدي الله طلبًا لمحبته..؟!

فماذا يعني إذا ذهب هذا الوقت كله وأنا ذاهب في الثناء على الله لا أطلب إلَّا قبوله ثنائي عليه سبحانه[1].

وربنا أكرم - سبحانه - من أن يقايض عبده، حاشاه سبحانه، فرحمته سبقت، وفضله عم خلقه، وما ثنائي بثنائي، ولكن بما عُلمت وأُلهمت وأُعطيت وحُببت، فالفضل لك سبحانك: **«إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ»**، كيف وهو ربنا قد علمنا على لسان رسوله ﷺ قاعدة ربانية: **«إنَّ اللهَ تعالى يقول: مَنْ شغلَه ذكري عن مسألتي أعطيتُهُ أفضلَ مَا أُعطِي السَّائلين»**[2].

يا ربِّ، إنَّها ساعةُ أشعر أنَّ رُوحي تشهق فيها من شدتها.. من مهابتها.. من إشفاق فوات خيرها وعودتي منها صفرًا.

يا ربِّ، ساعةٌ أخشى إذا ذهبت ألا تعود أبدًا، فيا رب أعني.

---

(١) كتيب «أوراد أهل السنة والجماعة» لمؤيد حمدان هو أفضل ما وجدت للثناء والدعاء ترتيبًا واضحًا، وصحة، وإيضاح معان.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤١٣)، قال أبو إسحاق الحويني في تحقيقه لفضائل القرآن لابن كثير رحمه الله (ص٢٧٤) بعد ذكر طرق الحديث المختلفة: والحديث حسن بجملة هذه الشواهد.

ساعة أدّخرها يا ربِّ لأهوال الساعة.

يا ربِّ عندي مطالب كثيرة.. كبيرة.. خطيرة أخرى، منها: يا رب خاتمتي التي ألهبت قلبي! القبر الَّذي أَمَرَّ الماءَ في حلقي! البعث والنشور اللذان كادا يطيران عقلي! هول المطلع الَّذي لا هول بعده! وقوفي في الزحام! موقعي في المجاميع المحشورة! أعمالي في الميزان وكشف حقيقة صدقها! انتظاري لصحيفتي إذا الصحف نشرت! أما إذا نودي عليّ: أنِ اعْبُرْ هذا الجسر فتلك شهقة في القلب - اليوم - لا سلامة منها ولا راحة إلَّا بتحقُّق العبور يوم ذاك، كيف والنار من الأسفل يأكلُ بعضها بعضًا؟! يا ربِّ سلِّم.. يا ربِّ سلِّم..

يا رب وفتن هذه الدنيا.. يا ربِّ كلُّ ذلك في جهة، وتقلُّب القلب في جهةٍ.. يا ربِّ وهذه الأمة وما بلغته، وما انحطت إليه!

وكيف عادت كتابَك وسنةَ نبيك ﷺ، ونقضت الميثاق الأعظم، وأخذت بمراجع غيرها!

يا ربِّ، وأولادي ووالديّ وإخواني وأحفادي وستر بناتي وأهلي أجمعين.. يا ربِّ وأصحابي وأحبابي.. وأولئك الذين فارقوني وذهبوا إليك وبقيت وراءهم كأني أحرسهم بدعائي الليل والنهار ... يا ربِّ وطوارق الليل والنهار..

يا ربِّ، كم يطالب أحدنا أولاده بالصلاح وحفظ القرآن وطلب العلم والدعوة، وآخر يطالب أولاده بالتوبة وحسن الخلق وبرّ أمه والرأفة بإخوانه وما إلى ذلك.. وآخر يرجوهم ويرجوهن الستر عليه، وخشية ألسنة الناس الفاحشة الكاشفة إذا لم يخشوا الله تعالى ... لكننا ننسى مواصلة الدعاء لهم.. ننسى أننا إن لم ندع لأبنائنا فلربما لن يدعو لهم غيرنا، ننسى فاعلية الدعاء في تحويل

القلوب وتبدل الأحوال..! هكذا يظن الكثيرون فيهملون الدعاء والله - سبحانه وتعالى - عند ظنهم هذا به..! ننسى قيمة هذه الأوقات وقيمة الإلحاح فيها بالدعاء، فيا رب احفظ لنا أولادنا.

يا ربِّ يا ربِّ.. لو أعطيتني كلَّ ذلك وأعطيت كلَّ السَّائلين ذلك ما نقص ذلك كلُّه من مُلْكك قطرةً، فيا حيُّ يا قيُّوم برحمتك نستغيث.

وبينما القلب ذاهبٌ في دعاء الله مع ثنائه على ربه ومطالبه إذ نادى المنادي معلنًا نهاية اليوم ودخول المغرب، فيقطع العبد دعاءه مباشرةً فرحًا بفطره ... فرحًا بنهاية يومه - وقلبه معلق بالله - بل فرحًا كذلك بهذا الطعام والشَّراب الَّذي بين يديه.

فعن عمر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال: «**ذهب الظَّمأُ، وابتلَّت العروقُ، وثبت الأجرُ إنْ شاء الله**»(1).

وكيف لا نفرح بهذه الشَّربة من الماء، ولا نفرح بهذه اللُّقيمات.. وقد جاء هذا إتمامًا ليوم عظيم.. وهل مثل فرح التَّمام فرح..؟! ألم يقل الله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة:٣] فكانت هذه الآية أعظم فرح، وقال سبحانه عن العيد: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

كيف لا نفرح بها وقد اجتمع للطَّعام والشَّراب لذَّتان.. لذَّة الطَّعام والشَّراب.. كغذاءٍ جاء على جوع، وشراب جاء على عطش، ولذَّة العبوديَّة في تناول الطَّعام والشراب فهو طعام تعبُّدٍ وتقرُّبٍ واتِّباعٍ.. بحيث لو أنَّ رجلًا أصرَّ

(1) رواه أبو داود (٢٣٥٧)، وحسنه الألباني.

على مواصلة الصوم بعد الغروب رغبةً عن السُّنَّة لأصبح عاصيًا.. فأيُّ طعامٍ وشرابٍ أطيب وألذُّ من طعامٍ هذه صفاتُهُ.

كيف لا نعجِّل في الإفطار وحبيبُ الله ﷺ كان يعجِّل، وما كان ينتظر بعد الغروب لحظةً واحدةً؟[1].

كيف وهو الرَّحمة المهداة القائل ﷺ: **«لا يزال النَّاس بخيرٍ ما عجَّلوا الفطر»**[2].

هكذا تتحوَّل العبادة من عبادة الله بالإمساك إلى عبادة الله تعالى بالأكل وتعجيله..

يتحوَّل توجُّه القلب إلى طاعته سبحانه، ورجاء رحمته باتِّباع رسوله ﷺ بتناول الطعام والشَّراب.. فأيُّ تربيةٍ هذه، وأيُّ تطويعٍ للنفس هذا؟ أليست هذه صياغة جديدة للحياة؟!

فهل الحياة الدُّنيا إلَّا جوعٌ وشِبَعٌ، وشهوةٌ وإحصانٌ وما يتبعها وآثارها، فإذا حكم الدين ذلك كله وحكم توابعه وآثاره فقد حكم الدين الحياة كلها.. لأنه مهما قلنا عن الطعام والشَّراب والشَّهوة فإنه لا حياة للبشر والحيوان بغيرها على هذه الأرض.. فإذا أصبحت عبودية الله في الطعام والشَّراب والشَّهوة والإحصان وآثار ذلك علمنا أنَّ الدِّين هو الحياة، وأنه لا جزئيَّةَ واحدةً في الحياة تخرج عن الدِّين.

أرأيت إلى أيِّ مدىً تغلغلت التَّقوى في حياة المسلم في رمضان، ألم يقل الله

---

(١) إلا الوصال وسيأتي الإشارة إليه.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؟! فالتقوى هي الصفة الحاكمة الملازمة لتقلبات الصَّائم كلِّها من غير استثناءٍ، فبما أنَّ الصَّائم بشرٌ، تجري عليه الطبائع والحاجات البشريَّة، ولا يتخلَّص منها أبدًا، فإذا لم يأكل جاع، وإذا لم يشرب عطش، وإذا بذل نصب وتعب، وإذا تعب نام، يمرُّ عليه اللَّيل والنَّهار كما يمرُّ على النَّاس الفجر والغروب، وهكذا وهكذا، ومع هذا فهو في تقلُّباته تلك (الإرادية واللاإرادية) ملازم لحكم الله في الصِّيام والإفطار.. هكذا طوال يومه وعلى مدى شهره.. فأيُّ حاكميَّةٍ لتقوى الله مثل هذه الحاكميَّة ... في هذا الشَّهر كلِّه؟!

وبهذا ترى أن الله سبحانه حين قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فكأنه سبحانه قال لنا: (لا خيار لكم إلَّا أن تتقونا) ما اتَّبعتم أمري وأمرَ نبيكم، وأحضرتم في هذا الشهر قلوبكم.

هكذا ينشئ رمضان الحياة على التَّقوى.. وهكذا يخرج المسلم من رمضان إلى الحياة بهذه الحياة الجديدة..

أَيُّ وادٍ مُقدَّسٍ هَذَا؟!

هذه التَّراويح هي صبغة رمضان وعلامته الفارقة.. أبى الله إلَّا أن تستقرَّ الأُمَّة على أدائها في جماعة ... وإن صلاها البعض منفردًا.

أبى الله إلَّا أن يدخر أجرها للفاروق ﷺ الَّذي سن هذه السنة الحسنة لتبقى على منهجه إلى يوم القيامة.

أبى الله إلَّا أن تكون تدريبًا عمليًا على قيام الليل إلى آخر الدَّهر.

سبحان الله! ما إن يفطر الناس حتَّى تتَّجه القلوب متشوفةً مُتطلِّعةً لصلاة العشاء وصلاة التَّراويح.. فيا لها من صلاةٍ، ويا له من قرآنٍ يُتْلى على مسامع الصُّفوف الواقفة بين يدي ربِّها سبحانه.

فالأذنُ سامعةٌ والعين دامعةٌ … والروح خاشعةٌ، والقلب أوَّاه
وكلُّهم بات بالقرآن مندمجًا … كأنَّه الدم يسري في خلاياه

خرج رسول الله ﷺ كما خرج الفاروق من بعده ﷺ ... فماذا رأى رسول الله ﷺ ... وماذا قال؟ وماذا رأى عمر ﷺ وماذا سنَّ؟!

فعن ثعلبةَ بنِ أَبِي مَالِكٍ القُرَظِيِّ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة في رمضان، فرأى ناسًا في ناحية المسجد يصلون، فقال: «**مَا يصنعُ هؤلاءِ؟**» قال قائل: يا رسول الله، هؤلاء ناس ليس معهم قرآن، أبي بن كعب يقرئهم معه،

يصلون بصلاته، فقال: «**قد أحسنوا، أو قد أصابوا**»، ولم يكره ذلك لهم[(١)].

وعن جابرٍ ﷺ: جاء أبيٌّ بن كعبٍ ﷺ في رمضان، فقال: يا رسول الله، كان مني الليلة شيء، قال: «**ومَا ذَاكَ يا أبيُّ؟**» قال: نسوة داري قلن: إنا لا نقرأ القرآن، فنصلي خلفك بصلاتك؟ فصلَّيتُ بهنَّ ثماني ركعاتٍ والوتر، فسكت عنه وكان شبه الرِّضاء[(٢)].

وعن عبد الرحمنِ بنِ عبدٍ القاري أنَّه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاعٌ متفرِّقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلِّي الرَّجلُ فيصلِّي بصلاته الرَّهط، فقال عمر: والله، إني لأراني لو جمعت هؤلاء على قارئٍ واحدٍ لكان أمثل.

فجمعهم على أبيِّ بْنِ كعبٍ، قال: ثم خرجت معه ليلةً أخرى والنَّاس يُصلُّون بصلاة قارئهم، فقال عمر: نعمت البدعة هذه، والتي تنامون عنها أفضل من التي تقومون – يعني آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله[(٣)].

هكذا أصبحت سُنَّةً للأمة.. يخرج الناس من بُيُوتهم كلَّ ليلة.. صغارًا وكبارًا.. رجالًا ونساءً.. إلى بُيُوت الله.. إلى هذا المكان المبارك.. ليستمعوا لكلامك ربَّنا سبحانك.

يا ربِّ: في أيِّ وادٍ مُقدَّسٍ نحن.. من أيِّ شجرةٍ عظيمةٍ يصدر كلامك الَّذي نسمعه.. نعم ذاك الكلام لذاك الكليم ﷺ في ذلك الوادي المُقدس طُوى..

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٩٥)، وحسنه الألباني، انظر: صفة صلاة التراويح ص١٠.

(٢) رواه ابن نصر (ص٩٠)، قال الألباني: وسنده يحتمل التحسين عندي. انظر: صلاة التراويح (ص٦٨).

(٣) رواه البخاري (٢٠١٠).

فيا رب، لو تأمل المتأمِّلون الحقيقة لارتجفت بوادرهم خشيةً، وَارْتعَدَتْ أبدانهم تعظيمًا وتهيُّبًا..

فها نحن يا ربِّ عبادك أتباع حبيبك مُحمَّدٍ ﷺ في بقعة هي الوادي المقدَّس إن لم تكن اليوم أقدس.. وأقدس ما على الأرض.. بيتك الَّذي نسبتَهُ لنفسك وقوفًا بين يديك.. كأننا نراك سبحانك.. سبحانك في عليائك.. سبحانك ربنا سبحانك! لا نكاد نتمالك.. كأن الإرادة قد ذهبت.. والقوى قد سُلِبَتْ.. تَمِيدُ بنا المعاني في بُحُور الآيات.. لا ندري على أي شاطئٍ نستقرُّ.. رضينا بهذا الحال، بل رفعنا شراع الروح ليسيِّرها اللُّطف بين السماء والأرض.. هنيئًا لكِ أيتها الروح المُسيَّرة بكلام الله المسرورة به.

الله أكبر.. فَارِقْ أيُّها العبد ما أَلِفْتَ من قبلُ وأنت تسمع القرآن.. اخرج من ظرف الزمان والمكان.. لا تلتفت.. لا تبال بمن حولك من البشر.. لا تنصت لكلام هنا وهناك.. ومناظر تراها العين هنا وهناك، فأنت الآن.. الآن تستمع لكلام الله.. الآن يُلْقى عليك كلام الله!

أرأيتَ الكليمَ عليه السلام قد التفت إلى شيءٍ في ذلك الوادي العظيم؟ أم رأيته فكَّرَ في أهله الَّذين تركهم في ذاك البرد الشَّديد واللَّيل البَهِيمِ؟

يا ربِّ، أنا ما حضرتُ بنفسي إلى هذا.. وموسى عليه السلام ما جاء بنفسه، فلقد قلت وقولك الحقُّ: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٠].

فوالله، لَوْلَاكَ ما حضرتُ، فَلَكَ الفضل أوَّلًا وآخرًا ...

يا ربِّ، أمرت الكليم - عليه الصلاة والسلام - بأن يخلع نعليه مُذكِّرًا إيَّاه بالسَّبب العظيم: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه:١٢]، وخلع نعليه، وابتدأ الكلام العظيم ينهال إليه ويَغْشَى سمعه وكيانه.

فيا ربِّ، قد أمرتني بهذا الماء المبارك أتطهر به قبل أن ألقاك وقد فعلت.. يا ربِّ ما مسَّت كَفَّاي الماء عند الوضوء أَوَّلَ مَرَّةٍ إلَّا وأنا أريد خلع ذنوبي قبل أن ألقاك.

ما مرَّ الماء على عضو من أعضائي إلَّا وأنا أعده لهذا الموقف..

يا رب أريد خَلْعَ نِعَال الذُّنوب والآثام، وها قد وقفت بجلدي على الأرض.. وقفت حافيًا مُلْتصقًا بالأصل، عارفًا قيمتي، معترفًا بأصل خِلْقتي.. مُتذكِّرًا مَرْجِعي ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

أيُّ شيء من اللِّباس يمكن أن يخلع في الوادي المقدس إلَّا هذا النَّعل.. وأيُّ شيءٍ في المحسوسات يمكن أن يكون مثالًا للذُّنوب إلَّا هذا النَّعل الَّذي تلتصق به هذه القاذورات[1].

حتَّى العصا يا ربِّ لم تأمر موسى أن يتركها قبل الدُّخول بل صَحِبَها، وكان لها ما لها من شأن عظيم.. فقد بوركت هذه الصاحبة حين دخلت في ذاك الزمان والمكان، وذاك الظَّرف الَّذي يعجز عن وصفه البيان.

يا ربِّ فارقَ موسَى عليه السلام أهلَه.. فجاء النور إذ ظنَّها النَّار، فَرَجَا من النار قبسًا يرجع به إلى أهله، ورجع بالنور الَّذي ليس مثله نور.. وها نحن يا ربِّ قد فارقنا أهلنا، وخرجنا من بيوتنا إلى بيتك، نريد صلاة التهجد في أول الليل وآخره، نريد الفرائض قبل ذلك، وقلوبنا تهتف قبل ألسنتنا برجاء النور من عندك فـ «اللَّهمَّ اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا.. وعن

(١) نذكر هذا الأمر هنا لأمر الله موسى عليه السلام بذلك، ولأنه واقع الصلاة في المساجد اليوم، وإلا فقد ثبت الأمر بالصلاة بالفعل مخالفة لليهود والنصارى.

يساري نورًا.. وأمامي نورًا.. وخلفي نورًا.. واجعل لي نورًا»، فهذا بيتك مركز النُّور في الأرض، وهذا كتابك هو النور المبين، وهذه قلوبنا المتطلعة لنورٍ من عندك سبحانك..

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٥- ٣٧].

عَنْ كِنانةَ العدويِّ قال: «كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد أن ارفعوا إليَّ كل من حمل القرآن حتَّى ألحقهم في الشرف من العطاء وأرسلهم في الآفاق، يعلمون الناس، فكتب إليه الأشعري إنه بلغ من قبلي ممن حمل القرآن ثلاثمائة وبضع رجال، فكتب عمر إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر إلى عبد الله بن قيس ومن معه من حملة القرآن، سلام عليكم، أمَّا بعدُ، فإنَّ هذا القرآن كائن لكم أجرًا، وكائن لكم شرفًا وذخرًا، فاتبعوه ولا يتبعنكم، فإنَّه مَنِ اتَّبعه القرآن زجَّ في قفاه حتَّى يقذفه في النَّار، ومَنْ تبعَ القرآن ورد به القرآن جنات الفردوس، فليكونن لكم شافعًا إن استطعتم، ولا يكونن بكم ماحلًا، فإنه من شفع له القرآن دخل الجنة، ومن محل به القرآن دخل النار، واعلموا أن هذا القرآن ينابيع الهدى، وزهرة العلم، وهو أحدث الكتب عهدًا بالرحمن، به يفتح الله أعينًا عميًا، وآذانا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، واعلموا أن العبد إذا قام من الليل فتسوَّك، وتوضَّأ ثمَّ كبَّر وقرأ وضع الملَكُ فاه على فيه، ويقول: اتل اتل، فقد

طبت وطاب لك، وإن توضأ ولم يَسْتَكْ حفظ عليه ولم يعد ذلك، ألا وإن قراءة القرآن مع الصلاة كنز مكنون وخير موضوع؛ فاستكثروا منه ما استطعتم، فإن الصَّلاة نورٌ، والزَّكاة برهانٌ، والصَّبر ضياءٌ، والصَّوم جُنَّةٌ، والقرآن حُجَّةٌ لكم أو عليكم، فأكرموا القرآن ولا تهينوه، فإن الله مكرم من أكرمه، ومهين من أهانه، واعلموا أنه من تلاه وحفظه وعمل به واتبع ما فيه كانت له عند الله دعوة مستجابة، إن شاء عجلها له في دنياه، وإلا كانت له ذخرًا في الآخرة، واعلموا أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون»[(١)].

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (٢/ ٢٨٦).

التَّوسِعَة عَلَى أَهْلِ القِيَامِ بِالأَحْكَامِ

كم يُوسِّع الله على أهل القيام في الأحكام؟!..

تلك حقيقة تجلَّت أمام عَيْنَيَّ وأنا أنظر في أحكام القيام.. وتوسيع الله لهم وعليهم ومسامحته سبحانه إيَّاهم.

فالأمر في صلاة اللَّيل واسعٌ على هؤلاء العابدين، فعن غُضَيفِ بنِ الحارثِ قال: سألتُ عائشةَ ﵂، أكان نبيُّ الله ﷺ يُوترُ من أوَّل اللَّيل أو من آخره؟ قالت: كُلُّ ذلك كان يفعلُ، كان يُوترُ من أوَّل اللَّيل، ويُوترُ آخرهُ قُلتُ: الله أكبرُ، الحمدُ لله الَّذي جعل في الأمر سعةً، قُلتُ: أكان نبيُّ الله يغتسلُ من أوَّل اللَّيل أو من آخره؟ قالت: كُلُّ ذلك كان يفعلُ، كان يغتسلُ من أوَّل اللَّيل ويغتسلُ من آخره قُلتُ: الله أكبرُ، الحمدُ لله الَّذي جعل في الأمر سعةً، قُلتُ: أكان رسُولُ الله ﷺ يجهرُ بقراءته أم يُخافتُ؟ قالت: كُلُّ ذلك كان يفعلُ قُلتُ: الله أكبرُ، الحمدُ لله الَّذي جعل في الأمر سعةً[(1)].

تأمَّل: فإنَّك ما تكاد تجد مسألةً واحدة من مسائل الليل إلَّا وقع فيها أكثر من قول، وكل قول من هذه الأقوال له دليل من قول النبي ﷺ أو فعله أو تقريره ... فالأمر فيها واسع ... والقائم مشكور ومأجور ومعذور، أما كونه مشكورًا فإن النبي ﷺ يقول معللًا طول قيامه: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[(2)]، والله هو الشَّكور

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٤)، وصححه الألباني.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

العليم، وأمَّا كونه مَأْجورًا فإنَّ الأحاديث كثيرةٌ ولا تخفى، وأمَّا كونه معذورًا فهو ما سترى الكثير منه ... حتَّى لكأنك تستطيع القول وأنت مطمئن: كل قائم لله في الليل فهو معذور، فما أعظم التوسعات التي أفاض الله بها على القائمين.. وكل له من سُنَّة المصطفى ﷺ أثرٌ.

التَّوسعة الأولى: «التَّوسعة في التَّسليم»:

ثبوتها اثنين اثنين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجلًا سأل نبي الله ﷺ عن صلاة اللَّيل، فقال رسول الله ﷺ: **«صلاةُ اللَّيلِ مثنى مثنى، فإذا خشي أحدُكم الصُّبحَ صلَّى ركعةً واحدةً توتر له ما قَدْ صلَّى»**[1]، حتَّى اسمها يشهد لها بالسَّعة والرَّاحة في رمضان خاصةً، وهو شهر القيام ... فمن قال: إنه يسلِّم من كلِّ ركعتين فهذا دليلُهُ وهو واضحٌ، وله أدلَّةٌ أخرى كثيرةٌ، وما كان السَّلام من ركعتين إلَّا تخفيفًا على قائم الليل، وتوسعةً عليه.

قال ابن حجر رحمه الله: (وأما إعادة **«مثنى»** فللمبالغة في التأكيد، وقد فسره ابن عمر رضي الله عنهما راوي الحديث، فعند مسلم عن طريق عقبة بن حريث قال: قلت لابن عمر: ما معنى مثنى مثنى؟ قال: تسلم من كل ركعتين، وفيه ردٌّ على مَنْ زعم من الحنفِيَّة أنَّ معنى **«مثنى»** أن يتشهَّد بين كُلِّ ركعتين؛ لِأَنَّ راوِي الحديث أعلم بِالمرادِ بِهِ، وما فسَّرهُ بِهِ هُو المتبادر إلى الفهم؛ لأَنَّهُ لا يُقال فِي الرُّباعِيَّة مثلًا: إنَّها مَثْنَى واستُدِلَّ بِهذا على تعيُّن الفصل بين كُلِّ ركعتين من صلاة الليل، قال ابن دقيق العيد: وهو ظاهر السياق لحصر المبتدأ في الخبر، وحمله الجمهور على أنه لبيان الأفضل إما صح من فعله ﷺ خلافه، ولم يتعين أيضًا كونه لذلك، بل يحتمل أن يكون للإرشاد إلى الأخف؛ إذ السلام بين كل

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٩٩٠)، ومسلم (٧٤٩).

ركعتين أخف على المصلي من الأربع فما فوقها لما فيه من الراحة غالبًا، وقضاء ما يعرض من أمر مهم، ولو كان الوصل لبيان الجواز فقط لم يواظب عليه ﷺ، ومن ادعى اختصاصه به فعليه البيان، وقد صح عنه ﷺ الفصل كما صح عنه الوصل، فعند أبي داود ومحمد بن نصر من طريقي الأوزاعِيِّ وابن أبي ذِئب كلاهما عن الزُّهرِيِّ، عن عُروة، عن عائشة أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُصلِّي ما بين أن يفرُغ من العِشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعةً يُسلِّم مِن كُلِّ ركعتين.. وإِسنادهما على شرط الشَّيخينِ)[1].

واستدلَّ به أيضًا على عدم النُّقصان عن ركعتين في النَّافلة ما عدا الوتر.

قال ابن دقيق العيد: والاستدلال به أقوى من الاستدلال بامتناع قصر الصبح في السفر إلى ركعة، يشير بذلك إلى الطحاوي، فإنه استدلَّ على منع التَّنفُّل بركعةٍ بذلك، واستدلَّ بعض الشَّافعيَّة للجواز بعموم قوله ﷺ: **«الصَّلاة خيرُ موضوعٍ، فَمَنْ شاء استكثر، ومَنْ شاء استقلَّ»** صحَّحه ابن حبَّان.

وقد اختلف السلف في الفصل والوصل في صلاة اللَّيل أيهما أفضل، وقال الأثرم عن أحمد: الَّذي أختاره في صلاة اللَّيل مثنى مثنى، فإن صلى بالنهار أربعًا فلا بأس، وقال محمد بن نصر نحوه في صلاة الليل، قال: وقد صح عن النبي ﷺ أنه أوتر بخمس لم يجلس إلَّا في آخرها إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على الوصل، إلَّا أنا نختار أن يسلم من كل ركعتين لكونه أجاب به السائل، ولكون أحاديث الفصل أثبت وأكثر طرقًا، وقد تضمن كلامه الرد على الداودي الشارح ومن تبعه في دعواهم أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنَّه صلَّى النافلة أكثر من

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ٤٢٠).

ركعتين ركعتين[1].

التَّوسعة الثَّانية: «التَّوسعة في العدد»:

ثبوتُ الوتر بركعةٍ، وثبوتُ أكثر من ركعة..

قال ابن حجر رحمه الله: (ويؤيده ما وقع عند أحمد وأبي داود من رواية عبد الله ابن أبي قيس، عن عائشة بلفظ: «**كان يوتر بأربع وثلاث، وست وثلاث، وثمان وثلاث، وعشر وثلاث، ولم يكن يوتر بأكثر من ثلاث عشرة ولا أنقص من سبع**» وهذا أصح ما وقفت عليه من ذلك، وبه يجمع بين ما اختلف عن عائشة من ذلك، والله أعلم، قال القرطبي: أشكلت روايات عائشة على كثير من أهل العلم حتَّى نسب بعضهم حديثها إلى الاضطراب، وهذا إنما يتم لو كان الراوي عنها واحِدًا، أو أخبرت عن وقتٍ واحِدٍ، والصَّواب أنَّ كُلَّ شيءٍ ذكرته مِن ذلك محمول على أوقات مُتعدِّدةٍ وأحوالٍ مُختلِفةٍ بحسب النشاط وبيان الجواز والله أعلم)[2].

قال ابن حجر رحمه الله: (ففي كتاب محمد بن نصر وغيره بإسناد صحيح عن السائب بن يزيد أن عثمان قرأ القرآن ليلة في ركعة لم يصل غيرها)[3].

التَّوسعة الثَّالثة: «ثبوت الختم به وثبوت الصَّلاة بعده»:

يجوز لمن صلَّى الوتر وقام من اللَّيل أن يصلِّي بعده، وكم يضيِّق النَّاس على أنفسهم في هذا الأمر بغير علمٍ، وبات أحدهم كأنَّه إذا أوتر أول اللَّيل فقد أقفل الصلوات بمفتاح ركعة الوتر، فلا يحل له أن يصلي إلَّا الصبح، وما أكثر الأدلة

---

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٤٧٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٤٧٩).

(٣) انظر: فتح الباري (٢/ ٤٨٢).

على خلاف هذا! وما أكثر ما يفوت على الناس الأجر بسبب هذا الظن! وما أكثر ما ذهبت أعمار عباد زُهاد حين يوترون أول اللَّيل فيقومون بعد ذلك فيتوضؤون ثم يعودون للنوم وقلبهم معلق في الصلاة!

وأظهر الأدلة على هذا حديثُ بلالٍ ﷺ: «**ما أَذَّنتُ قَطُّ إلَّا صليتُ ركعتينِ، وما أصابني حَدَثٌ قَطُّ إلَّا توضأت عندها ورأيتُ أنَّ للهِ عَلَيَّ ركعتين، فقال رسول الله ﷺ بهما**»[1] وحديث: «**يعقِدُ الشَّيطانُ على قافِيَةِ رأسِ أحدِكُم إذا هُو نام ثلاث عُقدٍ، يضرِبُ كُلَّ عُقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُد، فإنِ استيقظ فذكر الله انحلَّت عُقدةٌ فإنْ توضَّأ انحلَّت عُقْدةٌ، فإن صلَّى انحلَّت عُقدةٌ، فأصبح نشِيطًا طيِّب النَّفسِ إلَّا أصبح خبِيث النَّفس كسلانَ**»[2].

قال ابن حجر ﷺ في الصلاة بعد الوتر: (وقد اختلف السلف في ذلك في موضعين: أحدهما: في مشروعية ركعتين بعد الوتر عن جلوس. والثاني: فيمن أوتر ثم أراد أن يتنفل في اللَّيل هل يكتفي بوتره الأول وليتنفل ما شاء أو يشفع وتره بركعة، ثم يتنفل، ثم إذا فعل ذلك هل يحتاج إلى وتر آخر أو لا؟ فأما الأول فوقع عند مسلم من طريق أبي سلمة عن عائشة ﷺ أنه ﷺ كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس، وقد ذهب إليه بعض أهل العلم وجعلوا الأمر في قوله: «**اجعلوا آخر صلاتكم من اللَّيل وترًا**» مُخْتصًّا بمن أوتر آخر الليل.

وأجاب من لم يقل بذلك بأن الركعتين المذكورتين هما ركعتا الفجر، وحمله النووي على أنه ﷺ فعله لبيان جواز التنفل بعد الوتر، وجواز التنفل جالسًا. وأما الثاني: فذهب الأكثر إلى أنه يصلي شفعًا ما أراد، ولا ينقض وتره

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٩)، وصححه الألباني.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٢٦٩)، ومسلم (٣٠٩٦).

عملًا بقوله ﷺ: «**لا وتران في ليلةٍ**»، وهو حديثٌ حسنٌ أخرجه النسائي وابن خزيمة وغيرهما من حديث طلق بن علي، وإنما يصح نقض الوتر عند من يقول بمشروعية التنفل بركعة واحدة غير الوتر، وقد تقدم ما فيه.

وروى محمد بن نصر من طريق سعيد بن الحارث أنه سأل ابن عمر رضي الله عنهما عن ذلك، فقال: إذا كنت لا تخاف الصبح ولا النوم فاشفع، ثم صل ما بدا لك، ثم أوتر، وإلا فصلِّ وتَرَكَ على الَّذي كنت أوترت.

ومن طريق أخرى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل عن ذلك، فقال: أما أنا فأصلي مثنى، فإذا انصرفت ركعت ركعة واحدة، فقيل: أرأيت إن أوترت قبل أن أنام ثم قمت من اللَّيل فشفعت حتَّى أصبح؟ قال: ليس بذلك بأس[1].

التَّوسعة الرابعة: «التَّوسعة في التشهد في صلاة الوتر»:

ثبوتها بِتشَهُّدٍ واحدٍ وبتشهُّدين.

قال ابن حجر رحمه الله: (واستدل بقوله ﷺ: «**صل ركعة واحدة**» على أن فصل الوتر أفضل من وصله، وتُعقب بأنه ليس صريحًا في الفصل، فيحتمل أن يريد بقوله: «**صل ركعة واحدة**» أي: مضافة إلى ركعتين مما مضى. واحتج بعض الحنفية لما ذهب إليه من تعيين الوصل والاقتصار على ثلاث بأن الصحابة أجمعوا على أن الوتر بثلاث موصولة حسن جائز، واختلفوا فيما عداه، قال: فأخذنا بما أجمعوا عليه وتركنا ما اختلفوا فيه.

وتعقبه محمد بن نصر المروزي بما رواه من طريق عراك بن مالك، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا: «**لا توتروا بثلاثٍ تشبَّهوا بصلاة المغرب**» وقد صححه

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ٤٢٠).

الحاكم من طريق عبد الله بن الفضل عن أبي سلمة، والأعرج عن أبي هريرة مرفوعًا نحوه، وإسناده على شرط الشيخين، وقد صححه ابن حبان والحاكم، ومن طريق مقسم عن ابن عباس وعائشة كراهية الوتر بثلاث، وأخرجه النسائي أيضًا.

وعن سليمان بن يسار أنه كره الثلاث في الوتر، وقال: لا يشبه التطوع الفريضة، فهذه الآثار تقدح في الإجماع الَّذي نقله، وأما قول محمد بن نصر: لم نجد عن النبي ﷺ خبرًا ثابتًا صريحًا أنه أوتر بثلاث موصولة، نعم، ثبت عنه أنه أوتر بثلاث، لكن لم يبين الراوي هل هي موصولة أو مفصولة. انتهى. فيرد عليه ما رواه الحاكم من حديث عائشة أنه كان ﷺ يوتر بثلاث لا يقعد إلَّا في آخرهن.

وروى النسائي من حديث أبي بن كعب نحوه ولفظه: **«يوتر بـ(سبح اسم ربك الأعلى) و(قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد) ولا يسلم إلَّا في آخره»** وبين في عدة طرق أن السور الثلاث بثلاث ركعات، ويجاب عنه باحتمال أنهما لم يثبتا عنده، والجمع بين هذا وبين ما تقدم من النهي عن التشبه بصلاة المغرب أن يحمل النهي على صلاة الثلاث بتشهدين، وقد فعله السلف أيضًا، فروى محمد بن نصر من طريق الحسن أن عمر ﷺ كان ينهض في الثالثة من الوتر بالتكبير، ومن طريق المسور بن مخرمة أن عمر ﷺ أوتر بثلاث لم يسلم إلَّا في آخرهن، ومن طريق ابن طاوس عن أبيه أنه كان يوتر بثلاث لا يقعد بينهن، ومن طريق قيس بن سعد عن عطاء وحماد بن زيد عن أيوب مثله، وروى محمد ابن نصر عن ابن مسعود وأنس وأبي العالية أنهم أوتروا بثلاث كالمغرب، وكأنهم لم يبلغهم النهي المذكور، وسيأتي في هذا الباب قول القاسم بن محمد في تجويز الثلاث، ولكن النزاع في تعين ذلك، فإن الأخبار الصحيحة تأباه)[1].

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ٤٢٠).

التَّوسعة الخامسة: «ثبوت فَصْلِ ركعة الوتر بتسليمة، وثبوت وصلها:

روى الإمام البخاريُّ: عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يسلم بين الرَّكعة والرَّكعتين في الوتر، حتَّى يأمر ببعض حاجته[1].

قال ابن حجر رحمه الله: في هذا دفعٌ لقولِ مَنْ قال: لا يصح الوتر إلَّا مفصولًا.

وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن بكر بن عبد الله المزني قال: صلى ابن عمر رضي الله عنهما ركعتين، ثمَّ قال: يا غلام، أرحل لنا، ثمَّ قام فأوتر بركعة، وروى الطحاوي من طريق سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أنه كان يفصل بين شفعه ووتره بتسليمة، وأخبر أن النبي ﷺ كان يفعله، وإسناده قوي، ولم يعتذر الطحاوي عنه إلَّا باحتمال أن يكون المراد بقوله: بتسليمة، أي: التسليمة التي في التشهد، ولا يخفى بعد هذا التأويل، والله أعلم[2].

التَّوسعة السَّادسة: ثبوت الوتر والتهجد على الأرض، وثبوته على الدَّابَّة دون الحاجة للتَّوقُّف:

عن سعِيدِ بنِ يسارٍ أنَّه قال: كنت أَسِير مع عبدِ الله بنِ عمر بِطرِيقِ مكَّة فقال سعِيدٌ: فلمَّا خشِيت الصُّبح نزلتُ فأوترتُ، ثمَّ لحِقته، فقال عبد اللهِ بن عمر: أين كنت؟ فقلت: خشِيت الصُّبح فنزلت فأوترت، فقال عبد اللهِ: أليس لك فِي رسولِ اللهِ ﷺ أسوةٌ حسنةٌ؟! قلت: بلى واللهِ، قال: فإِنَّ رسول اللهِ ﷺ كان يوتِرُ على البعِيرِ[3].

---

(١) رواه البخاري (٩٩١).

(٢) انظر: فتح الباري (٢/ ٤٨٨).

(٣) انظر: فتح الباري (٢/ ٤٨٨).

قال ابن حجر رحمه الله: (قال الطحاوي: ذكر عن الكوفيين أن الوتر لا يُصلى على الراحلة، وهو خلاف السنة الثابتة، واستدل بعضهم برواية مجاهد أنه رأى ابن عمر نزل فأوتر على الأرض)[1].

التَّوسعة السَّابعة: ثبوت قضائه لمن فاته:

قال ابن حجر رحمه الله: (وقال ابن قدامة: لا ينبغي لأحدٍ أن يتعمد ترك الوتر حتَّى يصبح، واختلف السلف في مشروعية قضائه فنفاه الأكثر، وفي مسلم وغيره عن عائشة أنه ﷺ كان إذا نام من اللَّيل من وِجعٍ أو غيره فلم يقم من اللَّيل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، وقال محمد بن نصر: لم نجد عن النبي ﷺ في شيء من الأخبار أنه قضى الوتر ولا أمر بقضائه، ومن زعم أنه ﷺ في ليلة نومهم عن الصبح في الوادي قضى الوتر فلم يُصِب.

وعن عطاء والأوزاعي: يقضي ولو طلعت الشمس، وهو وجه عند الشافعية حكاه النووي في شرح مسلم، وعن سعيد بن جبير: يقضي من القابلة، وعن الشافعية: يقضي مطلقًا، ويستدل لهم بحديث أبي سعيد المتقدم، والله أعلم)[2].

التَّوسعة الثَّامنة: ثبوت التهجُّد أوَّل اللَّيل وأوسطه وآخره:

فقد روي: أنَّ أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما تذاكرا الوتر عند رسول الله ﷺ فقال أبو بكرٍ: أمَّا أنا فأصلي ثمَّ أنام على وترٍ، فإذا استيقظتُ صلَّيت شفعًا شفعًا حتَّى الصَّباح، وقال عمر: لكنِّي أنام على شفع ثمَّ أوتر من آخر السَّحَر،

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٤٨٠).

(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ١٠).

فقال النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكرٍ: «**حَذِرٌ هذا**»، وقال لعمر: «**قوي هذا**»[1].

التَّوسعة التَّاسعة: ثبوتها في جماعةٍ، وثبوتها منفردًا، وثبوتها في المسجد، وثبوتها في البيت:

روى الإمام البخاريُّ عن عائِشة أُمِّ المؤمِنين رضي الله عنها: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ صلَّى ذات ليلةٍ فِي المسجِدِ، فصلَّى بِصلاتِهِ ناسٌ، ثمَّ صلَّى مِن القابِلةِ، فكثُر النَّاسُ، ثمَّ اجتمعُوا من اللَّيلةِ الثَّالِثةِ أوِ الرَّابِعةِ فلم يخرُج إِليهِم رسُولُ الله ﷺ، فلمَّا أصبح قال: «**قد رأيتُ الَّذي صنعتُم، ولم يمنعنِي مِن الخُرُوجِ إِليكُم إِلَّا أنِّي خشِيتُ أن تُفرض عليكُم**» وذلِك فِي رمضان[2].

التَّوسعة العاشرة: ثبوتها بركعتين، وثبوتها بأكثر:

فإنَّ السُّنَّة منها القوليَّة والفعليَّة، ومنها التقريريَّة، والسُّنَّة منها ما سَنَّه المصطفى ﷺ، ومنه ما سنه الخلفاء الراشدون.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**يَعقِدُ الشَّيطانُ على قافِيةِ رأسِ أحدِكُم إذا هُو نام ثلاث عُقدٍ، يضرِبُ كُلَّ عُقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ فارقُد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عُقدةٌ، فإِنْ توضَّأ انحلَّت عُقْدةٌ، فإِن صلَّى انحلَّت عُقْدةٌ، فأصبح نشِيطًا طيِّب النَّفسِ، وإِلَّا أَصبح خبِيث النَّفسِ كسلانَ**»[3].

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٤٦١٥) مرسلًا عن سعيد بن المسيب.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١١٢٩)، ومسلم (٧٦١).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٢٦٩)، ومسلم (٣٠٩٦).

قال ابن حجر رحمه الله: (ذكر شيخنا الحافظ: أبو الفضل بن الحسين في «شرح الترمذي» أن السر في استفتاح صلاة اللَّيل بركعتين خفيفتين: المبادرة إلى حل عقد الشيطان، وبناه على أن الحل لا يتم إلَّا بتمام الصلاة، وهو واضح؛ لأنه لو شرع في صلاة ثمَّ أفسدها لم يساو من أتمها، وكذا الوضوء، وكأن الشروع في حل العقد يحصل بالشروع في العبادة وينتهي بانتهائها.

وقد ورد الأمر بصلاة الركعتين الخفيفتين عند مسلم من حديث أبي هريرة، فاندفع إيراد من أورد أن الركعتين الخفيفتين إنما وردتا من فعله ﷺ كما تقدم من حديث عائشة، وهو منزه عن عقد الشيطان، حتَّى ولو لم يرد الأمر بذلك لأمكن أن يقال: يحمل فعل ذلك على تعليم أمته وإرشادهم إلى ما يحفظهم من الشيطان، وقد وقع عند ابن خزيمة من وجه آخر عن أبي هريرة في آخر الحديث: **«فحلُّوا عُقَدَ الشَّيطانِ ولو بركعتينِ»**[١].

قال ابن حجر رحمه الله: (وظهر لي أن الحكمة في عدم الزيادة على إحدى عشرة أن التهجد والوتر مختص بصلاة الليل، وفرائض النهار الظهر وهي أربع، والعصر وهي أربع، والمغرب وهي ثلاث وتر النهار - فناسب أن تكون صلاة اللَّيل كصلاة النهار في العدد؛ جملة وتفصيلًا، وأما مناسبة «ثلاث عشرة» فبضم صلاة الصبح لكونها نهارية إلى ما بعدها)[٢].

التَّوسعة الحادية عشرة: ثبوته قائمًا وقاعدًا، ابتداءً وانتهاءً:

قال ابن حجر رحمه الله: (قوله: **«فإذا بقي عليه من السورة ثلاثون أو أربعون آية**

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ٢٨- ٢٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ٢١).

قام فقرأهن ثمَّ ركع» فيه رد على من اشترط على من افتتح النافلة قاعدًا أن يركع قاعدًا، أو قائمًا أن يركع قائمًا، وهو محكي عن أشهب وبعض الحنفية، والحجة فيه ما رواه مسلم وغيره من طريق عبد الله بن شقيق عن عائشة في سؤاله لها عن صلاة النبي ﷺ، وفيه: «كانَ إذَا قرأَ قائمًا ركع قائمًا، وإذا قرأ قاعدًا ركع قاعدًا» وهذا صحيح، ولكن لا يلزم منه منع ما رواه عروة عنها، فيجمع بينهما بأنه كان يفعل كلًّا من ذلك بحسب النشاط وعدمه، والله أعلم.

وقد أنكر هشام بن عروة على عبد الله بن شقيق هذه الرواية، واحتج بما رواه عن أبيه، أخرج ذلك ابن خزيمة في «صحيحه»، ثمَّ قال: ولا مخالفة عندي بين الخبرين؛ لأن رواية عبد الله بن شقيق محمولة على ما إذا قرأ جميع القراءة قاعدًا أو قائمًا، ورواية هشام بن عروة محمولة على ما إذا قرأ بعضها جالسًا وبعضها قائمًا، والله أعلم[(١)].

التَّوسعة الثَّانية عشرة: أنَّ مَنْ نام عن تهجُّده كتب له قيام ليلةٍ:

فعن أبي الدرداء ﷺ يبلغ به النَّبيَّ ﷺ قال: **«من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من اللَّيل فغلبته عينه حتَّى أصبح كُتِبَ له ما نوى، وكان نومه صدقةً عليه من ربِّه»**[(٢)].

وعن أبي ذر أو أبي الدرداء - شك شعبة ﷺ - قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبدٍ يُحدِّث نفسه بقيام ساعةٍ من اللَّيل فينام عنها إلَّا كان نومه صدقةً تصدَّق الله بها عليه، وكتب له أجر ما نوى»**[(٣)].

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٣).

(٢) رواه النسائي (١٧٨٧)، وصححه الألباني.

(٣) رواه ابن حبان (٢٥٨٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده جيد.

وأخيرًا، فإنَّ كلَّ هذا التسهيل لمن جاء وقام اللَّيل، أمَّا مَنْ نام ولم يأت ولم يستجب فذلك ليس له توسعة، بل التغليظ عليه.

عن علي بن أبي طالب ﷺ: أن رسول الله ﷺ طرقهُ وفاطِمة بِنت النَّبيِّ ﷺ ليلةً، فقال: «**ألا تُصلِّيانِ؟**» فقُلتُ: يا رسُول اللهِ، أنفُسُنا بِيدِ الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حِين قُلنا ذلِك ولم يرجِع إِليَّ شيئًا، ثمَّ سمِعتُهُ وهُو مُولٍّ يضرِبُ فخِذهُ، وهُو يقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] [(١)].

قال ابن حجر ﷺ: (قال ابن بطال: فيه فضيلة صلاة اللَّيل وإيقاظ النائمين من الأهل والقرابة لذلك، ووقع في رواية حكيم بن حكيم المذكورة: «**ودخل النَّبيُّ ﷺ عليَّ وعلى فاطمة من اللَّيل فأيقظنا للصَّلاة، ثمَّ رجع إلى بيتِهِ فصلَّى هويًّا من اللَّيل فلم يسمع لنا حسًّا، فرجع إلينا فأيقظنا**» الحديث.

قال الطبري: لولا ما علم النبي ﷺ من عظم فضل الصلاة في اللَّيل ما كان يزعج ابنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكنًا، لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة على الدَّعة والسكون امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢] [(٢)]، فهو مجال واسع لا ينبغي لسالكٍ أن يضيق على سالك بغير علم، فضلًا أن ينقص من عمله أو ينقصه.

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ١١).

القُنُوت وَمَا أَدْرَاكَ مَا القُنُوت

قد بوَّب الإمام البخاريُّ بابًا قال فيه: [باب القنوت قبل الركوع وبعده، ثمَّ روى فيه أربعة أحاديث، وهي:

سئل أنس بن مالك: أقنت النَّبيُّ ﷺ فِي الصُّبحِ؟ قال: نعم، فقِيل لهُ: أو قنت قبل الرُّكُوع؟ قال: بعد الرُّكُوع يسِيرًا[1].

وعن عاصِم قال: سألتُ أنس بن مالِكٍ عنِ القنُوتِ، فقال: قد كان القُنُوت، قُلتُ: قبل الرَّكُوعِ أو بعدهُ؟ قال: قبلهُ، قال: فإِنَّ فُلانًا أخبرني عنك أنَّك قُلت بعد الرُّكُوع، فقال: إنَّما قنَتَ رسُولُ اللهِ ﷺ في الرُّكُوعِ شَهرًا أُراه كان بعث قومًا يُقالُ لهُم: القُرَّاءُ، زُهاءَ سبعِين رجُلًا إِلى قومٍ مِن المشرِكِين دُون أُولئِك، وكان بينهُم وبين رسُولِ اللهِ ﷺ عهدٌ، فقنت رسُولُ الله ﷺ شهرًا يدعُو عليهِم[2].

عن أنس بن مالِكٍ قال: قنت النَّبيُّ ﷺ شهرًا يدعُو على رِعلٍ وذكوان.

عن أنسِ بنِ مالِكٍ قال: كان القُنُوتُ في المغرب والفجر][3].

وعن أبي الحوراء قال: قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر، قال ابن جواس في قنوت الوتر: «**اللَّهمَّ اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن تولَّيت، وبارك لي فيما أعطيت،**

---

(١) رواه البخاري (١٠٠١).

(٢) رواه البخاري (١٠٠٢).

(٣) رواه البخاري (١٠٠٣).

وقني شرَّ ما قضيت، إنَّك تقضي ولا يقضى عليك، وإنَّه لا يذلُّ مَنْ واليت، ولا يعزُّ مَنْ عاديت، تباركت ربَّنا وتعاليت»[1].

عظم شأن القنوت:

القنوت الَّذي كان الخلاف كبيرًا بين أهل العلم أيكون في صلاة الصبح أم لا يكون؟ وكيف يكون؟ ومتى؟ بينما لم يختلف العلماء أنه مشروع في النوازل إلى يومنا هذا.. فهو عدة الأمة للنوازل.. ولولا ما جعل الله له من قدر عظيم عنده ما شرعه استنصارًا من الأمة القانتة لمجاهديها ولمنكوبيها ولمظلوميها.

ولولا عظم أثره في النصر وفي هزيمة العدو - أيًا كان - ما وَحّد الله هذه الأمة بالدعاء حتَّى تهيج بالاستغاثة بالله والتأمين في القنوت ... في الفرائض قبل النوافل.

فيا ربِّ، ما أعظم شأن القنوت عندك!

سبحان الله! كيف شرع تسمية هذه الشعيرة «بالقنوت» مع أنه ثناء ودعاء؟!

كأن هذا الدعاء والثناء لا يكون إلَّا مع القنوت، والقنوت هو: الطاعة في سكون، أو هو المداومة على الطاعة، وقال الحنفية: إن القنوت يطلق على العبادة، وإقامة الطاعة، والإقرار بالعبودية، والسكون، وطول القيام، كما يطلق على الدعاء في الوتر.

سبحان الله! كيف جُعل هذا الدعاء في هذه الركعة الأخيرة؟ كيف سميت الوتر؟ ولا ركعة منفردة في السنة غيرها؟ ألأنها أثقلت بالدعوات التي تكفيها عن غيرها من الركعات؟ أم لأنها الأخيرة في صلاة اللَّيل الزوجية؟!

نعم ركعة، لكنها رافعة كافية وافية..

---

(١) رواه أبو داود (١٤٢٥)، وصححه الألباني.

أيها العابدون في لياليكم المباركة هذه: أتقربتم إلى الله في الصلاة ... ألم تقرؤوا القرآن قيامًا؟ ألم تركعوا.. ألم تسجدوا.. ألم تنتهوا من صلاة النهار كلها.. نعم: وها أنتم قد انتهيتم من صلاة الليل..؟! ماذا بقي؟ لقد بقي الَّذي لكم.. فبعد التزلف لله وطول الثناء عليه، بقيت حاجياتكم.

الآن اطلبوا من ربكم ما تشاؤون، فما جزاء من طرق الباب مناديًا إلَّا أن يُفتح له الباب ليتقدم فيطلب.. ما حق من رابط النهار والليل إلَّا أن يفتح له آخر الليل؟! سبحانك ربنا كأن كل ما سبق الوتر من صلوات كان ثناءً قوليًّا وعمليًّا، وكان قنوت الوتر لسؤال الحاجيات ترتيبًا محكمًا وتعقيبًا منطقيًّا كما هو شأن فاتحة الكتاب، وأدب الدعاء.

نعم: للفرد أن يدعو بما شاء طوال اللَّيل والنهار.. فباب الله لا يقفل عن طارق متى طرق بما شرع الله سبحانه.. لكن القنوت جاء بتشريع خاص.. جاء بطلب من الله سبحانه لعبده أن يطلبه.. وكم هو الفارق ما بين أن يكون الطريق مفتوحًا لمن شاء وبين أن توجه دعوة خاصة بطريقة خاصة..؟!

أرأيت أيُّها العبد كيف أنَّ صلاة الوتر ما كانت مشروعةً أوَّل ما شُرعت صلاة الفريضة.. والظَّاهر أنَّها جاءت متأخِّرةً كذلك عن تشريع صلاة الرواتب لظاهر قوله ﷺ: «**إنَّ اللهَ زادكم صلاةً فحافظوا عليها وهي الوتر**»، فكان عمرو بن شعيبٍ يرى أن يُعاد الوتر ولو بعد شهرٍ[1]، وقوله: «**إنَّ الله زادكم صلاةً وهي الوتر، فصلُّوها بين صلاة العشاء إلى صلاة الفجر**»[2].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٠٥) من حديث جد عمرو بن شعيب. قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٧)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

أرأيت كيف جاء توقيت صلاة الوتر متأخرًا عن صلاة النَّهار واللَّيل في كلِّ يومٍ من الأيَّام.. كما جاءت متراخيةً في التَّشريع عن باقي الصَّلوات؟

أرأيت كيف جاء تشريع صلاة الوتر وهي منفردة وحدها.. كل ذلك من هذا الحديث العظيم في تشريع هذه الصلاة العظيمة..

حتى إن ما ورد عن رسول الله ﷺ من صلاة ركعتين جالسًا بعدما صلى ركعة الوتر - عند من قال بصحتها -.. فإن ذلك يزيدها عظمة وشأنًا.. ويقربها من مقام صلاة الفريضة حيث إن هاتين الركعتين للوتر كالسنة البعدية للفريضة. وذلك أن ركعة الوتر هي الأصل كما قال ابن القيم: (وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسًا تارة، وتارة يقرأ فيهما جالسًا، فإذا أراد أن يركع، قام فركع، وفي «صحيح مسلم» عن أبي سلمة قال: سألتُ عائشةَ ﵂ عن صلاة رسولِ الله ﷺ، فقالت: كان يُصلِّي ثلاثَ عشرة ركعةً، يُصلِّي ثماني ركعاتٍ، ثمَّ يُوتِر ثمَّ يُصلِّي ركعتين وهو جالس، فإذا أراد أن يركع، قام فركع، ثمَّ يصلي ركعتين بين النِّداء والإقامةِ من صلاة الصُّبح)[1].

وفي «المسند» عن أمِّ سلمة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُصلِّي بعد الوتر ركعتين خفيفتين وهو جالسٌ[2].

وقال الترمذي: رُوِيَ نحوُ هذا عن عائشة ﵂، وأبي أُمَامة ﵁، وغيرِ واحدٍ عن النَّبيِّ ﷺ.

وفي «**المسند**» عن أبي أمامة، أن رسولَ اللهِ ﷺ كان يُصلِّي ركعتين بعد الوتر

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٢١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٦/ ٢٩٨)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح من حديث عائشة، وهذا إسناد ضعيف.

وهو جالسٌ، يقرأ فيهما بـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(١)].

وروى الدَّارقطنيُّ نحوَه من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

وقد أشكل هذا على كثير من الناس، فظنوه معارضًا لقوله ﷺ: «**اجعلُوا آخِرَ صلاتكم بِاللَّيلِ وِتْرًا**»، وأنكر مالكٌ رحمه الله هاتين الرَّكعتين، وقال أحمد: لا أفعله ولا أمنعُ مِنْ فِعْلِه، قال: وأنكره مالكٌ، وقالت طائفةٌ: إنَّما فعل هاتين الرَّكعتين ليبيِّن جوازَ الصَّلاة بعد الوتر، وأن فعله لا يقطع التنفل، وحملوا قوله: «**اجعلُوا آخرَ صلاتكُم بِاللَّيلِ وِتْرًا**»[(٢)] على الاستحباب، وصلاة الرَّكعتين بعده على الجواز.

والصواب أن يقال: إن هاتين الركعتين تجريان مجرى السنة وتكميل الوتر، فإن الوتر عبادة مستقلة، ولا سيما إن قيل بوجوبه، فتجري الركعتان بعده مجرى سنة المغرب من المغرب، فإنها وتر النهار، والركعتان بعدها تكميل لها، فكذلك الركعتان بعد وتر الليل، والله أعلم)[(٣)].

فهل رأيت صلاة سنة تُشرع لها صلاة سنة؟ إنها صلاة الوتر.

أيها القارئ المكرَّم: حين تتأمل دعاء القنوت تجد فيه عجبًا.. وتجد موضعه عجبًا.. فموقع هذا الدعاء هو القيام في الصلاة بعد الثناء على الله في أثر الاعتدال من الركوع.. فالثناء على الله فيه مشروع، والدعاء بالقنوت مهيأ له الطريق؛ لأنه جاء بعد الثناء، ويختتم بالصلاة على رسول الله ﷺ على المشهور من آثار الصحابة.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٠)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٩٩٨)، ومسلم (٧٥١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٣٣).

وكم أعطى الوقوف لدعاء القنوت من معانٍ..؟ فإن في الوقوف مع الطلب افتقارًا وإصرارًا أكثر.. في الوقوف مع الطلب تذلل وإلحاح أكثر.. في الوقوف عزم من العبد على ربه سبحانه برفع للمضرات مهما كانت.. في الوقوف هيئة الاضطرار مع الاستعجال.. فما يقعد الواقف الطالب - عادة - عند العرب حتَّى يجاب طلبه وإلا مشى وخرج، أما إذا طلب وهو قاعد فإن طلبه لا يكون بقوة وضرورة صاحب الطلب الواقف.

ألا ترى كيف ذكر الله سبحانه عن إجابة الضرورات، بل المعجزات قيامًا بين يديه، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ [آل عمران:٣٩].

وقال عن رسوله ﷺ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، وقد ورد أن النبي ﷺ بعدما صف الصفوف وتواجه الجيشان، وكان قد بني له ﷺ عريش، وقف أمام عريشه ومد يديه داعيًا ربه سبحانه.

فعن عبد الله بن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثمَّ مد يديه، فجعل يهتِفُ بِربِّهِ: «**اللَّهُمَّ أَنجِز لِي مَا وعدتني، اللَّهُمَّ آتِ ما وعدتني، اللَّهُمَّ إن تُهلك هذه العصابة من أهلِ الإسلام لا تُعبد في الأرضِ**»، فما زال يهتفُ بربِّهِ، مادًّا يديه، مستقبل القبلة حتَّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه ثمَّ التزمه من ورائه، وقال: يا نبِيَّ الله، كفاك مُناشدتُك ربَّك، فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال:٩] فأمده الله بالملائكة[١].

ثم أي حاجة أعظم عند الناس من حاجة الماء؟!

ألا ترى كيف كان دعاء رسول الله ﷺ قائمًا في صلاة الاستسقاء وما غير قيامه ومقامه حتَّى جاءت الإجابة.

أي حاجة أشد من حاجة الميت.. ألا ترى كيف جعل صلاة الجنازة كلها دعاء، وجعل دعاء الداعين حال كونهم واقفين مع أنه دعاء سري وليس جهريًا يحتاج إلى تأمين؟!

يا أيها القائمون في دعاء القنوت: إن لقيامنا بين يدي ربنا في قنوتنا مقامًا كبيرًا، فلا يضيع هذا المقام بعدم معرفتنا بقيمة الطلب قيامًا، فذاك من سوء الفهم وعدم تقدير المقام.

يا أيها القائم: اعرف مقامك، واجتهد في الدعاء، واعزم على ربك، وأنت واقف رافع يديك إليه، ولا تنس أنك تدعوه إذ أنت في صلاة، بل أنت في ختام صلوات النهار والليل.

اجمع طلباتك الأخيرة، وارفعها، فربك سبحانه هو من شرع هذه الوقفة لهذا الطلب.

يا أيها القانت في وتره: اجعل قلبك مع كل دعوة حاضرًا.. فلا تدري إلى أي دعوة تحتاج.. فحضور قلبك بالتأمين الصادق.. التأمين المضطر هو عنوان القبول الأول لدعوتك، فإذا لم يستجب الله للقلب الغافل اللاهي فإنه يستجيب

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

للقلب الداعي الواعي، والله سبحانه يحفظ كل ما رفع له قلبك مهما كثر، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

أيُّها الإمام، يا مَنْ تقدَّمت على النَّاس بين يدي الله سبحانه، إياك أن يُرد دعاء النَّاس بسبب دعائك.. إياك أن تلتفت لمن وراءك من مصلين وتترك من توجهت له وهو رب العالمين.

إياك أن يدخل الشيطان بينك وبين ربك حين يلفت قلبك بالنظر لكلمات دعائك؛ طلبًا لاستحسان المصلين لكلمات الدعاء، وصياغته العجيبة وسجعه الفريد!

فالله مطلع على خفي النيات، ودوافع الكلمات، والنظر لأحد مع الله في الدعاء يجعل كلماتك مهما ثقلت بلاغة وجزالة لا ثقل لها في ميزان الله، ولا صوت لطرقها على باب الإجابة.. هذا إن سلمت من الشرك الخفي أو رياء التسميع، لكن رب العالمين يعلم بذاك الإمام الَّذي أعد كلمات الدعاء إعدادًا وحفظها من أدعية الأنبياء والملائكة ودعاء المصطفى ﷺ حفظًا.. لا يريد إلَّا التقرب إلى الله بما يحبه الله.. وتفتيح قلوب عباده بتلك الكلمات.. وإثارة صدق عباده عند مناجاة الله ومناداته سبحانه.. وهذا الإمام يعلم أنه لو ترك الأمر لحفظه المجرد وقلبه المعلول ربما لم يُفتح له.. لقد ذهب من يفتقون أبكار العربية على السجية.. ويلهمون الدعاء إلهامًا.. فيفيض منهم فيضًا يذهل أهل البيان عما طواه من مخزون المعاني، مع قوة إيمانية خفية تتفجر باليقين، تزلزل جذور القلوب، فأط الصدر لها وأز، وزمجر القلب وثوَّرها فأخرجها اللسان رغمًا عنه كأنها حمم البركان كانت تمور في قلب ذاك الرجل الإمام ... بل الجبل

الَّذي في الأمام.. بالمعادن الملتهبة في جوفه تدفعها إلى الأعلى دفعًا.. حمم الغيرة على الدين.. حمم الإشفاق من رب العالمين.. طلب الجنة التي يخشى فواتها، والنار التي يخشى أن يكون طعامها.. والخاتمة التي أرهقته.. ومطرقة القبر التي أرعبته.. وهول المطلع الَّذي يفزعه إذا ذكره.. والحساب والميزان والصحف والصراط.. ويا للصراط!

إن ذهاب المقدرة اللغوية.. والسجية الإيمانية جعله ينتقي ما يبكيه بينه وبين نفسه أضعاف أضعاف ما يبكيه بين الخلق.. وهو متجلد متماسك.. يسأل ربه ألَّا يفضح إخلاصه، ويحسن من هذا الدعاء خلاصه.

أيها الإمام، كل ظن المصلين فيك الإخلاص، فلا تشغل نفسك بتقديم دليل الإخلاص من التباكي والتناحُب، فذلك - والله - مما يكشف غبش صاحبه إذ هو مستور، ويخفض صاحبه إذ هو مرفوع، بعمل قد كان أغنى النَّاس عنه، فالتباكي للإمام منهي عنه؛ لأنه تظاهر أمام الناس، أما بينك وبين نفسك فالأمر مطلوب!

أيها الإمام، كلما كثر الناظرون إليك أو المصلون خلفك كلما حفزك ذلك لمزيد تجريد الإخلاص، ومزيد الالتفات عنهم إلى الله.. وإلا فعلى كم من البشر سوف تقسِّم قلبك؟! فهؤلاء إن لم يكونوا شهداء لك كانوا شهداء عليك.

أما قنوت الحرم[1] فيا لقنوت الحرم ما أعظمه! ما أكبره! ما أجله! ما أعظم بركته! ما أسماه! فكأن الأرض به سماء.. وكأن سُوح الحرم أطت بالملائكة..

(١) ويدخل في هذا المسجد النبوي والمسجد الأقصى وتجمعات المسلمين الكبرى وكل له أجره، وإن اختلفت الدرجات فالله الله في القلوب وقربها، أينما كانت حتى لو كنت وحدك في بلاد الكفر.

أو كأن القلوب صدرت عن صدورها، ونفضت عنها ترابها وهاجت.. فظهرت ونطقت.. ورفعت ما فيها..

هنا كلمات.. وهنا تأمين.. هنا عبرات.. هنا نشيج.. هنا تسبيح.. هنا أزيز.. وهنا عويل ونحيب..

ويا لقنوت الحرم! كيف يخلع القلب، ويقشعر الجلد، ويفيض العين، ويذهل القانت عن نفسه وما بين يديه؟

كيف يصبر النَّاس على هذا القيام الطويل رافعين أيديهم إلى الله؟!

كيف يهيجون بالبكاء والنحيب خشوعًا وتذللًا وتوسّلا وتبتلًا..؟

يا لقنوت الحرم! بركان من الثناء والدعاء يتفجر.. يُنسي القائم القانت وصف الإمام الداعي وشخصه، ذاهلًا عن الحرم نفسه.. ذاهبًا مع الكلام الصاعد لربه.. يشعر أن روحه تصعد مع كل جملة ثناء ودعاء، بل يشعر كأنها تطير إلى ربها سبحانه كالشرارة ذاهبة في السماء.

لمن يقول: إن التطويل في الدعاء مخالف للسنة، هذا رأيه، ولكن أترى ما ورد من دعاء في القنوت للتوقيف؟ وهل إذا دعا الداعي بغير هذه الكلمات الواردة في القنوت وإن كان بطولها خالف السنة؟ معاذ الله أن نتألى على الله! إن الموقف عظيم، والموقف بنفسه ناطق متحدث.. ولا يحتاج لمن يفصح عنه.. بل كأن الله يقول لنا سبحانه: يا عبادي، ألم تصلوا لي طوال النهار والليل.. ألم تتهجّدوا هذه الليلة.. ألم تقوموا بين يدي طويلًا بالقرآن وهو كلامي.. ألم تسجدوا لأجلي.. ألم تذكروني في صلاتكم قيامًا وقعودًا.. ركوعًا وسجودًا.. جاء الآن وقت طلباتكم.. ارفعوا إليّ حاجياتكم وأنتم وقوف قبل أن تسجدوا،

وأنتم قيام قبل أن تقعدوا.. ارفعوها في آخرِ قومة لكم بين يدي في آخر هذه الليلة وختامها.. وسترون ما أصنع بدعائكم..

فهل هذا الموطن موطن غفلة.. أيمكن للقلب أن يفر خارج الحرم؟!

إنها جموع عزيزة على الله سبحانه..

فهل من أكف ترفع في لحظة واحدة في ساعة واحدة مجتمعة بهذا العدد الكبير ... بهذا النظام الفريد مثلما ترفع هنا، فكيف لا تكون عزيزة على الله؟

سبحانك يا ربي! كيف لا تكون هذه الأكف عندك كريمة وهذه الأرض كلها طولًا وعرضًا لا تشهد عُبادًا مثل هؤلاء مجتمعين يهتفون باسمك ... وهذا ما أمرتهم به، وهو أحب ما يكون إليك؟!

كيف لا، والدنيا لم تشهد قلوبًا تهيج في ليل نحو ربها في الدعاء - كأنها تراه سبحانه - مثل هذه القلوب في هذا المكان؟!

سبحانك ربنا! تغار ... فتنتقم، تغار فترحم وتكرم.. سبحانه من رب حيي يستحيي أن يرفع إليه عبده كفيه ثمَّ يردهما صفرًا.. فكيف وكل هذه الأكف ترتفع وقوفًا في صلاة في وقت واحد.. مجتمعة على دعاء واحد؟!

سبحانك ربنا تغار على دمعة الخشية والخشوع.. ودمعة التوسل والتذلل تسقط من عين عبدك - حتَّى لو كانت مثل رأس الذبابة - إلَّا وحرمت عينيه على النار العظيمة بتلك الدمعة الصغيرة[1]..

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**». رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصححه الألباني.

باركت الدمعة حتَّى أصبح هذا أثرها.. ولو أمطرت السموات عمرها كله ومطرها كله ما أطفأ النار الكبرى لحظة، فكيف والدمع الليلة مهراق في سبيلك ربنا ... على موضوع واحد.. ودعاء واحد.. في وقت واحد؟

أي عمار لليل مثل عمار أمة محمد ﷺ لرمضان.. وربما يراها ويشهدها سبحانه.. هنا المسجد الحرام.. هنا المسجد النبوي.. هناك المسجد الأقصى.. وفي كل بقاع الدنيا المساجد.. في بلاد النصارى والمجوس والبوذيين والهندوس والملحدين تهيج القلوب من بيوت الله إلى الله في هذه الليالي، فأي مشهد سماوي للأرض مثل هذا المشهد.. وأي ليل مثل هذا الليل؟! ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨-٢٠].

فهنيئًا لكم أيها المجتمعون بهذا الجمع العظيم الكبير المتحد على الدعاء وراء إمام واحد أينما كنتم.. نشيدكم بل نشيجكم التأمين ... تُحشرجه عبرات الخاشعين.

عبد يُصغي لدعاء الإمام.. فيفقهها قلبه.. فتعجن بكيانه.. فتفيض فورًا لها عينه.. ويهتف عندها لسانه ... آمين آمين يا ربِّ العالمين.

أي أعداد من الملائكة تحف هذا الجمع الذاكر الداعي..؟

أيتها الجموع في كل مكان: إياكم أن تصادروا حق أصحاب الحق الأصلي إلى حقكم الشخصي.. إياكم أن تنسوا مَنْ شَرَعَ رسول الله ﷺ لأجلهم القنوت أول ما شرعه.. حتَّى نُسخت بعض صور القنوت وبقيت الصورة المتفق عليها وهي الصورة الأولى ... الصورة الباقية إلى يوم القيامة!

إياكم أن تنسوا أصحاب الحق الأصلي وهم أهل النوازل، وما أكثرهم في هذا العالم المترامي من المسلمين في كل مكان!

تدعون في القنوت لأشخاصكم ولدولكم وتنسون من شُرع الدعاء لهم في صلاة الفريضة في شكل قنوت!

هنا منكوبون.. وهنا قرى اجتاحتها الفيضانات، وهناك صحاري اجتاحها الجفاف حتَّى الموت، وفي تلك البلاد زلازل وخسف ابتلع قرى بأكملها.. ثمَّ لا تلتفتون لهم في قنوتكم؟!

وأي نازلة أعظم من هجمة العالم الصليبي الصهيوني والباطني على العالم الإسلامي.. ووطئه بأرجل جحافله أرض المسلمين، واحتلاله الفعلي لبلاد الإسلام، وتمكنه منها، وتكالبه على إطفاء شمعة الجهاد في سبيل الله، الشمعة الصادقة، بل الشمس الصادقة التي لا غلو فيها ولا شذوذ.

كل من يصلي خلف إمام يقنت ثمَّ هو لا يراه يدعو للمجاهدين الصادقين يَشتَمُّ من قلب إمامه - على أحسن الظنون - الخوف من غير الله؛ إذ هو بين يدي الله إن لم يكن الإمام ناسيًا؛ ويشتَمُّ منه تقديم مرضاة غير الله على مرضاة الله.. والاحتياط لنفسه أكثر من الاحتياط لأمته.. وغلبة التمثيل على صدق الحقيقة الكامنة في نفسه.. وثمة أمور صعبة يتحدث بها جل الناس، حيث لا يجدون لإمامهم عذرًا، ويقولون: أرأيته يذكر كل شيء في دعائه إلَّا المجاهدين لا يذكرهم؟! أتخشى يا إمامنا قطاع الطريق في طريق دعائك إلى الله؟ أم تخشى غير الله؟ هذا أكبر مطعن في قبول دعائك؛ لذلك نحن نخاف على دعائنا.. ولو كان الأمر نسيانًا لقبلنا، ولكنه منهج دعائك الخائف المجامل.

راجع يا إمامنا شروط الدعاء المجاب من جديد، راجع مكانتك في قلوب المصلين وسوف تجد أنك كما أسقطت المجاهدين أسقطك الله من قلوب من يصلون خلفك ... بل كلما ازداد المستمعون إليك ازداد سقوطك، فارفع ذكر الله وأولياء الله يرفعك الله.

وأعود لأؤكد أن مقصودنا بالمجاهدين هم أولئك الصادقون الذين يدافعون حقًّا عن هذا الدين وعن حرماتهم ومنها حرمات البلاد.

أي شهادة أبلغ من شهادة هذه الأمم المحتشدة في الحرم، وفي كل مكان ... فإنه إذا ما دعا الإمام للمجاهدين خاصةً.. حسبتَ الحرم يفور بـ «**آمين**» كأنه الوهج يقذف بشرر الصدق يرتفع من صحن البيت وطبقات الحرم إلى السماء ومعه دوي هائل بـ «آمين» يصحبه عويل، وربما صراخ إلى الله سبحانه.

مع أن النبي ﷺ نهى عن الصراخ ورفع الصوت بالدعاء كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنا إذا عَلونا كبَّرنا. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أيُّها النَّاسُ، ارْبَعوا**[1] **على أنفُسِكم، إنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ، ولا غَائِبًا، ولكن تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا**»، ثمَّ أتى عليَّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلَّا بالله، فقال: «**يا عَبدَ الله بْنَ قَيْسٍ، ألا أدُلُّكَ على كلمةٍ هي كَنْز من كُنوزِ الجَنَّةِ؟ لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله**»[2].

فيا من تقدمت للإمامة - في كل مكان - تذكر أن قنوت النوازل ما كان إلَّا لأجلهم، ادع الله بحوائجكم، ولكن إياك أن تذكر نفسك وتنساهم!

يا أيها المسلم القانت القائم! إياك أن تحطم نفسك إذا نظرت للباكين وأنت

---

(١) اربَعوا بهمزة الوصل وفتح الياء؛أي:هوِّنوا على أنفسكم ولا تشقُّوا عليها برفع الصوت.
(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

لا تبكي، أو سمعت أزيز صدر من بجوارك وأنت في غفلة.. فلعل من بجوارك مرت عليه مثل حالتك والآن خرج منها، فتوجه لمن أخرجه يخرجك..

لا تقنط: فعندك من مخزون محبة الله سبحانه ورسوله ﷺ ما لو جعلت بجواره الكبائر لشفعت تلك المحبة لك - بإذن الله - فكيف وأنت ما جئت هنا إلَّا راجيًا عفو الله ومغفرته للغدرات والعثرات..؟!

بل والله، لو جئت اليوم وأنت في هذا الحال الصامت لا بكاء ولا دمعة، بملء هذه الأرض المترامية خطايا.. أو زنة الجبال الرواسي التي تعرفها والتي لا تعرفها آثامًا ورزايا.. جئت بهذا القلب المنيب التائب.. وهذا الانكسار الصامت الخاشع دون كلمة ولا دمعة.. دون بكاء ولا عويل لأزال الله بهذا السر جبال الآثام التي جئت بها، وملأ إناء أرضك الَّذي ملأته إثمًا: مغفرة، ولا يبالي سبحانه.

أيحرم واحد والأساس عند الرب سبحانه: «**هُمُ القومُ لا يَشْقى بهم جَلِيسُهم**»(1)، وكما أن صلاة الاثنين أزكى من صلاة الواحد، وصلاة الثلاثة أزكى من صلاة الاثنين، فاحرص على تكثير جمع القنوت ومساجده الكبرى.. ثمَّ أي صلاة أزكى من صلاة من في الحرمين والمسجد الأقصى ومساجدنا الكبرى ثمَّ الصغرى.

وبما أن دعاء العبد في قنوته جزء من صلاته فإن دعاءه في قنوته أزكى وأزكى بما لا يحصى، كيف وكل جزء في الصلاة في الحرم بمائة ألف صلاة فيما سواه؟ فالسجدة بمائة ألف سجدة، والركعة بمائة ألف ركعة، وصلاة الجنازة بمائة ألف صلاة جنازة.. فكذلك القنوت في الحرم بمائة ألف قنوت فيما سواه.. والله أعلم، فيا رب تقبل.

---

(1) جزء من حديث، رواه مسلم (٢٦٨٩) عن أبي هريرة ﷺ.

الغَايَةُ: العِتْقُ مِنَ النَّارِ

بقدر ما يكون اليقين بأن النار حق، بقدر ما يكون الدعاء بالعتق منها قويًا.

بقدر ما يكون تصور خطورة النار على النفس، بقدر ما يكون طلب النجاة صادقًا..

النار يا عباد الله النار!

هل قَدَرْنا النارَ حَقَّ قَدْرِها؟ هل أعطينا دعاءَها جِدِّيته المناسبة لخطرها؟

لعل حرقة الدعاء تدفع حرقة النار.. لعل حرارة الدعاء اليوم تدفع حرارة النار غدًا.

يا عباد الله! أفيقوا، فإن النار هي النار.. فهل يقوى حي اليوم على صليهِ في نار الدنيا.. شوي جلد ولحم وعصب وسمع وبصر ودماغ.. شوي قلب وأحشاء في النار.. فهل دعاء النجاة من نار الدنيا كأي دعاء.. فكيف بحرارة الدعاء من نار الآخرة التي قال فيها النبي ﷺ: **«ناركم جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنَّم»**(1).

يا عباد الله! جدوا في الهرب منها: فإن تلك النار هي الصورة الأكبر لغضب الله.. فكيف وقد حان وقت الغضب.. كيف وقد غضب الله تعالى غضبًا لم يغضب قبله ولا بعده مثله أبدًا؟! كيف إذا أراد الله أن يعذب.. كيف وهو الَّذي خلق.. ويعلم ما خلق.. ويعلم مواطن ضعف مخلوقه، وأسرار آلامه؟!

---

(1) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

إنه سبحانه إذا خلق أحكم.. فكيف بإحكامه النار وما فيها.. وما خلقها إلَّا لهذا؟ فاللهم إنا نعوذ بك من النار، اللهم إنا نعوذ بك من النار، اللهم إنا نعوذ بك من النار.

يا إخوتاه: والله لو كانت نارًا مجردة لكانت عذابًا لا نظير له.. فكيف وفيها ما فيها من أصناف العذاب، وآلات النار، ومخلوقات النار؟! وفيها خلق خلقوا لهذا العذاب.. هؤلاء الخلق عبوديتهم لله - جل جلاله - بتعذيب أهل النار.. فقطرة من زقومها تفسد جميع هذه الطيبات وهذه الحياة كلها، فكيف بالزقوم خالصًا غير مخفف ولا مشوب.. هل تصوّرتم؟!

يا أمة محمد ﷺ! لقد كانت عظمة شفقة رسول الله ﷺ علينا من النار، كيف وهو حامل الوصف الإلهي ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].. لقد تكعكع حين ظهرت له في حائط مسجده.. وقد كان يستعيذ منها في ختام كل صلاة، وعلمنا الدعاء بالوقاية منها بين الركن والمقام.

يا أهل الايمان! قال الله لنا في القرآن مقربًا أمر النار حتَّى لكأننا نشاهده: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ﴾ [الطور:١٤]، ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [يس:٦٣-٦٤].

سيأتي يوم تكون حقًّا: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور:١٤]، ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [يس:٦٣]، هذه النار هي النار التي كنا نطلب العتق منها في الدنيا غافلين عن الجدية التي أدركناها اليوم عنها.

يا أيها العقلاء يا أصحاب الإحساس: ألا يكفي أن يحسسنا ربنا بطبيعة النار، فاللهم إنا نعوذ بك من النار، ألا يفزعنا ذكر ربنا لأوصاف النار لنا، فيقول عنها

أنها ﴿تَلَظَّىٰ﴾.. أنها ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ أنها ﴿جَهَنَّمَ﴾ .. أنها ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾، أن ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾، ولها كيان، ولها زمام، إنها مستديرة، وأن لها ملائكة العذاب، وأن لها دخانًا، وأن لها ماء حميمًا، ولها غسلين، ولها أغلال وأقماع.

ربما شاهد المرء في حياته أناسًا في وسط النار يحترقون، وآخرين يشتون فيتحرقون ويتلبطون ثمَّ يموتون، فيتوقف تلبطهم في النار، يسكت صراخهم، فالموت قضى على كل ذلك كما يظهر، أما عذاب هذه الحطمة.. فلا.. لا روح تخرج، ولا راحة تحدث، ولا توقف ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٥، ٧٦].

أيها المسلمون! ما وصف الله سبحانه وتعالى هذه النار كعبارات على قراطيس.. ولا صورة على ألواح.. ولا نقش في رخام.. إنما هي النار التي ما أعدت إلَّا لهذا الإنسان ولمثيله من الجان.. ما أعدت إلَّا للعذاب وإنها لمحيطة بأصحابها.. وأنه لا فكاك من هذه الإحاطة.. صحيح أن الله سبحانه قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩].

يا أيُّها القرَّاء لكتاب الله: تأمَّلوا، ثمَّ تأمَّلوا، ثمَّ تأمَّلوا ...

تأملوا وصف الله سبحانه لأهل النار، ولن تدركوا الحقيقة الكاملة في داخل الكلمات الإلهية، إنني أختصر لك فأقول: إن الحقيقة العظمى في تلك الكلمات سوف يدركها من يدخل النار.. فاللهم إنا نعوذ بك من النار.

لكن انظروا في هذه الكلمات واتركوا الروح معها تروح.. اتركوا التصور لها يُصَوِّر..

انظروا في الحركة التي يتحركها أهل النار.. إنها ليست أخشابًا تُحرق، إنما

أرواح تتعذب، وأبدان تصطلي.. وأحاسيس تتقطع.. وأعصاب في ذروة حياتها تُحرق، فيا للحركة في النار!!

تأمل الشربة وأين تسري.. تأمل اللقمة وماذا تصنع.

والنبي ﷺ ذكر لنا معاشر المؤمنين، أنَّه سبحانه يعتق كلَّ يومٍ رِقَابًا من النَّار فيقول: «**إذا كان أوَّلُ ليلةٍ من شهر رمضان صُفِّدت الشَّياطين ومَرَدَة الجنِّ، وغُلِّقت أبواب النَّار فلم يُفتح منها بابٌ، وفُتِّحَتْ أبواب الجنَّة فلم يغلق منها بابٌ، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، وباغي الشَّرِّ أقصرْ، ولله عتقاء من النَّار، وذلك كلَّ ليلةٍ**»[1].

فما أعظم مناسبة العتق لليل رمضان..! فالليل مظلم، والنار مظلمة..

وليل رمضان أعظم مواطن الرحمة.. وليل رمضان هو مسك ختام يوم الصِّيام وتمامه، ووقت جوائزه ... وليل رمضان هو موطن التَّراويح والقيام، وذلك هو ثمن الفكاك ودخول الجنة، كما قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨] ، وبالليل تبلغ أعلى المنازل كذلك، كما وجه الله رسوله ﷺ، فقال له: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

فماذا عمن مرت الليالي المباركة وانقضت ولم يعتق من النار..؟! ماذا عمن انقضى عمره وطويت صحيفته ولم يعتق من النار؟! ماذا عمن إذا جيء يومئذ بجهنم ولم يعتق بعد من النار؟ عمن يقول الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٦٨٢)، وصححه الألباني.

لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٢-١٣] أليس عن أصحابها؟ من يفك طوقها إذا استحكم على أصحابها؟

يومئذ يعرف من أعتقوا عظم فضل الله عليهم بالعتق.. هنا لا يعرف من أعتقوا في رمضان أو في عرفة وما أكثر من يعتق في هذين الوقتين! هناك يعرفون قيمة هذين الوقتين المكرمين.. وهناك يعرف المفرطون المستخفون بطلب العتق من النار أي خطورة استهانوا بها؟!

فهل تجلت قيمة كل ليلة من ليالي رمضان؛ لأن فيها عتقاء الله من النار؟

هل ظهرت قيمة ساعاتها المعدودات.. ولحظاتها الخاطفات الآفلات؟!

شتان بين ذكرى من سيذكرها فيحمد الله على أن هداه وأيقظه فيها إلى نفسه فأخذ اللَّيل بالجد اللائق به فرأى هناك عتق نفسه قد كان في ليلة من ليالي رمضان.. وبين من سيذكرها بالندم؛ لأنه لم يقدرها قدرها، مع أن الله سبحانه قد قال للجميع: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

يا عباد الله، بالله عليكم جدوا في طلب العتق من النار.. ابكوا لأجل هذا الخلاص من عذاب قائم.. محقق قادم.. إن لم يخلصنا الله منه فلا خلاص ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾

[مريم:٦٨-٧٣].

المسْتَغْفِرونَ بِالأَسْحَارِ...

وَسُبْحَانَ الملِكِ القُدُّوس.. سُبْحَانَ الملِكِ القُدُّوس.. سُبْحَانَ الملِكِ القُدُّوس

لا يكاد يتواطأ لسان العابد الذاكر مع قلبه في حال مثل حال استغفاره بالأسحار أستغفر الله.. أستغفر الله ... أستغفر الله.. لا يزال هكذا ...

كيف يكون استغفار مَن علم أن رب العزة في السماء الدنيا ينادي ويوجه عباده إلى الاستغفار، إنها الفرصة العظمى لقبول استغفاري: أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله..

استغفار مشفق من سيئات حضرته في صلاة القيام سأل الله أن يغفرها: أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله..

استغفار من استمع أو قرأ القرآن في القيام وقد فعل بقلبه الأفاعيل، فهو ما يزال في هيام مع آيات الرحمن.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله..

استغفار من شعر بالقرب والتقريب فلاحقته النفس اللوامة بالتذكير بالسيئات في تلك اللحظات، فرأى صغائر ما فعل كأنها ظلمات بعضها فوق بعض، فرأى أنه لا خلاص إلَّا بالاستغفار منها ليرقى إلى مقام عالٍ قد أشرق له في هذه الظلمة: أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله..

استغفار من يكاد يعد نبضات القلب كأنها دقات السَّاعة تشير له في كل دقة إلى أن الوقت ينقص من الثلث الأخير المبارك وينقص وينقص.. فهو لا يزال في سباق مع هذا التناقص.. عله يدرك المغفرة.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله..

يتملق ربه.. يسترحمه.. يستغفره.. يستنصره.. يا ربِّ أدركني ... يا ربِّ أدركني.. أستغفر الله.. أستغفر الله ... أستغفر الله..

إنه حال قلب وليس حال لسانٍ.. قلب لو نطق في ساعة من ليل أو نهار لنطق في هذه السَّاعة التي لا تشبهها ساعة.

حال قلب أخذ يضرب بجناحيه لشعوره بعظمة هذه اللحظات وخطورتها، يريد التدارك.. يريد التعظيم الَّذي لا يعرف له حد.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله ...

قلب هاج إلى الاستغفار حين سمع ربه سبحانه يمتدح المستغفرين في هذه السَّاعة بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، فلولا أن استغفارهم مقبول لما مدح في هذه الساعة، ولولا أنه مطلوب محبوب لما صدر منه سبحانه النداء به في هذا الوقت المخصوص.

عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزلُ ربُّنا - تبارك وتعالى - كُلَّ ليلةٍ إلى السَّماء الدُّنيا حين يبقى ثُلُثُ اللَّيل الآخرُ، يقُولُ: من يدعُوني فأستجيب لهُ من يسألُني فأُعطيهُ من يستغفرُني فأغفر لهُ**»(١).

ولولا أنَّه مخصوصٌ، وأنَّه قريبٌ ما ذكره الله في هذا الحال المخصوص والوقت المخصوص، وكما خص سبحانه وصفهم في هذه الساعة، فوصفهم بقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾، فإنه خص فعلهم في هذه الساعة، فقال: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨].

ومع هذا فالعبد لا يريده استغفار ليلة أو ليلتين إنما يريد وصفًا ملازمًا له في

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

هذه السَّاعة يشهد له به الثلث الأخير وملائكته والله سبحانه، وكفى بالله شهيدًا.. الَّذي قال: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، هذه الصفة لا تستحق من فلتة، ولا فورة، ولا مرة، وربما ولا مائة مرة، إنما هو «**الاستغفار**» الملازم لهذه الفترة الزمنية ولو لجزء منها، فإن فاتت فذلك نادر، والنادر لا حكم له.

لكن ما يلفت الانتباه هو أن هدي النبي ﷺ أنه كان يستغفر بعد الصلوات، أما بعد انتهاء صلاة القيام فإنه كان يقول: «**سبحان الملك القدُّوس، سبحان الملك القدُّوس، سبحان الملك القدُّوس**»، يرفعُ بها صوته[(١)].

والعبد إذ يمد مع كلِّ تسبيحةٍ منها صوته فكأنما يمد بالتسبيح روحه.. لتتناغم الروح مع الخشوع، والصوت مع الخضوع..

وما ذاك - والله أعلم - إلَّا أن حال التعظيم قد غلب العبد حتَّى أذهله عن كل شيء حوله، وأذهله عن نفسه فلم يذكر إلَّا ربه سبحانه..

ثم إن التعظيم هنا تعظيم المتأثر بالموقف.. فالحال حال قرب من الله سبحانه.

فسُبُحاتُ التعظيم غطت فغلبت كل شيء، فكأنها معانٍ وُلدت من موقف التعظيم.. تأمل هاتين الآيتين جيدًا، ثمَّ تأمل ترتيبهما في السياق: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝١٧ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٧-١٨].

ألم يتجلّ الله سبحانه لعباده ... ألم ينزل إلى السماء الدنيا ... ألم يقرأ ويستمع هذا العبد للقرآن والله سبحانه في هذا القرب.. فأي تعظيم يمكن أن يصادفه العبد في ليله ونهاره مثل هذا؟ وأي شهادة للمستغفرين بالأسحار مثل هذه الشهادة؟

---

(١) رواه النسائي (١٧٥٠)، من حديث عبد الرحمن بن أبزى. وصححه الألباني.

إن هذا التسبيح أثر من آثار التجلي الإلهي المناسب للوقت العظيم.

ألا ترى كيف ظهرت هذه الكلمات بعد هذه الصلاة خاصة والعبد أقرب ما يكون من ربه في جوف اللَّيل كما ورد عن ضمرة بن حبيب قال: سمعت أبا أُمامة يقول: حدَّثني عمرُو بنُ عبسة أنَّه سمِع النَّبيَّ ﷺ يقُولُ: «**أقربُ ما يكُونُ الرَّبُّ مِن العبدِ فِي جَوفِ اللَّيل الآخِرِ، فإنِ استطعت أن تكُون مِمَّن يذكُرُ الله فِي تِلك السَّاعة فكُنْ**»[1]، وفي الحديث: أيُّ الدُّعاء أسمع؟ قال: «**جوف اللَّيل الآخر، ودُبُر الصَّلوات المكتوبات**»[2].

إنه جوف الليل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦].

ومع أن التسبيح لفظ عام يدخل فيه أنواع ذكر الله إلَّا أن تسبيحنا هذا خاص، إنه محدد الألفاظ، وما عرف إلَّا لهذا الوقت وهذا الوضع.

إن هذا التسبيح لهذا التهجد أصبح كأنه – لشدة انبعاثه من أعماق القلب إلى أبعد مدى بإطالة الصوت كما كان يفعل ﷺ من إطالة – وكأنه إفراز طبيعي نطق به الموقف ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦].

أليس أول كلمات موسى عليه السلام بعد الإفاقة هو التسبيح، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

ثم إن هذا أثر من أعظم آثار القيام بالقرآن.. القرآن الَّذي هو كلام الله.. كلام الله الَّذي أشعل التعظيم في قلب العبد.. وأي شيء مثل القرآن.. فكانت هذه

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٩)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٣٤٩٩)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

محصلة الختام.. إنه ذكر القرب، وذكر الاقتراب.. وذكر المقربين.. فكيف وهو من المستمعين لكلام الله؟! حقًّا إنها كلمات ثلاث ...

ومناسبة أخرى عظيمة تلك هي أن القرب الَّذي يعيشه - هذا القائم ليله - ليس قربًا روحيًّا فحسب حتَّى يقول هذه الكلمة وتكون مناسبة، إنما القرب قرب حقيقي، فإن تسبيح المقرَّب ليس كتسبيح من بعده وليس كتسبيحه هو إذا بعد ... حقًّا إن للمعرفة مهابةً وأثرًا ... لكن للمعرفة عن قرب ... والمعرفة مع القرب شيء لا يمكن أن يصفه إلَّا من بلغه ... حتَّى إن المعرفة ذاتها تزداد عظمتها كلما ازداد الشعور بالقرب ... فكيف بحال القرب الحقيقي كحال نزول ربنا إلى سمائنا هذه الدنيا ... سبحانه؟!

إن التسبيح هو التسبيح، لكن ما يعتلج في نفس المقرب وذهنه شيء آخر عند تسبيحه لله سبحانه.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: **«إنَّ الله أذن لي أن أُحدِّث عن ديكٍ قد خرقت رِجْلاه الأرضَ، وعنقُهُ مُنْثنٍ تحت العرش، وهو يقول: سبحانك! ما أعظمك ربنا؟ فيردُّ عليه: ما علم ذلك مَنْ حلف بي كاذبًا»**[1].

وما يلبث العبد مع هذا التسبيح ثلاثًا حتَّى يعود لحياته.. يعود لشدة الإشفاق وعظم التقصير.. يعود لمطلبه وهو المغفرة، فيعود يلهج لسانه ثانية بالاستغفار في الأسحار حتَّى ينفلق الفجر وقلبه لم يشبع بعد؛ لأن الجواب القاطع ... مؤجل لليوم الجامع.

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٧٨١٣)، وصححه الألباني. انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٠).

الأُمَّةُ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ لأَجْلِ رَسُولِ ﷺ

أول جمعة تمر علينا في رمضان لها وقع مخصوص.. ورمضان لا يخلو من أربع جمع على أقل تقدير، إذًا فهو مدرسة، والتعامل مع جمعة واحدة إنما هو برمجة الجمع التي سوف تمر في حياة الإنسان إلى يوم القيامة.. فيا له من تغيير حقيقي له أثره الَّذي لن تزيده أيام الفطر إلَّا رسوخًا ووفاء وحياة.

فما غربت شمس الخميس وطلعت بغروبها ليلة الجمعة حتَّى طلع على قلوبنا رسول الله ﷺ وكأننا نراه كما لم نكن نراه في أي يوم من الأيام.

أليس هذا اليوم خير الأيام.. أو ليس هو ﷺ خير الأنام..؟ ألم يربط النبي ﷺ بين الاثنين ربطًا محكمًا لا ينفك حتَّى تطلع الشمس من مغربها، فقال ﷺ: **«إنَّ من أفضل أيَّامكم يوم الجمعة، فيه خَلَقَ اللهُ آدمَ، وفيه قُبِض وفيه النَّفخة، وفيه الصَّعقة، فأكثروا من الصَّلاة عليَّ فيه فإنَّ صلاتكم يوم الجمعة معروضةٌ عليَّ»** قالوا: وكيف تُعرَض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ –أيْ: بَلِيتَ، فقال: **«إنَّ الله ﷻ حرَّم على الأرض أن تأكل أجسامنا»**[1].

وعن أبي أمامة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكثروا عليَّ من الصَّلاة في كلِّ يوم جمعةٍ؛ فإنَّ صلاة أُمَّتي تُعرض عليَّ فِي كُلِّ يومِ جمعةٍ، فمن كان أكثرهم**

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٩١٠) من حديث أوس ؓ، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

عليَّ صلاةً كان أقربهم منِّي منزلةً»[1].

فكم من مكسب للصلاة على رسول الله ﷺ وميزة، إذا كانت يوم الجمعة خاصة.

وإذا كانت هذه هي الأحداث العظمى في هذا الوجود المتعلق بالبشر وجودًا وعدمًا.. أو ليس وجود رسول الله ﷺ، وبعثته، ودينه وما أنزل عليه يعتبر من الأحداث العظمى؟ بلى والله، بل إن ذكر كل الأشياء العظمى الأخرى المذكورة في مجموع الروايات إنما هي مجرد ذكر إخبار بما وقع وما سيقع، أما ارتباط الجمعة برسول الله ﷺ فإنه ليس ارتباطًا قدريًا فحسب إنما هو ارتباط شرعي.. فمتى وُجدت الجمعة وجدت الصلاة على رسول الله ﷺ.

لقد ذكر النبي ﷺ توقيت رب العالمين يوم الجمعة لأعظم أحداث وجدت في هذه الدنيا تتعلق بالبشر.. فناسب أن يكون الذكر الأدوم في خير الأيام لخير الأنام ﷺ.

ثم إن يوم الجمعة هو اليوم الَّذي اختاره الله سبحانه لأمة محمد ﷺ من بين الأيام كما قال النبي ﷺ: **«ما طلعت الشَّمس ولا غربت على يومٍ خيرٍ من يوم الجمعة، هدانا الله له وضلَّ النَّاس عنه، فالنَّاس لنا فيه تَبَعٌ، فهو لنا، واليهود يوم السَّبت، والنَّصارى يوم الأحد، إنَّ فيه لساعةً لا يُوافِقها مؤمنٌ يصلي يسأل الله شيئًا إلَّا أعطاه»**[2].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١١٠). قال الألباني: حسن لغيره. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٦٧٣).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٧٢٦)، وصححه الألباني. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٦٩٥).

فما دام هذا اليوم هو اختيار الله سبحانه لهذه الأمة من بين الأمم، فمن ذا الَّذي يُخَصّ بالذكر من أفراد هذه الأمة في هذا اليوم غير رسول الله ﷺ، فإنه إذا كان هذا اليوم هو مكافأتنا فلمن سنخصص هذه المكافأة من أفراد هذه الأمة.. هل تكون لأحد غير رسول الله ﷺ؟! ثمَّ إن كل الأمة له تبع ﷺ، فإذا تقدم هو تقدمنا.. وإذا علا علونا.. وإذا سبق في دخول الجنة لحقناه من بعده وسبقنا غيرنا، فالخير له خير لنا، فكأن الصلاة عليه صلاة علينا، كما ورد أن النبي ﷺ قال للناس يوم عرفة: «**إنَّ اللهَ تَطَوَّلَ**[1] **عليكم في جمعكم هذا، فوهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطى محسنكم ما سأل**»[2]، فالدعاء للمحسن منا يعم فضله المسيئين منا، فكيف لا يعود نفع دعائنا لسيد المحسنين ﷺ خيرًا لنا؟!

سبحانك ربنا! لولا أن هذا الذكر هو أفضل ما يكون لنا نحن أتباع محمد ﷺ لما شرعته لنا في هذا اليوم العظيم، ولولا أنه أنفع ما يكون لرسولك ﷺ لما شرعته وأمرت رسولك ﷺ أن يأمرنا به، بل يأمرنا بالإكثار منه.

كيف لا يكون نافعًا لرسولك ﷺ وهو يحدد ويعرف الوسيلة، فيقول: «**فإنَّها منزلةٌ في الجنَّة لا تنبغي إلَّا لعبدٍ من عباد الله**»، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إِذا سمِعتُم المؤذِّن فقولُوا مِثل ما يقُولُ، ثمَّ صلُّوا عليَّ؛ فإِنَّهُ من صلَّى عليَّ صلاةً صلى الله عليهِ بِها عشرًا، ثمَّ سلُوا الله لِي الوسِيلة، فإِنَّها منزِلةٌ فِي الجنَّةِ لا تنبغِي إلَّا لِعبدٍ مِن عِبادِ الله، وأرجُو أن أكُون أنا هُو، فمن سأل لِي الوسِيلة حلَّت لهُ الشَّفاعةُ**»[3].

---

(١) تَطَوَّلَ: من الطَّول؛ أي: الفضل، والمعنى: تفضَّل عليكم.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٠٢٤) من حديث بلال بن رباح ﷺ، وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم (٣٨٤).

يا أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ: هكذا يخاطبنا ﷺ بأن نصلِّي عليه ونسلِّم في هذا اليوم العظيم.. يخاطب أمته التي صنعها – بإذن الله –.. يخاطبهم بالصلاة عليه لأجل تحقيق هذه الغاية، يخاطبهم بالصلاة عليه كأمة بأكملها من أولها إلى آخرها.. فإذا الأمم مستنفرة في هذا اليوم خاصة للصلاة عليه ﷺ.

كيف وهو ﷺ لا يأمرهم بالصلاة عليه فحسب، وإنما يخاطبهم بالإكثار من الصلاة عليه في هذا اليوم، فإذا ما أدركت هذا الأمر وتفكرت فيه فإنها سوف ترفع لربها في كل يوم جمعة ما لا يقدر على حصره حاسبٌ ولا كاتب في يوم واحد، فكم صلت هذه الأمة عليه منذ أن قال ذلك ﷺ وإلى يوم القيامة؟!

وإذا ما أكثرت الأمة يوم الجمعة من الصلاة عليه ﷺ، فإن هذا يعني أنه ما من لحظة من لحظات الجمعة إلَّا وترفع الأمة إلى ربها صلاة على نبيها ﷺ على أقل تقدير.. ذلك أن حركة دوران الأرض حول نفسها وحركة الشمس تجعل الصلاة على رسول الله ﷺ في هذا اليوم لا تغرب عن أي جزء من أجزاء الأرض، فما من لحظة إلَّا وزجل الصلاة على رسول الله ﷺ لا ينقطع عن السماء من مجاميع هذه الأمة وبلدانها على هذه الأرض ... من مدنها وقراها وجزائرها.. فكأن لسان الأمة اتحد على هذا الأمر.. وأي رجاء أعظم من هذا الرجاء.. وأي صعيد يقف فيه العباد متحدين على أمر ما مثل اتحادهم على الصلاة على رسول الله ﷺ.

فيا رب: أي عطاء مثل عطائك.. تكافئ المصلي والمصلى عليه بأعظم المكافأة وأنت العظيم سبحانك، فكيف نكسل؟ وكيف نفتر؟ وكيف نتوقف لحظة ورسولك ﷺ يقول: «**مَنْ ذُكِرت عنده فليصلِّ عليَّ؛ فإنَّه مَنْ صلَّى عليَّ**

مَرَّةً صلَّى الله عليه عشرًا»[1].

يا ربِّ: لأجعلنَّ لساني لا يفتر لحظةً وهو مستيقظٌ قادرٌ في هذا اليوم إلَّا أن يكون مُصليًّا على رسولك بأتمِّ صلاةٍ: «**اللَّهمَّ صلِّ على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، اللهم بارك على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ**»، فليتخطَّ العد المائة، بل الألف، بل الآلاف، بل فوق العد.. ذلك لأجل رسول الله ﷺ.

لأصلين عليه في هذا اليوم وفاء له ﷺ قائمًا وقاعدًا، ماشيًا ومتوقفًا حتَّى وإن غلبتني عيناي في هذا اليوم، فلتغلبني وأغفو وأنا أصلي عليه.. ولساني يكرر ويكرر حتَّى يثقله الوسن ويسكن للنوم بالصلاة على رسول الله ﷺ، وإن رجعت إلى اليقظة فلأرجعن إلى الصلاة على رسول الله ﷺ.. فلا انقطاع ولا فتور حتَّى تغرب الشمس أو حتَّى يبتدئ الدعاء في السَّاعة بعد العصر.. وكأن الطريق قد فُتح للإجابة بما تقدمه من بركة الصلاة على رسول الله ﷺ.

وعن علي ﷺ قال: كل دعاء محجوب حتَّى يصلى على محمد ﷺ[2].

يا رب: لأصلين عليه مرفقًا كل صلاة عليه بذكر القلب لناحية من نواحي عظمته، وفضيلة من فضائله، أو خاصية من خصائصه، أو فضيلة منّ الله بها علينا به ﷺ، وبذا تتوافق وتترافق الجوارح مع العقل والقلب في هذا الأمر العظيم..

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٠٠٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وجود إسناده النووي في الأذكار (١٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٤٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٢١)، قال الألباني: صحيح لغيره. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٦٧٥).

حتَّى وإن سرحت عن ذلك ولم أتفكر بالصلوات أحيانًا، فسوف أعود وأعود حتَّى يُختم اليوم.

يا رب: لأهيجن بيتي وأهلي، وجيراني وأرحامي، بل ومن يستطيع من أمته للصلاة عليه في هذا اليوم ﷺ.. ليس ليكتب لي أجرهم فحسب، وإنما لمحبته وأداء بعض حقه ﷺ.

يا رب: لك الحمد أن منحتنا هذه الجمعة التي هي خير يوم طلعت عليه الشمس في الأسبوع كله.. وهبتنا فيه فرصة نعبر فيها عن وفائنا لرسولك ﷺ.. نشفي اشتياقنا إليه بالصلاة عليه ﷺ.

لك الحمد ربي أنك لم تحدد الصلاة عليه ﷺ كما حددت بعض الأذكار بعدد معين.. فجعلتها مطلقة، بل جعلت الأكثر أفضل.

لك الحمد ربنا أن جعلت الصلاة عليه تتبع الأكثر، فلو ربطتها بالتفكر وحده لضاقت علينا، فمن ذا الَّذي يملك الحصانة من الشرود الذهني طوال اليوم.. ومع هذا فإنها أعظم فرصة للتدريب على إعادة الذهن إذا شرد، والتدريب على دوام الذكر وإن شُغلت الجوارح بأشياء أخرى، وعلى تحقيق رطوبة اللسان بالذكر، وجعل الذكر ديمةً.

ربنا لك الحمد أن جعلت صلاتنا على رسولك ﷺ هي عنوان على توحيدك.. سبحانك سبحانك!

فالصلاة على رسولك جاءت بصيغة الأمر منك وحدك سبحانك أن نصلي على رسولك ﷺ، فهل بعد هذا من دليل على التوحيد؟ هل لو كان في الخلق أحد يمكن أن يُدعى من دون الله لكان أحد قبل رسول الله ﷺ؟!

هل من دليل على أنه لا طريق لإجابة الدعاء إلَّا طريق الله وحده.. فهو المدعو سبحانه بالصلاة والرضوان على رسول الله ﷺ فجاءت صيغة الصلاة عليه دعاء: «**اللَّهمَّ صلِّ ...**».

فليس من دليل على التوحيد أعظم من أن الصلاة على رسول الله ﷺ لا تُوجه له مباشرة حتَّى وإن كنا عند قبره؟

أما صيغة السلام عليه – عند زيارته – فهي كصيغة السلام عند كل القبور من توجيه الخطاب مباشرة.. لكن الأدب مع رسول الله ﷺ ليس مثله أدب، فهذا ميدان عظيم، وهذا وغيره يدل على التوحيد بدلالات عجيبة.

سبحانك ربي، إن تأكيد الصلاة على رسول الله ﷺ، والإكثار منها إنما هو من باب ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]، فاللهم لا أحد في الخلق أعزّ ولا أحب ولا أكرم عندنا من رسولك ﷺ «**فاللَّهمَّ صلِّ على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللَّهمَّ بارك على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ**».

سبحانك ربنا! أي شحنة هائلة للتوحيد في هذه الصلاة على رسولك، فبينما الأمم الأخرى تطلب من أنبيائها – والأنبياء عليهم السلام موتى في قبورهم – فقد طلب منا رسولك ﷺ أن ندعوك ربنا سبحانك له ﷺ إلى يوم القيامة.. فهل مثل هذا التوحيد توحيد.. وهل مثل هذه الحراسة التي جعلها رسولك ﷺ للتوحيد حراسة؟!

ولك الحمد ربنا أن جعلت من انشغل بالصلاة على رسولك عن نفسه وعن

حاجياته، فحاجته مقضية، وذنبه مغفور، كما في حديث أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ﷺ الَّذي قال لرسول الله ﷺ: كم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «مَا شئتَ»، قال: الثُّلث، قال: «مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فهو أفضلُ»، قال: النِّصف، قال: «ما شئتَ، وإِنْ زدتَ فهو أفضلُ»، قال: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إِذًا تُكفَى هَمَّك، ويُغفر لك ذنبُك»[1].

لك الحمد ربنا أن جعلت الصلاة الواحدة منا على رسولك ﷺ بعشر منك علينا.. فأي عطاء فوق هذا العطاء؟

لك الحمد ربنا حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما تحب ربنا وترضى سجلت رضوانك على رسولك سبحانك بنفس مصطلح الصلاة عليه منك، فزادنا ذلك حماسة وشرفًا ورجاء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

لك الحمد ربنا أن ختمت لنا يوم الجمعة يوم الصلاة على رسولك ﷺ بساعة إجابة.. فأي علامة على القبول أكبر من هذه؟ وأي استجابة أسرع من هذه؟

إسراع عجيب! فقبل أن ينصرم اليوم وقبل أن تنصرفوا من ظرفه الزماني اطلبوا ما شئتم، فدعاؤكم الآن مجاب، وذنبكم إذا استغفرتم مغفور، وحاجتكم مقضية.

سبحانك ربنا! كم من العباد لا يقدر هذه السَّاعة حق قدرها؟

سبحانك ربنا! كيف جعلت هذه السَّاعة في آخر اليوم وليست في مطلعه..

فهل قبض الجائزة إلَّا بعد التقديم.. وهل التكريم إلَّا لمن تفضل الله عليه

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٧)، وحسنه الألباني.

بالتكريم.. وهل تُفتح الأبواب إلَّا من أثر الصلاة على سول الله ﷺ؟ لا يقولن أحد سواء صلينا أم لم نصل فإن ساعة الإجابة مربوطة بالجمعة.. والجواب: سواء صليت أنت أم لم تصل.. أما الأمة فلا تخلو من مصلين لا يعلم عددهم إلَّا الله سبحانه وتعالى، فهي ساعة للأمة المصلية على نبيها كلها.. ثمَّ إنه لا يستوي من صلى عليه ومن لم يصل عليه.

وهل الحرمان من هذا المقام إلَّا بترك الصلاة عليه ﷺ وهو خير الأيام؟!

«فاللَّهمَّ صلِّ على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللَّهمَّ بارك على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ»[1].

---

(١) **متفق عليه**: من حديث كعب بن عجرة ﷺ رواه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦).

إِني أَنا أخُوكَ

هكذا تراهم يأتون المسجد من جديد لأول صلاة بعد إعلان أن الغد من رمضان.. أليس هذا القادم اليوم هو جار المسجد الهاجر له من قبل..؟ أليس ذاك الجالس قِبلنا هو شارب الخمر..؟ أليس هذا القارئ في المصحف هو المعروف بسفره للحرام وذاك بفجوره أيام الفطر..؟ إنهم يزاحموننا بالرُّكَب على الدروس والحِلَق.. إنهم ينافسوننا على عمرة في رمضان.. إنهم يسبقوننا اليوم في مواطن رضوان الله.. إنهم يأتون صادقين في طلب المغفرة والعفو.. يلذعهم الذنب القريب.. ويفزعهم الأجل القريب..

هكذا هم اليوم عادوا إلى الله حينما عادوا إلى بيوت الله.. هكذا يصطفون جميعا للصلاة.. هكذا أراهم يبدؤون ختم القرآن.. قد ذهب قلبي حبًّا مع كل واحد منهم وبودي أن أخاطبه.. وأُسِرَّ له في أُذُنه: «**إِنِّي أنا أخوك**».

يا أيها القادم إلى ربه، لو صح أن يكون لي ولك أب واحد لكان هو محمد ابن عبد الله، لكنه رسول الله ﷺ الَّذي قال الله فيه: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠].

إنه ولي أمرنا.. وولي أمر كل ولي أمر في أمتنا، أليست هي أمة محمد ﷺ؟! هو مرجعنا، هو كبيرنا.. هو أولنا.. هو شفيعنا - بإذن ربنا -.. هو حامل همنا في الدنيا والآخرة.. هو حاكم علينا وعلى آبائنا وعلى حكامنا.. هو الوحيد الَّذي

هو أولى بنا جميعًا من أنفسنا، كم هي ضرورية هذه الحقائق وأمثالها.. ضرورية أن نستحضرها ونتأملها جيدًا جيدًا ... لنبني عليها تصوراتنا ومن ثَمَّ علاقاتنا، ونقيم عليها حياتنا العملية.. فنحن في الحقيقة الإيمانية الكبرى أمة لكن في لب الحقيقة في واقعها ولب الأمة أننا أشبه ما نكون بأسرة، ووجود الأسر الكثيرة في هذه الأمة لا يفتت الحقيقة الكبرى بل يعضدها.. ولا ينبغي أن تغلب العلاقة بالأسرة العلاقة بالأمة إذا تصادمتا، فإن غلبت هذه فهذه ما يسميها النبي ﷺ **«دعوى الجاهلية»** ويصفها بأنها **«منتنة»**.

لو قارن الفرد بين حق الأخوة في الله والأخوة في النسب لوجد البون هائلًا، أما إذا اجتمعت الرابطتان فهذا رباط كريم على رباط كريم، وهو الأصل في هذه الأمة، ولكن تظهر الحقائق عند التضاد.

ينبغي أن نعيد النظر إلى رسول الله ﷺ.. فليس هو المرجع الديني فحسب كما هو مستقر في ضمائرنا وإن لم نتحدث به، أرأيت رب الأسرة؟! إنه ﷺ كذلك، وأكبر من ذلك ...

أرأيت ولي الأمر المباشر؟!.. إنه كذلك، وأكبر من ذلك، واذهب في هذا الميدان كل مذهب ستجد أن رسول الله ﷺ أعلى وأعظم، اذهب لتنشئ علاقة جديدة ليس بينك وبين رسول الله ﷺ أساسًا، وإنما بينك وبين أخيك المسلم.. بينك وبينه كفردين، ولي أمركما رسول الله ﷺ.. أخوين ليس لأخوتكما معقد في البشر إلَّا رسول الله ﷺ.. قل لنفسك عندها: أيفرح أبوك باختلافك مع أخيك؟

إذًا، فكم يغتم رسول الله ﷺ لمسلمين إذا تخاصما.. ومن هذا الباب تضايقه مما وقع بين المهاجرين والأنصار يومًا من الأيام، وكم يغتم لبلدين مسلمين إذا تخاصما؟!

هل الوالد يرضى لأحد أولاده الافتضاح حتَّى لو أخطأ فعلًا؟ حتَّى لو ارتكب فاحشة.. حتَّى وحتى؟ كذلك رسول الله ﷺ لا وزيادة؛ ولذا أمر بالستر أيًا كان الأمر، ما دام في الأمر إمكان.. هذا هو الأصل إلَّا إن كان في الكشف مصلحة الإخوة الآخرين في الأمة كما هو الشأن في الأسرة، أليس هو القائل: **«مَنْ ستر مسلمًا ستره الله في الدُّنيا والآخرة»**(١).

بل علاقة رسول الله ﷺ فينا تظهر أكثر في أمور أدق من هذه..

أرأيت كيف أن الأب ينهى أولاده عما يضرهم وهي أمور صغيرة ولربما تضايقوا من كثرة تكرارها.. كذلك يعاملنا رسول الله ﷺ وأكثر من ذلك.. إنه يخاف علينا.. إنه يعلمنا الوقاية.. إنه إذا وقعنا عالجنا وأشفق علينا إشفاقًا فوق إشفاق الوالدين.

سبحان الله! كيف ينهانا ﷺ ونحن أفراد أمته أن نشرب في الإناء المثلوم خشية أن يجرح شفاهنا، كيف ينهانا أن ننام وفي أيدينا غمر خشية أن تؤذينا الدواب..؟ كيف ينهانا أن نبول في جحر خشية أن تلسعنا دابة من دواب الأرض؟ كيف وكيف وكيف؟!

أي ولي أمر مثله ﷺ؟

كيف جعلنا أمة كأنها أسرة واحدة وهو موجهها ورحيمها وحاميها..

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ولكن المقصود هو أن نتعامل نحن

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

كأسرة.. كإخوة في الله هذا معقلها وهذا رباطها.. أن نحيي هذه العلاقة، ونقيم حياتنا الاجتماعية على أساسها..

إنه رباطنا الاجتماعي الأكبر.. الأحكم.. الأبقى.. الأعمق.. الأعلى..

وقد اكتملت أركان الأسرة بقوله ﷺ: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالِدِ، أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائطَ ...**»[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]، أما هو فقال في حقه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، وقال أيضًا سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة:١٢٠].

لم يذهب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار كجزء من التراث، أو ذهب كحكم منسوخ.. إنما هو الأساس الَّذي بنى عليه الأمة - كل الأمة - إلى يوم القيامة.. الأساس الَّذي قام مقام كل أساس حتَّى علاقة النسب لدرجة أنه لم يبق منها إلَّا الأسماء النسبية والوارث وأحكام معلومة.

فأي أخوة أعظم من أخوتنا؟! الله ربنا لا إله إلَّا هو، محمد رسولنا ﷺ ... قد تكفل الله بشد وثاق أخوتنا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

كلمة واحدة جمعتنا من بين الأمم جميعًا: «**لا إله إلَّا الله، محمد رسول الله**» فهل من كلمة جامعة أعظم من هذه الكلمة؟

نحن أبناء هذه الأمة.. أمة هذا النبي الرحيم ﷺ..

---

(١) رواه أبو داود(١/ ٤٩ ح٨)، والنسائي (١/ ٣٨ ح٤٠)، وحسنه الألباني.

فهل ندرك هذه المزية العظمى؟!.. أرأيت كيف اطلع الله إلى خلقه، فاختار من بين خلقه الأنبياء، فكلما ظهر نبي ظهر اختيار الله له من الأمم، حتَّى إذا جاء نبينا وسيدنا محمد ﷺ وظهرت المكافأة العظمى لكل واحد منا ومن أفراد هذه الأمة أن الله قد اختارني واختارك إخوة تبع لسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ، فيا له من اصطفاء منذ الأزل تكشفه الأيام إلى آخر يوم لهذه السلسلة البشرية، فيا سعادة من آمن به ﷺ!!

أرأيت كيف ننظر نحن لأصحاب النبي ﷺ بكل الغبطة والتعظيم على هذا الاختصاص الرباني لهم من بين أمة محمد ﷺ كلها ... فكذلك الأمم ينظرون لنا من بين العالمين.. فنحن المميزون بكل تميز في أرض المحشر، بل في الجنة.. نحن الغُرُّ المحجلون.. نحن من يشهد على الأمم.. نحن شهداء الأنبياء على أممهم.. نحن أول من ينصرف من ساحة الحساب.. نحن من يقف لنا رسول الله ﷺ على الصراط مشمرًا يهتف بربه: يا ربِّ أمتي، يا ربِّ أمتي.. نحن وراءه ﷺ نمشي في ذلك اليوم الرهيب نتتبع خطاه وهو يسلك بنا سبل النجاة والسلامة، وهو العارف في ذلك اليوم وتلك الأرض بهداية الله له.. حتَّى يأتي باب الجنة فيستشفع فيشفع، فيدخل فتدخل الأمة.. فيعود ﷺ إلى النار يستشفع ربه في الذين ما زالوا يعذبون من أمته، فيعود بجهنميين جدد، ويعود المرة والأخرى، وهكذا حتَّى لا يبقى فيها رجل في قلبه مثقال خردلة من إيمان.

أخي: ألا يكفي هذا التوحيد الفعلي بيننا في كل المواقف كي ندرك الوحدة الحقيقية المصيرية بيني وبينك وبيننا وبين كل أخ لنا في هذه الأمة؟ ألا يكفي هذا كي نرضي ولي أمرنا ﷺ بتحابنا وإقامة نظرة جديدة لأفراد أمتنا؟ ألا يكفي لأن ننظر لوصاياه لنا نظرتنا لوصية أبينا لنا حين اكتشفناها بعد موته وإذا فيها

التحذير من الاختصام، وفيها صلة الأرحام، وفيها الوصية بإخواننا الفقراء، وفيها الوحدة والألفة، وفيها حفظ الحقوق، وفيها ما فيها؟

يا أيها القادمون المسجد اليوم بعد هجران: أنتم أحبتي الذين لا رابط بينكم إلّا الله ورسوله ﷺ.. فهل من رابط أوثق من هذا الرابط؟!

كيف أحمل في قلبي عليك أيها الأخ وأنا أصطفُّ معك في صف واحد في الصلاة؟!

أأرضى أن أصطف معك ورب العالمين يرى في قلبي عليك شيئًا؟

كيف أحمل عليك ورب العالمين جعل في مالي لك نصيبًا فرضًا عليّ لك، وفرضًا عليك لي.. لا يحل أن تعطيه غيري ولا أعطيه غيرك؟!

يا أخي: والله لو قلت: (ربنا جمعنا كأسرة واحدة) لما كنت مخطئًا.. فالأمة والأسرة في قدرة الله سبحانه سواء.. لكن المقصود هو هذا الترابط والعلاقة العظيمة التي هي أقوى وأبقى من علاقة الأرحام، المقصود أن منشئ هذه الأسرة.. هذه الأمة.. هو محمد ﷺ.

مائدة الإفطار واحدة.. مائدة السُّحور واحدة.. التوقيت هو التوقيت.. فأي صورة للأسرة مثل هذه.. وأي خير أعظم من وحدة هذه الأمة واتحادها في لحظة واحدة من مشرقها إلى مغربها وكأن رسول الله ﷺ قد مدّ لها سماطًا واحدًا تأكل عليه ... فكل قوم يأكلون عند غروب الشمس إذا غربت قبلهم، فكأن الجميع يأكلون في لحظة واحدة، أو كأنه الصوت يصدر من مكان واحد بالأكل، فكل قوم يأكلون إذا بلغهم الصوت.. وذلك الصوت هو صوت المنادي بأذان المغرب.

ألا ترى كيف مد الله لهذه الأمة مائدة واحدة كلها تجلس عليها في وقت واحد من أولها إلى آخرها؟ فالمائدة بإفطار رمضان ممدودة، ومن تغرب عنده الشمس يأكل من هذه المائدة، ومائدة أخرى في السحر.. فأي شأن أعظم من هذا في عالم الترابط؟!

يا أخي في الله: كيف أحمل في قلبي عليك ورب العالمين فرض عليّ نُصرتك إن استنصرتني، وفرض عليّ القتال معك إن هاجمك العدو ولم تستطع ردَّه ولا إخراجه من بلدك أو بيتك، فأي شيء أكبر من أن يأمرني ربي بتعريض حياتي للخطر لأجل حياتك؟ وهكذا العكس - نسأل الله لنا العز؟

يا أخي، كيف أقدر قيمة هذه العلاقة بيني وبينك عند الله، والله سبحانه قد أوكل ملكًا عند كل واحد منا: إن أنا دعوت لك أو أنت دعوت لي، قال الملَكُ للداعي منا: «**ولك بمثل**»[1].

إذًا، فالله لم يجعل هذه العلاقة وهمية، ولا إيمانية من غير عمل، بل جعلها عملية وكأنها شجرة قد كلفنا الله سبحانه بسقيها ومن سقيها هذا الدعاء، والسلام، والزيارة، والتهادي، والعيادة والمشاركة، والمناصحة، والمناصرة، والتباذل، والإيثار.

بل وثقها الله سبحانه حتَّى أخبرنا النبي ﷺ بهذا الخبر: «**زار رجلٌ أخًا له في قريةٍ، فأرصد الله له مَلَكًا على مَدْرجته، فقال: أين تريد؟ قال: أخًا لي في هذه القرية، فقال: هل له عليك من نعمةٍ تَرُبُّها عليه؟ قال: لا، إنِّي أحبُّه في الله، قال: فإنِّي رسول الله إليك، إنَّ الله أحبَّك كما أحببتَهُ**»[2]، وفي حديث عن معاذ بن جبل

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٥٠)، وصححه الألباني.

ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: وجبت مَحبَّتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ**»[(١)].

أخي في الله: هذه الأخوة الضيقة المحصورة على المعارف التي يغتر بها البعض ما هي إلَّا أخوة ضيقة على أبناء الوطن أو الجماعة أو المعارف.. وهذه لا فخر فيها؛ لأن كل النَّاس بل كل الكائنات يجتمعون على أساسها، ولكن الأخوة المطلوبة هي الأخوة الشاملة لكل مسلم من المسلمين مهما بعدت داره، أو عجمت لغته، أو اختلف لونه، أو قل ماله، أو دنا مقامه؛ لذا قال ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتَّى تُؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أولا أدُلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلامَ بينكم**»[(٢)]، وفي حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن تُؤمنوا حتَّى تَراحموا**»، قالوا: يا رسول الله، كُلُّنا رحيمٌ! قال: «**إنه ليس برحمةِ أحدكم صاحبه، ولكنَّها رحمة العامَّة**»[(٣)].

أخي في الله: لماذا يكون الإحساس الأوَّل عندك نحوي إذا لقيتني ورأيت هيئتي هي أني أريد منك حاجة! حتَّى تتعرف على شعوري الباطني نحوك أولًا؟! بل لم تنتظر البدء بالسلام مني حتَّى تحدد موقفك؟

أخي، لِمَ تقيم علاقتك معي على ردة الأفعال؟! لِمَ وقد أمرك ولي أمرنا وسيدنا ﷺ بالبدء..؟ وجعل الخيرية لمن ابتدأ؟ لم لا تقدم حسن الظن على التوجس والتحسس؟ لِمَ تحسب أساسًا أني طالب مصلحة من معرفتك أو السلام

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٣)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٢) رواه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٢٥٣): رواه الطبراني، ورواته رواة الصحيح، قال الألباني: حسن لغيره.

عليك؟ لِمَ تحاول حبس بعض الانبساط.. وكتم بعض الحق الَّذي لي في وجهك وحديثك؟ لِمَ تحسب أني أنظر لجيبك ورصيدك، أو وجاهتك وشفاعتك؟!

حتى لو كان في القلوب بعض الأوهام.. فإنها أوهام تعصف بها الابتسامة الأولى المشرقة فإذا النفس بعدها صحو مشرقة..؟

أخي في الله: لِمَ نصطنع الفوارق.. لِمَ نؤلف نقاط الخلاف تأليفًا.. ثمَّ لِمَ نجمع من الكلمات الجارحة وسط حديث بيننا وربما تتقصد إعطاء بعض من الإشارات ما يغذي تلك الخلافات ويجعلها حقيقة واقعة بأثرها وفاعليتها لنخرج ظلمة اسمها الشقاق؟

لماذا تتكلف - أخي - تصنع الانزواء.. والأنا.. فتغذي النفس العدوانية في داخلك قبل داخلي.. وتصبح جنديًا للشيطان بتحريشه وأنت لا تدري؟!

لم تفعل ذلك من خلال الإشارات والإعراضات بينما عندنا من الإشارات بل صريح الكلمات ما لا يحصى في لغتنا من عبارات التوافق والائتلاف؟!

فكيف نغضب رسول الله ﷺ في هذا الخلاف، بل نغضب الله - سبحانه وتعالى-؟! بل كيف نرضي الشيطان الَّذي أصبحت مهمته العظمى هي الشقاق بيننا ووسيلته التحريش؟!

يا رب اشهد أني ملتزم بحسن الظن بكل مسلم.

ألا ذوبي أيتها المفرقات بين أفراد الأمة.. من جاهليات منتنة، أو حزبيات مقطعة لأوصالنا.

ذوبي لتكوني القطر الَّذي يفرغ على زبر الحديد ليصبح الردم الَّذي يحول دون اختراق الأمة بإذن الله.

ألا تبخري يا قطرات الذَّرّ من الكبر على إخوانك الحقيقيين من بني أمة محمد ﷺ قبل أن تحول الذَّرة من الكبر بينك وبين دخول الجنة مع إخوانك.

اجعل نفسك مكان أبيك، وانظر كم يقطع قلبك الخصام بين أولادك..؟!

فإذا كان رسول الله ﷺ أولى بك من أبيك فكم سيؤثر تخاصمنا فيه؟! أيمكن أن تتصور تأثره؟ لا والله لا يمكن.. لأن تأثره عائد إلى مقدار محبته لنا.. وهذه ما لا يمكن أن نبلغ معرفة قدرها.

يا ولاة الأمر على كل المستويات.. يا أيها العلماء.. يا أيها الأئمة.. يا أيتها الجماعات والجمعيات الإسلامية.. يا أيتها الأرحام.. يا أيها الأزواج.. يا أيها الأولاد.. لا تؤذوا رسول الله ﷺ بالشقاق والاختصام فيما بينكم.. تآلفوا لأجله ﷺ، فلأجله تقطع الرؤوس وهي تزغرد فرحًا، وتكسر الأضلاع وهي تنتشي طربًا، وتزهق الأرواح فرحًا لأجله، وتثور الدماء إلى أعلى فداءً له، يا من يصدق عليكم وصف أمة محمد ﷺ، أنا لا أتحدث عن الخصام الفعلي، ولكني أتحدث عن الشقاق النفسي ... أتحدث عن مغذيات الخصام.. أتحدث عن القابلية العجيبة لتكبير أصغر الكلمات وأصغر المواقف، بل أتحدث عن تحويل أوهام الخلاف إلى خصومات حقيقية على أرض الواقع، إن هذا يُنزع في الحياة بفضل الله، ويذهب أثره في الدنيا بالمجاهدة حتَّى كأنه لا وجود له بفضل الله وحده، أما الخصام فإنه الحد الَّذي لا يقبل الاجتهاد وله حده الَّذي لا يحل بعده خصام وأنه: «**لا يحل لمسلمٍ أن يهجرَ أخاه فوقَ ثلاثٍ**»[1].

هذا تحول ضروري يحدثه الصِّيام داخل النفس حين يحدث التقوى.. ويحدثه

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ. رواه البخاري (٦٣٢٧)، ومسلم (٢٥٥٨).

تآلفًا واقعيًا لا نظير له.. وهكذا ينبغي للأمة أن تخرج من رمضان.. وإلا فلم تتحقق غاية الصوم التي شُرعت، فالتوحد على حبل الله والاعتصام به هو الثمرة الحقة لرمضان؛ لأنه الثمرة للتقوى كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

ينبغي أن ننظر من جديد إلى حقيقة هذه التَّقوى التي جعلها الله سبحانه غاية للفرد، وغاية للجماعة، وغاية للأمة، ونُجيب ما دمنا قادمين على هذا الشهر، أو نحيا فيه أو بعده ننظر في نتائجه: هل حوَّلنا هذه التَّقوى النفسية إلى تصرفات أخوة؟ هل عمرنا بها وجوهنا وعمرنا بها صلاتنا؟ هل أفاضت هذه الوحدة العملية - التي شرعها الله في تفاصيل حياتنا في هذا الشهر على حياتنا كدعاة إلى الله وطلاب علم وعلماء وجماعات وأحزاب - طابع المحبة في الله..!

أي: هل اتقينا الله حق تقاته في هذا الأمر.. وأعود لأقول: هل حولنا هذه التَّقوى في هذا الشهر إلى برنامج حقيقي واقعي يثمر ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾.

كم لله سبحانه من حكمة بالغة في الأمر بالتقوى قبل أمر الاعتصام جميعًا، وكم لله من حكمة بالأمر بالتقوى بهذه الصيغة الفريدة الوحيدة الواردة في القرآن؟

إن الواقع يشهد أن الاعتصام بحبل الله جميعًا لا يحققه إلَّا الأتقياء من أبناء الأمة؛ قادة وعلماء ودعاة.. وإن كل محاولة فاشلة للاعتصام جميعًا بحبل الله

للمجاميع الإسلامية بمختلف تخصصاتها شهدت بأن وراء فشلها رجالًا لا يتقون الله.. رجالًا يرون في هذه الوحدة أو الاتحاد ذهاب مزاياهم وسلطانهم، هؤلاء فاشلون في بلوغ غاية رمضان؛ لأنهم ليسوا صادقين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وإن من أعظم المظاهر التي يُستقبل بها رمضان هو إصلاح ذات البين حتَّى إنه لا يكاد هلال الشهر يطلع حتَّى تذوب الخصومات بين أكثر المسلمين، وتغرب بغروب شمس شعبان، بل قبل ذلك بفترة استجابة لحديث النبي ﷺ: «**يطَّلِعُ اللهُ إِلَى خَلْقِهِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ**»(١).

وهذا أمر يجب أن نتوقف عنده طويلًا.. ذلك أن المرء يتصور أن هذه الخصومات قيود لا تكسر، وحصون لا تقهر، ولا يمكن الاقتراب منها ولا الحديث فيها.. من يصلح بين فلان وفلان بعد ذاك الخلاف الطويل والشجار المشتهر بين الناس؟ وما إن يقترب رمضان فيستمع الرجل إلى هذا الناصح أو حتَّى ذاك المتحدث والخطيب حتَّى تبدأ نفسه تحدثه بالإصلاح، وكلما اقترب رمضان علا همس النفس وقوي الدافع.. وعند رؤية الهلال أو في الليلة الأولى تجد صاحبنا قد ذهب بنفسه إلى مقر عمل صاحبه أو مجلسه أو بيته معتذرًا طالبًا السماحة والمغفرة، معلنًا عن تنازله عن حقه، وعن كلام خصمه فيه (وفيه إهانته)، أو حتَّى طعن في عرضه، وتصنع المرأة مع صويحباتها المتخاصمات مثل هذا وأكثر، فهن بمقدار عاطفتهن واندفاعهن في الخصومة يكون اندفاعهن في الإصلاح، وأكثر.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٦٦٥) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح بشواهده.

وليس هذا إلَّا لأن التَّقوى بلغت من النفس مبلغًا، والنفس هي معدن التغيير، فعفت على كل مظاهر الخصومات واجتثتها من جذورها، ذلك أن رمضان هو شهر التقوى، إذا فهو شهر الإصلاح والله قد ربطهما بقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]، وقال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

فكم بين وصف الخُلة والتقوى من ترابط حتَّى تبقى رابطتهم هذه إلى يوم القيامة، وكم في تخصيص وصف المتقين لهذا المقام من دون أوصاف المؤمنين من حكمة؟!

هذا الخلق، بل هذه الظاهرة الإصلاحية تجدها تسري حتَّى في الأسرة الواحدة بين الإخوة، بين الزوج وزوجه، بل هم أولى، وينبغي أن يكونوا أحرص ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٢٨].

قال رسول الله ﷺ: **«اتَّقوا اللهَ فِي النِّساءِ، فإنَّكم أخذتموهنَّ بِأمانةِ اللهِ، واستحللتم فروجهنَّ بكلِمةِ اللهِ، وإنَّ لكم عليهِنَّ ألَّا يوطِئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهنَّ ضَربًا غير مبرِّح، ولهنَّ عليكم رِزقهنَّ وكِسوتهنَّ بِالمعروفِ»**[1].

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٧٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وصححه الألباني.

الفصل الثالث

الْفُتُورُ الطَّارِئُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَعِلَاجُهُ

الفصل الثالث
الْفُتُورُ الطَّارِئُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَعِلاجُهُ

ها أنا ذا[1] بَعْد مرور ثُلُث رمضان وبعد تلك الحماسة.. أشعر بفتورٍ في العبادة.. أشعر بانخفاض منسوب الحماسة.. أشعر بتلاشي الخشوع.. أشعر بقسوة في القلب.. أشعر بطول رمضان..!

فما هذا الفتور..؟! أمَّا ما هو أصعب من الفتور فإنه الإحساس الدَّاخليُّ بالإحباط والحزن.. إذ كيف تأتي أمام العين نفحات رب العالمين العظيمة.. وقد فتر قلبي عن الإقبال عليها؟!

حزنتُ على هذا الحال.. تمنيَّت القلب في ذروة الإقبال ... تمنيت أقوى الخشوع وأعلى الإحسان لهذه الأيَّام..!!

هان الأمر على قلبي حين تذكَّرت مرور هذا الحال عليَّ من قبلُ أكثر من مرَّةٍ..

حزنتُ من قبلُ كما أنا اليوم حزينٌ، ولكن كانت بعدَ انطلاقةٌ حتَّى آخر رمضان وما بعده من آثار طيبة عندها رجوت الله أن تكون كذلك، وأن تكون عاقبتها هبَّة الرُّوح التي لا تقنع بمنزل إلَّا الغرفات من الفردوس ... عندها عرفتُ عظمة ذاك الدُّعاء الَّذي أحبَّه الإمام أحمد رحمه الله والتزمه، وهو ما صحَّ عن

(١) بقدر ما في عرض هذا الموضوع من شخصنة بقدر ما هو مصيبة تكاد تعم كل الصائمين، ولعل القارئ سوف يكون أحوج ما يكون إلى قراءته بهذا الأسلوب الذي يحدثه من نفسه عن نفسه، وأحيانًا إفضاء من نفسه إلى ربه سبحانه.

سيِّدنا وسيِّد الأوَّلين والآخرين ﷺ: **«اللَّهمَّ أحسن عاقبتنا في الأمور كلِّها، وَأَجِرْنا من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة»**[1].

يا ربِّ، إنَّك تعلم الحبَّ في قلبي لك ولرسولك ﷺ.. تعلم حب تقرُّبي إليك ... وأين التَّقرُّب منَّا إليك؟! وتقريبك عبادَك في هذا الشهر ليس له في الأشهر مثيل.. فاللهم لا تحرمني ذلك بذنوبي.

يا ربِّ: أنا أقدم على العبادة حتَّى وإن تخلف قلبي عن الحضور، فيا رب احسبها لي مجاهدة.. ثباتًا على ما تحب.. وإن لم أستشعر الحب.

يا رب: إنها مجاهدة لوجهك لا رياء فيها لأحد، ولا تسميع لأحد.

يا رب: أغلقت أبواب النيران كي نفر منها إلى أبواب الجنة المفتحة.. وأنا أرى اليوم قلبي كالمعاق الَّذي يرى النار فيحاول الفرار منها فيسقط.. ويحاول الزحف فيرهق.. ويرى الجنة تقترب وهو يبتعد! يا ربِّ، أخشى أن يغادر رمضان وتعود أبواب النار كما كانت فأكون مقعدا أمامها، كالمحبوس المربوط على أبوابها ... فأصبح طعامًا لها ويكون طعامي منها!

يا رب: أيتسابق العباد إلى العتق من النار ويبقى قلبي غير آبهٍ لخطرها؟

يا رب: هل تفتح أبواب الجنة أربعًا وعشرين ساعة على مدار شهر بأكمله، ولا أجد في قلبي ذاك الاشتياق والحنين إليها ... يا ربِّ أشعل في قلبي هذا الحنين.. يا ربِّ هيج في قلبي الاشتياق.. يا ربِّ ليس بعد الجنَّة إلَّا النَّار.. فأنَّى لي أن أسيرَ والسَّبب هو هذا القلب الأسير.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٩٤٩) من حديث بسر بن أرطأة. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

أيها القلب تحرّك ... أيها العبد إياك أن تستسلم.. استسلامك اليوم هو تسليمك نفسك للخطر الأعظم الَّذي ما جعل هذا الشهر إلَّا للفرار منه.. استسلامك ربما كان يعني هلاك الأبد.. وعذاب الأبد.. يعني: تحقق ما كنت تسمعه عن النار وعذابها وأغلالها وحياتها وكلاليبها ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

يا ربِّ: بيدك قلبي فلا تتركه قاسيًا.. « **أعوذ بعزَّتك لا إله إلَّا أنت أن تضلَّني، أنت الحيُّ الَّذي لا يموت، والجنُّ والإنسُ يموتون**»[1].

يا ربِّ: إقبال اليوم ليس مثله إقبالٌ، وإدباره ليس أخطر منه إدبار ... اليوم يا ربِّ عرفت الجد في دعاء نبيك ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»[2]، فإذا لم أملك تصريف قلبي وهو قلبي فماذا أملك، ومن يملكه سواك؟ وإذا لم تصرفه أنت يا ربِّ على طاعتك فمن يصرفه سواك سبحانك؟

أيها القلب المدْبر: عرفت السياط التي تلذعك فتعود سريعًا متعبدًا متذللًا خاشعًا متصدعًا.. بل عرفت دواءك.. دواؤك أتناوشه بدعاء ربي سبحانه كيف لا وهو الَّذي يستحيي أن يبسط العبد إليه كفيه فيردهما صفرًا.. لأبسطن الكفين مرفوعتين ذليلتين إليك ربي لأجل قلبي.. لأعفرن الوجه لك ربي، يا ربِّ «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لهَا**»[3]، جئت أيُّها القلب الآن فورًا أم لم تأتِ فلأترصدنَّ ساعات الإجابة ترصُّدًا حتَّى يأتي بك الله.

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

تعجزني أيها القلب؟! نعم! لكنك لن تعجز الله الَّذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنا أستغيث عليك بالله أرحم الراحمين، فهو الَّذي يأتي بك راغبًا أو راغمًا إلى مرضاته سبحانه! فيا رب.. يا رب.. لا لن أنتظر وقت الإجابة حتَّى أدعوك ربي: بل الآن الآن.. يا ربِّ ائتِ بقلبي « **اللَّهمَّ إنِّي أسألك قلبًا خاشعًا، وأعوذ بك من قلبٍ لا يخشع** ».

لأخوضن بك أيها القلب هذا البحر وأنت كاره.. لَأَعْبُرَنَّ بك إلى الخشوع - كما عَبَرَ العلاءُ بنُ الْحَضْرَميّ الماءَ بالخيلِ - مرددًا من قلبي معظمًا نداء ربِّي هذا: «**لا إله إلَّا الله العظيم الحليم، لا إله إلَّا الله ربُّ العرش الكريم، لا إله إلَّا الله ربُّ السَّماوات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم**».

هكذا أيها العبد في لمح البصر يأتيك قلبك المدبر كأن سائقًا يسوقه .... يأتيك بأمر الله وقدرته وفضل الله ورحمته.. فعجل الطلب.. وألح فيه.. ثمَّ ألح وألح، فذاك الإلحاح ذاته هو الإجابة.. هو المطلوب نفسه.. هو الخشوع.. وهذا من عجيب إجابة الله للعبد.. وإنه سبحانه أقرب للعبد من حبل الوريد.

فما أعظم فضلك ربنا علينا..! وما أضل العباد حين يسعون وراء الأسباب الأخرى طالبين الخشوع ... طالبين قلوبهم.. غافلين عن الله ودعائه..

أيها العبد: إياك أن تتهاون بالمجاهدة.. إياك أن تتوقف إذا لم تر نتيجة.. إياك أن تيأس إذا تأخر الخشوع.. إياك أن تنسحب إلى بَرِّ القنوط إذا بخلت العين بالبكاء، وذهب الفكر عن التركيز.. وطار القلب عن القرآن، وذهب الخوف والرجاء في أودية الدنيا يطارد ويطارد.

لن أتركك أيها القلب.. تحسب أني سوف أيأس وأعود إلى رحلي راضيًا من

الغنيمة بالإياب، لن أعود لترتاح بعدها مع من تشاء وما تشاء من أهواء.. فليس عندي أعزّ ولا أكرم منك.

أيها العبد: تنبه إلى حقيقة علاجية مهمة يغفل عنها الكثيرون حين ينتظرون قدوم العلاج من القلب إلى الجوارح، ويحسبون أن العلاج محصور في القلب ابتداء.

إنَّه كما تتأثَّر الجوارح بأوامر القلب وأعماله، فإنَّ القلب يتأثَّر بأعمال الجوارح وحركتها كما يتأثَّر المَلِكُ ببطانته وجنده ورعيَّته، إنَّ لأعمال الجوارح - حتَّى لو فارقها الخشوع - انطباعًا عجيبًا على صفحة القلب، فلقد قال النبي ﷺ: **«استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»**(١).

لن أستصغر أيَّ سُنَّةٍ.. لأُبكِرنَّ للصَّلاة.. عسى ربِّي أن يراني فيلطف بحال قلبي، فيقول: بكرت من بين النَّاس للصلاة في بيتي ...! أنا أسرع إليك منك إليّ لأحافظن على الوضوء في كل وقت.. عسى ربي أن يرحم حال من طهر له ظاهر بدنه فيطهر له قلبه.. فتجتمع الطهارتان فيّ.

لأحرصن على سنة السواك والتطيب للصلاة فذاك ما تحبه الملائكة ... فلعلها تقترب من هذا العبد المتطهر المتطيب فتحفني وتحتويني رجاء أن يحقق لي ربي ما قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ العبدَ إذا تسوَّك، ثمَّ قام يصلِّي قام الملك خلفه فيستمع لقراءته فيدنو منه - أو كلمة نحوها - حتَّى يضع فاه على فيه، فما يخرج من فيه شيءٌ من القرآن إلَّا صار في جوف المَلَك، فطهِّروا أفواهكم للقرآن»**(٢).

(١) رواه مسلم (٤٣٢) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٢) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢١٥): رواه البزار بإسناد جيد لا بأس به، وقال الألباني: حسن صحيح.

لأقفنَّ بين يديك ربِّي لا يفارق نظري موضع سجودي في صلاتي، فذاك أكرم موضع، ولن أعطي الشَّيطان اختلاسة واحدة مني.. وربي أقرب وأعظم، فعساه سبحانه يقبل بوجهه على وجه تسمر على موضع سجوده تعظيمًا لوجه الله الكريم سبحانه.

لن أُحرِّك طَرْفًا ولا طَرَفًا.. لن أحركَ جسدًا ولن أشير إشارة.. عسى ربي أن يكرم جسدًا سكن لأجله بسكينة يدخلها سبحانه في قلبه، وطمأنينة ينزلها عليه، وخشوع يملؤه ويسري في جسده حتَّى يقشعر له جلده، ثمَّ يلين، ثمَّ يعيش عليه، فتفيض له عينه.. بل إن القلب يتأثر بها كما يتأثر المكان المظلم بالنور..

أيُّها القلب: أصابتك ظلمةٌ طارئةٌ؟ فلأسلطنَّ عليك النُّور الَّذي يقشعها – بإذن الله – أليس العمل الصالح نورًا يضيء وإن أكثر المتأثرين بهذا النور هي القلوب التي في الصدور؟!

أليس القرآن نورًا؟! ألم يقل الله سبحانه فيه: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٧٤] فلأسلطن هذا النور على القلب حتَّى وإن جفل وجفا، وإن شعرت أنه أظلم وقسا.. كيف وهو سبحانه ينير قلوب الكافرين حتَّى تعود مؤمنة، قال سبحانه: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١] فإذا كان نور القرآن ينير قلوب كافرين فيصبحون مؤمنين، فكيف لا ينير قلوبًا محبّة تخبطت لحظات في ظلمات، أو فترت قليلًا عن طاعات، أو ضلت خطوات في متاهات.

ألم يكن يصيب سلفنا ما يصيبنا.. وهم بشر، وللشيطان مداخله - نعوذ بالله منه.. -؟ بلى والله، ولكن لما كان القرآن رفيقهم كان القرآن ربيع قلوبهم ونورها، لقد كان رمضان ميدان القرآن الأعظم وربيع القرآن الملازم ... كانت قلوبهم أعظم ما تكون نورًا في رمضان.

وهذا هو السِّرُّ العظيم للتَّغيير الجذريِّ في حياة النَّاس في رمضان، فإنَّ القرآن وما يبثُّه من نورٍ في القلب هو السِّرُّ الحقيقيُّ في ظاهرة الخشوع العامَّة في رمضان بين النَّاس، وهو السِّرُّ في ظاهرة البكاء في رمضان، وما إلى ذلك.

أليس الوضوء عمل جوارح.. أليس ثمر هذا الوضوء نورًا يوم القيامة؟!.. إذًا، فلن تشهدني لحظة من رمضان إلَّا متوضئًا موقدًا هذا السراج في رمضان.. علَّ نوره ينطبع على صفحة القلب فتنكشف كل ظلمة فيه - بإذن الله - كما تنير غرته ظلمة يوم القيامة وهي أعظم.

لأمشين إلى المساجد في الظُّلم، للصلوات راجيًا من الله نور قلبي منه سبحانه، ألم يبشرنا النبي ﷺ بهذه البشارة العظيمة فقال: «**بَشِّر المشَّائين في الظُّلَمِ بالنُّور الدَّائم**»(1)، فاللَّهمَّ هذا النُّور عاجلُ بشراي وبشرانا.

كيف وقد علَّمنا رسول الله ﷺ دعاءً خاصًّا عند المشي إلى المسجد، ذلك هو الدعاء الخالص بالنور ... وهل علمنا ربنا سبحانه دعاءه هذا إلَّا ليستجيب لنا سبحانه ...

«**اللَّهم اجعل في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل في سمعي نورًا، واجعل في بصري نورًا، واجعل من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا،**

(1) أخرجه أبو داود في سننه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥٦١).

ومن تحتي نورًا، اللَّهم أعطني نورًا»[1].

فهل تبقى من ظلمة وقد انفلق القلب بالنور حتَّى لكأنه لهذا الأمر بالمنظور الإيماني يتوهج من شدة النور، ثمَّ هو يغذى بالنور في كل المصادر التي مرت، فاللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.

(١) رواه مسلم (١٣٥٣) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

التَّواصِي بِالتَّوَاصُل

سبحان الله! ما أطيبَ مجالسَ رمضانَ، ما أطيب النُّفوس بعد طاعة ربها! ما أعظم البهاء المشرق على وجوهها! ما أعظم استعدادها لقبول أي حديث أو تذكير أو موعظة أو علم؟!

فما بالنا حتَّى في رمضان لا نقدم على هذه الخطوة، ما بالنا نجامل بعض المتذمرين ولعلهم قلَّةٌ معدودون؟ ثمَّ إنَّهم ما إنْ يبتدئ الحديث التذكيري حتَّى يخفَّ الاستنكاف ويزول، ويذهب التَّذمُّر ويندثر، ولكنَّا إذا لم نبتدئ سوف يستحكم جانب الرَّفض ويكبر الاستنكاف والاستكبار، ولذا فإنَّ إحجام الدعاة إلى الله عن إلقاء الكلمات في رمضان حين يذهبون للمجالس إنما هو توسيع للفجوة ما بين النَّاس وبين دينهم، وبين النَّاس وبين قبول الذكر وحسن الاستماع، وفيه علو لنبرة الاستنكاف والتذمر.. إن هذه السنة في التذكير كفيلة - بإذن الله - إذا اتقى اللهَ الدعاةُ وأحسنوا إحياءها في المجالس في رمضان أن تنبعث من جديد في حياة النَّاس حتَّى تصبح سنة من رمضان إلى طول العام.. فلنأخذ هذا الأمر مأخذ الجد.. ولنحمل هذا البعث الجديد للعام كله، ولنغرس هذا الغرس في رمضان ونرعاه طوال العام، فما أحسنه من غراس! وما أعظم غرسته!

فلك أن تتصوَّر كم سيتفاءل النَّاس بقدوم هؤلاء المنذرين المبشِّرين إذا

قدموا على المجلس؟ كم ستتفاءل قلوبٌ صالحةٌ في المجلس، وكم ستتصاغر رؤوسٌ كارهةٌ للذِّكر؟

إنَّ هذه المهمَّة هي مهمَّة الأنبياء، إنها باختصار ما ذكر الله عن نبيه ﷺ حيث قال عنه: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ وهذا هو شهر التقوى، وهذا من أعظم ثمرات رمضان، إنها منزلة الأمر بالتَّقوى من عمل التَّقوى فحسب؛ لأنه «**الأمر بالتَّقوى**».. وهذه هي طبيعة التَّقوى، إنها التَّقوى المتعدية.

ولا ينبغي لمسلم أن يخرج رمضان إلَّا وقد صدق عليه هذا الوصف عند ربه سبحانه «**الأمر بالتقوى**».

هذا ما أقوله كَنِيَّةٍ، ولكن النِّيَّة وحدها لا تغني عن الإعداد للكلمة إعدادًا جيدًا محكمًا وتحديد هدفها.. بل إعداد أكثر من موضوع، ذلك أن المجلس هو من يتحكم بالمواضيع ويفرضها، فما أحسن الداعية إذا كان عنده مجموعة شيقة هادفة من المواضيع ينتقي منها لجلاسه ويقدمها لهم كما يقدم الطبيب دواءه.. مواضيع إثر مواضيع.. كل موضوع أحسن من الآخر، قد أعد قبل رمضان ثلاثين موضوعًا على الأقل.. لأنه ربما قال أكثر من موضوع في كل يوم وليلة.

ينتقي المواضيع التي تجتذب القلوب وتشوقها أكثر حتَّى تجعل النَّاس أنفسهم يطالبون الداعية بمواصلة الزيارة وتزويدهم بالعلم والموعظة إلى ما بعد رمضان من عظيم أثرها.. الأثر الَّذي يجعل القلوب ترتبط بربها وتطلب منك غذاءها، وتستشعر الجوع إذا بعد عهدها.. المواضيع التي تتحول إلى برمجة ومنهج.. في ذات المجلس أساسًا وفي المسجد بعده.

يا ربِّ: إنَّ وجهي ما توجَّه لهذا ولا ذاك إنَّما توجَّه لك وحدك لا شريك لك.. سواءٌ سلكتُ هذا الدَّرب أو ذاك، ركبت هذه الدَّابَّة أو تلك، طرقت باب هذا المجلس أو ذاك، فأنا لا أطلب منهم مالًا ولا جاهًا لشخصي.

إنما أنا ذاهبٌ لهؤلاء البشر أسأل الصَّدقة لمشاريع خيريَّةٍ أستشفع لفلانٍ الفقير.. لابن فلان ليتوظَّف.. لجمع إفطار الصَّائمين.. لإكساء عُراةٍ كسوة العيد ليعيشوا كالبشر.. ليكفل المسلمون بعض العلماء.. وبعض الأساتذة المصلحين.. لكفالة طلَّاب علمٍ.. ومحفِّظي حلقات القرآن ...

يا ربِّ: خرجت لهؤلاء أطلب ... أتوسل كرام الناس.. وأنت ربي عليم أني معتز بعزتك.. رافع للعلم الَّذي آتيتني عن إذلاله وإهانته.. شامخ فوق ذرى الجبال لو كانت ذهبًا خالصًا.. غير آبهٍ بعظمة فلان ولا ماله ولا جاهه ولا شيء من الدنيا.. ذلتي لهؤلاء ذلة لك.. ذلة لأجل وجهك.. حطٌّ لجاهي لجاهك العالي، وفداء وجهي لوجهك الكريم سبحانك.

فهذا والله عِزِّي.. ورفعتي وأملي.

وإلى متى يُدَّخر الجاه إن لم يهرق في سبيلك.

وأيُّ قيمةٍ للجاه إذا جرت في مناخر صاحبه الدُّودُ تأكل الأنف الشَّامخ، وتنخر النَّاصية المستعلية، وتمخر عباب البطن ... والريح من فوقه تُسفي على القبر التُّراب، وتحمل من ترابه أضعافًا، إلى الأهل والأصحاب!

فإلى أيِّ شيءٍ يُؤخر الجاه؟

ألا فلينفق الجاه.. وليحصد جناه.. يوم يقوم الأشهاد لرب العالمين.

يا ربِّ، ولي في الزيارة مآرب أخرى.. فلقد روى لنا عن رسولك ـ عليه

الصلاة والسلام ـ ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: إنِّي أذنبتُ ذنبًا كبيرًا فهل لي من توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**ألكَ والدان**»؟ قال: لا قال: «**فلك خالة**»؟ قال: نعم قال: «**فبرها إذًا**»[1].

وعن أبي بردة قال: قدمت المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقال: أتدري لم أتيتك؟ قال: قلت: لا، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أحبَّ أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده**» وإنَّه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاءٌ وودٌّ، فأحببتُ أن أصل ذاك[2].

يا ربَّنا، ولنا من مآرب الوفاء للصَّحب ما نتمنَّى بلوغه، فلقد بلغنا عن نبيِّك ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ حُسْنَ العهدِ من الإيمانِ**»[3].

يا لصلة الأرحام ما أعظمها! روابط خلقها الله سبحانه في الأزل من أرحام وأنساب وأصهار يريد الله سبحانه من عباده أن يسقوها بالصلة.. إن الصلة بذاتها قربة يحبها الله سبحانه، ويكافئ عليها من جنسها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥]، ولقد صح في الحديث: «**إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِن الرَّحْمَنِ، قَالَ اللهُ: مَنْ**

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٣٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٣٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده على شرط البخاري.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤٠). قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، قال الذهبي معلقًا: على شرطهما وليست له علة. وانظر: السلسلة الصحيحة (٢١٦).

وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ»[1].

وفي الحديث: «مَنْ سَرَّه أَنْ يُبْسطَ له في رزقه، أو يُنسأ له في أثَرِه، فَلْيَصِلْ رحِمَه»[2].

فيا أيها المسلم، إيَّاك أن تتردَّد في صلة أرحام قد قطعت من زمن طويل مستثقلًا صلتها، مستصعبًا ذلك، وتستسلم لحكم التقادم، فيجرك الخجل إلى القطيعة.. إلى أن تلقى الله! بل هذه أحق وأولى بالاستدراك وإعادة الترميم.. فعسى الله سبحانه أن يعيد بك ما هدمه الآباء أو الإخوة، ولعل الله سبحانه يجمع بك الصلة والإصلاح، وهذه هي التَّقوى التي ينبغي أن تحقق في رمضان؛ إذ رمضان شهر التقوى، وربنا يقول سبحانه عن الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:١-٣].

ويا أيها الأخ والأخت: احرص أن تجعل صلتك للأرحام ديمة، فلا تجعلها لأول الشهر مرة، وربما في العيد مرة، ثمَّ يكون الانقطاع إلى الأبد!

بل ليكن المنطلق هذا الشهر، والمنتهى عند الله سبحانه، ولن يديم صلة الأرحام من لم يبرمجها، ويجعل لها وقتًا محددًا، ولن يديم الصلة من جعلها تبعًا لفراغه وتفرغه، ولم يجعلها في الأساسيات.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ.. رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٥٦٤٠).

نعم، فمن الأرحام من تكون صلتهم بالاتصال الهاتفي ويكون كافيًا، لكن لا بد من اللقاء ولو كان بعيدًا، ومنهم من صلته بالزيارة بالشهر، ومنهم من صلته أسبوعية، ومنهم من صلته كل صباح ومساء كالوالدين إذا كنت معهما، أو كانا معك في نفس المنزل.

ولا بد لكل صلة أن تخلط بالدَّعوة إلى الله، والعلم والتَّعليم والتَّزكية بما يناسب، والحكمةِ في التَّبليغ ... المهمُّ ألَّا تكون متكلَّفةً، ولا تكون ثقيلةً جافَّةً، فالحكمة أساسٌ في ذلك، فلربما كانت بإهداء محبب، وبعده إهداء كتاب مميز، وربما كانت بالتعريض بذكر قصص أو إهداء شريط، وربما كانت بموعظة مباشرة، وربما كانت بالتكفل بشأن صغار الأسرة ورعايتهم وتأديبهم وربطهم بمربٍّ فاضل، ومحفّظ للقرآن مجرب، ولا يترك أبناء الأسرة والرحم إلَّا عندما يترك الطير فراخه إذا ظهر لهم الجناح الكامل وعلمهم فطاروا بين عينيه وبرعايته.

ينبغي لصاحب الدَّعوة أن يُعيد النَّظر أحيانًا على الحلقة الأقرب من الأرحام من حوله، وسيجد أن البصر قد تخطاها إلى ما هو أبعد منها كما يتخطى الخطيب على منبره الرفيع أقرب الجالسين تحته، ربما لأسباب وغالبًا لأوهام، فكم ينجح الدُّعاة مع الحلقات الأبعد لكنَّهم يفشلون مع الأقرب؛ لأنهم لا يتعاملون مع الأبعد بالحساسية التي يتعاملون فيها مع الأقرب، فاعتاد النَّاس عدم التحمل من أرحامهم ما يتحمل أحدهم أضعافه من الأبعد، وليس له من علاج إلَّا أن يهجرها أو يتثاقل نحوها.. وربما يقطعها ويقدم لنفسه الأعذار، وأعود لأؤكد على حقيقة النجاح مع الأهل والأرحام وهي ألا يكون هذا العمل

الصالح فلتة، بل يكون ديمة مستمرًا إلى أن تتحقق الغاية، ولا ينبغي أن يقتصر المنهج والبرنامج على الأبناء، بل لا بد أن يكون لركن الأسرة الأساس: (الأم والبنت والأخت والإناث) من رحم الداعي والداعية نصيب منهجي.. فهن صويحبات العاطفة الصادقة والصحبة الملاصقة، فالرجل مفارق أغلب النهار أسرته، أما المرأة فهي المربية، وهي الحارسة، وهي الحجر، بل هي اللبن الَّذي لا نقبله إلَّا صافيًا لصغارنا، فكيف نقبل لبن العلم والتربية لرضعنا خليطًا ملوثًا؟ وأعود لأؤكد على أهمية التفعيل العلمي والتربوي من النساء أنفسهن، مبتدئات بالأقرب فالأقرب، حتَّى لو كان ذلك باستدعاء مربيات مسلمات خارج دائرة الأرحام، فالمهم تحقيق الهدف والإعذار إلى الله سبحانه، ونفس ما تقوله هنا يمكن أن يعمل في حلقات الأحياء السكنية.

إن هذا لا يكون إلَّا لمن عرف حاجة رحمه وصحبه.. فكم من كبار السن والكبيرات من لا يعرف قراءة فاتحة الكتاب، وقراءة التشهد، ومنهم من لا يعرف كيفية الصلاة، ومنهم من لم يذهب إلى الحج والعمرة، ومنهم من لا يعرف أحكامًا ضرورية تتعلق بالزكاة وكذا بالصيام ومنهم ومنهم..

وثمَّة نشءٌ صغارٌ في الأرحام يمكن أن يكونوا أحسن غرسٍ لعلماء كبارٍ قادمين، ومنهم مَنْ يصلح مع البرمجة الصَّحيحة أن يكون من الحفظةِ لكتاب الله المتقنين، فإذا لم يَكْتشف هؤلاء العلماء الصِّغار أقرب النَّاس منهم فمَنْ يكتشفهم؟!

إنَّ التَّذمُّر السَّلبيَّ عن بُعْدٍ لَا يغير مُنكرًا، ولا ينشئ معروفًا، وكم من الأرحام نساء متساهلات في الحجاب، متساهلات في الخروج من البيت لم يخطر لهن

أول ما خرجن ما بلغنه بعد ذلك لما ألفن الخروج، وتعرضن لما تعرضن له من الفتن ودعاتها!

فصلة الأرحام ميدانٌ عظيمٌ للإصلاح، ولو أن كلَّ داعيةٍ وطالبَ علمٍ قام بواجبه نحو أرحامه لربَّما اكتفينا عن الآخرين في تصحيح الطَّريق، وترسيخ القدم في العلم الشَّرعيِّ.

وصلة الأرحام ميدانٌ لممارسة تقوى الله والانتصار على النَّفس، فكم تَحْدث احتكاكات بين الأرحام، أو ربما كلمات قاسية فتؤخذ ببالغ الحساسية فتكون قطيعة لا يرضاها الله سبحانه، هنا يكون التَّقوى ويكون الانتصار على النفس كما قال المصطفى ﷺ للرجل الَّذي أتاه فقال: يا رسول الله، إنَّ لي قَرَابةً أَصِلُهم ويقطعوني، وأُحْسِن إليهم ويُسِيئون إليَّ، وأحلُم عنهم ويَجْهلون عليَّ، فقال: «**لئن كنت كما قلت فكأنَّما تُسِفُّهُم المَلَّ**[1]**، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك**»[2].

فإن لم تكن التَّقوى في شهر التَّقوى فمتى تكون؟

سبحانك ربنا! كيف جعلت سعادةً تسري في النفس من أثر الصلة لمن يصل الأرحام.. إنه الرضا الغامر، والسُّرور الكبير يَسْري في جنبات النَّفس ما إن تغادر باب بيتهم أو تقفل سماعة الهاتف.

ينبغي لنا أن نحافظ على صلة الأرحام بطرقها التقليدية.. لكن لا بد أن نرتقي بها إلى درجة المشاريع الباقية ... مشاريع الصدقات الجارية، مشاريع شرعية

(١) المل: بفتح الميم: الرماد الحار.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ذرية[1]، مشاريع دعوية عالمية.. كفتح مواقع خاصة، أو صفحات على الإنترنت، أو ما يسمى بـ «الفيس بوك» أو تويتر.. ونحو ذلك، فكم سيبدع أبناؤنا الذين أخذهم هذا التيار وأذهلهم.. فيصبح ولعهم مثمرًا، ويدفعون في هذا الجانب دفعًا إيجابيًّا كبيرًا وخصوصًا إذا رأوا ثمرة عاجلة كتوبة تائبين وتائبات، وإسلام كافرين وكافرات.. فاللهم بارك.

إنَّ صلة الأرحام أبلغ رسالةٍ يتلقَّاها الصِّغار من الكبار: أَنْ حافظوا على ما ترون واحفظوا عنا ما كنا نفعل، واحفظوا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦].

(١) نسبة إلى الذرية كما في الوقف الذري.

إِلَى الحَجِّ مَعَ رَسُولِ اللـهِ ﷺ

وما إن يدخل رمضان حتَّى يهيج القلب نحو رسول الله ﷺ.. وكأنه الموعد المضروب للقاء رسول الله ﷺ.

إني لَأُسرِحُ الفِكْرَ في وجوه الجموع القادمة في عمرة رمضان من تركيا وباكستان والهند وروسيا وبلاد العرب وبلاد الخليج متسائلًا عن سائق هذه الجموع التي تحتشد في رمضان دون غيره وكأنه الحج الأكبر؟! فأجد الجواب فيها قبل أن أسائلها: لأجل رسول الله ﷺ رغبة في معيته في حجه، هو الحب وحده.. هو تِرْياق الاشتياق نتناوله.. وابتراد جَوَى فؤادٍ يتَّقد بهذه العمرة ...

أتخرج الجموع من أنحاء الجزيرة العربيَّة حين علمتْ بعزم رسول الله ﷺ على الحجِّ في العام العاشر للَّهجرة.. وأبقى أنا قاعدًا في بيتي بين أولادي وفي مالي وحلالي وكأن رسول الله ﷺ هناك في حجه! لا واللهِ، ما قدرت على ذلك مدى حياتي، فاللهم أعن.

يقول العبد: حتَّى لو كانت (تعدل حجَّةً) ولم تكن حَجَّةً حقيقيَّةً فأنا راضٍ بهذا التَّشبيه، قانعٌ بهذا التَّقريب، متشرِّفٌ بمعيَّة رسول الله ﷺ لقوله: «معي».

إذا كان رسول الله ﷺ يحبُّ مَنْ يحبُّ رؤيته، ويعلن اشتياقه الكبير لهم أفلا نعلن اشتياقنا له.. وقد قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ أشدِّ أُمَّتي لي حبًّا ناسٌ يكونون بعدي يودُّ أحدُهم لو رآني بأهلِه ومَالِهِ**»[1] ... أفلا نَسعى للتَّعبير عن هذا

(١) رواه مسلم (٢٨٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الاشتياق..؟ أفلا نفارق الأهل والأوطان لأجله ﷺ حتَّى لو كانت «**كَحَجَّةٍ معي**» ولم تكن حجَّةً حقيقيَّةً معه ﷺ.. أليست هذه العمرة بهذه القيمة الكبرى أعظم من مجرد رؤيا منام يرى فيها المسلم رسول الله ﷺ - وإنها والله لعظيمة.

يا إخواننا: إننا إذ نقدم لهذه العمرة خاصة فإنما نعبر عن اشتياقنا لحبيب الله ... تعبر عن محبة معيته.. كيف لا وهو يعبر عن اشتياقه لمن يشتاق إليه ولو برؤيا منام، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: «**السَّلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون، وددتُ أنَّا قد رأينا إخواننا**» قالوا: أَوَ لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «**أنتم أصحابي، وإخواننا الَّذين لم يأْتُوا بعد**» فقالوا: كيف تعرف مَنْ لم يأتِ بعدُ من أُمَّتك يا رسول الله؟ فقال: «**أرأيت لو أنَّ رجلًا له خيلٌ غُرٌّ مُحجَّلةٌ بين ظَهْراني خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألَا يعرف خيله**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**فإنَّهم يأتون غرًّا مُحَجَّلين من الوضوء، وأنا فَرَطُهم على الحوض، ألَا لَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذادُ البعيرُ الضال أناديهم ألا هلمُّوا، فيقال: إنهم قد بَدَّلُوا بعدَكَ، فأقول: سُحْقًا سُحْقًا**»[1].

أفلا نبادله ﷺ الاشتياق بالاشتياق.

أيها المحب الَّذي أنضج قلبك لهيب الاشتياق إلى رسول الله ﷺ: ما الَّذي حجبك عن رسول الله ﷺ اليوم؟ أليس هو الزمن؟ الزمن الَّذي لا تملك عبوره إلَّا برؤيا منام؟ أو مشاركة معنوية، أو معية شرفية، أو مثوبة أخروية؟ ألم يحقق رسول الله ﷺ كل هذه الأشياء في هذا العرض العظيم الَّذي عرضه.. فكأن الزمن قد تلاشى.. وكأنَّ المحب قد لاقى.

فكر بكل طريق يمكن أن يكون بديلا عما عرضه رسول الله ﷺ.. بكل طريق

(١) رواه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يمكن أن يوصل المحبين برسول الله ﷺ أبلغ وأحكم وأكرم من عرض رسول الله ﷺ هذا؟

فلقد اختار الله سبحانه لرسوله ﷺ مع مُحبِّيه المُقتدِرين أكرمَ شهرٍ في عمر الزَّمان وهو رمضان.. واختار له أكرم بقاع الأرض على الإطلاق وهو البيتُ الحرامُ، واختار لهذا الأمر أعظم الأعمال وهي أعمال المناسك الممكنة في غير أشهر الحج، واختار له الصِّيام الَّذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**عليكَ بالصَّومِ؛ فإنَّه لا عدلَ له**»[1].

وكان - والله - كافيًا أن يرفع من شأن هذا العمل ليجعل مَنِ اعتمرَ هذه العمرة، فكأنَّما اعتمر مع رسول الله ﷺ.. لكنَّ كَرَمَ رسول الله ﷺ أعظم لو كان حيًّا أن يُكافئ بمثل ما جاءه!

وكرمُ الله لرسوله ﷺ أعظم من ذلك وأعظم، وكرم الله لمن جاء لرسوله في بيته العتيق في رمضان المكرم أعظم من ذلك وأعظم، فكانت المكافأة أجر حَجَّةٍ وليس أجرَ عمرةٍ.. بل أجرَ حَجَّةٍ مع رسول الله ﷺ.

ماذا لو قال قائلٌ: إنَّ هذا اللِّقاء كان يمكن أن يتحقَّق بين رسول الله ﷺ وبين مُحبِّيه عند قبره بدل الكعبة؟!

والجواب: إنَّ هذا غير صحيحٍ ولا يؤدِّي هذا الغرض إطلاقًا.. فحاشا رسول الله ﷺ أن يَنْهي أُمَّته - في آخر كلماته - أن يَتَّخذوا قبرَه معبدًا[2] كما اتَّخذت اليهود والنَّصارى قبور أنبيائهم كذلك، ثمَّ هو يفتح هذا الباب ويجعله ذريعة لذلك!

---

(١) رواه النسائي (٢٢٢٢) من حديث أبي أمامة ﷺ. وصححه الألباني.

(٢) قال رسول الله ﷺ: « **قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، متفق عليه. رواه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

حاشاه ﷺ أن يجعل الصلة بينه وبين النَّاس مباشرة وهو ميت ﷺ في قبره بديلًا عن رفع النَّاس أعمالهم إلى الله مباشرة، وهو ﷺ إنما جاء ليوصل النَّاس بالله مباشرة، حتَّى ما ورد في السلام عليه ﷺ كما أخبر أن ثمة صلة بينه وبين الناس، فمرة قال: «**إِنَّ الله أَوْكَلَ أسماءَ الخلائق عند مَلَكٍ، فهو قائمٌ عند قبري إلى يوم القيامة، لا يصلي عليَّ أحدٌ صلاةً إلَّا سمَّاه باسمه واسم أبيه، وقال: يا محمد، صلَّى عليك فلانُ ابنُ فلان**»[(١)]، ومَرَّةً قال: «**إلا ردَّ اللهُ عليَّ رُوحي**»[(٢)].

وللقارئ أن يتصوَّر كيف سيصبح الأمر عند قبر رسول الله ﷺ لو أنه جعل لقاءه عند قبره في رمضان؟! أيبقى مكان للصلاة في مسجده، أم سيذهب أحد إلى الكعبة في رمضان؟ وكيف سيفتح باب الابتداع عمليًا على مصراعيه لقبول احتفالات جديدة ما أنزل الله بها من سلطان كالاحتفالات بالخلفاء والصحابة وآل البيت الكرام وعموم الصالحين؟! ثمَّ إنه لو قال: «**قبري**» لما شمل الذين في حياته، وأساس الحديث جاء للمرأة الصحابية التي فاتها الحج، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما رجع النبي ﷺ من حَجَّتِهِ قال لأمِّ سنان الأنصاريَّة: «**ما منعك من الحجِّ؟**» قالت: أبو فلانٍ - تعني زوجها - كان له ناضحان حجَّ على أحدهما، والآخر يسقي أرضًا لنا، قال: «**فإنَّ عمرةً في رمضان تقضي حَجَّةً معي**»[(٣)].

---

(١) رواه البزار في مسنده (البحر الزخار ٤/ ٢٥٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٦٢)، وقال: فيه نُعيم بن ضمضم، وفيه خلاف عن عمران بن الحميري ولا يُعرف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. رواه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦).

(٣) رواه أبو داود في سننه (٢٠٤١)، وصححه النووي في الأذكار (ص١٥٤)، وابن حجر في الفتح (٦/ ٥٦٣).

سبحان الله! أيُّ حكمةٍ بالغة في هذه العمرة.. وأيُّ تَميُّزٍ يعيشه العبد طوال هذه العمرة.. فكما يخرج العبد ليلاقي ربه في عرفة فإن خروج العبد لهذه العمرة رغبة في معية رسول الله ﷺ.. وكما توثَّقتْ هناك (لا إله إلَّا الله) تشريعا، توثقت هنا (مُحمَّد رسول الله ﷺ) تشريعًا، وكما كانت في عرفة أحب الكلام إلى الله (لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ) ترسيخًا لوحدانيَّة الله، ومَحبَّةً له، وتزلُّفًا إليه، فقد أصبحت هذه العمرة لرسول الله ﷺ ومحبَّةً إليه ولمعيَّته.

فلم يعد الحبُّ مُجرَّد مشاعر ومواجيد، بل أصبح تشريعًا وسَعْيًا وخروجًا وفراقًا وتضحية وبذلًا وفداء، وتحقيقًا لحقيقة التَّوحيد.

سبحان الله! فلم يجعل النَّبيُّ ﷺ هذه الخاصيَّة في هذه العمرة خاصَّةً لأهل مكَّة أو المدينة، ولا الجزيرة العربية، بل جعله عامًّا لكل مسلم ومسلمة من أي البلاد وأي الأصقاع واللغات.. فلغة محبته ﷺ هي اللغة المستخدمة في هذا العمل، وهي اللغة المقصودة لكل الآتين من كل فج عميق لهذه العمرة العظيمة.. بل لهذه الحجة العظمى.. حقًّا إن رسول الله ﷺ حج حجة واحدة، لكنه ﷺ جعل المشاركة ممكنة لكل من شاء، فجاء في عمرة رمضان.. فكم اتسعت المشاركة وعمت بركتها وخيرها.

لقد حول النبي ﷺ الحب إلى معنى أبعد من أحاسيس قلبية إلى ممارسة واقعية مع ما فيها من مشاعر قلبية.. فالحب هنا لا يفارق الحركة، بل الحب في هذه العمرة خاصة هو من يقود كل حركة.. حقًّا إنها عمرة، ولكنها من ابتداء نيتها حتَّى مجيء وقتها وخروج العبد فيها ورسول الله ﷺ كأنه حاضر، وكأن

هذا المحب المعتمر يراه بعينيه هكذا هو في طوافه.. في سعيه.. في كل شيء.. حتَّى عودته إلى حيث جاء.

صحيح أن هذه بذاتها ليست فريضة، ولا يأثم تاركها في رمضان، ولكن يكفي ألَّا يجعل النبي ﷺ عليها أجرا معلوما اللهم إلَّا معيته في حجته ﷺ.. فأي مسلم مقتدر يستطيع القعود في بلاده مقابل هذا؟! اللهم إلَّا من كان في بقائه مصالح الإسلام أعظم أو عنده عذرٌ لا يُلَامُ عليه.

هُمُومٌ فِي رَمَضَانَ (١)

سكينةٌ كسكينة البحر.. أو كسكينةِ السَّفينة على ظهر البحر إذا جَرَتْ بها الرِّيح الطَّيِّبة..

هكذا هي النَّفس في سكينتها بريح الإيمان الطيبة واليقين والإخبات والثِّقة والخوف والرَّجاء ونحو هذه الطَّيِّبات الَّتي يكاد مَنْ يُعايِشها ولو لفترةٍ قصيرةٍ أن يتذوَّق طَعْمها بلسانه.. ويُحِسُّ لينها ببنانه.

فللصَّلاة لـذَّةٌ وخفَّةٌ.. وإن طالت قراءتها، وللقرآن حلاوة وإن اشتدَّت مواعظُهُ، ولِذِكْره برد على القلب وإن وصف النار.

وبينما النفس كذلك في سكونها وطمأنينتها إذ جاءتها ريح عاصف، وجاءها الموج من كل مكان وظنت أنها أحيط بها.. تقرأ القرآن ولا تشعر بحلاوة الآيات ... تؤدي الصلاة ولا تشعر بلذتها ولا خفتها، تردد الأذكار كأوراد يومية، وربما ذهبت بعضها حتَّى خرج وقتها..!

إنها أعاصير الهموم الطارئة التي لم تحسب لها النفس حسابًا.. لقد ضاقت الأمور وصعبت: أمانات ... التزامات.. مواعيد سداد.. العجز قاهر.. وكل له عذره، فالناس في كساد كبير.. لكن ماذا يصنع العبد في هذا الأمر الواقع، ماذا

(١) ربما قال قائل: وما علاقة الهم برمضان؟ والجواب: من ذا الذي لا يصيبه هم طوال شهر بأكمله؟! وبما أن هذا كتاب الحياة والميدان، كان لا بد من إعطاء الصائم الحل الواضح والتصرف الصحيح.

أصنع بغلبة الدَّين وقهر الرجال؟ إنه ضيق ويا له من ضيق.. هَمٌّ من هنا وهَمٌّ من هناك.

وهذا له همُّه، وذاك له همُّه، وكلٌّ يحمل همًّا معينًا ... حالة لا تكاد تسلم منها نفس أو يتخلف عنها أحد؛ أين ذاك الخشوع والتذلل الَّذي كان يسكن هنا قبل لحظات؟ أين اللذة والأنس بالذكر..؟ أين الاشتياق لها قبل أن تأتي، والتلذذ بها عند الأداء، وعبق الإيمان وشذاه بعد انتهاء العبادة؟!

أين تلك الحياة السَّعيدة الطَّيبة الَّتي لم يجد العبد لها نظيرًا؟!

توقَّف قليلا أيُّها العبد، اهْدَأْ.. تفكَّر.. تدبَّر ... فليس الهمُّ كلُّه أذىً ولا شرًّا..

اترك عاصفة الهم الأولى تمر.. دع طاحونتها تدور دورتها الأولى.. واسكن قليلًا ستجد قلبك قبل أن ينقضي اليوم الأول والساعات الأولى يخاطب ربه شاكرًا على هذه النعمة التي هطلت عليه من حيث لا يدري.. ها هو القلب يقول لك الآن: ما الَّذي أهمك؟ ألا يكفيك أن الله سبحانه يعلم أنك أمين وحريص على أموال الناس؟ ألا يكفيك أن الله سبحانه يعلم بما نزل بك، ويعلم أوان انقضائه؟

يا ربِّ كم لك في هذا الهمِّ من نعمةٍ؟

يا ربِّ: سكنَّا إلى الخشوع وتلذَّذنا بذلك، وركنَّا إليه حتَّى لكأنَّه من كسبِ أيدينا، أو أنه مقيم عندنا أبد الآبدين..! فجاء هذا الهم ليقول: إن كان من كسب أيديكم فلم لم تحافظوا عليه..؟ لقد آتاكم الله إياه فأخذتموه ثمَّ تَبيتموه حتَّى لكأنكم ترددون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]!

ألا من بلغه الله هذا المبلغ وأذاقه طعم الإيمان هذا فليشكر الله شكرًا يناسب هذه النعم .

وليعلق قلبه بحراستها، ومن حراستها أن يبقى متخوفًا سلبها منه أشد التخوف، فإن مقدار التخوف على ذهاب الشيء بمقدار قيمة ذلك الشيء عند صاحبه وفي قلبه.

ومن حراستها دعاء الخائف من سلبها، دعاء المضطر الَّذي ترصد له عدوه الَّذي يراه هو وقبيله من حيث لا يراه هو ... وهو لا طاقة له بحفظ هذه النعمة إلَّا بحول الله وقوته..

اعرف قيمة هذا الدعاء وقيمة كلمات المصطفى ﷺ: **«يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلْبِي عَلى دينِكَ»**[1]، **«يا مصرِّفَ القلوبِ صرِّف قلبِي عَلى طَاعتِكَ»**[2].

يا ربِّ! الآن أدركت انشغالنا بأنفسنا، واعتدادنا بما عندنا من إيمان دون أن نشعر، وتفريطنا في الحراسة دون أن نشعر.. فيا مصرف القلوب صرف قلوبنا على دينك.. آه على تلك الساعات ولذتها، أو على تلك الصلوات وطول سجداتها.. آه على تلك الحالات والحياة!!

يا ربِّ! لا تجعل فراقها يطول.. ولا عهدها يبعد عني..

يا رب! لن أشغل قلبي بها محاولًا استرجاعها فأقع في ذات الخطأ، إنما شغلي اليوم بك ربي وحدك عن اللذة وما سواها.. فاللذة ليست غاية كما أن كسبها لم يكن بالأسباب، فكم ممن يؤدي الأسباب لا يجد اللذة الإيمانية؟ وكم يتفاوت النَّاس في مقاديرها في قلوبهم؟ وكم يفترقون في آثارها على حياتهم وكم وكم.. كل ذلك بك اللهم وحدك.. أليست هي ثمرة العلاقة بك؟ أليس انطباع السكينة ثمرة لقربك ربي وتقريبك لنا؟!

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (١٣٦٩٦) بسند صحيح.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه(٩٠٢).

فأي شيء لنا؟

يا ربِّ: قد أقبلتُ عليكَ اليومَ إقبالَ المعترفِ.. العارف بما عرَّفتني به.. فالحمدُ والنِّعمة كلاهما لك ربِّي، فماذَا بقيَ للعبدِ..؟ الجوابُ: لا شيءَ!

ليست النِّعمةُ وحدَها وليسَ الحمدُ وحدَه إنَّما السَّبب والمسبِّب، حقًّا إن النَّعمة لكَ، لكَ الحمد على النِّعمة كذلكَ لكَ ... لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك.. لبَّيك لا شريكَ لك لبَّيك.. إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ والملك.. لا شريكَ لكَ. فإذَا كانَ حمدِي وعبادَتي منكَ وحدَكَ لا شَريكَ لكَ فكيفَ لا تكونُ آثارُها من سكينةٍ وتلذُّذٍ منكَ؟

فكم علمنا رسولك ﷺ ولم نتفطن؟! ألم نقل من قبل ولم ندرك معناها إلَّا في هذا الظرف: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمعُ، ونفسٍ لا تشبعُ**»(١)، و« **أعوذُ بكَ من صلاةٍ لا تنفعُ**»(٢)، و«**عملٍ لا يرفعُ**»(٣).

أيها العبد المسلوب: لاحظ جيدًا هذا الحديث العظيم! فصور العبادات كلها موجودة لكن أين حقيقتها؟!

الأصول موجودة لكن أين ثمرتها.. العلم موجود ولكن بلا نفع.. والقلب موجود ولكن بلا خشوع، والدعاء موجود لكن غير مرفوع.. والصلاة موجودة ولكن من غير نفع.. والعمل موجود لكنه لا يرفع!

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

(٢) رواه أبو داود (١٥٤٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٩٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

يا ربِّ: أحمدك حمدًا كثيرًا على أنك لم تسلبني الأصل وهو نعمة الإيمان وأداء الفرائض بل ولا أكثر النوافل حتَّى لو ذهبت لذتها أو بعض لذتها.

من هذا الموقع بدأت أقدر كلمات رسولك ﷺ في دعواته.. كنا نرددها ولكن لا نبلغ مداها.. فكم فرطنا – ربنا – ونحن ندعوك في أعظم المواضيع وقلوبنا عنها في غفلة: «**اللَّهمَّ لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وإليكَ أنبتُ، اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بعزَّتكَ لا إلهَ إلَّا أنتَ أنْ تضلَّني، أنتَ الحيُّ الَّذي لا يموتُ والجنُّ والإنسُ يموتُونَ**»(١).

يا ربِّ: كأن للقلب جهاته المتعددة، وأبوابه المتنوعة، وكنت مطمئنًا لحصن قلبي في لذة عبادتي.. حتَّى إذا جاءت هذه الهموم كشفت جوانب في قلبي لم أكن متفطنًا لها ولا عارفًا بها.. فمن ذا الَّذي يغتر بحالي أيا كان ذاك الحال؟!

كم من النَّاس لم يفتنوا بتعذيب الأبدان ولكنهم فتنوا بإغراء السلطان! كم من النَّاس شدهم الفقر إلى الإيمان، لكنهم سقطوا عند ذهاب الفقر وإقبال الدنيا! كم نستمتع بالإيمان إذا الريح رخاء، فإذا جاءتها الريح العاصف تبعثرت اللذة والسكينة وأصبحنا غير قادرين على شيء مما كسبنا من قبل!

أيُّها العبدُ: إنَّ في هذا لفتًا لانتِباهنَا إلى البحثِ الدَّائم عن مواضعَ في القلب لم نُحْسن تحصينَها ولا الاستعداد للعواصفِ إذا هبت من خلالها، إنها الاختبار الصعب في الوقت المُفَاجِئ!

أرأيت كيف تُعرض على التجربة بعض القطع قبل اعتمادها في صناعة الطَّائرات إلى تجاربَ هائلةٍ بتحمِيلها أوزانًا، ثمَّ تُعرَّض إلى ضغوط شديدة من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(٢٧١٧).

اتجاهات مختلفة ليحكموا بصلاحيتها للطائرات أو عدم صلاحيتها، كذلك اختبارات هذا القلب، فإن الاختبار حتم لازم، لكن الزائد هنا هو تنوع الاختبار وقسوته ومجيئه في مواضع وأوقات غير متوقَّعة.

سبحانك ربي! كيف تستخرج العبودية من قلب عبدك في مواضع لا يعلمها هو.. كيف تقوي عبوديته إليك ... كيف توثق صلته بك.. كيف تصلح قلبه.. كيف تجعله يقبل إليك بأمر هو لا يحبه ولم يكن يتوقعه.

يا لها من طريقة ترد الكافرين إلى الإيمان فضلًا عن المؤمنين: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣].

وهذا ما يُظهر فائدة جديدة وحكمة ربانية بالغة تلك هي رقة القلب، فإن هؤلاء المشركين لم يتضرعوا إلَّا حين خضعت قلوبهم بسبب البأساء التي نزلت بهم؛ ولذا عزا الله سبحانه عدم ضراعة المشركين رغم نزول البأساء إلى قسوة قلوبهم، فكم نشتري رقة القلب وتلك الضراعة؟! سبحانك ربي! كيف وهبت لنا المخرج من هذه القسوة والجلافة الإيمانية.. إنها الضراعة، الضراعة إلى صاحب الخلق والأمر، الضراعة لمن القلوب بيديه يقلبها كيف يشاء.. الضراعة بتجاوز الأسباب وعدم إشغال القلب بها، الضراعة التي تطير سريعًا قسوة القلب وتأتي برقته، حتَّى لكأن الضراعة مربوطة برقة القلب ربط الاتحاد أو الدوران، فلا تدري أكانت الضراعة أولًا أم رقة القلب.. من أتى بمن؟ المهم أن هذا هو العلاج الحق في هذا الأمر الجلل، وهو المفتاح الفاعل الَّذي لا مفتاح مثله.. لكن كم نهمله ونسعى في الأسباب، والأمر أمر قلوب.

يارب: أدبتنا في هذا الظرف ولكنا نسينا.. أصابنا الهم المرة تلو الأخرى فكان همنا هو أنفسنا.. شغلنا هو أنفسنا.. مع أنك ربنا ذممت أولئك المنافقين، فقلت سبحانك فيهم: ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران:١٥٤] كان الواجب ألَّا يستعبدنا الهم، ولا يطوينا داخل أنفسنا، ونرى العالم كله مظلمًا، فذلك ما قاد البعض إلى أن يظن بالله غير الحق ظن الجاهلية!

يا رب سبحانك لقد أردت لنا أن نرتفع عن هذه الدرجة التي فيها من المخاطر أكثر من غيرها، فإن فساد الثمرة يخيف صاحب الشجرة على شجرته كلها.. إن هذا الهم يجعلنا في خوف دائم وشديد على الإيمان نفسه..

إي والله، إذًا فما الحل..؟

الحل هو أن ترحل إلى أرض لا خوف على شجرة الإيمان فيها، ذلك هو مقام اليقين، ألم تقرأ قول المصطفى ﷺ: **«ومنَ الْيقِينِ مَا تهوِّنُ بِهِ علَيْنا مُصِيباتِ الدُّنْيا»**(١) ألم يقل الله عن إبراهيم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام:٧٥]، وهو الَّذي ذاق من صنوف الابتلاء ما ذاق.

ويا رب سبحانك: كانت الوقاية تكفينا وكانت – بإذن الله – بأيدينا، فكم مرة استعاد النبي ﷺ من الهم.

عن أنسِ بنِ مالِكٍ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لِأَبِي طلحة: **«التمِس غُلامًا مِن غِلمانِكُم يخدُمُني حتَّى أخرُجَ إلى خيبر»** فخرج بِي أبُو طلحة مُرْدِفِي وأنا غُلامٌ راهقتُ الحُلُم، فكُنتُ أخدُمُ رسُول الله ﷺ إذا نزل، فكُنتُ أسمعُهُ كثِيرًا يقُولُ:

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢) من حديث ابن عمران ﷺ. وحسنه الألباني.

«اللَّهـمَّ إِنِّي أعُوذُ بِكَ مِن الهمِّ والحَزَنِ، والعجزِ والكسلِ، والبُخلِ والجُبنِ، وضَلَعِ الدَّينِ وغَلَبَةِ الرِّجالِ»(١).

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عَلَيكُم بِالجهَادِ فِي سَبِيلِ الله - تبارك وتعالى - فإنه بابٌ من أبوابِ الجنةِ يُذْهِبُ اللهُ بِهِ الهمَّ والغمَّ»**(٢).

إنَّ الإنسان لَيَسعى وسطَ عاصفةِ الهُموم أن يذكر الله سبحانه ويثبت ... لكن رسول الله ﷺ ما كان يكتفي بهذا الذكر إنما يفزع إلى لقاء الله، وقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، عن حذيفة قال: **كان النبيُّ ﷺ إذا حزبهُ أمرٌ صلَّى**(٣).

هَكَذا يستقبلُ ما يحزبه مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ.. فهل تراه ﷺ لا يترك هذه الصلاة وقد بقي في النفس شيء من الهم؟!

الفزع إلى الصلاة إذا حزب الأمر عنوان الرضا بقضاء الله وقدره، وعنوان رسوخ الإيمان الَّذي لا يزلزله شيء، وعنوان زيادة الإيمان في كل الظروف، وعنوان الإقبال على الله والأنس بالله، وهو من أعظم أسباب الرَّاحة النَّفسيَّة، وعنوان طلب الإعانة من الله، وعنوان فاعليَّة هذه الصَّلاة في الحياة، وعنوان الرجوع إلى الله في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وعنوان الإقدام على الهم لا الانسحاب والعجز، وعنوان ردة الفعل الصحيحة، وأن الهم ما أفقده صوابه وتوازنه

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٣).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٨٥٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) رواه أبو داود (١٣١٩). قال الألباني: حسن.

المعتاد عند أول العاصفة، كذلك فإنه العنوان الأكبر لاقتراب الفرج، بل لاقتران الفرج.

يا ربِّ، هذا الهمُّ تربيةٌ لنا على أن كلَّ مصيبةٍ تصيبنا أن ننزلها بك ربنا، وأننا لا نواجه الحياة بتكاليفها وعنائها وحدنا، إنما نواجهها بالله وحده.. فهل ترى من تَعوَّد المبادرة إلى مَعيَّة الله عند المصاب أن يتزلزل أو يضعف أو تغلبه الهموم؟!

يا ربِّ، هذا الهمُّ يُنبِّهنا إلى وجوب التَّدرُّب على الرِّضا من خلال ممارسة الرضا بالهموم الصغرى إذا أصابتنا، وحمد الله سبحانه من خالص القلب المحزون ليتعود على عبودية الله في كلِّ الظُّروف والصَّبر والرِّضا بكلِّ الأحوال.

وإن قلبًا تعود على هذا في الهموم الصغيرة حري به أن يرضى إذا كبرت الهموم، نسأل الله العافية والسلامة.

روي أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه بعض النَّاس يعزيه بموت ابنه عبد الملك، فقال عمر لكاتبه: اكتب إليه ودقق القلم: أما بعد، فإن هذا أمر كنا وطنّا نفوسنا عليه، فإذا نزل بنا لم نكرهه، والسلام.

ففي الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**سبحانَ اللهِ نصفُ الميزانِ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ، واللهُ أكبرُ تملأُ ما بين السَّماءِ والأرضِ، والطُّهورُ نصفُ الإيمانِ، والصَّومُ نصفُ الصَّبرِ**»(١).

يا ربِّ هذه الثَّمرة العظيمة الَّتي يرجوها المرء بالتدريب على صغائر الهموم هو الرضا فيما هو أكبر.. وليس هذا فحسب، بل الرضا عند الصدمة الأولى، وهذا ما لا يقدر عليه إلَّا من صب عليه من الصبر ما يكفي لمصيبته، فلقد صح

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٠/ ٢١٩). قال شعيب الأرنؤوط: بعضه صحيح.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: مرَّ النَّبِيُّ ﷺ بامرأةٍ تبكِي عِند قبرٍ، فقَال: «**اتَّقِي الله واصبِرِي**» قالت: إِليك عنِّي، فإنَّك لَمْ تُصَبْ بمُصِيبتِي، ولم تعرِفهُ، فقِيل لها: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فأتت باب النَّبِيِّ ﷺ، فلم تجِدْ عِندهُ بوَّابِين، فقالت: لم أعرِفك، فقال: «**إنَّما الصَّبرُ عِند الصَّدْمةِ الأُولى**»(١).

هذه التَّقوى الَّتي يُثمرها رمضان.. تقوى الله حتَّى في المصيبة.. تقوى الله التي تتخلل الحياة فَتُحْكِمُهَا وتَحْكُمُهَا وتتحكم في تصرفاتها.

سبحانك ربي!

تعلم أن من عبادك من ترده الهموم إليك، وتبعده الراحة والرخاء عنك فتصيبه بما يزعجه في لحظته، ويرده إليك من لحظته.. وهذا خير له، وأنفع له في آخرته، وقد قال النبي ﷺ: «**إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتَّى يُبَلِّغَه إياها**»(٢).

إذا أَرْهَقَتْكَ همومُ الحياة ... ومَسَّكَ منها عظيمُ الضررْ
وذُقْتَ الأَمَرَّينِ حتَّى بكيتَ ... وضَجَّ فؤادُكَ حتَّى انفجرْ
وسُدَّتْ بوجهِكَ كلُّ الدروبِ ... وأوشَكْتَ تَسْقُطُ بَينَ الحُفَرْ
فَفِرَّ إلى اللهِ في لهفةٍ ... وبُثَّ الشَّكاةَ لِربِّ البَشَرْ

يا ربِّ: كم تؤدبنا بهذه الهموم ولا نتنبه لها: هذا هم أصابنا في مال أو في سمعة أو في تخويف أو تخوين أو في بدني - نسأل الله العافية - فأقض المضاجع، وأطار النوم.. فما بالنا لا نتفكر بهموم هذه الأمة التي تتوجع من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨١٣)، ومسلم (٩٢٦).

(٢) رواه ابن حبان (٢٩٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

تقطيع أطرافها، وبقر بطنها، والطعنات في ظهرها.. أيمكن أن يكون عضو حي في جسد حي ولا يشعر بتقطيع الطرف الحي المقابل له..؟

أيمكن أن تسلب الهموم الشخصية العقل والقلب، ولا تسلب هموم الأمة إلَّا مسحة خفيفة ظاهرية بكلمات معتادة أو زفرات وحوقلات كردة فعل أولى لا أخت لها، ثمَّ نعبر عليه إلى غيره.

من اتقى الله حقًّا.. راقب الله في هموم الدين حقًّا.

يا ربِّ: لولا هذه الهموم والأحزان التي تصيب المرء في هذه الحياة فما الَّذي يزيد رغبته الفعلية في الجنة؟ كيف يظهر تميز الجنة بما ذكرت عن أهلها ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]؟

كيف يشتعل الشَّوق إلى الجنَّة وخصوصًا إذا أصابه الهمُّ.. حتَّى إنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى مَنْ أصابه الهمُّ أن يتمنَّى الموت لضُرٍّ نزل به(١)... فالهمُّ يشتدُّ أحيانًا حتَّى لا يرى المرءُ مخرجًا إلَّا الموتَ.. وتُحْدِقُ به المخاطر حتَّى لا يرى مَنْفسًا إلَّا الموت، فيصبح الموت أُمنيَّته خوفًا على دينِهِ.

ولذا علَّمنا النَّبيُّ ﷺ عند ذاك دُعاءً عظيمًا فيه إيكال الأمر إلى علم الله وقدرته: «**اللَّهمَّ بعلمك الغيب وقُدْرتك على الخلق أَحْيني ما علمت الحياةَ خيرًا لي، وتَوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللَّهمَّ إنِّي أسألك خشيتك في الغيب والشَّهادة وكلمة العدل والحقِّ في الغضب والرِّضا، وأسألك القصد في الفقر،**

---

(١) فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**»، متفق عليه. رواه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

والغنى، وأسألك نَعيمًا لا يَبِيد، وقُرَّة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرِّضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لَذَّة النَّظر إلى وجهك، وأسألك الشَّوق إلى لقائك في غير ضَرَّاءَ مُضرَّةٍ وَلا فتنةٍ مُضلَّةٍ، اللَّهمَّ زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين»[1].

ومن تأديبك لنا بهذا الهمِّ هو ألَّا ننساكَ بالإكثار من الدعاء في الرخاء، فإن الرخاء عدة الشدة والبأساء؛ ألم يقل النبي ﷺ: **«مَنْ سرَّه أن يُستجاب لهُ عند الكَرْب والشَّدائِدِ فليكثر الدُّعاء في الرَّخاءِ»**[2].

ومن تأديبك ربنا لنا أن تقدم ما يقينا مصارع السوء قبل حلول الهم، فإنه عند الأخذ بها لا تحل بإذن الله، ألم يقل النبي ﷺ: **«صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السُّوء، والصدقةُ خَفِيًّا تُطفئ غضبَ الربِّ، وصلة الرحم تزيد في العمر، وكلُّ معروف صدقة، وأهلُ المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف»**[3].

ولمن تكون صنائع المعروف إلَّا للمهمومين من المسلمين، هذا صاحب دَين تصنع له معروفًا، وذاك صاحب حاجة، وثالث صاحب كربة، ورابع محتاج لشفاعة.

يا ربِّ: قد كنا نقرأ القرآن قراءة رتيبة، قراءة تبركٍ وأجر فحسب، وأنعم بهما.. لكن

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني (١٣٠٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٢)، وحسنه الألباني (٣٣٨٢).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٠٨٦)، قال الألباني: حسن لغيره. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٨٩٠).

الجديد هو أن قراءة اليوم من أرض الهموم وعصفها أتت بفهم وفاعلية لم تكن موجودة من قبل، لقد فجرت هذه الهموم من بركان الآيات ما كنا نمر عليه مرورًا من الآيات، فأما اليوم فقد ضربت الآية في أعماق الأعماق، فعلمت أنه كلام لا يقوله إلَّا الله.. لكني أخذت أتساءل: أين نحن من فهم هذه الآيات بدون هذه الهموم؟

فليهنأ خيل الفهم البعيد الصحيح ... العادي بسياط الهم الَّذي ألهبها فأسرع وأضجت وأقدمت في ميادين الفهم الجديد.

تُرى هل لو كان أصحاب موسى ﷺ يعلمون بنهاية فرعون كما حصلت نهايته قبل أن تحصل لضجروا؟ هل لو كانوا يعلمون بانفلاق البحر استعجلوا فطلبوا ما طلبوا؟

فثق بعلم الله.. وأحسن الظن بالله.. وتوكل على الله حق التوكل.. وتعامل مع الأمر وأنت موقن كما لو عرفت أن الله قد قضى فيه قضاءه، وقد قضى سبحانه وانتهى، فلا تعلق قلبك في أرزاق مقسومة.. وآجال مضروبة، وأقدار قادمة.. فالأقدار القادمة كالأقدار المعلومة الماضية فكلها ستصبح شهادة.. فهنيئا لمن استقبل الأقدار القادمة قبل أن تصبح معلومة ماضية باليقين والرضا على كل حال.. واثبت لها ثبوت الجبال وكأنها قبل أن تأتي كما هي بعدما تمضي ذلك أن الله يقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢].

وليهنأك أيها الصَّائم الحزن على الخشوع الراحل.. فكأنه عائد إليك مضاعف – بإذن الله.

يَا صَاحِبَ الهمِّ إِنَّ الهمَّ منفرجٌ   أبشــرْ بخيــرٍ فــإِنَّ الفَــارِج الله
إِذا بُلِيــتَ فثــقْ بــالله وارضَ بِـهِ   إِنَّ الَّـذي يكشـفُ البَلْـوَى هـوَ الله
اليـأسُ يقطَـعُ أحيانًـا بِصَـاحِبِهِ   لا تيأســنَّ فــإِنَّ الفَــارِج الله
اللهُ حَسْبُكَ ممَّـا عـذتَ منـهُ بِـهِ   وأيــنَ أمنــعُ ممَّــن حسـبُه الله
اللهُ يحـدِث بعـدَ العسـرِ مَيسـرَةً   لا تجــزَعنَّ فــإِنَّ الكــافيَ الله
واللهِ مَـا لـك غيـرُ الله مـن أحَـدٍ   فحســبُكَ اللهُ في كــلٍّ لَــكَ الله

ومع الاستعداد للمصيبة بالاستسلام.. والتوقي من آثارها بالرضا التام، فإن العبد ينطلق داعيًا ربه قبل المصيبة داعيًا ربه حال وقوعها.. ويالله كم يقي الدعاء من المصائب وكم يرفع من البلاء وقد مر معنا حديث النبي ﷺ: **«أكثروا من الدعاء في الرخاء»**، وفي الحديث الآخر: **«لا يزيد في العمر إلَّا البر، ولا يرد القدر إلَّا الدعاء»**[1].

(١) رواه ابن ماجه (٩٠) من حديث ثوبان ﷺ، وحسنه الألباني.

هَمُّ العادةِ يُعاوِد

وهناك هَمٌّ من نوع آخر.. هَمٌّ يقطع قلب المؤمنة، فتبكي كما بكت أمها عائشة ﵂ حين أتتها عادة النساء في آخر حجتها..!

يا لله: كيف أفطر رمضان وصغاري صيام؟

كيف أفطر رمضان وأنا الصائمة المتطوعة في أيام الفطر بالصيام..؟

أأهجر المساجد والناس ذاهبون وآيبون وأنا الحبيسة عن أكرم البقاع في أكرم الأيام مع هذه الجموع المباركة؟! كيف إذا جاءتني عادتي في العشر الأخير؟!

أنا أعلم أنها حق، ولكن للواقع ثقله ... وللجو الإيماني على المفطر - وإن كان بعذر - قسوته.. ولمشاعر المؤمنين والمؤمنات حساسيتها ورهافتها.

كيف.. وكيف.. وكيف.. وآهات لا تهدأ إلَّا باغتسال التطهر من هذه الدماء!

لِيَهْنِكِ هذا الحبُّ أيَّتها المسلِمَة ... لِيَهْنِكِ هذا اللَّهف للعبادة والاشتياق والتَّشوُّف..

خذي الأجر صافيًا بهذا الحب لا تشوبه أخطاء عمل لو أنك عملت..

خذيه بالرضا على كتاب الله على بنات آدم.. فغيرك من غير المسلمات لا يبالين أجاءت العادة أم ولت ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، خذي أجر من صام وقام وذكر الله وأمسك المصحف وقرأ القرآن.. ألم يقل المصطفى ﷺ حين كان في غزاة عن رجال تخلفوا عن الغزو بعذر: «**إن أقوامًا**

بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شِعبًا ولا وادِيًا إلَّا وهُم معنَا فِيهِ، حبَسَهم العذْرُ»[1].

هنيئًا لك هذه الحرقة التي فجرت بركان الحب الخالص دموعًا تذرف وآهات تنزف وكأنها تستسقي حرقتها من حرقة من سجل الله حرقتهم في القرآن، تشريفًا وتوثيقًا وتكريمًا.. لهم ولمن سار على طريقهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢].

أيتها المسلمات: إن هذا القعود الشرعي رغم أجره الخاص والخالص، إلَّا أنه لا ينبغي له أن يمنعك من إبداعات جديدة في عالم القربات.. وخصوصًا تلك القربات المتعدية النفع.

أتخافين ألا يكون لك من الأجر عند قضاء رمضان في أيام الفطر كما لو صمته في رمضان لحرمة زمانه؟!

الله ﷻ أكرم من أن يكتب عليك كتابًا، ثمَّ يحرمك بسبب ما أكرهكِ عليه، وينقص بهذا السبب أجرك، وهو يعلم أنك تحبينه وتحبين طاعته.

الله ﷻ أقدر على أن يجمع لك من الأجر في قضائك كما لو صمت في رمضان.. بحرمة رمضان، ومكانة الصِّيام في رمضان.

أليس هو ربنا أرحم الراحمين..؟!

عابدة في المطبخ:

كم تعاني المسلمة في بيتها ولا أحد يعلم بعنائها إلَّا الله سبحانه؟!

الكلُّ يأوي إلى قَيْلولته وهي في حرِّ الظَّهيرة في حرِّ مطبخها وناره، تَطْبخ

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

وتُطبَخ كلَّ يومٍ كأنَّها الطَّعام الَّذي تطبخه.. حتَّى إذا كان الإفطار اجتمعوا فأكلوا ... نفضوا أيديهم وقاموا لعبادتهم وهم لا يشعرون، فمن النادر أن تذكر هذه المسكينة، وأما إن أخطأت في شيء.. أو نسيت ملحًا، أو نحوه، فهناك طبخ من داخلها مرة أخرى بلهيب النقد والشَّماتة.

لكنَّ الصَّالحة الَّتي باعت الدُّنيا وابتغت وجه الله سبحانه رجت رجاء عاليًا كبيرًا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٩-٢١] قد رضيت بالله عِوَضًا، واكتفت بعين الله عن كل عين وكل مدح.. فلكأن مطبخها محرابها، فكيف وهي لا تزال إذ ذاك ذاكرة لله سبحانه، مصلية على رسوله ﷺ مستغفرة مسبحة ...

وقلبها مع الله إذ يداها في خدمة الصائمين قلبها يهتف بربها سبحانه يقول: يا ربِّ، اقبل جهد أمتك في سبيلك.. يا ربِّ، ها أنذا أحسن الطعام وأطيبه وأزينه رجاء رضوانك.. فهؤلاء عبادك الصائمون.. وخادم هؤلاء العباد متعبد لمن عبدوه.. فليأكلوه هنيئًا مريئًا.. فأنا لا هم لي إلَّا أن يأكلوا ويتلذذوا، أما مدحهم لي فذاك ما لا أبتغيه، فمجيئه وعدم مجيئه سواء عندي.

فعن أنسٍ ﷺ قال: كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ في السَّفر، فمنَّا الصَّائم ومنَّا المفطر، قال: فنزلنا منزلًا في يومٍ حارٍّ، أكثرنا ظلًّا صاحب الكساء، فمنَّا مَنْ يتَّقي الشَّمس بيده، قال: فسقط الصُّوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالأَجْرِ»(١).

(١) صحيح البخاري، باب فضل الخدمة في الغزو (٢٨٩٠).

يا ربِّ: لا تَحْرمني فالجزاءُ عندك من جنس العمل، وأنا يا ربِّ أريد بهذه الحر الَّذي أواجهه الاستجارة بك من حرِّ القبر وحرِّ المحشر.

يا ربِّ: أريد بالوقوف أمام النار هذه عدم الوقوف لحظة على الصراط أو التعثر عليه، فيا أرحم الراحمين اجعله عبورًا كالبرق الخاطف.. فإذا أنا عند أبواب الجنة بانتظار تفتح أبوابها بيد المصطفى ﷺ.

يا ربِّ: سعادتي أن يأكل هؤلاء الصائمون وينصرفوا إلى المساجد.. فأنا المُعِدَّةُ لهم أزوادَهم لِيَتَقَّوا بها على طاعتك، ويقوموا بين يديك.

سعادتي أن يأكل ضيف البيت وينصرف، والأجر عندك، وأنت تعلم من وراء هذا الطعام، ومن طبخه أو أعده إذا أشرف عليه، بل والله أنا الشاكرة لمن أكثر الضيف على هذا الطعام ... فليكثر الأجر إذ يكثر الطعام، وليدخل الضيف البيت فيدخل هو ببركته، ويخرج ويبقى نحن لنا مثل أجره كما تبقى بركته.. أليس الشهر شهر سباق وإخلاص وعمل صالح؟

يا ربِّ: لئن أخذ هؤلاء نصيبهم من التَّراويح والتسابيح وصلاة أول اللَّيل فقد ادخرت صلاة آخر اللَّيل كما قال عمر ﷺ: « **والتي ينامون عنها أفضل منها**»[1].

يا ربِّ: ليرجعوا وليهجعوا نائمين هانئين وأنا أرى بعيني وأعيش بنفسي وروحي وصلاتي قول نبيك ﷺ: «**أيُّها النَّاس، أطعموا الطَّعام، وأفشوا السَّلام، وصلُّوا باللَّيل والناسُ نِيَامٌ تدخلوا الجنَّة بسلامٍ**»[2]، فأرجو أن تصدق كل هذه المقدمات عليّ التحقق النتيجة لي بفضلك، وهي « **أدخل الجنة بسلام**».

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٥٥٧)، ومسلم (١٦٦٣).

(٢) رواه ابن ماجه (١٣٤٤) من حديث عبد الله بن سلام ﷺ. قال الألباني: صحيح.

يا ربِّ: إني لأرجو بهذا الوقوف في هذا المطبخ وتقديم هذا الطعام الكثير الكثير، وأنت يا ربنا كما قال رسولك ﷺ للرجل حين قال متسائلًا: « **إذن نكثر** » قال: « **فالله أكثر** ».

فقد روى أبو هريرة ﷺ عن نبيك ﷺ أنه قال: «**الطَّاعم الشَّاكر بمنزلة الصَّائم الصَّابر**»[(١)]، وإنِّي لأرجو أن أحوز كل هذه المنازل المذكورة في هذا الحديث، فأنا طاعمة لهم، وأنا شاكرة لك، وأنا صائمة كما هم صائمون، وأنا صابرة غير معكرة صبري بالضجر، ولا مفسدة شكري بالمن ...

حتى وإن لسعتني النار أحيانًا، وضاق صدري بالدخان أحيانًا، والتهب وجهي بالوهج أحيانًا، وقذفني الطعام بشرر الزيت أحيانًا، وأدمت السكين أصبعي أحيانًا ... فإنه لا يسع قلبي ولساني إلَّا أن يردد ما ردده رسولك ﷺ حين دَمِيتْ أصبعه، فقال: «**هل أنتِ إلَّا أصبعٌ دَمِيتِ، وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ**»[(٢)].

بل أنا أحمدك ربي على أن اخترت لي هذا الاختيار، فاختيارك لي خير من اختياري لنفسي.. فطمعي يا ربِّ بمشاركتي الأجر لكل من أكل طعامي من أجره، بل مثل أجرهم جميعا، ألم يقل نبيك ﷺ: «**ذهب المُفطِرون اليوم بالأجر**»[(٣)]، وذلك لأناسٍ خدموا الصَّائم وهم مُفطِرون، كما في الحديث الَّذي رواه الشيخان.

فكيف وأنا الصَّائمة أخدم الصَّائمين.. حتَّى وإنْ أفطرت بسبب عذرٍ فإنَّ عزائي رغم بلائي بهذه الخدمة وبأجرها.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦)، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه من حديث جندب بن سفيان ﷺ. رواه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦).

(٣) متفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ. رواه البخاري (٢٨٩٠)، ومسلم (١١١٩).

فيا له من باب لا يقدر قدره الكثيرات ...

والله، إني لا أستكثر على ربي لو أعطاني حسنة على كل حبة أرز، أو حبة قمح، أو قطرة مرق لما كان ذلك كثيرًا على ربنا الأكرم ﷻ.

يا ربِّ: وأنا أرجو برحمة هؤلاء الخدم المخلصات كثيرًا ...

فهل جزاء الرحمة إلَّا الرحمة ... وهل جزاء العفو إلَّا العفو..

ألم يقل رسولك ﷺ عن أمثال هؤلاء: «**إخوانُكُم خَوَلُكُم، جعلهُم اللهُ تحت أيدِيكُم، فمن كان أخُوهُ تحت يدِهِ فليُطعِمهُ مِمَّا يأكُلُ، وليُلبِسهُ مِمَّا يلبسُ، ولا تُكلِّفُوهُم ما يغلِبُهُم، فإن كلَّفتموهُم فأعِينُوهم**»[(١)]، وقال ﷺ: «**ارحمُوا تُرحمُوا، واغفِرُوا يغفِرِ اللهُ لكُم، ويلٌ لِأقماعِ القولِ، ويلٌ لِلمُصِرِّين الَّذِين يُصِرُّون على ما فعلُوا وهُم يعلمُون**»[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إذا أتى أحدَكُم خادِمُهُ بِطعامِهِ فإن لم يُجلِسهُ معهُ فَلْيناوِلْهُ لُقمةً أَوْ لُقْمتينِ، أَوْ أُكلةً أَوْ أُكلتينِ، فإِنَّهُ وَلِيَ عِلاجَهُ**»[(٣)].

يا ربِّ: لك الحمد أنْ جعلت هؤلاء تحت أيدينا، وما جعلتنا تحت أيدي هؤلاء.

سبحان الله والحمد لله: أكان هؤلاء راغبات بترك أولادهن أو إخوانهن أو أزواجهن أو والديهن في مثل هذه الأيام المباركة؟

---

(١) متفق عليه من حديث أبي ذر ﷺ. رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) رواه أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ (٢/ ١٦٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٥٧)، ومسلم (١٦٦٣).

ألا تتذكر هذه الخادمة وذاك الخادم الآن ذكريات رمضان الجميلة يوم أن كان بين أهله؟

ألا يتذكرون ليلهم ونهارهم في بيوتهم وبلادهم.. ألا يتذكرون عيدهم وأفراحهم؟!

فما أتعسَ مَن ضَيَّعَ أجرَه بالغضب والضجر على الخدم ... وما أكثرَ مَن تَخرِق صيامَها باغتياب الخدم أو السخرية منهن، وكأنَّ الأمرَ مباحٌ وربنا يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١].

كيف ترضين أيتها المسلمة أن تعطيهن الأجرة والآخرة معًا، ثمَّ يرحلون وتأخذين أنت الخسارة والإثم؟!

إن عالم الخدم ميدان أجر عظيم.. كما أنه ميدان تعليم.. فما أكثر المسلمات منهن اللاتي لا يعرفن فرائض الله ... إنه كذلك ميدان دعوة إلى الإسلام كبير.

نَفَثَاتٌ عِنْدَ الْحَرَمِ

أخي في الله أيها المدخن: لا تحسب أني أنظر لك كعدو.. أو أني أراك خارجًا عن الإسلام.

إيَّاك أن تشمئزَّ من قُدُومي عليك وبيدِك السِّيجارة تُدخِّنها.. لأنِّي سوف أفرِّق بينك وبين محبوبَتِكَ!

أرجوك اقعد.. أستمع لك وتستمع لي.. ولن تخسر شيئًا أبدًا، ضع احتمالًا واحدًا وهو أنك ربما تشكرني بعد هذه الجلسة القصيرة.

أنا لا أقول لك إن السيجارة ليست حبيبة لك وللمدخنين، ولا أقول لك: إنها مضرة بالصحة وما إلى ذلك، لكني أقول لك كلمة واحدة: إنها تغضب الله ورسوله ﷺ؛ لأنها حرام!

دَعْكَ من كل محاولات الترك التي حاولتها من قبل، فمبناها كلها أو جلها كان بناء على أنها مضرة بالصحة.. فالإنسان يلازم أشياء ربما أضرته أو أودت بحياته كالشباب الذين يسرعون ويتلاعبون بالسيارات مجازفين بأرواحهم – هداهم الله – ولكني أقول لك: إنها حرام، لا تقل إنها مكروهة، فهذه فتوى قديمة قالها بعض علماء الأزهر، أما الآن فقد اتفق الأزهر وجميع المجامع الفقهية على تحريمها، والعلماء ورثة الأنبياء، وهم حجة الله على خلقه.. فبمن سوف تحتج بعد هذا إذا سألك الله سبحانه؟

أخي: إن فتوى العلماء بالتحريم قامت أساسًا على قاعدة قرآنية عظيمة هي قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وأنت لا شك تصنف السيجارة من الخبائث، ولا تستطيع أن تقول غير هذا، دعني أُقرِّب لك الصُّورة أكثر: افرض أنَّ السِّيجارة كانت موجودة في عهد رسول الله ﷺ فهل تعتقد أن رسول الله ﷺ كان سيحلها لو كانت في عهده؛ لأنها من الطيبات أم يعتبرها من الخبائث؟ وحاشاك أن تقول غير أن رسول الله ﷺ يبغضها ويغضب على من يدخن - نسأل الله العافية، والدليل القاطع على أن هذا هو حكم رسول الله ﷺ هو اتفاق العلماء اليوم على ذلك، والأمم لا تجتمع على ضلالة.. وعلماؤها لا يجتمعون على قول يخالف قول نبيهم ﷺ، كيف وهم ورثته ﷺ.. كيف والله سبحانه يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

أخي إن فتوى العلماء قائمة كذلك على قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] والأطباء قد أعلنوا نسبة الْوَفَيَات بسبب التدخين، بل حددوا نسبة الوفاة لكل عضو من أعضاء الإنسان بسبب التدخين وفي كل بلد من بلاد العالم على التفصيل.

أخي: دعني أقول لك: حاشاك أن تكابر لكنك حين تدخن فأنت بالحرام تجاهر! كثيرون يفعلون الحرام لكن لا يجاهرون.. أليس كذلك؟!

أنت لا تقول للناس: دخنوا، لكن عملك هذا يحمل أبلغ دعوة، فبطريقة تدخينك تحض على التدخين وأي حض، إنك لو لم تدخن وقلت لرجل: لم لا

تدخن؟ لقال لك: ولم لا تدخن أنت أولًا؟! لكنك الآن لا حاجة لأن تقول؛ لأن لسان الحال أبلغ.

أنت تمشي بسيجارتك ولا تدري كم يتساقط من الصغار بسببك في هذا الطريق! أنت لا تدري كم من الضعاف المترددين في أن يقتحموا هذا الميدان أو يحجموا سوف يضعفون أكثر وربما يتساقطون!

لا تدري كم ممن ترك التدخين سيعود بسببك إلى التدخين!

امش بين النَّاس بسيجارتك واحصد في نهاية يومك؛ قبل نومتك، نتيجة دعوتك هذه العلنية الصامتة للتدخين!

امش بسيجارتك بين النَّاس كما تشاء.. اقعد وانفث بسيجارتك.. فلقد حملت عن الشَّيطان رايته وأنت لا تدري.. ودعوت بدعوته في العلن وأنت لا تدري، ووقفت تنادي الخلق بغير صوت أن هلموا وادخلوا مع الداخلين وأنت لا تدري، أليس للشيطان دعاة على الأبواب؟! هل ترى صور الدعايات للسيجارة إلَّا صورًا على حائط؟!

لا والله، إنك لا ترضى أن تكون داعية الشَّيطان الناطق الأخرس؛ الأخرس بلسانه الناطق بعمله وإعلانه.. لا ترضى أن تكون في الجهة المقابلة للدعاة على أبواب الجنة!

إيَّاك أن تُهوِّن الأمر فتُفاجأ بتصنيفك كما ورد في الحديث عَنِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُون رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ

مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»(١)، وإلَّا أخبرني بالله عليك كيف تكون أبعد عن طرق الشَّيطان إن لم تكن كذلك.. أم يمكن أن يكون ذلك دعوة لطريق الرحمن؟!

أخي: إنك لو فكرت ابتداء من هذا اليوم بالتوبة من التدخين فإن عليك أن تسأل الله تعالى أن يهبك من العمر ما تستطيع به إصلاح ما أفسدت فيما مضى، أو إصلاح شيء مثل الَّذي أفسدته من إشاعة التدخين بإشاعة النصيحة: فإنك لو جعلت إشاعة النصيحة كفارة لإشاعة التدخين، فإنك لن تستطيع مهما كنت أن تواصل إشاعة النصيحة بتركه بنفس مدة تدخينك السنين الطويلة، ولا إشاعة النصيحة على عدد مرات تدخين في اليوم الواحد إلَّا أن يشاء ربي شيئًا.

لكن أيا كان الأمر، فإن أحسن قرار هو أن تقطع من هذا اليوم.. من هذه اللحظة.

فلو كان الأمر مكافأة وموازنة السنين بالسنين والعمل بالعمل لهلكنا جميعًا.. ولكنه فضل الله الَّذي جعل التوبة تجُبُّ ما قبلها، وجعل التائب كالوليد في صحيفته الجديدة.. بل قال ـ وقوله الحق: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

أخي! إنك لا تشرب الخمر – والحمد لله – لكن هل تعلم أنه ما من أحد شرب الخمر تقريبًا من أبناء المسلمين إلَّا سبقه بالتدخين فترة من الزمان، وما

---

(١) متفق عليه من حديث حذيفة ﷺ. رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

من أحد سلك طريق المخدرات إلَّا سلك طريق التدخين.. فأيُّ طريقٍ طريقُ التدخين هذا؟ وإلى أي غاية ينتهي بالإنسان..أنا لا أقول لك: إن كل مدخن لا بد أن يصبح خَمَّارًا أو مدمنًا للمخدرات، لكن كل مسلم انتهى به الأمر إلى الخمر فإنما سبقه بالمخدرات، وهكذا الأمر بالنسبة للحشيشة.

أخي هل تعلم أن الخمر من مكونات السجائر، وأن ثلاثة وعشرين نوعًا من الخمر تضاف للتبغ.. وجهلنا لهذا الأمر لا يغير من الحقيقة شيئا.. ارجع إلى موقع شركة التبغ الأمريكية، وشركة براون وليامز، ومجموعة ليجت وشركات أخرى!!

أخي! هل تعذرني أمام الله لو أني سكت عنك؟ هل يعذرني المجتمع إذا لم أبلغك بهذا الخطاب الواضح الصريح؟ وهل أنت معذور بحبك هذه المحبوبة؟! هل يمكن أن تعذر من أخذ معشوقته من النساء.. وأخذ يقبلها على قارعة الطريق وفي زحمة الأسواق وكل عذره أنها محبوبته؟! أتقبلون عذره لو قال لكم: وما الضرر إذا لم تكن ابنتكم ولا زوجتكم ولا واحدة من أرحامكم؟ ما الضرر إذا لم أدفع من أموالكم؟ ما الضرر إذا لم تكونوا سوف تحاسبون على عملي في قبوركم؟!

أخي: أكل هذه الأضرار ونسكت؟! إذًا فهذه الدياثة المجتمعية ولا أقول الأسرية، كيف إذا علمت أن سيجارة واحدة تطلق أربعة آلاف (٤٠٠٠) مركب كيميائي في الفضاء، فكم هو ضررها المتعدي حتَّى يقول من يقول: إنها حق شخصي!!.. وقد أصدرت جامعة (منيسوتا) دراسة تثبت أنه يموت مدخن سلبي واحد مقابل ثمانية مدخنين.

ويعتبر التدخين السلبي الثالث في أسباب الوفاة الممكن تفاديها بعد

الكحول[1].

أخي: ألا ترى أن عقاب الله سبحانه يقوم على قاعدة: (الجزاء من جنس العمل)، فكيف ترى ربَّ العالمين لو أراد أن يعاقب المدخن الَّذي علم بأن التدخين حرام، ولم يستجب، ولم يتب؟! أليس الأصل - والله وحده أعلم - أن جمرة السيجارة سوف تصبح في داخل الفم ويتحول ظاهرها إلى الخارج؟ لأنه كما أحرق داخله من قبل بالدخان فليحرقه فعليًا بالجمر اليوم، وكما أحرق مجتمعه بالسيجارة وإظهار جمرتها لهم فليكتوِ بجمرتها اليوم، هذا على أقل تقدير.. وهو موجع لو تصورنا جمرة السيجارة بنار الدنيا أو أن دخانها بدخان النار.. والله وحده أعلم.

أخي: في أي الأجواء تدخن.. أتدخن في أجواء رمضان المبارك، لا تعتذر بأنه ليل..! فليله هو اللَّيل المبارك، ألا ترى أنك تدخن في ساعات نزول القرآن: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان:٣]! تدخن في ساعات حصاد أجر النهار؟! تدخن السيجارة بنارها ودخانها في لحظات رجاء العتق من النار؟! تدخن النار عاصيًا في لحظات إغلاق أبواب النار؟! تدخن ولا تدري لعلها تحرمك أعز شيء وهو المغفرة؟!

لا تقل لي: إنك قد بالغت بدعوى حرمانك المغفرة، لا والله، ولكن لأنَّ النَّبيَّ ﷺ صعد المنبر، فلما رَقِيَ عَتَبةً قَالَ: «آمين»، ثمَّ رَقِيَ عتبةً أخرى، فقال: «آمين»، ثمَّ رَقِيَ عَتَبةً ثالثةً فقال: «آمين»، ثمَّ قال: **«أتاني جبريل، فقال: يا محمد، مَنْ أَدْرَكَ رمضان فلم يُغْفر له فأبعده الله، قلت: آمين، قال: وَمَنْ أدرك والديه أو أحدهما فدخل النَّار فأبعده الله، قلت: آمين، فقال: وَمَنْ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ**

(١) موسوعة ويكيبيديا WIKIPEDIA.

عليك فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين»[1].

وفي الحديث: «**إِذَا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفثْ ولا يفسُقْ ولا يجهَلْ، فإِنْ جَهَلَ عَليه فليقلْ إِنِّي امرؤٌ صَائمٌ**»[2]، فإذا ما علمنا أن التدخين حرام، إذًا فهو فسق، ولو قلنا: إنه مكروه أو صغيرة من الصغائر، فإن الإصرار على الصغائر يحولها إلى كبائر - كما قال بعض العلماء - إذًا فهو فسق، وبذا يحرم الصَّائم المدخن المغفرة لاشتراط النبي ﷺ ذلك.

ألا ترى كيف جُعل شرط هذه المغفرة التامة هو التوبة النصوح.. فهل تاب من أصر على التدخين؟ هل تاب في النهار وهو صائم من أرى الله سبحانه من قلبه عزما أنه متى جاء اللَّيل سوف يعود مدخنًا؟

لا تتهاون بهذا فتلاحقك دعوة خير اثنين في خلق الله؛ جبريل ومحمد - عليهما الصلاة والسلام.

أخي: ألا ترى خلوف فم الصَّائم عند الله أطيب من ريح المسك، فبأي شيء خلفت خلوف فم الصائم؟! جرى منك النفس طوال النهار في الطاعة فجئت في اللَّيل تنجس ذاك المجرى بهذا العفن الحرام؟

فإذا قلت: إني أستطيب رائحتها إنها ليست بعفن؟ إن قلت ذلك فإنه دليل على ما قال الله سبحانه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:8]، وما هو - والله - إلَّا انتكاس الفطرة.. انفث في وجه وليدٍ وسترى ردة فعله، بل ربما اختناقه لتعرف جواب الفطرة.

---

(1) رواه ابن حبان (409) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

(2) رواه أحمد في مسنده (2/ 356) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

أخي: لا تحتقر قلة تدخينك بالنسبة إلى غيرك فتقول: إنما هي علبة أو نصف علبة أو حتَّى سيجارة.. فأنت ما تركته هنا لأنه مضر فتقلل ضرره، أو لأنه قليل أو كثير، إنما تركته؛ لأنه حرام.. أكد على هذه كي لا توقف الإثم فقط، وإنما لتوقف الإثم وتكسب أجر التوبة لله، وهذا هو المناط، إنها النية.

أخي: تأكد أنك بعد قراءة هذه المحاورة إذا لم تقلع عنها فسوف تعلن بكل سيجارة تدخنها إصرارك على هذه المعصية، وهذا عظيم؛ لأن من مات على ذلك مات وقلبه منعقد على معصية الله!

أخي: لقد امتدح ربنا سبحانه قوما، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢] آن لك أن تقارن بينك - وأنت تمشي بالتدخين بين النَّاس - وبين هذا الَّذي أحياه الله فجعل الله له نورًا يهدي به الناس.

آن لك أن تحمل النور الرباني وتمشي به في الناس، ومن هذا النور أن تكفر عمَّا سلف بالدعوة إلى تركه ... وأنت خبير بها.

عن أَبي طويلٍ شَطَبٍ الممدودِ: أنه أتى رسولَ الله ﷺ فقال: أرأيتَ رجلًا عمل الذنوبَ كلَّها فلم يتركْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجَّةً ولا داجَّةً إلَّا أتاها، فهل له من توبة؟ قال: «**فهل أسلمتَ؟**» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله، قال: «**نعم، تفعل الخيراتِ، وتترك السيئاتِ، فيجعلهن اللهُ لك خيراتٍ كلَّهن**»، قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟ قال: «**نعم**»، فقال: الله أكبر، فما زال يكبر حتَّى تَوارَى[(١)].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣٥)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣١٦٤).

الفصل الرابع

البخاريُّ وَابْنُ حَجَرٍ وَلَيّلَةُ الْقَدْرِ

الفصل الرابع
البخاريُّ وَابْنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُما اللهُ - وَلَيلَةُ الْقَدْرِ

هذه فوائدُ ثمينةٌ، رفيعةٌ القدر عند أهل العلم والقدر، وكل مسلم ذي قدر، عن ليلة القدر، رصعها ابن حجر رحمه الله في درر **«الفتح»**...

قال الإمام البخاري رحمه الله: (كتاب فضل ليلة القدر)، وقال بعده: (باب فضل ليلة القدر)، ومن عادة الإمام البخاري رحمه الله كما هي عادة أهل البلاغة عند العرب التنويع في التعبير، وترك التكرار إلَّا لحاجة لا يستغنى عن التكرار فيها، وصنيع البخاري رحمه الله يدل على أنه لا شيء في هذا الباب يذكر بجوار ما ورد في فضيلتها.. مع أنه أورد أحاديث في غير فضيلتها.. فرضي الله عن هذا الإمام الجِهْبِذ، والحمد لله أن سخر الإمام ابن حجر رحمه الله ؛ ليظهر سبحانه وتعالى عجائب فتحه على عباده، فكان كتابه اسمًا وحقيقة «فتح الباري»، فإنه رحمه الله لم يختر وسمًا لكتابه بفتح الله أو فتح المنعم أو فتح الكريم، بل هو فتح الباري ،فكأن الله ما برأ فتحًا مثله، ولا برأ في معاني «صحيح البخاري» بل ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ما برأ لابن حجر رحمه الله، فكان فتحا بحق وكان بالنسبة لغيره وكأنها السنة قد نقشت بحجر على حجر، وكأن الصحيح في سرعة انتشاره في الآفاق وخفته كأنه البخار يسيره الباري سبحانه، يجمعه الله في السماء كيف يشاء، ثمَّ يسقيه من عباده من يشاء... فكأن هذا من تلك الريح المرسلة، بل ممن هو أسرع منها بالخير.

وإليك بعض الفوائد التي ذكرها ابن حجر رحمه الله في «شرحه» بعد إيراد حديث البخاري الَّذي ذكرناه أولًا.

قال الإمام البخاري رحمه الله: بسم الله الرحمن الرحيم، باب فضل ليلة القدر، وقوله الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر: ١ – ٥].

قال ابن عيينة: ما كان في القرآن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أعلمه، وما قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يعلمه.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبِه، ومن قام ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبِه» تابعه سليمان بن كثير الزهري.

فائدة معنى القدر: قال ابن حجر رحمه الله: (واختلف في المراد بالقدر الَّذي أضيفت إليه الليلة، فقيل: المراد به التعظيم كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، والمعنى أنها ذات قدر؛ لنزول القرآن فيها أو لما يقع فيها من تنزل الملائكة أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة أو أن الَّذي يحييها يصير ذا قدر، وقيل: القدر هنا: التضييق كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧]، ومعنى التضييق فيها إخفاؤها عن العلم بتعيينها؛ أو لأن الأرض تضيق فيها عن الملائكة، وقيل: القدر هنا بمعنى القَدَر – بفتح الدال – الَّذي هو مؤاخي القضاء، والمعنى أنه يقدر فيها أحكام تلك السنة؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] وبه صدر النووي كلامه ،فقال: قال العلماء:

سميت ليلة القدر لما تكتب فيها الملائكة من الأقدار؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] ورواه عبد الرزاق وغيره من المفسرين بأسانيد صحيحة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم.

وقال التوربشتي: إنما جاء الْقَدْر – بسكون الدال – وإن كان الشائع في القدر الَّذي هو مؤاخي القضاء فتح الدال ليعلم أنه لم يرد به ذلك، وإنما أريد به تفصيل ما جرى به القضاء وإظهاره وتحديده في تلك السنة لتحصيل ما يلقى إليهم فيها مقدارًا بمقدار)[1].

قال الإمام البخاري ﷺ: باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رجالًا مِن أصحاب النبيِّ أُرُوا ليلةَ القدرِ في المنامِ في السَّبْعِ الأواخرِ، فقال رسولُ الله ﷺ: **«أرى رؤياكم قد تواطأتْ في السبعِ الأواخرِ، فمن كان متحرِّيها فليتحرَّها في السبعِ الأواخرِ»**.

عن أبي سلمة قال: سألتُ أبا سعيدٍ وكان لي صديقًا، فقال: اعتكفنا مع النبي العشرِ الأوسطِ من رمضانَ، فخرج صبيحةَ عشرين فخطبنا، وقال: **«إني أُرِيت ليلةَ القدرِ ثمَّ أُنسِيتُها – أو نُسِّيتُها- فالتمسوها في العشر الأواخر في الوتر، وإني رأيت أني أسجد في ماء وطين، فمن كان اعتكف مع رسول الله ﷺ فليرجع»**، فرجعنا وما نرى في السماء قزعة، فجاءت سحابة فمطرت حتَّى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله ﷺ يسجد في الماء والطين حتَّى رأيت أثر الطين في جبهته.

فائدة: معنى ليلة إحدى وعشرين: قال ابن حجر رحمه الله: (وقد وجه شيخنا

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر رحمه الله (٤/ ٢٥٥).

الإمام البُلْقيني رواية الباب بأن معنى قولِهِ: «**حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين**» أي: حتَّى إذا كان المستقبل من الليالي ليلة إحدى وعشرين، وقوله: «**وهي الليلة التي**» يخرج الضمير يعود على الليلة الماضية، ويؤيد هذا قوله: «**من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر**»؛ لأنه لا يتم ذلك إلَّا بإدخال الليلة الأولى).

فائدة: علاماتها وإخفاؤها: قال ابن حجر ﵀: (وقد ورد لليلة القدر علامات أكثرها لا تظهر إلَّا بعد أن تمضي، منها في «صحيح مسلم» عن أُبيِّ بنِ كعبٍ: «**أنَّ الشمسَ تطلعُ في صبيحتِها لا شعاعَ لها**»، وفي رواية لأحمد من حديثه: «**مِثْلَ الطَّسْتِ**»، ونحوه لأحمد من طريق أبي عون، عن ابن مسعود، وزاد: «**صافية**»، ومن حديث ابن عباس نحوه، ولابن خزيمة من حديثه مرفوعًا: «**ليلةُ القدرِ طَلِقَةٌ، لا حارَّةٌ ولا بارِدَةٌ، تصبحُ الشمسُ يومَها حمراءَ ضعيفةً**»، ولأحمدَ من حديثِ عبادةَ بن الصامتِ مرفوعًا: «**أنها صافيةٌ بَلْجَةٌ، كأن فيها قمرًا ساطعًا ساكنة صاحية، لا حر فيها ولا برد، ولا يحل لكوكب يرمى به فيها، ومن أماراتها أن الشمس في صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ**».

ولابنِ أبي شيبة من حديث ابن مسعود أيضًا: «**أن الشمس تطلع كل يوم بين قَرْنَي شيطانٍ إلَّا صبيحةَ ليلةِ القدرِ**»، وله من حديث جابر بن سمرة مرفوعًا: «**ليلة القدر ليلة مطر وريح**»، ولابن خزيمة من حديث جابر مرفوعًا في ليلة القدر: «**وهي ليلة طلقة بلجة ولا حارة ولا باردة، تتضح كواكبها، ولا يخرج شيطانها حتَّى يضيء فجرها**»، ومن طريق قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**وأن الملائكة تلك الليلة أكثر في الأرض من عدد الحصى**»، وروى

ابن أبي حاتم من طريق مجاهد: «**لا يرسل فيها شيطان، ولا يحدث فيها داء**»، ومن طريق الضحاك: «**يقبل الله التوبة فيها من كل تائب، وتفتح فيها أبواب السماء، وهي من غروب الشمس إلى طلوعها**».

وذكر الطبري عن قوم: «**أن الأشجار في تلك الليلة تسقط إلى الأرض، ثمَّ تعود إلى منابتها، وأن كل شيء يسجد فيها**»، وروى البيهقي في فضائل الأوقات من طريق الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة أنه سمعه يقول: «**إن المياه المالحة تعذب تلك الليلة**»، وروى ابن عبد البر من طريق زهرة بن معبد نحوه.

وقال ابن العربي: الصحيح أنها لا تعلم، وهذا يصلح أن يكون قولا آخر، وأنكر هذا القول النووي، وقال: قد تظاهرت الأحاديث بإمكان العلم بها، وأخبر به جماعة من الصالحين، فلا معنى لإنكار ذلك.

وقال ابن حجر ﵀: (واختلفوا: هل لها علامة تظهر لمن وُفِّقت له أم لا؟ فقيل: يرى كل شيء ساجدًا، وقيل: الأنوار في كل مكان ساطعة حتَّى في المواضع المظلمة، وقيل: يسمع سلامًا أو خطابًا من الملائكة، وقيل: علامتها استجابة دعاء من وفقت له، واختار الطبري أن جميع ذلك غير لازم، وأنه لا يشترط لحصولها رؤية شيء ولا سماعه، واختلفوا أيضًا: هل يحصل الثواب المرتب عليها لمن اتفق له أنه قامها وإن لم يظهر له شيء أو يتوقف ذلك على كشفها له، وإلى الأول ذهب الطبري والمهلب وابن العربي وجماعة، وإلى الثاني ذهب الأكثر، ويدل له ما وقع عند مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «**من يقم ليلة القدر فيوافقها**»، وفي حديث عبادة عند أحمد: «**من قامها إيمانًا واحتسابًا ثمَّ وُفِّقت له**».

قال النووي: معنى «**يوافقها**» أي: يعلم أنها ليلة القدر فيوافقها، ويحتمل أن يكون المراد يوافقها في نفس الأمر وإن لم يعلم هو ذلك، وفي حديث زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ، عن ابن مسعود ﷺ قال: «**من يقم الحول يصب ليلة القدر**» وهو محتمل للقولين أيضًا، وقال النووي أيضًا في حديث: «**من قام رمضان...**» وفي حديث: «**من قام ليلة القدر...**» معناه: من قامه، ولو لم يوافق ليلة القدر حصل له ذلك، ومن قام ليلة القدر فوافقها حصل له، وهو جار على ما اختاره من تفسير الموافقة بالعلم بها، وهو الَّذي يترجح في نظري، ولا أنكر حصول الثواب الجزيل لمن قام لابتغاء ليلة القدر، وإن لم يعلم بها ولو لم توفق له، وإنما الكلام على حصول الثواب المعين الموعود به، وفرعوا على القول باشتراط العلم بها أنه يختص بها شخص دون شخص، فيكشف لواحد ولا يكشف لآخر ولو كانا معًا في بيت واحد.

وقال الطبري: في إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر في تلك الليلة للعيون ما لا يظهر في سائر السنة؛ إذ لو كان ذلك حقًّا لم يخف على كل من قام ليالي السنة فضلًا عن ليالي رمضان، وتعقبه ابن المنير في الحاشية بأنه لا ينبغي إطلاق القول بالتكذيب لذلك، بل يجوز أن يكون ذلك على سبيل الكرامة لمن شاء الله من عباده فيختص بها قوم دون قوم، والنبي ﷺ لم يحصر العلامة ولم ينف الكرامة، وقد كانت العلامة -في السنة التي حكاها أبو سعيد- نزول المطر، ونحن نرى كثيرًا من السنين ينقضي رمضان دون مطر مع اعتقادنا أنه لا يخلو رمضان من ليلة القدر، قال: ومع ذلك فلا نعتقد أن ليلة القدر لا ينالها إلَّا من رأى الخوارق، بل فضل الله واسع، ورب قائم تلك الليلة لم يحصل منها إلَّا على العبادة من غير رؤية خارق، وآخر رأى الخارق من غير

عبادة، والذي حصل على العبادة أفضل، والعبرة إنما تستحيل أن تكون إلَّا كرامة بخلاف الخارق، فقد يقع كرامة، وقد يقع فتنة، والله أعلم» ا. هـ.

أقول ـ والله أعلم: لو كان اشتراط تحقق فضلها لمن أدركها هو علمه بها قبل وقوعها أو أثناء وقوعها، لكان هذا تحجيرًا لفضل الله ﷻ على الأمة.. وهذا جار على غير سنة الله ﷻ فيما أخفاه من الفضائل وما يكشفه لهم يوم القيامة، ولو أن الصحابة رأوا علامات أو نحوها لذكروها، ثمَّ إن جبريل أخبر النبي ﷺ بإدراكه لها، وبين النبي ﷺ علاماتها فعرف هو ﷺ وأصحابه علامتها بعدما طلع الصبح وذهبت الليلة.

فائدة: هل لوقوعها قاعدة محددة: قال ابن حجر رحمه الله: وفي هذه الأحاديث رد لقول أبي الحسن الحولي المغربي أنه اعتبر ليلة القدر فلم تفته طول عمره، وإنها تكون دائمًا ليلة الأحد، فإن كان أول الشهر ليلة الأحد كانت ليلة تسع وعشرين وهلم جرا، ولزم من ذلك أن تكون في ليلتين من العشر الأوسط لضرورة أن أوتار العشر خمسة، وعارضه بعض من تأخر عنه، فقال: إنها تكون دائمًا ليلة الجمعة، وذكر نحو قول أبي الحسن وكلاهما لا أصل له، بل هو مخالف لإجماع الصحابة في عهد عمر كما تقدم، وهذا كاف في الرد، وبالله التوفيق)[1].

فائدة: قول ابن عباس رضي الله عنهما إنها ليلة السابع والعشرين وأدلته:

(قال عكرمة: قال ابن عباس رضي الله عنهما: دعا عمر أصحاب رسول الله ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٧).

فقلت لعمر: إني لأعلم أو أظن أي ليلة هي؟ قال عمر: أي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال: من أين علمت ذلك؟ قلت: خلق الله سبع سموات وسبع أرضين وسبعة أيام، والدهر يدور في سبع، والإنسان خلق من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف والجمار وأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له، فعلى هذا قد اختلف في رفع هذه الجملة ووقفها، فرجح عند البخاري المرفوع فأخرجه وأعرض عن الموقوف.

وللموقوف عن عمر رواية أخرى عن ابن عباس، وأوله أن عمر كان إذا دعا الأشياخ من الصحابة قال لابن عباس: لا تتكلم حتَّى يتكلموا، فقال ذات يوم: إن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوا ليلةَ القدرِ في العشرِ الأواخرِ وترًا**» أي الوتر هي؟ فقال رجل برأيه تاسعة سابعة خامسة ثالثة، فقال لي مالك: لا تتكلم يا بن عباس، قلت: أتكلم برأيي، قال: عن رأيك أسألك، قلت: فذكر نحوه، وفي آخره، فقال عمر: أعجزتم أن تكونوا مثل هذا الغلام الَّذي ما استوت شؤون رأسه، ورواه محمد بن نصر في قيام اللَّيل من هذا الوجه، وزاد فيه: «**وأن الله جعل النسب في سبع، والصهر في سبع، ثمَّ تلا: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾** [النساء:٢٣] وفي رواية الحاكم: إني لأرى القول كما قلت»(١).

قال الإمام البخاري رحمه الله: باب رفع معرفة ليلة القدر لِتلاحِي الناس:

عن أنس رضي الله عنه عن عُبادةَ بنِ الصامت رضي الله عنه، قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحَى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر،

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٢).

فتلاحَى فلان وفلان فرُفِعَت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

قال ابن حجر ﵀: (قوله: «**فتلاحى**» - بالمهملة - أي: وقعت بينهما مُلاحاة، وهي المخاصمة والمنازعة والمشاتمة، والاسم اللِّحاء - بالكسر والمد -، وفي رواية أبي نضرة، عن أبي سعيد عند مسلم: فجاء رجلان يختصمان معهما الشيطان، ونحوه في حديث «القلتان» عند ابن إسحاق، وزاد أنه لقيهما عند سدة المسجد، فحجز بينهما، فاتفقت هذه الأحاديث على سبب النسيان، وروى مسلم أيضًا من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أُرِيتُ ليلةَ القدر ثمَّ أيقظني بعض أهلي فنسيتها**»، وهذا سبب آخر، فإما أن يحمل على التعدد بأن تكون الرؤيا في حديث أبي هريرة ﷺ منامًا فيكون سبب النسيان الإيقاظ، وأن تكون الرؤية في حديث غيره في اليقظة، فيكون سبب النسيان ما ذكر في المخاصمة، أو يحمل على اتحاد القصة، ويكون النسيان وقع مرتين عن سببين، ويحتمل أن يكون المعنى: أيقظني بعض أهلي، فسمعت تلاحي الرجلين، فقمت لأحجز بينهما فنسيتها للاشتغال بهما.

وقد روى عبد الرزاق من مرسل سعيد بن المسيب أنه ﷺ قال: «**ألا أخبركم بليلة القدر؟**» قالوا: بلى، فسكت ساعة، ثمَّ قال: «**لقد قلت لكم وأنا أعلمها، ثمَّ أنسيتها**» فلم يذكر سبب النسيان، وهو مما يقوي الحمل على التعدد) [1].

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٨).

هَذَا فَضْلُهَا، فَبِمَ نُقَابِلُ فَضْلَهَا؟

أتدري ماذا يعني أنَّ اللَّيلة هي ليلة القدر؟!

إنَّها تَعني ما يزيد على ثلاث وثمانين سنة، قد اجتمعت واختزلت ما بين غروب شمس هذا اليوم وفَجْره.. صافية الإيمان والعمل الصالح، سالمة من الآثام سلامة الثوب الأبيض من الدنس.

إنَّها تَعني أنَّ هذه اللَّيلة زَكَتْ وَصَفَتْ وخلُصت حتَّى أصبحت أكثر من ثلاث وثمانِينَ سنةً عبادةً خالصةً زاكيةً مُتقبَّلةً من الله سبحانه! إنَّها تعني الكثيرَ الكثيرَ مما لا قدرةَ لأحدٍ على بُلوغِهِ.. نَعَمْ، لا أحد حتَّى سيِّد الأوَّلين والآخرين، فَمَنِ المُخاطَبُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ٢] إلَّا رسول الله ﷺ أتدري ماذا يعني تضييع دقيقة واحدة من هذه الليلة في غير عبادة؟

إنَّ ضياع الدَّقيقة الواحدة يعني ضياع ما لا يمكن تصوُّره، وربَّما لا يمكن تعويضه، فلأجل تصوير التفريط في الليلة الواحدة، وجدنا بالحساب أنَّ اللَّيلة اثنتا عشرة ساعة، فإنَّ الدَّقيقة من ليلة القدر تساوي ألف ساعة، أي واحدًا وأربعين يومًا ونصفًا... هذا على حساب أن ليلة القدر بألف شهر، كيف وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:٣]، والليلة تبتدئ من بعد تمام الغروب.

وضبط كلِّ دقيقةٍ في هذه اللَّيلة مطلوبٌ، لكنَّه صعبٌ للغاية هذا في التزام

الإنسان الظاهري.. أمَّا ضبطُ القلبِ هذه اللَّيلة، فهذا أمرٌ يسير على مَنْ يَسَّره الله عليه، ولن تشغل صاحبه أعمال الجوارح حتَّى لو كانت طعامًا أو مجالسة أو نحوها... وإن رمضان أحسن محضن لضبط القلب، وذروة ذلك ليلة القدر وحال القلب فيها.

أيها المترصد لها: أتريد أن تنامَ هذه الليلة؟ أيمكن أن تَغْمُضَ أجفانُ القَنَّاصِ لحظةَ مرور الصَّيدِ الَّذي انتظره طويلًا؟

أيمكن أن تنام اللَّيلة والملائكةُ الَّذين نزلوا إلى الأرض أكثر مِنْ عددِ رمالِ الأرضِ وَحَصاهَا؟

أيليق بك إلَّا حُسْن الاستقبال لهذه الجُمُوع الَّتي أُخبرتَ الآثارُ الصَّحيحةُ نزولَها بشكلٍ خاصٍّ هذه اللَّيلة؟ سيُحْسِن مَنْ عدَّ نفسه من أهل الدَّار استقبال القادمين، ولا يليق به أن ينام أو يغفل عن الزُّوَّارِ، أمَّا مَنْ لم يعدَّ نفسه من أهل الدَّار فهو الغريب الجافي.

يا بَدَني: نَمْ قليلًا.. مستريحًا لقيام اللَّيلة كلها.. لكن إياك يا قلبي أن تستسلم للنوم.. سوف أغالب السِّنَةَ بالإفاقةِ.. أُغَالبُ الغَفْوةَ بحرارة الذِّكر، سوف أُعلِّق قلبي بربِّي فلا أغرق في النَّوم وأذهب في أعماقه وأعماق الليل... لحظات أيُّها البدن ثمَّ أثُور من تحت الدثار على الذكر.. لحظات ويُفِيقُ قلبي من شدَّة الإشفاق!.

فلكأنَّ النَّوم ما استقرَّ في العين، ولكأنَّ الجنب ما استسلم للمَضْجَعِ، ولكأنَّ الغفوةَ ما دخلت القلب... هذا حال ليلة إذا اشتد صفاء القلب فيها، واشتد تعلقه بربه فيها، واشتد حرصه على إحيائها... يبادلها الإحياء بإحياء القلب حتَّى صعب على الموتة الصغرى اختطافه.

نَعَمْ، إنَّها ليلةٌ واحدةٌ في العمر أو عشر ليال من الشَّهْرِ، لكن هذا الحال كان هو حال رسول الله ﷺ الدَّائم حيث يقول: **«تنامُ عيني ولا ينامُ قلبي»**[1].

وكلما صفا حال القلب وعظم تعلقه بربه، وسلم من العوالق وزاد خوفه وإشفاقه، زادت يقظته.. وزادت.. حتَّى يتجافى عن المضجع بينما هو نائم.. لكن من المستحيل أن يصل إلى حال رسول الله ﷺ أحد؛ فذاك خاص به وذاك هو الكمال.

إنه لا يمكن إنكار أن النَّاس في النوم درجات، وأنهم في تعلق القلب درجات.. لكن ليس للعبد في هذه اللَّيلة إلَّا أن تبلغ يقظته أعلى درجاتها، وتبلغ نفسه ذروة تيقظها واستعدادها.. وتبلغ همته ذروة انتفاضتها.

وإِلَّا فلأيِّ ليلةٍ تُدَّخر اليقظة... ولأيِّ جولةٍ تُدَّخر الطَّاقة.. ولأيِّ وقتٍ يُسْتنهَض القلب وتعاف الغفوة والغفلة والنوم والسنة.. وإذا لم ينهض القلب اللَّيلة فكيف تنهض جُنودُهُ؟!

إنَّها ليلةٌ تريك الطَّاقة المذخورة فيك... بينما كنت تحتقر طاقتك... اللَّيلة التي تُظهر لك درجة التَّقوى التي تعلمك أن تتقي إلى باقي الليالي.. وأن ذلك بمقدورك.

أرأيت كيف قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؟!

فإذا كان رمضان يعلم التَّقوى بشكل عام وكامل فإن الصَّائم ينبغي أن يكون أتقى ما يكون لله في هذه اللَّيلة ... وينبغي أن تفيض تقواها على باقي عمر صاحبها كما فاضت بركتها على الأيام والأشهر والسنين.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

إيهٍ يا لحظة الغروب اقتربي.. فما إِنْ يَتِمُّ غيابُ شَمْسِك أيُّها اليوم من هنا حتَّى تنطلق ليلة القدر من هنا.. مَنْ يُطيق هذا الصَّبر.. يا للقلب ما أسرع نبضه! كأنه يدفع نبض السَّاعة دفعًا نحو دقة الغروب.

ولقد روى البخاري ﵀ في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يعتكف في العشر الأوسط من رمضان، فاعتكف عامًا حتَّى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي اللَّيلة التي يخرج من صبيحتها من اعتكافه، قال: « **مَن كان اعتكفَ معي فليعتكفْ العشرَ الأواخرَ، وقد أُرِيتُ هذه اللَّيلة ثمَّ أُنسِيتُها، وقد رأيتُني أسجدُ في ماءٍ وطينٍ مِن صبيحتِها، فالتمسوها في العشر الأواخرِ، والتمسوها في كلِّ وترٍ** »[1]، فأمطرت السَّماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش، فوكف المسجد، فبصرت عيناي رسول الله ﷺ على جبهته أثر الماء والطين من صبح إحدى وعشرين.

وعاد فرسان النهار لاعتكاف العشر الأواخر بعدما اعتكفوا العشر الأواسط ... وتحولوا إلى رهبان اللَّيل حقًّا.. وباشروا من جديد بهمة جديدة. كأنهم ما اعتكفوا العشر التي قبلها.. باشروا العبودية والتعبد.. باشروا التقرب في مسجد رسول الله ﷺ بيقين لا يقبل الشك أن ليلة القدر أمامهم، آخذين هذا الموعود بعين اليقين.. فكأن كل ليلة من الليالي القادمة هي ليلة القدر... فَيتقدَّمون لها بِهمَّةٍ قد وُلِدتْ من الصِّفر.. لم يَمَسَّها تعبٌ أيَّامَ اعتكافٍ سَبقَتْ، ولا جُهودٌ بُذِلَتْ، ولا أرجلٌ تورَّمَتْ.. فإذا أدبر اللَّيل قاموا عنها كأنهم ما عملوا، بل قاموا عنها مستغفرين كأنهم كانوا مقصرين، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٢٧).

ويأبى الله أن يطيل انتظار هذا الوفد العاكف على بابه - رسول الله ﷺ وأصحابه - طالبًا ليلة القدر... فكانت أول ليلة بعد رجوعهم إلى معتكفهم هي ليلة القدر.. فهنيئًا لكم يا أصحاب رسول الله بـ (ليلة القدر) فوق كل ما قدمتم، هنيئًا لكم وأنتم تكسبون عشر ليال وأيامًا معتكفين مع سيد الخلق في مسجده.. هنيئًا لكم وأنتم تستقبلون الخبر من رسول الله ﷺ بعلامتها، وعلامتُها سجود المصطفى ﷺ في صبيحتها في الماء والطيب. تستقبلون الخبر ولا تعرفون تحديدًا ما معنى هذه العلامة، ولا تعرفون صورتها العملية.. هل ستكون علامتها حقيقية أم علامة رَمْزِيَّةً، أم شيئًا آخر لا صورة له في الأذهان الآن؟ هنيئًا لكم وأنتم تقومون ليلتها وإمامكم رسول الله ﷺ في صلاة العشاء وصلاة التَّراويح حتَّى انصرف من صلاته.

هنيئًا لكم وأنتم تقومون ليلتها في مسجده جماعاتٍ وَفُرَادَى، هنيئًا لكم ذاك المعتكف الطَّيِّبُ.

ثم هنيئًا لكم وأنتم تصلُّون الصُّبح خَلْفَ المصطفى ﷺ...

وهنيئًا لكم وأنتم ترون البشارة (الماء والطين) في أكرم مكان.. الماء النازل من السماء... إلى سقف مسجد رسول الله ﷺ ... إلى أرض مسجده ومحرابه.. إلى موضع سجوده في محرابه... ليكون الختم في أكرم بقعة.. في جبينه الأغر الأطهر الأكرم الأبرك...

فأيُّ قيمةٍ يا مسلمون مثل قيمةِ ليلةِ القدرِ.. حتَّى جعل الله هذه إشارتها.. ووجه المصطفى ﷺ موضعها؟!.

سبحانك ربنا! كيف جمعت هذه الأمور الشريفة في شيء واحد؟ جمعت

المطر الطاهر النَّازل من السَّماء وهو قريبُ عهدٍ بربِّه.. والوقتُ وقت إجابةِ دعاءٍ في آخر الثلث الأخير من الليل..

مع أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.. مع قرآن الفجر المشهود، من مسجد رسول الله ﷺ... كل ذلك علامة لهذه اللَّيلة العظيمة.. فَمَنْ تشرَّف بِمَنْ؟ ومن علا شأنه عند الله بِمَنْ؟ قل ما شئت فلعله نور على نور وكفى، لكنك في نهاية التفكير ترجع إلى الحقيقة العظمى أن كل ذلك كان لأجل هذا القرآن العظيم، فكل بركة حدثت ونزلت وتنزل إلى يوم القيامة في هذه اللَّيلة إنما هي لأجل نزول هذا القرآن في هذه الليلة، فمن يستطيع بعد هذا أن يعطي هذا القرآن قدره؟

ارْجِع النَّظر ثانيةً في هذه اللَّيلة ينقلب إليك النَّظر بعجائبَ جديدةٍ.. وبركاتٍ فريدةٍ.

أليست هذه اللَّيلة هي أعظم الليالي بركة عرفناها على الإطلاق **«ليلة مباركة»** كما قال ربنا سبحانه.

أليس الوقت وقت بركةٍ إذ هو **«بُورك لِأُمَّتي في بُكُورها»** (١)، أليس الماء النَّازل من السَّماء مباركًا ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩].

أليس هذا التُّراب مباركًا وإذا اختلط بماء السَّماء فهو مباركٌ كذلك .

ألم يُنزل الله في المدينة عامَّةً من البركة والفضل مثل ما في مَكَّة وزيادة، فعن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: **«اللَّهمَّ اجعلْ بالمدينةِ ضِعْفَيْ ما جعلتَ**

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة ﷺ. وصححه الألباني. انظر: صحيح الجامع (٢٨٤١).

بمكَّةَ من البركةِ»[1].

وهل من بركة مثل محرابه .. وهل من بركة مثل موضع سجوده .. وهل من بركة مثل وجهه الشريف المبارك ؟

يا لها من ليلة مباركة؟!

إن كل فضائل اللَّيلة إنما لأجل القرآن .

قوله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان:٣].

أتقدر على أن تقرأها من جديد أم لا تقدر؟!

أخي في الله .. أخي أيها المنتظر لليلة القدر الليلة.. يا أيها المترصد لها.. المتلمس لها في ظلمة هذه الليالي، دعني أقرب لك الصورة أكثر فأقول: اقرأ كلمات الله هذه من موقع ليلة القدر ..

إنك لو تأمَّلت هذه الآيات لوجدتَ أنَّ ذِكْرَ ليلة القدر يُربط دائمًا بنزول القرآن .. إنَّها ليلةٌ كسائر اللَّيالي لكنَّها أصبحت كذلك، وأخذت هذا الاسم حين أنزل فيها القرآن .. فقراءة القرآن اللَّيلة قراءته في ظرف نزولِهِ الأوَّل .. إنَّه شيءٌ آخر .

أنت الآن تقرأ القرآن في ليلة نزول القرآن .. لا تقل: ليلة النزول مرَّت! .. بل قل: استقرَّت .. بل تباركت .. وبقيت بركتها اليوم من بركتها يوم كانت أوَّل مرَّةٍ.. هكذا هي في كلِّ عام .. أتعلم ماذا حدث في السَّموات حين نزل القرآن .. ماذا حدث للملائكة ليلتها .. ماذا حدث للكون .. ماذا أنزل من البركات .. كيف أفاض ربُّنا ﷻ، كيف .. وكيف .. وكيف؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩).

لا والله لا أنا ولا أنت نعلم .. وكيف يمكن أن نعلم .. وقد قال من خلق تلك اللَّيلة .. ومن أنزل فيها القرآن، يقول لمن أنزل عليه القرآن تلك الليلة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢].. سبحانك اللهم، لو لم تخبرنا فما الَّذي يدرينا؟

لكنَّك سبحانك أخبرتنا بما لا يزيدنا إلَّا تعظيمًا لها من غير تحديدٍ لعظمتها .

سبحان ربِّنا: كيف أنَّه لم يجعل هذه اللَّيلة ذكرى تمرُّ كسائر الليالي؟!

كيف أنه سبحانه لم يجعل بركتها محدودة بليلة تنزلها الأولى ولا تتعدَّاها إلى مثيلاتها من الأعوام القادمة ؟!

كيف أنَّه سبحانه لم يجعل حَدَثها ذكرى مرَّت كَلَيلَةٍ عَظِيمةٍ وانتهت .. وما بقي من حدثها إلَّا التذكير بفضلها .. بل بقيت تعاد بقدرها الكبير كلما مرت كأنها اللَّيلة الأولى التي أنزل فيها القرآن .. ألم يقل سبحانه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]. ولم يقل سبحانه: (تنزلت) .. فكم تنزلت آنذاك وكم تنزل في كل عام؟ أهو هو؟ إن الأمر المهم هو أن الله سبحانه أبقى لنا تنزل الملائكة في هذه اللَّيلة كلما مرت ، فقال: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾.

أتريد أيها العبد أن ترى الملائكة بعينيك .. ؟ هنيئًا لك أيها العبد حيث تزدحم مع هذه الملائكة في هذه اللَّيلة المباركة العظيمة ...

أتريد أكثر من هذا، إذا فهذا جبريل عليه السلام[1] يتنزل هذه اللَّيلة خاصة من بعد

---

(١) قال الشوكاني رحمه الله في (فتح القدير) (٥/ ٦٧١): (في تفسير قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾. قال: (والروح هو جبريل عليه السلام عند جمهور المفسرين أي: تتنزل الملائكة ومعهم جبريل، ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه).

انقطاعه بموت رسول الله ﷺ عن الأرض. وأيُّ تعظيمٍ لهذه اللَّيلة أعظم من أن يرسل الله لعباده في هذه اللَّيلة مَنْ فوَّض الله له حمل رسالاته للبشر طوال عمر البشريَّة .. ؟

أيُّ تمثيلٍ يمكن أن يقوم به أحدٌ في حضور هذه اللَّيلة أعظم من حضور جبريل عليه السلام؟

أيُّ تمثيل للأنبياء ولسيد الأنبياء أقرب من أن يكون الشاهد لهذه اللَّيلة جبريل عليه السلام الَّذي نزل عليهم جميعًا من رب العالمين سبحانه .

أيُّ تكريمٍ لأمة مُحمَّدٍ ﷺ أكبر من أنْ ينزل جبريل عليه السلام عليهم .. فلكأن كل واحد من أبناء هذه الأمة في هذه اللَّيلة قد حاز هذا الشّرف بتنزل جبريل عليه السلام والذي لم يحزه إلَّا أفرادٌ في الأمم .. فليهنأ وليشرف أفراد أمَّة محمدٍ ..

فإن من نزل بالقرآن من السَّماء الدنيا نجمًا نجمًا.. هو من ينزل اللَّيلة نفسه عليه السلام على أمة مُحمَّدٍ .

ليس هذا هو المقصد إنَّما المقصد من كلِّ هذا هو التنبه لدقة الربط القرآني ما بين «**التنزيل والليلة**».. فهي ليلة التنزيل، فليقرأ كلام الله في ليلة تنزيله، وليستمع كلام الله في ليلة تنزيله .. ولا عبرة بالفاصل الزمني ما دامت اللَّيلة هي الليلة، والقرآن هو القرآن ، وجبريل هو جبريل عليه السلام.

إنَّ المهابة المحتفَّة، والجلال الكبير الَّذي تنزل به القرآن لا يوصف إطلاقًا، ذاك هو النزول من اللَّوح المحفوظ إلى السَّماء الدنيا.. إن المهابة المحيطة والجلال الكبير لليلته كلما جاءت وتجددت لا يوصف كذلك، وما ظهر منها إنما هو حقيقةٌ من حقيقةٍ لا تُوصف، بل لا تُتصوَّر بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ

أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾، أفتناسب الغفلة عن القرآن اللَّيلة في هذا الظرف الخاص العظيم؟! ظرف تنزل الملائكة بهذه الأعداد وهذا الازدحام الَّذي ربما لم تشهد الأرض في تاريخها مثله .. ظرف تنزل من نزل بالقرآن أول مرة جبريل عليه السلام من السَّماء الدنيا على النبي ﷺ ..

فلنجدد قراءة القرآن، ولنجدد معايشة القرآن .. فإنها أنسب لحظة لأعلى ما يكون الفهم والمعايشة ..

إنَّك كلَّما استجمعت من عظمة هذه اللَّيلة .. واستجمعت صورة هذه اللَّيلة وما ظهر منها في عبارات القرآن والسنة، وزدت على ذلك عظمة فوق الوصف وفوق التَّصور تصل إلى حقيقة هي أن كل ذلك ليس لذات الليلة، وإنَّما لهذا القرآن الَّذي تقرؤه والَّذي تسمعه وعندها تستطيع – بإذن الله – أن تقرأ القرآن كأنه أنزل اللَّيلة .. وتسمعه كأنه أنزل اللَّيلة .. أو كأنك كنت هناك يوم أنزل تلك اللَّيلة .. تذكر هذا جيدًا، وعشه جيدًا، وسوف يتفتَّح قلبك لأبعادٍ بِكْرٍ لم تطرق قلبَك قبل اللَّيلة بإذن الله .

خيريَّة إخفاء هذه اللَّيلة: عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: خرج النَّبيُّ ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «**خرجتُ لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، فالتمسوها في التَّاسعة والسَّابعة والخامسة**»[(١)].

كم يتمنى المسلم أن هذين الرجلين لم يتلاحيا حتَّى يخبرنا النبي ﷺ ! لكن أكان ذلك الإخبار بتحديد هذه اللَّيلة خيرًا للأمة إلى يوم القيامة؟ لا والله، ما

---

(١) رواه البخاري (٢٠٢٣).

كان ذلك خيرًا -والله أعلم- لكن الله سبحانه إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه .. أراد رفع هذه اللَّيلة فتلاحى هذان الرجلان فرفعت .. فلو كان خيرًا لاختاره الله ﷻ لهذه الأمة العظيمة، كيف وقد عقب النبي ﷺ هذا بقوله: «**عسى أن يكون خيرًا**» أي: خيرًا عظيمًا .

سبحان الله العظيم! هاجت قلوب الأمَّة طوال رمضان لأجل إدراك ليلة القدر، واشتدَّ الزِّحام عليها بباب الرَّجاء أكثر في العشر الأواخر منه، وزاد الطَّرْقُ والإلحاح في وترها، وما كان ذلك لولا أنَّه سبحانه أخفاها إخفاءً غير مطلقٍ أو مطبقٍ.

سبحان الله ربنا: كم لله من حكمة بالغة حين أخر ليلة القدر في ليالي رمضان، فلقد أصبحت الأمة تقدم قبل ليلة القدر الكثير من الأعمال تقربًا إليه فيما يسبقها من أيام وهم لا يشعرون .. وتقدم الكثير من أعمال بعدها وهم لا يشعرون .. فاحتفت ليلة القدر بخيراتها النازلة في تلك اللَّيلة بأعمال صاعدة قبلها وبعدها .. فنعم الاستقبال ونعم التوديع، ونعم الزُّلفى، ونعم التَّثبيت، ونعم التَّقديم ، ونعم الاستدراك .

سبحان الله العظيم! كيف جعل العمل لأجل ليلة القدر في كل ليلة من ليالي رمضان، والعمل في العشر وأوتارها.. أكبر شاهدٌ على خيرات عظيمة .. فهو شاهدٌ على الإيمان بالغيب، شاهد على مخافة الله بالغيب، شاهدٌ على متابعة نبي الله ﷺ ، شاهدٌ على تعظيم هذه الأمَّة للقرآن العزيز، شاهد على محبَّة هذه الأمَّة ربَّها، ومحبَّة التَّقرب إليه، والاقتراب منه سبحانه رجاء عفوه سبحانه، شاهد على أن أعظم مطالبنا الجنَّة والنَّجاة من النَّار بعد رضوان الله .

إنَّها شاهدٌ يا ربَّنا: على أنَّنا مهما بعدنا فإنَّا نأتيك، وليس لنا رب سواك سبحانك .. ومهما ظهر منا فإنا نحبك، ونحبُّ ما تحبُّ، ونحبُّ كتابك، ونرجو عفوك، بل أنت سبحانك من يأتي بنا .

كم لله من حكمةٍ ألَّا تعرف ليلة القدر بعلامةٍ قبلها أو ترافقها ، فضلا أن تُحدِّدها في ليلةٍ معينةٍ.. حكمةً ورحمةً وخصوصًا للمتأخِّرين .. فلئن كان أصحاب النَّبيِّ ﷺ أدركوها ليلة الحادي والعشرين في عهد النَّبيِّ ﷺ مرةً ورأوا علامتها الماء والطِّين في وجه النبي الكريم ﷺ لكنهم لم يفتروا عن العبادة ولم يخرجوا من الاعتكاف تواصلا، وثباتًا، وعدم اغترار بعمل، وخوف الاستدراج ، وأن العبرة بالخواتيم .. فإن معرفة المتأخرين بعد تلك الثلة من السابقين بموعد ليلة القدر سيجعلهم يختصرون العبادة عليها دون رمضان كما اختصروا اجتهادهم على السابع والعشرين مع عدم اليقين بأنها ليلة القدر، فكيف لو كان ذلك يقينًا.. بل الأدهى أنهم سوف يتهاونون، وكثيرون منهم سوف يفرطون فيما قبلها وما بعدها من ليال وأيام فيتحول رمضان ليلة واحدة لا يوم لها! فكم لله من حكمة .. وكم لله فينا -نحن اللاحقين- من لطف ورحمة؟

وكم لله من حكمة أن يرفع علمها من حافظة رسول الله ﷺ بسبب تلاحي الرجلين .. ليعرف النَّاس عِظَمَ هذه الحرمة الزمانيَّة، فالمساس بها يضر أعظم الإضرار؛ ولأن البركات والخيرات النَّازلة لها لا تجتمع مع المعاصي، وليعطي النَّاس المساجد حقَّها خصوصًا في هذه الأوقات المخصوصة، وليعرف النَّاس أن تأثير المعاصي لا يقتصر على من يعصي بل يضر حتَّى بأبعد النَّاس عنها وهو القائد، كما أثرت معاصي الرماة في غزوة أحد بمن لم يكن من الرماة، بل في

النبي ﷺ ، ومعلوم ما حصل له - فداه ﷺ أبي وأمي وروحي، وليعرف النَّاس تحديدًا خطورة المراء الَّذي خطورته تكمن في أمور، الأول: فساد القلوب. والثاني: فساد الوحدة. والثالث: ضياع الأوقات والجهود والإنتاج . فهل يتوافق إهدار الأوقات وإفساد القلوب مع تواجد هذه الليلة؟

فيا أيها المنتظرون إياكم وأن تقدموا بين يدي هذه اللَّيلة أي شيء يقدح .. فلنصف صحائفنا ولنصف علاقاتنا خشية أن تفوح بما لا يستحق، فإنه إذا كان الله سبحانه يؤجل المغفرة ليلة اطلاعه إلى خلقه -ليلة النصف من شعبان- للمتخاصمين، فكيف إذا تخاصما في ليلة هي الأعلى والأكرم والأعظم بركة؟!

لك أيَّها المتأمل أن تتصوَّر أثر ذلك في نفوس الصَّحابة بعد ما جاء النَّبيُّ ﷺ ليخبرهم بهذا الإخبار .

.. كم لله سبحانه من حكمة في إخفاء هذه اللَّيلة .. فبدل أن تصبح ليلة توبة واحدة أصبحت ليالي التوبة عديدة وبابها أوسع وأرحب ، ووقتها ممتد .. سبحان الله كيف ربى النَّاس على النَّشاط في العبادة وترك التَّواني، وهذا لم يكن ليقع لو أنَّ ليلة القدر قد حددت لهم، فكم سَيَدُوم النَّشاط ويتصاعد مع تصاعد الأيام واقتراب الختام ..

سبحان الله، وكم له في إخفائها من لطف خفيٍّ، فلربَّما هرب قلب العبد هذه اللَّيلة لو كانت معلومة فلم يحضر للقرآن ولم يخشع في صلاة، ولم يتذوق سكينة ولا طمأنينة .. وتمضي اللَّيلة عليه وهو على هذا فيتذمر أو ييأس من رحمة الله .. ويسيء الظَّنَّ بالله - عياذًا بالله - فيقع في أمر أسوأ من تقصيره، وربما يخرج من الإسلام بقنوطه وسوء ظنه بربه ﷻ، ولربَّما فاتته لمرضٍ أو عذرٍ قاهرٍ، فلم يقم هذه اللَّيلة ولم يُحْيِها .. ويتكرَّر معه ذات الأمر في العام

الَّذي بعده .. فيظن أن الله ثبطه فلم يرد له حضورها، ولعل ذلك كان خيرا له وهو لا يعلم.

فَكَمْ تمنَّى أحدنا أنَّه عاش في عهد النَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ المسكين لا يعلم أن اختيار الله خير له من اختياره .. وأنه ربما لو كان في عهد النَّبيِّ ﷺ وجاءته تلك التكاليف الثِّقال لربَّما اعتذر، وخشعت نفسه لما رفع السَّيف على رأسه.. أو فضل القعود على الخروج أيَّام العسرة، أو بخل بماله لما أمر بإنفاقه، أو فضل أرضه ووطنه لما أمر بالهجرة وترك أرضه وأهله وولده وماله.

فاختيار الله بإخفاء ليلة القدر خيرٌ.. وما يدرينا أنَّها لو ظهرت لكانت فتنةً لنا؟

فهل من الخير أن تتعلق القلوب بالله ليلة؟ أم تتعلق بالله رمضان كله؟ هل من الخير أن يجمع العبد لنفسه حسنات في ساعات؟ أم من الخير أن يجمع في العشر كلها أو في أوتارها؟ أمن الخير للعبد أن يجد في صحيفته حسنات ليلة؟ أم الخير أن يجد حسناتها وحسنات ليال قبلها وبعدها في صحيفته؟ !

إنَّ المقارنة عظيمةٌ وكبيرةٌ، والفرقُ واسعٌ جدًّا، فالحمد لله على إخفائها، لكن ثمة أمر آخر دقيق .. وهو أن منهجيَّة إخفائها فيه توافق عجيب مع منهجيَّة تحقيق هدف رمضان، وهو التَّقوى، فإنَّ التَّقوى تقتضي التَّحسُّس والبحث والحذر .. وهذا هو ما يتحقق فعليًّا هذه اللَّيلة العظيمة .. فإنَّ الطريقة الصحيحة التي عرَّفنا بها النَّبيُّ ﷺ لإدراك ليلة القدر هي «ترصُّدها»، و«تحرِّيها»، و «الاعتكاف لأجلها»، و«ترقُّبها»، «والقيام لها»، و«شد المئزر»، و«إيقاظ الأهل لها»، و«إحياء اللَّيل» وما إلى ذلك، وهذا يعني التَّقوى بمعناها المقابل، فالتقوى هي الترك خوفًا، والانسحاب حذرًا، أما هذه التَّقوى فهي الإقبال رغبة،

والإقدام طمعًا من خلال أعمال تشمل الترك كما تشمل الإقدام فهي السلبية الموجبة، أو الإيجابية التقية المتمثلة في «الفرار إلى الله».

وهذه من إعجازات هذه اللَّيلة التَّربويَّة، فهي تقوى ولكنها طلبٌ، وهي تقوى ولكنها فرار إلى الله، وهي تقوى ولكنها بحث، وهذا هو التكامل في غاية هذا الشهر العظمى.. وهو من الإعجاز التربوي في هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

أيُّها المسلم: تأكَّد أنَّ الله لن يُضِيعَ أَجْرك .. لن يُضيع إيمانك .. أليس هو القائل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ [البقرة:١٤٣].. ثق بأن الله لن يفوتك ليلة القدر وإن لم تدر ..

ثِقْ بأنَّ الله يرى قلبك هذه اللَّيلة بهذا الاضطراب والإشفاق .. بهذا اللهف والاستباق .. يرى أنفاسك كيف تتردد على غير المعتاد في حياتك حرَّى متسارعة من أجل هذه اللَّيلة المباركة .. يرى الأماني تتصاعد من قلبك حتَّى وإن صَمَتَ لسانك في أوقاتٍ منها، وسكنت جوارحك في بعض أجزائها عن الصلاة .. ثمَّ يضيع عملك وإيمانك!

فاليوم يوم هَيَجَانِ القلوب .. واضطراب أجنحتها كأنَّها أمُّ الفراخ تضرب بأجنحتها خوفًا على فراخها .. إي والله، فإن تصوير حال القلب هذه اللَّيلة يعجز القلم عن الوصف يا ربِّ سبحانك: ارفق بنا .. والطف بحالنا .. ألهمنا رشدنا .. ألهمنا حتَّى ندعوك هذه اللَّيلة بأحب أدعية إليك .. وانفعنا بها في الدنيا والآخرة.

يا رب ! ترى ما حل في صدور عبادك الموحدين لأجل هذه اللَّيلة .. وليس لحالهم من لسان إلَّا أزيز الصدور التي تغلي كالقدور هذه اللَّيلة ..

يا ربِّ! ارحم أمة هذه صدورها .. اعف عن أمة هذا غليانها.

يا ربِّ! هب لهذه الأمة هذه اللَّيلة واجعل ليلة القدر في موازين حسناتها.

يا ربِّ! هذه بيوتك قد امتلأت في اللَّيل بالعابدين يرجون عفوك.. فتفضل عليهم يا ربِّ بما يرجون.

يا ربِّ! ها هم وقفوا في صعيد واحد .. في ليلة واحدة في مشارق الأرض ومغاربها ..

يا ربِّ! لا ينقص من ملكك سبحانك شيء إن وهبتهم كلهم هذه اللَّيلة .. وهبتهم كل ما دعوك به سبحانك .

سبحانك ربَّنا: أَخْرِجِ هذه الأُمَّةَ من صحراء التِّيه الَّتي ضاعت فيها .. أخرجها من ظلمتها التي غَطَّتْها فتاهت فيها .. كيف وهذه اللَّيلة بركة من بركات القرآن .. فأعد هذه الأمة التي قامت هذه اللَّيلة بالقرآن إلى القرآن والسنة .. أَعِدْهَا لِتُقِيمهما شعائر وشرائع .. حُكْمًا وَتَحْكِيمًا ..

يا ربِّ! إنْ كانت لنا من دعوةٍ مُجابَةٍ في هذا الزمان في هذه اللَّيلة المباركة فاجعلها يا ربِّ لأمة حبيبك محمد .. ناشدناك اللَّهُمَّ أُمَّةَ القرآن .. ناشدناك ربَّنا أن تُجدِّد دينها، وتُحْيِيها من جديدٍ كما أخرجتها أَوَّلَ مَرَّةٍ من العدم للنَّاس ..

أيُّها المسلمون، أيُّها المُترَصِّدون ليلة القدر: إنها ليست من السهولة بحيث يدركها كل أحد.. وليس كل من عاش هذه اللَّيلة فمرت عليه ومر عليها أدركها.. فكم بين من رأى النبي ﷺ وآمن به واتبعه وبين من رآه ولم يؤمن به من فارق وكلاهما رآه! لذا كان أمر المصطفى ﷺ عمليًّا جديًّا في غاية الجدية .. ألفاظه تقطر حرصًا .. تنطق سعيًا ... واجتهادًا ... وبحثًا عنها .

ففي لفظٍ يقول فيه النَّبيُّ ﷺ: «تَحَرُّوهَا»، وفي لفظ: «الْتَمِسوهَا»، وفي لفظ: «اطْلُبُوهَا».

فكما يفترق المؤمن عن غير المؤمن بالإيمان، فإن المؤمنين يفترق بعضهم عن بعض بالترصد والالتماس والطلب، وما إلى ذلك فليس الإيمان وحده كافيا إنما السعي والعمل، والجد والاجتهاد لهذه اللَّيلة مع الإيمان .

يا ربِّ! لا أرى لي مقامًا في هذه الأرض أنتظر فيه هذه اللَّيلة أحسن من الجلوس في بيتك .. حبسًا لنفسي في أكرم مكان... ليخالط نفسي في هذه اللَّيلة أجواء بيتك .. فيضمني في جَوَانِحِه.

أليست هذه اللَّيلة أعظم اللَّيالي .. أليست هذه البقعة أحب البقاع إليك ربنا .. أليس الوقع على القلب أعظم باجتماع الظرف الزماني .. والمكاني .. أليس الانحباس في المسجد إنما هو حبس للبصر وحبس للسّمع وحبس للجوارح عن الفضول .. وعن الشواغل التي لا تنفك عن الإنسان .. أليست السلامة للقلب الَّذي أنا أحوج ما أكون اللَّيلة لحضوره .

يا ربِّ! هذا استقبالي لِأَوَّل ليلةٍ من ليالي العشر الأواخر (ليلة الحادي والعشرين) وهو استقبالي ليلة الثَّاني والعشرين والثَّالث والعشرين والرَّابع والعشرين.. إلى آخر الليالي.

يا ربِّ! لا تحرم مَنْ خَطَّ قَلَمُه عن هذه اللَّيلة في هذه الورقات ما خَطَّ .. قبوله وعتقه، وأن تجعلها نصيبه، ونصيب كل من قرأها ..

ونصيب هذه الأمة المباركة في كل عام .. يا ربِّ .. «اللَّهمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنَّا».

صَلاةُ فجرِ ما بَعْدَ لَيلَةِ الْقِيَامِ[1]

بعد ليلة قيام في الحرم المبارك[2] أو في غيره .. دعاء طويل .. وخشوع وخضوع .. وخوف ورجاء.. قل ما تشاء مما عمر هذه اللَّيلة تلك القلوب بالقرآن .. لكن جاء فجرها بعد سحورها، وقد بلغ التعب بنفوسنا مبلغه، فجاءت صلاة الفجر والإرهاق يكاد يطبق العينين رغمًا عن الأنف .. أهم شيء أصبح عندها هو أن ينتهي الإمام من صلاة الفجر حتَّى نفرغ للنوم .

والأصعبُ من كلِّ هذا هو إحساسٌ خفيٌّ بأننا قد قدمنا البارحة ما يكفي وليس علينا في هذا اليوم إلَّا أن نؤدي صلاة الفجر حتَّى لو لم تكن بذاك الخشوع والأُنس!

هنا عجبتُ لخشوعٍ لم يقدر على عُبُور السَّحَر إلى الفجر وليس بينهما فاصلٌ إلَّا الأذان! عجبت لخشوع لم يطل عمره بعد صلاة القيام إلَّا لحظات!

عجبتُ لأنَّه من المعتاد أن تُطَيِّرَ الخشيةُ النومَ لا أن يُطَيِّرَ النومُ الخشيةَ!

أيَّتها النَّفس استيقظي، فليس هذا أوان نومك .. هذه فريضة الله التي هي أثقل ما تكون على المنافقين، فالنبي ﷺ يقول: «**ليس صلاةٌ أثقلَ على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فِيهِما لأَتَوْهما ولو حَبْوًا، ولقد هممتُ أن آمرَ**

---

(١) لليوم الأول في العشر الأواخر .

(٢) إنها حالة تقع للقائمين، وخصوصاً في العشر الأواخر في الحرم وغيره، وقد كتبها المؤلف من واقع ومعاناة؛ لأنها وقعت له فعلاً.

المؤذِّنَ فيقيمَ، ثمَّ آمرَ رجلًا يؤمُّ النَّاسَ، ثمَّ آخُذَ شُعَلًا من نارٍ فأُحرِّقَ على مَنْ لا يخرجُ إلى الصَّلاةِ بعد»[1].

فلتكوني أبعد ما تكونين عن صفات المنافقين الذين وصفهم الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:١٤٢].

أيُّها القلب: فلتكن في هذه الصَّلاة أكثر ما تكون يقظةً! أليست هي صلاة القرآن المشهود! ألم يقل الله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء:٧٨]، وتفسير العلماء بأنه القرآن الَّذي يقرأ في صلاة الفجر .

وأيُّ معنى لمشهودٍ يَدَعُ المرء في هذه اللَّحظات يتخلَّف ببدنِهِ أو يتخلَّف بقلبِهِ عن شهوده.

مشهود: يشهد الله قراءة النَّاس للقرآن في صلاة الفجر خاصة ..

فلك أن ترى كيف تتعامل في لحظات يستمع الرب سبحانه لكلامه يتلى من عبده، ويرى أثره في قلبه الَّذي يخرج منه ، ويشهد سبحانه موضع كلامه في قلوب المصلين المستمعين وتفاعلهم معه وحياتهم به .

فأيُّ فرصةٍ للعبد يظهر فيها حقيقة تعظيمه لكلام ربِّه أكثر من لحظاتٍ أخبر الله أنَّه يشاهد ذلك في عباده .

مشهود: يجعل الله سبحانه جُمُوعًا من الملائكة خاصَّةً تشهدها .. ويجعل شهادة هؤلاء الملائكة مؤداة في هذا اليوم، مقبولة عنده يوم القيامة .

مشهود: تشهد وفود الجنِّ المسلم وغير المسلم، ففي اللحظة التي بين اللَّيل والنهار وهي لحظة مطلع النّهار ومسلخة الليل، وهي اللحظات التي

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧).

يرجع الجنُّ فيها إلى مواضعهم بعدما خرجوا أوّل اللّيل .. فلهذه اللّحظة قيمةٌ خاصَّةٌ عند الجنِّ، أليست هي اللّحظة الّتي كان فيها إسلامُ وُفود الجِنِّ الأولى بعد ما ضربوا الأرض بحثًا عن الخبر الجديد الّذي بسببه أغلقت عليهم أبواب السّموات فوجدوا الخبر في هذه اللحظات .. حين وجدوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن في صلاة الفجر، وما كان هذا موعدًا من رسول الله ﷺ ولا من الجن .. إنما هو سوق الله سبحانه لمن أراد لهم الهداية مطلع اليوم الجديد .

وكان الأمر كما أراد الله سبحانه ولا راد لإرادته سبحانه ..

فاستمع ماذا صنع كلام الله سبحانه في هذه اللحظات: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢].

كل هذا الفتح العظيم كان بقرآن الفجر المشهود .

قال ابن حجر رحمه الله في تفسير قول المصطفى ﷺ: «**فإنِ استطعتم ألّا تُغْلَبُوا عن الصلاة**»، قال ابنُ بَطَّالٍ: قال المُهَلَّبُ: أي في الجماعة، قال: وخص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيهما، ورفعهم أعمال العباد، ولئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم).

قال ابن حجر رحمه الله في الملائكة الذين «**يتعاقبون بالليل والنهار**»:

(قيل: هم الحفظة، نقله عياض وغيره عن الجمهور ... وقال القرطبي:

الأظهر عندي أنهم غيرهم، ويقويه أنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد، ولا أن حفظة اللَّيل غير حفظة النهار، وبأنهم لو كان لهم حفظة لم يقع الاكتفاء في السؤال عن حال الترك دون غيرها في قوله: «**كيف تركتم عبادي**»؟

قال عياض: والحكمة في اجتماعهم في هاتين الصلاتين من لطف الله تعالى بعباده وإكرامه لهم بأن جعل اجتماع ملائكته في حال طاعة عباده لتكون شهادتهم لهم بأحسن شهادة[1].

أقول: ولا شكَّ أنَّ صلاة الفجر لها مَزيد خُصوصية بالشُّهود المخصوص الَّذي فسره ابن عبَّاس وغيره للجهر بالقرآن في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال ابن عبَّاس: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يعني: صلاة الصبح، قال ابن كثير: «**وقرآن الفجرِ: يعني صلاة الفجر**»[2].

أقول -والله أعلم: لما كانت الصلاة هي الصلة بين العبد وربه وهي اللقاء مع الله تعالى في هذه الدنيا، ولم يكن ثمة مجال أكبر منها لقاء بالقرآن وقربًا بالسجود، وكانت صلاة الفجر وصلاة العصر هما أفضل الصلوات وكل الصلوات فاضلة، لم يكن جزاء لهذا اللقاء في الأرض إلَّا اللقاء بالله في الآخرة .. ولما كان لقاء الله في الآخرة بغير النظر عقابا؛ لأنه حجاب، كانت أكثر الرؤية هي الجزاء، وهي الحكمة والفضل وهي النعمة، وكان أحق النَّاس بذلك هم أهل هاتين الصلاتين، مع مزيد الفجر على العصر خاصة بحديث: «**بشِّر المشَّائين في الظُّلَمِ بالنُّور التَّام الدَّائم يوم القيامة**».

هما «**البردان**»، وكلُّ واحدة تميَّزت بمزايا من جهة واشتركا بأمورٍ وقد

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٣٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٠٢).

جمعهما النَّبي ﷺ بهذا الوصف «**البردين**»، وأضاف لهما الجزاء الشرعي فقال: «**من صلَّى البَرْدَينِ دخلَ الجنَّةَ**».

قال ابن حجر ﵀: قال الخطابي: سميتا بردين؛ لأنهما في بردي النّهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سورة الحر، ونقل عن أبي عبيد أن صلاة المغرب تدخل في ذلك أيضًا[1].

رتل واستمع .. أحسن إذا قرأت غاية الإحسان، فما استمع الله لشيء استماعه لمن حسن صوته بالقرآن كما قال النبي ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ بالقرآنِ يجهرُ به**»[2].

اقرأ أحسن ما عندك، فربك يشهد قراءتك .. فكم تستطيع أن تحسنها لاستماع الله وشهادته؟ كيف وفي الحديث أن النبي قال: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيتَ مزمارًا من مزاميرِ آلِ داودَ**»[3]. ومَنْ يقرأ بصوتِهِ بالنِّسبة لشهادة الله كَمَنْ يستمع بقلبِهِ، فالكلُّ سواء؛ الأثر والمؤثِّر، السَّبب والنَّتيجة.

فأيُّ بركةٍ تنزل لشهادة الله؟ وأيُّ ملائكةٍ تحضر وتشهد؟ وأيُّ جنٍّ يُساقون؟ وأيُّ هدايةٍ تحصل؟

يا نفس: إيَّاك أن تعتذري بإرهاق القيام .. نعم ربما يكون: الإرهاق ليوم أو يومين .. ربما يغلب صاحبه مرة أو مرتين .. أما أن يقتل فجر رمضان المبارك .. فهذا ما لا يرضاه التقي.

---

(١) انظر: فتح الباري (٢/ ٥٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٤٤)، ومسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) رواه مسلم (٧٩٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﵁.

إن كان الاعتذار بالإرهاق مقبولا عندك فإن أكثر المصلين الفجر معك متعبون من قيام البارحة .. فما لهذه المرأة وتلك تأتي نشيطة كأنها ما قامت البارحة .. بل كأن قيام البارحة أعطاها طاقة هائلة لمرحلة طويلة بينما أنت قد أضناك التعب! وما للسبَّاق الآخر عود نفسه ابتداء من رمضان على الجلوس حتَّى الشروق وصلاة ركعتين، ثُمَّ الانصراف رغبة في إضافة عمرة وحجة في سجله كل يوم من أيام رمضان على الأقل، وهو في مقامه وبين أهله، فلقد قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صلَّى الغداة في جماعةٍ، ثمَّ قعد يذكر الله حتَّى تطلعَ الشَّمسُ ثمَّ صلَّى ركعتين كانت له كأجر حَجَّةٍ وعُمْرةٍ تامَّةٍ تَامَّةٍ»**[1]؟

ما للحفظة يشهدون أنَّهم ما وُفِّقوا للحفظ في وقت مثل وقت بعد صلاة الفجر، وما للمخترعين المسلمين ما اكتشفوا في وقت مثل هذا الوقت؟!

وما للمؤلفين ما سيقت لهم الأفكار سوقًا من بكور أخدارها مثل ما سيقت لهم في هذه اللحظات؟

ما للذَّاكرين قد وجدوا لَذَّةً للذِّكر تَفُوح من أعماقهم كما تفوح الرَّائحة من قلوب الأزهار وهي تتفتَّح عند الفجر؟

اجعل لهذه اللحظات كيانها الخاص المخصوص .. لا تدخل على هذه اللحظات متاعب غيرها .

أَحْسِنْ الاستعدادَ لها .. أحسن لها وضوءها، وبالغ في المضمضة والاستنشاق والاستنثار خاصة؛ فلذلك بعث وتجديد للطاقة .. وبالغ في التسوك، ولا تحضرها مُتكاسلًا، مُتثاقلًا، مُتأخِّرًا .. قم لها قيام من ينفر أشد النفرة من أن

(١) رواه الترمذي (٥٨٦)، وحسنه الألباني.

يصيبه وصف من قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء:١٤٢]، قُم لها قيام من يريد لقاء خاصًا، بل أعظم لقاء .. لقاء يشهدك الله فيه سبحانه .. وليكن أول الحاضرين قلبك .. وليكن متهيبًا خاشعا - خائفا راجيا ... محبًا متشوقًا .

أَرِ اللهَ في قلبكَ محبتَه... مَحبَّة كلامه.. تعظيم كلماته وأنت تتلقاها.. أَرِ الله قشعريرةَ جلدِكَ تعظيمًا لكلماته.

اجعل هذه اللحظات والقعدة حتَّى الشُّروق حتمًا لازمًا في حياتك في مجلس صلاة فجرك المشهودة ..

إنها غربة هذه السنة التي كان النبي ﷺ يحافظ عليها، فعن جابر بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه أنه قال: كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتَّى تطلع الشمس حَسْناء[1]. ويكفيك أن تجد جوابًا على سؤالك هذا بأن تنظر فيمن يقعد بعد صلاة الفجر في مسجده بالنسبة للحاضرين للصلاة.. إنهم قلة!

فشمِّر لهذا الأجر، خذه وانطلق به إلى رَحْلك، وارجع به كلِّ يومٍ إلى بيتك .. أرأيت كيف يكونُ رمضان مُنْطَلَقًا؟

أرأيتَ كيف عمَّت: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ إلى كل فجر بل كل الحياة؟

أرأيتَ كيف جَعَلَتِ التَّقوى القَائمَ يراقبُ ربَّه في صلاة فجرِهِ كَمَا رَاقبه في قِيامِهِ؟

إنَّ طريق العودة يبتدئُ منَ الفجرِ .

---

(١) رواه مسلم (٦٧٠).

دُرَرُ الاعتكَافِ مِنَ «الْفَتْحِ»(١)

هذه بعض أحكام الاعتكاف، لم أتناولها من كتب الفقه ولا بطريقة الفقهاء - وأنعم بهم - .. تحاشيًا للإطالة واعترافًا مباشرًا من المعين بدلو أهله لا بدلوي أنا، وهل لي أنا من دلو؟!

ولتوافق منهجيتنا العلمية التربوية الميدانية منهجية الرواية من السنة، حيث تروى الحادثة .. يرويها إمام المحدثين البخاري رحمه الله ، ويبينها إمام الشُّرَّاح وخاتمة الحفاظ ابن حجر رحمه الله..

ومع هذا فقد انتقيتُ أغلى الفوائدِ وأكثرَها التصاقًا بحياة المعتكفين في معتكفهم، مسهلا الأمر بعنونة كل معلومةٍ مهمةٍ بعنوان: **«فائدة»**..

روى الإمام البخاريُّ رحمه الله في «صحيحه»: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر سأل النبي ﷺ قال: كُنْتُ نذرْتُ فِي الْجاهِلِيَّةِ أنْ أَعْتكِف ليْلةً فِي المسْجِدِ الْحرامِ، قال: **«فَأَوْفِ بنذْرِكَ»**(٢).

فائدة: معنى «المباشرة» في الآية ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾: قال ابن حجر رحمه الله: (ونقل ابن المنذر الإجماع على أن المراد بالمباشرة في الآية: الجماع، وروى الطبري وغيره من طريق قتادة في سبب نزول الآية: كانوا إذا اعتكف فخرج رجل لحاجته فلقي امرأته جَامَعَها أَنّى شَاءَ، فَنَزَلَتْ.

(١) قبيل دخول العشر الأخير.

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٢٠٣٢)، ومسلم (١٦٥٦).

موضع اعتكاف المرأة: واتفق العلماء على مشروطية المسجد للاعتكاف إلَّا محمد بن عمر بن لبابة المالكي، فأجازه في كل مكان، وأجاز الحنفية للمرأة أن تعتكف في مسجد بيتها وهو المكان المعدُّ للصلاة فيه، وفيه قول للشافعي قديم، وفي وجه لأصحابه وللمالكية يجوز للرجال والنساء؛ لأن التطوع في البيوت أفضل.

قال الإمام البخاري ﷺ: (باب اعتكاف النساء): وروى فيه حديث عائشة ﷺ قالت: كان النَّبِيُّ ﷺ يعتكِفُ فِي العشرِ الأواخِرِ مِن رمضان، فكُنتُ أضرِبُ لهُ خِباءً فيُصلِّي الصُّبح ثُمَّ يدخُلُهُ، فاستأذنت حفصةُ عائِشة أن تضرِب خِباءً، فأذِنت لها، فضربت خِباءً، فلما رأتهُ زينبُ ابنةُ جحشٍ ضربت خِباءً آخر، فلمّا أصبح النَّبِيُّ ﷺ رأى الأخبِية، فقال: «ما هذا؟» فأُخبِر، فقال النبيُّ ﷺ: «آلبِرّ تُردن بِهِنَّ» فترك الاعتكاف ذلك الشهر، ثمَّ اعتكف عشرا من شوال.

قال ابن حجر ﷺ: (وقد أطلق الشافعي كراهته لهن في المسجد الَّذي تصلى فيه الجماعة، واحتج بحديث الباب فإنه دال على كراهة الاعتكاف للمرأة إلَّا في مسجد بيتها؛ لأنها تتعرض لكثرة من يراها، وقال ابن عبد البر: لولا أن ابن عيينة زاد في الحديث - أي حديث الباب- أنهن استأذنَّ النبي ﷺ في الاعتكاف لقطعت بأنّ اعتكاف المرأة في مسجد الجماعة غير جائز. انتهى. وشرط الحنفية لصحة اعتكاف المرأة أن تكون في مسجد بيتها، وفي رواية لهم: أن لها الاعتكاف في المسجد مع زوجها، وبه قال أحمد [(١)].

وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى اختصاصه بالمساجد التي تقام فيها الصلوات،

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٥).

وخصه أبو يوسف بالواجب منه، وأما النفل ففي كل مسجد. وقال الجمهور بعمومه من كل مسجد إلَّا لمن تلزمه الجمعة ، فاستحب له الشافعي في الجامع، وشرطه مالك؛ لأن الاعتكاف عندهما ينقطع بالجمعة، ويجب بالشروع عند مالك، وخصه طائفة من السلف كالزهري بالجامع مطلقًا، وأومأ إليه الشافعي في القديم، وخصه حذيفة بن اليمان بالمساجد الثلاثة، وعطاء بمسجد مكة والمدينة، وابن المسيب بمسجد المدينة[1].

فائدة: لم ترك النبي ﷺ الاعتكاف؟! قال ابن حجر رحمه الله (وكأنه خشي أن يكون الحامل لهن على ذلك المباهاة والتنافس الناشئ عن الغيرة حرصًا على القرب منه خاصة، فيخرج الاعتكاف عن موضوعه، أو لما أذن لعائشة وحفصة أولًا، كان ذلك خفيفًا.

بالنسبة إلى ما يفضي إليه الأمر من توارد بقية النسوة على ذلك، فيضيق المسجد على المصلين أو بالنسبة إلى أن اجتماع النسوة عنده يصيره كالجالس في بيته، وربما شغلنه عن التخلي لما قصد من العبادة، فيفوت مقصود الاعتكاف)[2].

فائدة: أقل الاعتكاف:

قال ابن حجر رحمه الله: (واتفقوا على أنه لا حد لأكثره، واختلفوا في أقله، فمن شرط فيه الصِّيام قال: أقله يوم، ومنهم من قال: يصح مع شرط الصِّيام في دون اليوم، حكاه ابن قدامة، وعن مالك يشترط عشرة أيام، وعنه: يوم أو يومان، ومن لم يشترط الصوم قالوا: أقله ما يطلق عليه اسم لبث، ولا يشترط القعود، وقيل:

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٢).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٦).

يكفي المرور مع النية كوقوف عرفة، وروى عبد الرزاق عن يعلى بن أمية الصحابي: إني لأمكث في المسجد السَّاعة وما أمكث إلَّا لأعتكف[١].

فائدة مكان اعتكافه:

قال ابن حجر رحمه الله: (قال نافع: وقد أراني عبد الله بن عمر المكان الَّذي كان رسول الله ﷺ يعتكف فيه من المسجد، وزاد ابن ماجه من وجه آخر عن نافع أن ابن عمر كان إذا اعتكف طرح له فراشه وراء أسطوانة التّوبة[٢].

فائدة: قول مالك في الاعتكاف:

قال ابن حجر رحمه الله: (وأما قولُ ابن نافعٍ عن مالك: فكرت في الاعتكاف وترك الصحابة له مع شدة اتباعهم للأثر فوقع في نفسي أنه كالوصال، وأراهم تركوه لشدته، ولم يبلغني عن أحد من السلف أنه اعتكف إلَّا عن أبي بكر بن عبد الرحمن. اهـ. وكأنه أراد صفةً مخصوصة وإلا فقد حكيناه عن غير واحد من الصحابة، ومن كلام مالك أخذ بعض أصحابه أن الاعتكاف جائز، وأنكر ذلك عليهم ابن العربي وقال: إنه سنة مؤكدة، وكذا قال ابن بطال في مواظبة النبي ﷺ ما يدل على تأكده، وقال أبو داود عن أحمد: لا أعلم عن أحد من العلماء خلافًا أنه مسنون)[٣].

فائدة الصوم مع الاعتكاف:

قال ابن حجر رحمه الله: (واحتج بعض المالكية بأن الله تعالى ذكر الاعتكاف إثر الصوم، فقال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ﴾

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٢).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٢).

(٣) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٢).

[البقرة:١٨٧] وتعقب بأنه ليس فيها ما يدل على تلازمها وإلا لكان لا صوم إلَّا باعتكاف ولا قائل به)[١].

فائدة: معنى صبيحتها:

قال الإمام البخاري رحمه الله: (باب الاعتكاف وخروج النبي ﷺ صبيحة عشرين):

وكأنه أراد بالترجمة تأويل ما وقع في حديث مالك من قوله: «**فلما كانت ليلة إحدى وعشرين، وهي اللَّيلة التي يخرج من اعتكافه صبيحتها**»، وقد تقدم توجيه ذلك، وأن المراد بقوله: «**صبيحتها**»: الصبيحة التي قبلها، قال ابن بطال: هو مثل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦] فأضاف الضحى إلى العشية وهو قبلها، وكل شيء متصل بشيء فهو مضاف إليه، سواء كان قبله أو بعده)[٢].

فائدة: هل يعتكف ليالي العشر فحسب .. وكيف؟

قال الإمام البخاري رحمه الله: (باب من خرج من اعتكافه عند الصبح):

عن أبي سعيد قال: اعتكفنا مع رسول الله العشر الأواسط، فلما كان صبيحة عشرين نقلنا متاعنا، فأتانا رسول الله ﷺ قال: «**من كان اعتكف فليرجِع إلى مُعتكفِهِ، فإنِّي رأيتُ هذِهِ اللَّيلة ورأيتُني أسجُدُ في مَاءٍ وَطِينٍ**»، فلمَّا رجع إلى مُعتكفِهِ وهاجت السَّماءُ فمُطِرنا، فوالَّذِي بعثهُ بِالحقِّ، لَقَدْ هاجت السَّماءُ مِن آخِرِ ذلِك اليومِ، وكان المسجدُ عرِيشًا، فلقد رأيتُ على أنفِهِ وأرنبتِهِ أثر الماءِ والطِّينِ.

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٧٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٨١).

فائدة: كيفية اعتكاف الليالي والأيام أو الأيام والليالي:

قال ابن حجر رحمه الله موضحًا الحديث: (وهو محمولٌ على أنه أراد اعتكاف الليالي دون الأيام، وسبيل من أراد ذلك أن يدخل قبيل غروب الشمس ويخرج بعد طلوع الفجر، فإن أراد اعتكاف الأيام خاصة فيدخل مع طلوع الفجر ويخرج بعد غروب الشمس، فإن أراد اعتكاف الأيام والليالي معًا فيدخل قبل غروب الشمس ويخرج بعد غروب الشمس أيضًا، وقد وقع في حديث الباب «**فلمَّا كان صبيحة عشرين نقلنا متاعنا**»، وهو مشعرٌ بأَنَّهم اعتكفوا اللَّيالي دون الأيَّام وحمله المهلب على نقل أثقالهم، وما يحتاجون إليه من آلة الأكل والشرب والنوم؛ إذ لا حاجة لهم بها في ذلك اليوم، فإذا كان المساء خرجوا خفافًا، ولذلك قال: «**نقلنا متاعنا**»، ولم يقل: «**خرجنا**»، وقد تقدم في باب تحري ليلة القدر من وجه آخر، فإذا كان حين يمسي من عشرين ليلة، ويستقبل إحدى وعشرين رجع؛ ولذلك يجمع بين الطريقين، فإن القصة واحدة، والحديث واحد، وهو حديث أبي سعيد)[١].

فائدة: لم اعتكف النبي ﷺ عشرين؟

قال الإمام البخاري رحمه الله: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْتَكِفُ فِي كُلِّ رَمَضَانَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعْتَكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا.**

قال ابن حجر رحمه الله: قيل: السبب في ذلك أنه علم بانقضاء أجله، فأراد أن يستكثر من أعمال الخير ليبين لأمته الاجتهاد في العمل إذا بلغوا أقصى العمل ليلقوا الله على خير أحوالهم، وقيل: السبب فيه أن جبريل عليه السلام كان يعارضه بالقرآن في كل رمضان مرة، فلما كان العام الَّذي قبض فيه عارضه به مرتين؛ فلذلك اعتكف

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٨٣).

قدر ما كان يعتكف مرتين، ويؤيده أن عند ابن ماجه عن هناد، عن أبي بكر بن عياش في آخر حديث الباب متصلا به، وكان يعرض عليه القرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الَّذي قبض فيه عرضه عليه مرتين.

وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون سبب ذلك أنه لما ترك الاعتكاف في العشر الأخير بسبب ما وقع من أزواجه، واعتكف بدله عشرًا من شوال، اعتكف في العام الَّذي يليه عشرين ليتحقق قضاء العشر في رمضان. اهـ. وأقوى من ذلك أنه إنما اعتكف في العام عشرين؛ لأنه كان العام الَّذي قبله مسافرًا، ويدل لذلك ما أخرجه النسائي واللفظ له، وأبو داود، وصححه ابن حبان وغيره من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان فسافر عامًا فلم يعتكف، فلما كان العام المقبل اعتكف عشرين، ويحتمل تعدد هذه القصة بتعدد السبب فيكون مرة بسبب ترك الاعتكاف لعذر السفر، ومرة بسبب عرض القرآن مرتين، وأما مطابقة الحديث للترجمة فإن الظاهر بإطلاق العشرين أنها متوالية ، فيتعين لذلك العشر الأوسط، أو أنه حمل المطلق في هذه الرواية على المقيد في الروايات الأخرى)[1].

أقول: وأيًا كان سبب اعتكافه عشرين يومًا فإن ذلك مزيد تقرب إلى ربه، لمزيد اقتراب لقاء ربه، هذه هي الحقيقة، هكذا إذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه، أنسب هذا لهذا؟!

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٨٥).

صِنَاعَةُ النَّفْسِ وَالأُمَّةِ فِي المُعْتَكَفِ

إنَّك حين تنظر إلى الاعتكاف فسوفَ ترى أنه عبادة قاصرةٌ على النَّفس، وهو اعتزال أو شبه اعتزال عن النَّاس .. فكيف يمكن أن تقدمه على غيره من العبادات المتعدية؟! لكنك ترى في نفس الوقت أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد اعتكَف العشرَ وعَزَم على اعتكَافِ العشرينَ .. وقد اعتكَفَ في آخرِ عامٍ عشرين، فكيفَ تُفسِّر هذا؟ وأنَّى لمن تعَوَّد على العبادات المتعدية للناس أن يقارن بين العبادات المتعدية والعبادات القاصرة، فأين العبادات القاصرة من العبادات المتعدية؟!

إنَّ هذه الَّتي تسمِّيها العبادة القاصرة إنَّما هي القاعدة الأساس لكل أعمال المؤمن المتعدية، وبغيرها تكون انطلاقات بغير قاعدة .

هذه العبادة القاصرة هي التي تربي النفس وتغذي القلب وتنيره، فيأمر الجوارح فتنطلق عاملة بمقدار ما غذاها القلب من طاقة وقوة .. فإن لم تكن في القلب طاقة ولا قوة كانت انطلاقة الجوارح آلية لا روح فيها، أو سريعة التوقف لا ديمومة لها، وربما كانت انطلاقة بغير نِيَّةٍ صحيحةٍ.

لذا كان الالتفات عن العبادة القاصرة التفاتًا عن وقود القلب وهو قاعدة الانطلاق، ومخزون الطاقة، وروح الانبعاث، وإن من قلة العقل أن ينشغل صاحب المركبة بالإطارات ومَسَّاحات الزُّجاج وتلميع المظهر عن وقود المُحرِّك وكهرباء السَّيَّارة .

وثَمَّة أمرٌ مُهمٌّ بل غاية الأهمِّيَّة: هو أنَّ العبادة عبادتان، عبادة بذاتها، وعبادة بِنيَّتها، أو عبادة أصليَّةٌ وعبادةٌ بالنِّيَّة، فالصلاة عبادةٌ بذاتها قد شرعت في أصلها عبادة، وكذا الاعتكاف والطواف والحج والعمرة والصوم وما إلى ذلك، وأما الأعمال التي لا تكون عبادة إلَّا كالشَّفاعة للمحتاج والنُّصرة وعموم الأعمال المتعدِّية الأخرى .. وهنا يكمن السِّرُّ الفارق ما بين الاثنين، فإنَّ في العبادة الَّتي تُسمَّى قاصرةً مباشرةَ اللِّقاء بالله والاتصال بالله، أمَّا العبادات المتعدية فإننا نعملها نرجو أثرها وأجرها دون أن يكون فيها اتصال بالله مباشرة .. اللهم إلَّا أحاسيس إيمانية يستجلبها صاحبها محاولا استحضارها عند العمل.. وكم هو فارق بين أن يكون العمل قد وجد في أصله للاتصال بالله وبين أن يكون العمل في أصله للبشر ولنفعهم رجاء رِضوان الله وثَوَابِهِ؟

وفوقَ هذا فإنَّ اللذَّة الَّتي تجدُها الرُّوح في العبادة القاصرة، ولا أقصد بالقاصرة: القاصرة النفع على النفس فحسب، وإنما أقصد بالقَاصِرَةِ: عبادة الخلوة، القاصرة بينه وبين الله، فلا أحد يدخل فيها بينه وبين ربه سبحانه، فهي محبوسةٌ موقوفةٌ مخصَّصةٌ على نفسه مع ربِّه سبحانه .. إنَّ للرُّوح مع العبادة لذة لا يمكن أن توصف، وخلوة أحلى من كل جمعة، وانفرادا آنس من كلِّ أُنْسٍ، ولها أثرٌ في القلب لا مثيلَ له.

إن الأصل في المسلم أن يكون متيمًا بعمل الحسنات المتعدية النفع، الواسعة الانتشار، الباقية الأثر، العميقة الجذر .. لكن لحظة اتصال مباشر بالله .. لحظة جمعية القلب على ربه سبحانه دون سواه هي الزاد اليومي لسنواته المديدة وآخرته السعيدة، هي مبعث نيته وقوته، وتحمله وصبره ومواصلته، ويقينه وثقته ووثبته.

إن « **مدَّ العين**» ينمو بالخلطَةِ مع الخَلقِ، ويتنامى أكثر وأكثر بتناقص الخلوة وتزايد الخلطة .. وهذا التزايد لـ «**مد العين**» يستدعي إخراج المزيد من خبيئات الصَّالحات الَّتي لم تعرف عنها شماله شيئًا.. ولم تعرف عنها زوجه وولده فضلا عن صحبه شيئًا . ولسان حاله حين عَمِلها يقولُ: اذهبي إلى عالم النِّسيان، فلن يَفكَّ ختمك إلَّا الله عالم الغيب والشَّهادة في يوم تحصيل ما في الصدور ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]، ها هو اليوم يبتدئ بإخراجها فضولا، وسوف تتحول بعد فترة رياء وتسميعًا .

ولن يكون «**مدُّ العين**» إلى متاع الحياة الدنيا إلَّا بمدِّ القلب، بل إلَّا بأمر القلب، ومن ثمَّ فالله سبحانه نهى عن مد العين مدًّا كاملا، لكنه سبحانه أمر بغض بعض البصر ، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠]، بينما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [طه:١٣١]، وما قال: (لا تمدن من عينيك).

قال ابن القيم رحمه الله: لمَّا كان صلاحُ القلبِ واستقامتُه على طريق سَيْره إلى الله تعالى، متوقفًا على جمعيته على الله، ولَمِّ شَعَثِه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلمه إلَّا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام، مما يزيده شعثًا، ويُشَتِّتُهُ في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه، أو يعوقه ويوقفه، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصَّوم ما يُذهِبُ فضول الطَّعام والشَّراب، ويستفرغُ من القلب أخلاط الشَّهواتِ المعوِّقة له عن سيره إلى الله تعالى، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم

الاعتكاف الَّذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتَّفكُّر في تحصيل مراضيه وما يُقرِّب منه، فيصير أُنسه بالله بدلا عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرحُ به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم (١).

مَنْ مِنَ الخَلْق كانت حياته لله وحده كرسولِ الله ﷺ، وذلك في كل المجالات بأكملها وبتفاصيلها؟! ومع هذا فقد كان إذا حزبه أمر من أمور الحياة هُرِع إلى هذه الصلاة .. مع أنه كان يقدر أن يذكر الله في أي مكان كان، وكان يقدر أن يتوجه إلى ربه بدعاء مجاب وهو المجاب الدعاء، إلَّا أنه كان يفعل ذلك من خلال اللقاء المباشر -من خلال الصلاة- ففي الصلاة الراحة، وفي الصلاة الطاقة، وفي الصلاة المواصلة؛ لأن في الصلاة المباشرة مع الله سبحانه .

أليست حياة النَّبيِّ ﷺ مع أهله عبادةٌ بكلِّ ما فيها؟ إي والله، إنها لكذلك، لكنَّ مباشرة العبادة مع الله شيء آخر .. لذا كان الاعتكاف له وكانت الصَّلاة قرَّة عينٍ.

أنت في العبادة القاصرة لا تتكلف النية لتضعها على العمل ليتحول إلى عبادة إنما هذه في أصلها عبادة وفي أصلها النية، بخلاف النوم، والحديث مع الأهل فلا يكون عبادة إلَّا بالنية، ولا عدوان لهذه العبادة القاصرة على هذه الأعمال

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٨٧).

الحياتية، بل هذه تنبع من هذه، وتأخذ عبادتها منها، وتصنع نيتها فيها، وما كل أعمال الحياة الأخرى وتعبُّداتها إلَّا مِنْ أثرها وقُوَّتها ونُورها .

لقد روى ابن حِبَّان في «صحيحه» عن عطاء قال: دخلتُ أنا وعبيد بن عميرٍ على عائشة فقالت لعبيد بن عميرٍ: قد آنَ لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أُمَّهُ كما قال الأوَّل: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قال: فقالت: دعونا من رَطَانَتِكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيتِهِ من رسول الله ﷺ قال: فسكتت، ثمَّ قالت: لمَّا كان ليلةً من اللَّيالي قال: **«يا عائشةُ، ذريني أتعبَّد اللَّيلة لربِّي»**، قلت: والله، إني لأحبُّ قربك وأحبُّ ما سَرَّكَ، قالت: فقام فتطهَّر، ثمَّ قام يصلِّي، قالت: فلم يزل يبكي حتَّى بَلَّ حجره، قالت: ثمَّ بكى فلم يزل يبكي حتَّى بَلَّ لحيته، قالت: ثمَّ بكى فلم يزل يبكي حتَّى بَلَّ الأرض، فجاء بلالٌ يُؤْذِنُهُ بالصَّلاة، فلمَّا رآه يبكي قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم وما تأخَّر؟ قال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلتْ عليَّ اللَّيلة آيةٌ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾** [آل عمران: ١٩٠]».

فالأعمال الخيرية موجودة حتَّى عند الكافرين، والصبر على المصائب والاحتساب لأجل المبادئ موجود عند أصحاب المبادئ الأخرى، وهكذا التضحية والفداء والبذل والحنو والتواضع وما إلى ذلك من أخلاق .. لكن نية كل هذه الأعمال وغيرها من أعمال البر تتولد من قوة العبادة الأصلية .. فإن قوة الإيمان المستقر في القلب لابد أن يظهر أثره وزينته كما قال المصطفى ﷺ:

«اللَّهمَّ زَيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ، واجعلنا هداةً مهتدين»[1].

غذاء هذا الإيمان في أصل القلب بهذه العبادة الأصلية من صلاة وصيام واعتكاف وقراءة قرآن وذكر لله، وما إلى ذلك مما نسميه العبادة القاصرة.

وبقدر ما يكون الموقف عصيبًا بقدر ما يحتاج صاحبه إلى زاد إيماني يناسبه ويزيد عليه؛ ولذا لما كانت أصعب المصاعب أمام الداعية أن يوضع في مواجهة من يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] كان أنسب إعداد له أن يلاقي الرب الأعلى سبحانه ويكلمه ربه كلامًا مباشرًا .. فأصبح من الإيمان بحيث يقول لفرعون بكل ثقة: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٩]، ويقول له مرة: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، ويقول له بكل صراحة: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه:٤٧]، ويقول له بكل قوة: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢]، ويقول له عن الله سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨]، ويقول لأئمة السحر بكل شجاعة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، ويقول لبني إسرائيل بكل توكل: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، وعلى إثر موسى يسير المؤمنون على قدر معرفتهم بربهم الأعلى سبحانه.

إن هذا اللقاء المباشر بالله بما نسميه العبادة القاصرة يمنح العبد الطاقة ما لا يمكن للبشر أن يصفها، بل ولا يمكن لصاحبه أن يحددها.

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني (١٣٠٥).

تأمل .. تعمق .. تذكر جيدًا لحظة إيمان شعرت فيها بالقرب حتَّى كأنك ترى الله سبحانه -جل في علاه- وأنت في صلاتك مثلا، تذكر أكنت تذكر شيئًا سوى الله .. أكنت تعظم شيئًا أو تخشى شيئًا أو ترجو شيئًا سواه سبحانه؟ !

هذا وأنت في صلاتك .. فكيف بموسى عليه السلام وهو يستمع لربه يكلمه؟! أي طاقة له على الثبات والامتناع عن طلب المزيد من القرب والاقتصار على مقام التكليم والتوقف عند حده؟! لم يكن أمامه إلَّا طلب ما وراء الكلام، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وكم في صلواتنا هذه من معاني موقف موسى مع ربه سبحانه؟

تأمل معي موقفه خطوة خطوة وقابلها بصلاتنا هذه خطوة خطوة، ثمَّ قرر .. أليس موسى عليه السلام هو الَّذي جاء مع أهله، ثمَّ فارق أهله وهم أحوج ما يكونون إليه .. وحدة ووحشة وظلمة؟ أليس المسلم يفارق أهله وولده ويهرع للقاء ربه في صلاته كأنه لا يعرفهم ولا يعرفونه، والأصل أن يفارقهم خارجًا من بيته إلى بيت ربه سبحانه؟

ألم يقل موسى لأهله حين خرج من عندهم أنه إنما يريد بهذا المسير النور والدفء، فقال لأهله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه:١٠]، أوليس المسلم بخروجه من بيته يقول: «**اللهم اجعل في قلبي نُورًا، وفي بصري نُورًا، وفي سمعي نُورًا، وعن يميني نُورًا، وعن يساري نُورًا،**

وفوقي نُورًا، وتحتي نُورًا، وأمامي نُورًا، وخلفي نُورًا، واجعل لي نورا»[1]؟

ألـم يقل الله تعالى لموسى : ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ [طه:١٢]، أليس خلعُ النعلين لغسل الرجلين أو ما ينوب عن غسلهما شرطًا لصحة الوضوء عند المسلم قبل لقاء الله بالصلاة .

ألـم يقل الله سبحانه لموسى: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[طه:١٢]، أليس طهارة موضع الصلاة شرطًا في صحتها، بل أليس المسجدُ الَّذي نصلي فيه أقدس البقاع على الأرض؟

ألم يشرع الله سبحانه لصلاة المسلم طهارة الثوب والبدن والنعل، ألم يسمع الله كلامه لموسى ؟ وهل الصلاة إلَّا تلاوة كلام الله سبحانه؟

ألم يطلب موسى من ربه سبحانه – بعدما كلمه – رؤيته، فقال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟ ألـم يجعل النبي ﷺ الصلاة طريقًا لرؤية الله سبحانه، فعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ قال: كنا عند النبي ﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: **«إنكم سَتَرَونَ رَبَّكم كَمَا تَرونَ هذا لا تُضَامُونَ في رؤيتِهِ، فإن استطعتم ألَّا تُغْلَبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ غروبِها فافعلوا»**[2].

ألم يطلب موسى من ربه رؤيته بعدما كلمه؟ أليس المسلم بعدما يسمع كلام الله سبحانه واقفًا يتقرب منه أكثر فأكثر، حتَّى يكون في سجوده أقرب ما يكون؟ ألم يبتدئ لقاء موسى بتعريف الله سبحانه نفسه العلية لعبده موسى عليه السلام، ثمَّ طلب موسى لأخيه الرسالة؟! أليس يبتدئ مع الله بالقرآن والذكر، ثمَّ يأتي وقت

(١) رواه مسلم (١٣٥٣) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦٣٣).

الطلب الأفضل في السجود، حيث يقول المصطفى ﷺ: **«أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»**[1].

وسبحان الله! كيف جاءت حكمة الله سبحانه أن يفرض الصلاة على رسوله ﷺ وعلى أمته في المعراج في مقام لا نعرف له وصفًا سوى القدسية والسمو والعظمة، وسبحان الله! كيف عاد النبي ﷺ من مقامه ذاك بفرضية الصلاة وكان له من بين الأنبياء جميعًا في السَّماء السادسة يراجعه في موضوع الصلاة ويأمره بمراجعة ربه سبحانه وذلك في موضوع الصلاة خاصة من بين المواضيع التي عرضت على النبي ﷺ ، وهي كثيرة، والأمر في هذا يطول، فما أغلى الركعات الخاشعات في تغذية الصدقات الجاريات والأعمال المتعديات .

ما أغلى صلاة اللَّيل لصاحب المهام الكبرى في النّهار، إنها كالريح التي تحرك الأمواج، فحين تتابع يتحرك لها البحر كله تأمل تقرير الله سبحانه عن أهل الجنة.. وكيف ابتدأ بذكر قيام الليل، ثمَّ جاء بعده الاستغفار، وتتابعت بعده الصالحات ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات:١٧-١٩].

ما أغلى قوة العلاقة مع الله لمن يتعرض لقوة المصادمة في دينه ودنياه، ما أغلى عبادة الخلوة المباشرة مع الله لمن يتعرض لفتنة الشهرة والجماهير وما إلى ذلك؟!

انظر في عبادة الصديق ورِقَّته في قيامه وكثرة بكائه في صلواته ... في خلوته ... تعرف بكاءه في خلوته كما أخبرت بذلك ابنتُهُ عائشة رضي الله عنها.

---

(١) رواه مسلم (٣١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

انظر لقيام عمر الفاروق في لَيْله .. انظر لعبادة عثمان ، وقيامه بالقرآن، انظر لعبادة علي في خلوته، انظر لليل الصحابة ﷺ، ثمَّ لا تعجب بعد هذا إذا رأيت ثباتهم، وعدم تزلزل إيمانهم في الشدائد، ورسوخ إخلاصهم لما جاءتهم الشهرة والملك والمال، فلا إقبال الدنيا أثر فيهم، ولا إدبارها زحزحهم.

وهذا سرٌّ عظيمٌ في بقاء بنيان الإسلام كَأُمَّةٍ .. فإنَّ الأساس الأوَّل الَّذي أقام الله سبحانه عليه الإسلام هو رجال من نوع خاص.. وأساس بنيان هؤلاء الرجال هو عبادة الخلوة كما كانت التهيئة للرسالة الكبرى هي الخلوة حيث تقول عائشة رضي الله عنها عن المصطفى ﷺ: ثمَّ حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن يتزع إلى أهله ويتزود لذلك.

يقول ابن حجر رحمه الله: (فأصل الخلوة قد عرفت مدتها وهي شهر، وذلك الشهر كان رمضان، رواه ابن إسحاق)[1].

فسبحان من هداه لرمضان قبل تنزيل القرآن، وقبل تشريع الصيام... وسبحان من أقره وأبقاه على خلوته بعد تشريع الصيام، ولكن ليس في الغار، وإنما في بيت الله ﷻ.

وعلى هذا نشأ الصحابة ، فلقد افترض الله عليهم قيام اللَّيل أول الأمر، وهكذا بقيت لعبادة الخلوة أفضلية وهي الأصل إلَّا ما جاء استثناؤه كالفرائض من صلاة وزكاة وحج وجهاد، والدعوة لها.

حتى هذه الفرائض لا يكشف المرء منها.. بل هي سجيته إلَّا ما تغلب

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٣٣).

المصلحة بكشفه كإزالة غربته ونصرة فاعله، والاقتداء به ، وتصحيح أخطاء يقع فيها النَّاس أو نحو ذلك.

أما ما داخل هذه العبادة مما بينه وبين الله فذاك ميدان السباق الَّذي يدخره عند ربه سبحانه ولا يعلم به إلَّا الله سبحانه من حضور قلب وخشوع وذكر، وكمية الذكر وكمية الصدقة، وسرِّيَّة الصَّدقة ، وصلاة السُّنن، ورقيٍّ إلى مقام الإحسان أثناء الأداء، وما إلى ذلك .

لذا أقول بكل وضوح: لا تنجلي الغمة عن هذه الأمة حتَّى يخرج جيل الخلوة إلى الجلوة، الجيل الرباني المخلص الصديق الخاشع المحبُ .. الَّذي ترسَّخ الإيمان في قلبه حتَّى فاض عليه فظهرت عليه تلك الأعمال، والتي ما هي إلَّا زينة الإيمان، هذا حسب سنن التمكين لهذا الدِّين الَّتي لم تتخلَّف من قبلُ.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح:٢٩].

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨] .

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣] .

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٠-١٢] .

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩] .

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١] .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١١] .

وكم يغري الإنسان العمل الصالح المتعدي فيترك لأجله السبق على أساس ما قال العلماء: (إن فضول العلم خير من فضول العبادة) .. فيذهب مع هذا بعيدًا، فلا يزال يُسْقِط من السُّنن حتَّى لا يكاد يَبْقى عنده إلَّا الفرائض وركعة الوتر وركعتا الصُّبح!.

وهو في الحقيقة إنما يسقط سلالم القرب إلى الله سبحانه كما قال المصطفى ﷺ فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أَحبَّ إليَّ ما افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الَّذي يسمعُ به، وبصرَه الَّذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطِيَنَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما ترددتُ عن

شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموتَ، وأنا أكره مساءتَه»[1].

وكم يحتاج مَنْ يكثر الاستماع إلى النَّاس ومن يستمع النَّاسُ إليه بكثرةٍ أن يكون الله سمعه الَّذي يسمع به، وكم يحتاج من يشاهد النَّاس ويشاهدونه كثيرًا أن يكون الله بصره الَّذي يبصر به، وكم يحتاج من يحيا في هذه الحياة داعيًا متحركًا فاعلا أن يكون الله يده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وما هذه دعوة للتشبيه أو التجسيد كما يسمى.. فليس هذا إلَّا بيان عظيم الإعانة والمعية والتسديد والتوفيق وما إلى ذلك، لكن هذه لا تحصل إلَّا بالإكثار من النّوافل مع الخشوع فيها.

إنَّها صلتان .. صلةٌ مع الله وصلةٌ لله؛ فالصِّلة مع الله هي العبادة المباشرة مع الله وحده سبحانه، وأمَّا الصِّلة الثَّانية فهي الصِّلة مع النَّاس ولكنها لله. ولابد من الصلتين.. لكن لا ينبغي للصلة الثانية أن تطغى على الأولى أو تزيلها حتَّى ولو كانت بإغراء الأجر العظيم.

لقد توجَّهتْ هاجر إلى ربِّها سبحانه حين يَئِسَتْ من البشر من كلِّ اتَّجاهٍ حَتَّى من زوجها الخليل إبراهيم حين تركها وولدها موليًا إياهما ظهره... سائلة إياه: يا إبراهيم أين تذهب وتَتْرُكُنا بِهذا الْوادِي الَّذي لَيْس فِيهِ إِنْسٌ ولا شيْءٌ؟ فقالتْ لَهُ ذلِك مِرارا، وجعل لا يَلْتفِتُ إِلَيْها، فقالتْ لَهُ: آلله الَّذِي أمرك بِهذا؟ قال: نعمْ، قالتْ: إِذنْ لَا يُضيِّعُنا[2].

إذًا، اذهب أين شئت، إذًا رضينا بالوحدة بين الجبال... إذًا رضينا بالصخور فراشا، والوحوش صحابا، إن لم يكن إلَّا ذلك..!

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٤)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

الله .. وكفى بالله.. هكذا حُسِمت المسألة عقيدة حسما نهائيا، ولم يتغيَّر على الأرض أي شيء، فلا يزال البلاء يشتدُّ... والحال تقسو، والموت يزحف على الصغير في الوادي الرهيب المميت.. سعت سعيها كله.. وبلغ بها اليأس حدا لا أمل معه في شيء في هذه الأرض، فتوجه قلبها إلى الله سبحانه وتعالى، وبينما هي كذلك إذ جاءها الفرج بتفجُّر الماء أكثر من المطلوب بما لا يحصى، فهرعت إليه ذاهلة عن كل شيء، منشغلة عما في قلبها بما بين عينيها.. فأخذت تَزمُّ الماء أي تجمعه... فكانت هذه الالتفاتة عن المصدر مكلفة كثيرا للأجيال من بعدها، فقد قال النبي ﷺ: **«يرحم اللهُ أمَّ إسماعيلَ، لو تركت زمزمَ - أو قال: لو لم تغرفْ من الماءِ - لكانت زمزمُ عينًا مَعِينًا»** (١).

هذا مع أن فعلها هذا خير، وشربه من قبل هاجر عمل صالح، ورضاعة الولد من أثر العين عمل صالح، وجمعه كذلك عمل صالح.. لكن كان هذا العمل الصالح المتعدي على حساب إدامة توجه القلب إلى الله ونعمة الله في ابتدائها، والبشرى في فجر مطلعها، فقد كانت الذروة في التوحيد قصر التوجه إلى الله رزاق الماء وواهب الولد لا الالتفات إلى الماء عن رازقه .. والالتفات للولد عن واهبه .. رغم أن هذا أمر طبيعي؛ ولذلك فإن الله سبحانه ما قطع الماء عنهما، وإنما لم يتفجر نهرًا كما لم يكن النظر إلى الله حصرا .. ومن ذا الَّذي يمكن أن يتوقع آنذاك أن هذه العين الصغيرة التي تسيل الماء من هذا الصخر يمكن أن تكون نهرًا جاريًا؟ ومن ذا الَّذي يتوقع أن حجم هذا الكف بالكفِّ نهرًا جاريًا ليصبح بئرًا، وليس في هذا قدحٌ في عمل أُمِّ إسماعيل - معاذ

(١) رواه البخاري (٢٣٦٨)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

الله - كيف وتوكُّلها على الله وثقتها بالله ورعايتها لهذا الولد كانت هي السبب المباشر والأخير في تفجر زمزم من ذلك الموقع، وهل بقي السعي بين الصفا والمروة إلَّا اقتداء بفعلها، وإحياء لمشروعها في قلوب المؤمنين، والفضلُ لله أوَّلًا وآخرًا.

لكنَّ النَّاس مقاماتٌ، وأهل الدَّرجات والقربات مقاماتٌ كذلك، ومَنْ هذا الَّذي لا تحصل منه التفاتةٌ في صلاته، فكيف في حياته؟ وكم من التفاتة صغيرة كلفت صاحبها كثيرًا، كيف وَسَادَةُ الأنبياء عليهم السلام يعتذرون للخلائق المستشفعة في أرض المحشر بهم بما لا يعتبره أمثالنا مخالفة صغيرة، وإلا فكيف سيتميَّز سابقو السَّابقين .. كيف سينفرد مُحمَّدٌ في ذُرَاهُ عن بقيَّة المرسلين -عليهم الصلاة والسلام أجمعين ؟!

ومن هذا القبيل التفاتة سليمان عليه السلام لخيله، لكنه حين أدرك الحقيقة كفر عن التفاتته تكفيرًا فريدًا من نوعه .. لم يدركه حتَّى السَّاعة كثير من أهل الميدان ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾

[ص:٣٣-٤٠].

فالحمد لله أن أبقى زمزم حتَّى نشرب منه، والحمد لله أن أبقاه إلى يوم القيامة يسيل لا ينقطع، بينما أنهار في هذه الأرض تفجرت ثمَّ جفت كأن لم تكن، فالحمد لله الَّذي أبقى زمزم ينتفع به النَّاس أكثر مما ينتفعون بالأنهار.

يا ربِّ: كم أشعر أن قلبي يحتاج إلى الخلوة حتَّى أستجمع شملي وهمي عليك، فلا يكون لي هم سواك؟ فالحمد لك ربنا أن شرعت هذا الاعتكاف في هذا المكان، في هذا الزمان بهذه الكيفية.

كم أحتاج أن أقطع نظر العينين عن الامتداد والتمدد إلى الدنيا ومتاعها؟ كم أحتاج أن أحبس السمع إلَّا عن ذكرك .. وأحبس البدن عن التحرك إلَّا حيث تحب؟

يا ربِّ: وأي عبادة يمكن أنَّ يجتمع فيها كل ذلك إلَّا عبادة الاعتكاف؟!

لك الحمد ربي حين قطعت نظري عن الامتداد إلى الدنيا من خلال عبادة الاعتكاف على النظر ما بين كتابك الكريم والنظر في أشرف مواضع الأرض وهي مواضع السجود.

لك الحمد ربي حين حبست رجلي على الوقوف بين يديك مصليًا ومراوحًا ما بين الوضوء والصلاة والراحة للصلاة .. وكل ذلك وأنا عاكف في أحب بقاع الأرض إليك .. في بيتك.

لك الحمد ربي حين شرعت لي حبس بدني بين الصحب صالحين وبين الملائكة المكرمين.

لك الحمد ربي حين جعلتني أموت الموتة الصغرى وأحيا في بيتك الكريم، أتقلب وأتعار في بيتك .. أنام وأستيقظ وأنا على ذلك.

فيالإغماضة العين في بيت الله ... في رمضان .. في الاعتكاف، ما أعمق أثرها في النفس؟! فإن إغماضة العين في المسجد عند النوم تخزن في الحافظة ما لا يحصى من معاني ظرف المكان المبارك، وإن ذهاب العقل بالنوم ونسيان هذا

المكان ثمَّ تفتح العين وهي تُقلِّب النَّظر في بيت الله أوَّل ما تتفتَّح له.. إن ذلك له من تثبيت هذه المعاني العظيمة وترسيخها أكبر من كل ما سينظر له المرء بعد ذلك .. فالقلب صفحة يختم بها السمع والبصر ما يسمعه المراء ويراه .. والحكم والتحكُّم عادةً ما يكون لأوَّل ما تَطَّلع عليه الأسماع والأبصار أول النهار .. وآخر ما تُقْفَل عليه.

وبهذا الموضع المبارك كانت هذه التَّغذية البليغة للقلب .. وكان هذا الاقتصار على هذا النبع الخالص الصافي دون سواه .. إنها فترة يتخلص فيها القلب مِمَّا تَشَرَّبَهُ من سوادٍ وسوءٍ كما تتخلَّص رئة المُدخِّن من آثار الدُّخان في فترة نقاهته.. وفوق هذا فإنَّ القلب في بيت الله يأخذ زاده لطريق طويل، ويأخذ نوره لظلام دامس، ويأخذ مَؤُنةً لِفراقٍ بعيدٍ.

إنه الاعتكاف الَّذي توقف عنده رسول الله ﷺ طوال هذه الفترة، وما كان له أن يحبس نفسه ﷺ هذا الحبس لولا تشريع الله له ذلك، وما كان أمر الله إلَّا لحكمة بالغة وزاد له مع انتظار ليلة القدر.

فإذا كان هذا هدي رسول الله ﷺ وحاجته فما أعظم حاجة أُمَّته عمومًا من بعده! وما أعظم حاجة أئمَّة أُمَّته لهذا الاعتكاف!

وكم أعجب لارتباط الاعتكاف بالصيام!

أي حساسيةٍ مرهفةٍ هذه الَّتي يُنْشئها الاعتكاف في النَّفْس.

سبحان الله العظيم: لسانُ حال العبد في معتكفه يقول: كما لا أريد أن يطلع علي ربي هذه الأيام إلَّا وأنا متواجد في بيته، فأنا لا أريد أن ينظر الله إليَّ إلَّا طاهرًا مُتوضِّئًا إلى أن أُسْلم نفسي لربِّي عندَ نَوْمي..

وكما لا أريد أن يطلع علي ربي إلَّا صائمًا مُتوضِّئًا فأنا لا أريد إلَّا أن يطَّلعَ عليَّ ربِّي إلَّا طاهرَ القَلبِ تَقيًّا .. لا حِقدَ ولا غِلَّ ولا حَسَدَ ولا خُبثَ ولا بَغضاءَ ولا خِدَاعَ.

وكما لا أريد أن أحدث حدثًا إلَّا أحدثت له وضوءًا .. فإني لا أريد إن توضأت إلَّا صليت ما كتب لي .. واقفًا بين يديه في بيته، فيا رب أعني.

وكما لا أريد أن أتوقف عن الكلام إلَّا بذكر أو قراءة قرآن .. فإني أحرص ما أكون على ذكر الله وأنا في بيته، وألا أقرأ كتابه – وهو أعظم الذكر – إلَّا متفكرًا متدبرًا .. فيا رب أعني.

وكما لا أريد أن أشغل نفسي وأنا في بيت الله إلَّا بالله سبحانه فإني أشد ما أكون حساسية من ضياع دقيقةٍ واحدةٍ فيما لا يُسجَّل لي ..

فإن أخوف ما يخافه المرء هو الاسترسال مع الصَّحْبِ الصالحين في أحاديث لا أقول آثمة، ولكني أقول: إنها لا تسجل لك ولا لهم، وتلفت القلب عن الحق سبحانه وعن الدار الآخرة.

وهل هذه إلَّا ذروة التَّقوى .. وهل جاء الصِّيام إلَّا لهذا .. وهل يمكن بلوغ هذه الذُّروة في وقتٍ كما هو الشأن في رمضان؟

فهل عرفت سرَّ اجتماع الصِّيام والاعتكاف؟ بل هل عرفت كون الاعتكاف ما كان إلَّا في آخر رمضان؟ وكأنَّ كلَّ ما سبق كان تهيئةً له.

هنا بيت الله .. هنا الاعتكاف .. هنا قطع كل وارد مضر عن القلب .. هنا يصفو المشرب، ويصحو الفضاء .. ويتجلى الضُّحى.

هذه الخلوة زاد، فلا يعتذرنَّ أحدٌ عنها كما لا يعتذر الجائع عن زاده بل هو يطلبه.

لا يعتذرنَّ أحدٌ عن قيام اللَّيل .. لا يعتذرنَّ أحدٌ عن التفرغ للقرآن .. لا يعتذرنَّ أحدٌ عن خلوة الأذكار.. لا يعتذرن أحد عن طول الدُّعاء اليوميّ ساجدًا أو قائمًا أو قاعدًا.

والأهمُّ هنا إيثار الآخرة على الدُّنيا .. فكلُّ هذا الَّذي ذكرته إنما هو حسن الإعداد بالتقوى ليوم عظيم، فإن وراءك غاية في قلبك لعلك لن تجد لها محضنا مثل معتكفك هذا في شهرك ذلك، هو القلب السليم كما قال الخليل: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٨٧-٩٠]، فالتقوى في الأساس ما تكون إلَّا تقوى الله وطلبًا للدار الآخرة، وهذه التَّقوى تُصنع أحسن ما تُصنع في زمان اسمه رمضان، ومكان اسمه المسجد، وعمل اسمه الاعتكاف بالمسجد في رمضان، ومنهج اسمه القرآن، وعمل هو الصلاة، والذكر والتفكر خلوة بالله سبحانه .. فإذا صنعت التَّقوى كانت السلامة وكانت النجاة وكان الفوز الكبير، فليست صناعة قوة الإيمان في المسجد فحسب، إنما الأهم هو صناعة الفوز في الآخرة خاصة في رمضان، ذلك لخصوصية صناعة التَّقوى في رمضان، قال سبحانه: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢]، ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة:٩]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨١] ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [المائدة:٤] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨].

حتى وإن قال من قال من أهل العلم الأعلام بجواز الاعتكاف من غير صيام إلَّا أن كماله وتمام غايته لن يتحقق إلَّا مع الصِّيام .. ذلك أن الصِّيام هو الإمساك، والاعتكاف هو الحبس، وبين الاثنين قاسم مشترك هو المنع، فكل واحد من الأمرين يمنع النفس من شيء، واكتمال المنع لا يكون إلَّا بهما، فإن الإمساك عن المفطرات يكون في المسجد وغير المسجد، ولكن إمساك السمع والبصر لا يكون إلَّا في المسجد.. فإذا ما تم الإمساك أو المنع بشطريه الحسي والمعنوي، والعضوي والنفسي فإن هذا هو الرباط العبادي الحق، ولابد أن تكون ثمرته تامة كاملة - بإذن الله.

فإن العبد كل متكامل، وبنيان مترابط، وكما إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .. فإن ضد ذلك من باب أولى بتداعي العافية والسلامة، فإن سريان الأثر إليه من بعضه أسرع من سريان الموجات في الأثير .. ولو جعل إنسان في جو ملوث فترة من الزمن في مكان مخصص فيه كمية كبيرة من الأكسجين فإن التلوث سوف يزول شيئًا فشيئًا عن رئته وقلبه، ثمَّ يسري إلى بقية أعضائه سريان دمه.

وما من أحد يعتكف لله رب العالمين ويلتزم آداب الاعتكاف إلَّا رأى قلبه بنفسه يجلو ويزكو ويصفو ... رأى إيمانه يعلو ويقوى وينمو.

رأى القتر عن بصيرته ينقشع، رأى صحته وعافيته في الدين تقوى وتتكامل.

وأمر لازم هو أن نقول: بما أن هذا الاعتكاف، وهو العمل القاصر كما ذكرنا يعد المسلم ليكون طاقة هائلة في العمل الإيجابي بعده فكيف لا يكون إيجابيًا إذا استدعى الأمر وإن كان في معتكفه.

إن المسلم في معتكفه إيجابي غاية الإيجابية لكل ما يقتضيه الشرع من أمر بمعروف ونهي عن المنكر، ورد للسلام، وكف للأذى، ونصرة للمستنصر، وشفاعة للمستحق، وصلاة جماعة، ومدارسة قرآن، واليوم ونحن ننظر في تسهيل وسائل التأثير والاتصال بين النَّاس حتَّى كأن العالم غرفة واحدة، فإن ذلك يدعونا إلى أن نبلغ بتأثير المسجد على خارجه حتَّى لكأن العالم الخارجي غرفة تابعة للمسجد.

إنه المجال الخصيب لإشاعة التوبة .. والدخول في الإسلام ..

ومع هذا فهو في ذات الاعتكاف أكثر ما يكون سلبية عن الخلق في كل إثم وكل شبهة، بل وكل ما لا نفع فيه، وكل ما يشغل قلبه عن ربه .. فأعلى ما تكون خلوته بربه إذ هو في معتكفه .. ودونك هذه الخلوة، إنها مفتاح لخلوة الأنس القادم بالله .. وكأنها علاقة جديدة بنوعية جديدة مع الله، أو كأنه باب جديد قد فتح لم يكن يعرفه أحدنا، فتح له مع الله فأصبح يهرع إليه في فطرة على الدوام لا يقدر على تركه.

هذا الأنس بهذا الصفاء والهناء نعمة تتحقق للعبد في اعتكاف رمضان كما لا تتحقق له في أي مكان آخر..

فالله الله في هذه الخلوة .. الله الله في تركيز النظر والفكر فيها .. الله الله في إدامة الذكر بخلوة مع التفكر، فإذا فتح لك في ذكر ما فالزمه، وواصل غير مبال بذهاب وقت أو نوع أو تعب أو طلب راحة لعبادة أو نحو ذلك.

فإن ما أنت فيه من الفتح غاية، فما بالك ترجع للوسيلة، فإياك أن تكون كمن طلب الحكم ففوجئ بنفسه على كرسي الحكم بطلب من أبناء بلده، فقال لهم: لا، حتَّى أرجع إلى السجن أو البئر أو البدو!.

ولكم أعجب لواقعية هذا الدين وفاعليته في الحياة؛ فإن هذا الاعتكاف ليس غاية بذاته، ولا نهايته بالخروج منه، وحاشاه أن يكون كعبادة البوذيين والهندوس وخلواتهم، وليس هو كرهبانية أهل الكتاب المبتدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان، إنما هو محطة ضرورية يتزود فيها زادًا عظيمًا للدنيا والآخرة .. ولذا فما إن ينتهي رمضان وتغرب آخر شمس له حتَّى يخرج المعتكف من معتكفه كما فعل المصطفى ﷺ... ليتحول إلى نقلة نوعية على الوجه المقابل للاعتكاف في أكبر اجتماع للمسلمين، وهو العيد الَّذي لا يحل للعبد صيامه، ولم يثبت شيء مخصوص في قيامه، ولا يشرع له اعتكافه.

ولو قلت: إن في الاعتكاف اصطناع القادة فضلًا أن يكون فيه علاج ضعف الشخصية لصدقت والله، وسر ذلك أن أعظم اكتشاف يحققه الإنسان هو اكتشاف نفسه، ومعرفته ملكاته، ومواهبه، ومواطن ضعفه وقوته وما إلى ذلك، هذا لا يتحقق في العادة إلَّا من خلال التفكر الصافي والتعمق الصادق في النفس، والبصيرة الكاشفة، وهذا سر يعرفه المعتكف .... فكيف إذا وافق هذا الاعتكاف خلوة مع كتاب الله.. دراسة له دائمة ما بين ختمة في صلاة أو في قعود

أو بينهما، فالقرآن العظيم يكشف للإنسان حقيقة نفسه، وليس هذا فحسب إنما يصنعه صنعًا من جديد، وهل يصنع القرآن إلَّا أئمة للناس كافة؟

إنني أحسب أننا لو استثمرنا الاعتكاف حقًّا مع الحذر من إفساد خلوته لأخرجنا - بإذن الله - من المعتكف كل عام أئمة في مختلف الميادين حقًّا، فهنا يكتشف المرء على وجه الحقيقة نفسه.

وتَحسبُ أنَّكَ جِرْمٌ صغير   وفِيكَ انْطَوَى العالَمُ الأكبرُ

سُوِيعَاتُ اليَوْمِ الأَخِيرِ

لو نَطَقَ الهلالُ قبيلَ آخرِ أنفَاسِهِ لقَالَ: ترقَّبوني.. علَّ يومكم هذا هو اليَوم الأخِير، فماذا أنتم فاعلون؟ وهذا العبد التقيُّ في حال من الإشفاق في هذه السويعات لا يحسد عليها!.

ساعات يلتفت فيها العبد عن صيامه وقيامه وشهره وسهره... ولا يبقى له هم إلَّا هذه السويعات، كأنه لم يقدم شيئًا... أو كأن كل شيء قدمه متعلق بهذه الساعات ... أو كأن صالحات رمضان تريد خوفًا ساخنًا يرفعها، وإشفاقًا حاميًا يطير بها: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات:٥٠]، ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦].

فقد اتَّقد القلب واشتدَّ لهيب إشفاقه حين أحسَّ بأنَّه على حدِّ القَبول أو الردِّ ... على مسك الختام أو الطرد.

وَقَفَ العبدُ وأخذَ يستجمِعُ كلَّ ما في ذَاكرَتِهِ من ثناءٍ يتقرَّبُ به إلى ربِّه.. من عملٍ صالحِ يرفعه.. من ذِكْرٍ ... من دعاءٍ..

كيفَ وهوَ لم يضمنْ قبولَ شيءٍ منه من قبل؟ كيف إذا كان احتمال العتق من النار لم يحصل وقد أصبحت هذه الساعات هي المحاولة الأخيرة؟!

يا ربِّ: ليس يأسًا ولا قُنوطًا.. ولا سوءَ ظنٍّ بك .. إنَّما هو عدم الاتِّكال على أعمال قدمناها.. وخوف من اغترار آخر لحظات يفسد ما قدمنا من قبل.

يا ربِّ: وأيُّ شيءٍ هذا الَّذي قدَّمناه بجوار جنة قدَّمتها لنا مفتَّحة الأبوابِ

طُوالَ شَهر رمضانَ.. ونارٍ عظيمة تلظَّى أَوْصَدتَها عنا طوالَ شهر رمضان.. ومردة الشياطين حبستهم لأجلنا.. ورحمات تتنزل في كل وقت وحين.. ورقاب قد أعتقتها من النار بفضلك ومَنِّكَ وحدَك سبحانك كلَّ يومٍ من أيَّام الشَّهر... فماذا قدَّمنا بجوار ذلك.

يا ربِّ: لا أجد لقلبي دواء هذا اليوم كله إلَّا أن ألزم ذكرك الَّذي لن أفتر عنه لحظة... لا أجد إلا: «**لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ**»، خير ما قاله المصطفى والمصطفون الأخيار عليهم الصلاة والسلام من قبله..

هي الكلمة الطيبة، وهي الشجرة الطيبة، هي التي تفك الحديد والفولاذ، بل لو كانت السموات والأرض حلقة لقصمتهما: «**لا إله إلَّا الله**»، ولو أطبقت السماوات والأرض على عبد لأزاحتهما عنه: «**لا إله إلَّا الله**»، وهي التي تثقل كِفَّتُها كِفَّةَ سجلات السُّوء مدَّ البصر..

وهي الَّتي تغلب الخلود في جهنَّم فلا يستقرُّ عبدٌ قالها مخلصًا..

أقولها مئات بل أكثر... انفلتْ أيُّها اللِّسانُ وأنا أغذيك... أشعلك بنار الخوف تتوهَّج من أحشَائي.

فجأة تلتقط العين عند صلاة العصر فقيرًا هنا، وآخر هناك.. فيهتف القلب: يا ربِّ لك الحمد أن سقتهم إلي في هذا اليوم، في هذا الوقت... والله يا ربِّ لهذا الرزق في هذا الوقت أحب إلي من أن تدخل علي من الأموال الآن ما يدخل، فإن دخول المال علي لإشارة منك إلي: أنا خلقك، وأنت ترزقنا جميعًا! وتقسم لنا من رزقك في هذه اللحظة كما تقسم لبقية الجن والإنس والحيوان مما لا

يحصيهم أحد سواك... سبحانك !! فالحمد لله، أما هؤلاء الفقراء فإن ما استقر في نفسي، وطابت له عند رؤية مطلعهما من قراءة خط قلم قدرك الَّذي ظهر في هذه الحادثة في هذا الوقت هو: حمدك والثناء عليك؛ لأنك سبحانك جعلت رزق هؤلاء عندي، وجعلتني حمَّالًا أحمل رزقك لمن شئت ربي من خلقك، وتفضلت علي بأمرك وتحبيبك لي الصدقة حتَّى أتصدق عليهم.. فأنى لي بتشريف مثل هذا، وخصوصًا وأن هذا يأتيني في ختام شهر الصيام، فمرحبًا بكم أيها الفقراء يا مَنْ تَحْملون أزْوَادَنَا إلى الدَّار الآخرةِ.

يا ربِّ: عبدُكَ يَفْرحُ بدريهماتٍ يعطيها هؤلاء قبل صلاة العصر؛ إذ هو بين يدي نجواك حين اصطف بجواره أحد الفقراء للصلاة.

يا ربِّ: إنَّك - سبحانك - تراني حين غدوت من أهلي وأنا أتمنَّى رؤية فقيرٍ أو أكثر لأفرحه ربِّي كي تفرح سبحانك، وأنشر الابتسامة على وجه مَنْ حمل هَمَّ العيال في العيد، وهَمَّ مطالبة الدائنين له.. وهمومًا لا أعلمها، فلعله إذا انبسطت أساريرهُ في وجهي رضيتَ عنِّي ربِّي، وكان جزائي من جنس ما أرجو وفوق ما أرجو، وهو أن ألقاك وأنت عني راضٍ وأرى وجهك الكريم، فأكرم بذلك.

ولعل هذا الفقير يرفع لي دعوة من موقفه، ويختمها بختم الصدق من قلبه، ويبل ختمه بقطرات من دموعه فتُرفع إليك فورية وهذا الفقير لا يعرفني، ويكفيني أنك تعرفني.. يا رب.

يا ربِّ: رجوت كل هذا الرجاء بهذه الدريهمات.. فكيف بمن ادخر لهذا الختام مشاريع جارية، وادخر شفاعات كبرى، وادخر وادخر.

هكذا مضت صلاة العصر، وتقاربت ساعات الختام حتَّى لكأنها لحظات، وكأن القلب يجري يسابق الشمس بل يطير، لعله يدرك سفينة العفو والعتق والمغفرة والرحمة قبل أن ترحل.. لعله وهو المقطوع في بيداء الجزيرة المسبعة يدرك الصحب قبل أن يفارقوا الساحل.

لقد ادخرت لهذه اللحظة ختم القرآن لعل الله يرحمني ببركة هذا القرآن في ختام شهر الصيام.. علَّ كلامَ الله يشفع لمقطوع عند الله. عل كلام الله يرفع محبًّا مقصرًا في حق الله.. عل كلام الله يتقدمني بين يدي رب عظيم العفو، واسع المغفرة.. يا ربِّ تقبل مني فإني أعددت بعد الختمة كل دعاء استجابة لله..

فيا رب هذه أدعية طرق أصحابها بابك يومًا ففتحت لهم، وكان القبول جوابك.

هذه أدعية ملائكتك.. أدعية أنبيائك كما هي مسجلة في كتابك أرفعها إليك.. وهذه أدعية سيد الأولين والآخرين مجموعة كلها أرفعها إليك.

لا ... فإن نهم القلب لم يشبع بعد .. بل - والله - ازداد..

لا.. لن أرفع جديدًا من السؤال والطلب.. إلَّا شيئًا في سلم الحاجيات.. فلقد استقر في نفسي أن أدرك عملك بالاستغفار الحار.. استغفار الاضطرار.. استغفار حالات يجب إسعافها، وإسعافها بهذا الاستغفار. ألا ترى كيف أمر الله رسوله ﷺ في ختام حياته بالاستغفار - حياة العبادة والدعوة والفتح والانتصار -، فقال له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣]، وكان هذا هديه ، وكان بعد كل صلاة يستغفر الله ثلاثًا، وبعد الزكاة يستغفر للمزكي ﴿خُذۡ

مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٣]، وفي ختام الحج أمر المؤمنين بالاستغفار، فقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٩٩]، وفي الجهاد قال عن المؤمنين المواجهين للعدو: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٧]، وقال عمن قصر في الجهاد بعد مضي الجهاد: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٨]، ومن قبل قال عن موسى وهارون وهما في ختام جولة مفعمة فيها ما فيها: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وفي كل هذه المواطن وغيرها ما أمر الله سبحانه عباده بذلك إلَّا ليحقق لهم ما أمرهم ووجههم إليه، وقد فعل سبحانه.

فيا ربِّ: هأنذا أسير على خطى المغفور لهم.. فاغفر لي وارحمني وأنت خير الغافرين.

يا ربِّ: هأنذا أسير خلف سيد الأولين والآخرين.. من أمرته بالاستغفار في سورة النصر بعدما غفرت له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما أخبرته سلفًا في سورة

الفتح، فهو إمامي وقائدي وقدامي، وأنا المتشرف - والله - بذلك.. وأنا المتشوف بأن تشملني مغفرتك.. يا رب.

أستغفر الله.. أقولها مرارًا.. متتابعة.. حارَّةً.. أقولها وأستشعر ثقل الأعمال التي يجب أن ترفع بما خالطها من ذنوبٍ، وتقصيرٍ وما إلى ذلك.

أستغفر الله.. أستغفر الله... أستغفر الله.. مشفقٌ على نفسي من وقتي المتفلِّت من بين يدي وأنا أريد أن أنظف أعمالي مما أصابها من دخن.. أقولها وكأني أرى شررًا من النار متعلقًا بثيابي البيضاء وأريد أن أنفضه بهذا الاستغفار قبل أن يحرقها ويخلص إلى بدني.

أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله: وكلِّي حياءٌ من الله الَّذي عصيتُه.. حياء المرتبك المضطرب.. استحضار ما يعرف القلب من عظمة الله– جلَّ في علاه – ويزيده أكثر اليقين بأنَّه سبحانه يسمع استغفاري هذا.

يا ربِّ: لكن يدفعني للاستغفار أكثر مع استحضار ذلك كله.. هو استحضار أنك ربي الغفور الرحيم.. أنك تحب المغفرة.. أنك الرحمن الرحيم.. وأنا محتاج لرحمتك.. الآن.

يا رب حقق عجائب اسمك الرحمن الرحيم في.. الآن يا ربِّ حقق عفوك فيمن لا طلب له سوى ذلك.

الآن يا ربِّ في هذه اللحظات برحمتك يا أرحم الراحمين.

والله الَّذي لا إله إلَّا هو إنَّ معتقدي في نفسي إنك قادر على ذلك وتحب ذلك، فاللهم بأسمائك الحسنى كلها وصفاتك العلا كلها أتوسل إليك ربي أن تغفر لي وترحمني وتعتقني من النار.

والله يا ربِّ إنَّ معتقدي في نفسي أنِّي لا أستحقُّ ذلك إلَّا بفضلك، ولا فكاك لعنقي من النار إلَّا بعتقك لي بعفوك.. يا ربِّ إن إدخالك إيَّاي الجنَّة لَهُو من عجائب قدرتك ورحمتك.. فاللَّهمَّ قني عذاب النَّار، وأدخلني الجنَّة، واجعل مسكني الفردوس الأعلى..

لسانٌ قد هاج بالاستغفار .. وقلبٌ يدفعه من شدَّة اللَّهيب بالاضطرار.. وأعمالٌ متوقِّفةٌ إلى قبولك بانتظار .. مختومة بختم الاستغفار.

كيف لا أبكي عند آخر إفطار وأنا في ذروة التحسر على انقضاء هذه الأيام العظمى من حياتنا.. عيني تتطلع إلى شهر ممتد تركته ورائي .. أراه يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي..؟

كيف وكل هذه الغربة قدامي تنتظرني ظاهرة وباطنة.. ؟ كيف وبعد لحظات تعود أبواب الجنة كما كانت قبل رمضان .. فيا لها من ظلمة..؟!

وتعود أبواب النيران مفتحة كما كانت قبل رمضان .. فيا له من هول؟! لحظات وتطلق مردة الجن والشياطين كما كانت من قبل، فيا له من خطر - نعوذ بالله منه.

أكل ذلك لا يبكيني على هذا الحبيب المفارق.. فراق سنة أو به نهاية العهد.. لذا قد صح عن سلفنا حزنهم عند فراق رمضان.

من هذا الموقع الزمني وكأنه البرزخ أنظر من موقعي هذا من رمضان نظر من يعيش في رياض غناء... كثيرة الظلال ... دانية الثمار.. طيبة الماء والهواء... وقد وصل الآن إلى حافتها، أما بعد حافتها: إنما هي الصحراء القاحلة..

الشاسعة المهلكة... إنه مضطر أن يخرج منها اضطرارًا؛ لأنه جالس على سفينة الزمن، وهي متحركة به.

فأي إنسان يحب أن ينتقل من هذه الرياض الإيمانية الظاهرة والباطنة إلى هذه الصحراء القاحلة؟

تَدْقِيقُ النَّظَرِ فِي صَدَقَةِ الْفِطْرِ

قلنا في كتاب «**إلى ابن عمي البخيل**» في زكاة الفطر ما يلي:

«العلاج الثالث والأربعون بعد المائة: العلاج بصدقة الفطر.

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: (فَرَضَ رسولُ الله ﷺ زكاةَ الفِطرِ طُهرةً للصَّائم من اللَّغْو والرَّفَث، وطُعمةً للمساكين، مَنْ أدَّاها قبل الصَّلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومَنْ أدَّاها بعد الصَّلاة فهي صدقةٌ من الصَّدقات)[1].

وعن عبد الله بن ثعلبة أو ثعلبة بن عبد الله بنِ أبي صُعَيرٍ، عن أبيه رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «**أدُّوا صاعًا من قمحٍ أَوْ صاعًا من بُرٍّ** - وشكَّ حمَّاد - **عن كلِّ اثنين، صغيرٍ أو كبيرٍ، ذكرٍ أو أنثى، حرٍّ أو مملوكٍ، غنيٍّ أو فقيرٍ، أمَّا غنيُّكم فيزكِّيه الله، وأمَّا فقيركم فيردُّ عليه أكثر مما يعطي**»[2]، لا نحسب شحيحًا يدعي الإسلام ويصوم رمضان، ثمَّ هو لا يخرج صدقة الفطر.

إلا أن اللافت هو أن المنهج في صدقة الفطر، منهج إنفاق، فهو علاج لا يكاد يفلت منه أحد من أبناء الأمة، ثمَّ إنها صدقة موحدة لا اعتبار فيها لكمية الملك الَّذي يملكه الفرد، فالجميع يستوي فيها لكمية الملك الَّذي يملكه الفرد،

---

(١) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه أحمد في (مسنده) (٥/ ٤٣٢)، قال الألباني: صحيح لغيره، انظر: (صحيح الترغيب والترهيب) (١٠٦٨) و(السلسلة الصحيحة) (١١٧٧).

فالجميع يستوي فيها، والاعتبار فيها ليس للمال وإنما للأشخاص، ولا اعتبار فيها لأنواع الأموال، بل ما يشترك النَّاس في أكله.

وهذا ما يعني أن ثورة كاملة عامة على الشح على مستوى الأمة كلها، يشارك فيها الغني الَّذي ادخر لعمره وأعمار ذراريه، والفقير الَّذي وجد قوت يومه.

إن إخراج الشحيح لهذه الزكاة ربما لا يغني الآخرين، لكنه يشارك أمته هذه الظاهرة العامة، ظاهرة الإنفاق والكرم، ويقي نفسه شحها، ويكون قدوة لأبنائه من بعده، فنحن إذ نذكرها هنا إنما نذكرها؛ لأنها علاج حقيقي لهذه الأمة، ووقاية للأجيال، وفوق هذا فإن كل من يخرج زكاة فطره يتحرى أعظم النَّاس فقرًا ليعطيه صاعًا أو أكثر، وربما لم يكن الصاع يعني له الكثير، ولكن هذا الصاع يعني للأمة الكثير، وللشحيح الكثير وللغني الكثير، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثة فوائد يستفيد منها مشتركة، وفوائد أخرى ينفرد بها عن الآخرين، لكن الفائدة التي يشتركون فيها هي اكتشاف الفقير في الأمة، فكأن الصاع الَّذي وصل إلى الفقير كان علامة خاصة لكل فرد في الأمة أن ثمة فقيرًا أو فقراء في المجتمع المسلم لا تعرفهم، وما هذا الصاع إلَّا الدفعة الأولى في معونة متواصلة، أو هو القطرة الأولى من الغيوث القادمة، أو هو الكلمة الطيبة الأولى في رسالة خير متسلسلة مقبلة)[1].

هذه النظرة لصدقة الفطر خاصة بخصوصية موضوع الكتاب، وذلك بكونها علاجًا للشح.. وثمة نظرات أخرى وتحليلات عقلية منطقية، فمن حيث نظرت إليها أفاضت عليك فيوضًا من المعاني العجيبة، فإنها الكمال والتمام من جهات

(١) إلى ابن عمي البخيل، للمؤلف (٥٤٨-٥٥٠).

عدة لهذا الشهر الكريم الدالة على حكمة من شرعها ﷻ، فهي العبادة المالية لشهر تمثلت فيه أركان الإيمان وأركان الإسلام..

فأما ارتباطه بركن الإيمان بالله.. فهل ثمة إلَّا الله، والله سبحانه يخص الصِّيام بقوله: «**الصوم لي**».

والإيمان بملائكته؛ لقوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر:٤].

وكتبه؛ لقوله : «**أنزل التَّوراةَ في الأوَّل من رمضان وأنزل...**».

واليوم الآخر؛ لقولِهِ ﷺ: «**إذا كان أوَّل ليلةٍ من رمضان تفتَّحت أبواب الجنَّة وغُلِّقت أبواب النَّار**».

ورسله؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣].

والقدر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١].

وفي هذا الشَّهر أركان الإسلام الخمسة كذلك.. فالصَّلاة في رمضان هي أكثر ما تكون، وأعلى ما تكون، وكلُّها عليَّة، ودونك صلاة التهجد في جماعة كل ليلةٍ.

وفيه الإشارة إلى الرُّكن الثَّالثِ، ركن الزَّكاة حيث يختتم بزكاة الفطر، وهذا الاسم كاف في دلالته على ركن الزكاة، وأنها تسمى زكاة الفطر نصًّا، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وفي هذا الشهر الإشارة للحج كذلك بهذا التكبير في العيد، والإشارة أقوى من هذا إلى الحج بقوله: «**عُمرةٌ فِي رمضان كحَجَّةٍ مَعِي**»، فهو إذا الاكتمال بهذا الإخراج للمال وهو الشكر المناسب لنعمة الصيام.. إذ الصِّيام إمساك عن الطعام، وصدقة الفطر إخراج للطعام تحديدًا، ثمَّ فيه الإشارة إلى الجهاد، وهل

إنفاق المال إلَّا نوع من الجهاد دون مشقة ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٩٥].

هكذا تجتمع تشريعات الإسلام في هذا المنسك الَّذي يستغرق شهرًا بأكمله، ويجمع فيه التشريعات بأكملها.

إن في صدقة الفطر الإشارة إلى ترابط هذه الأمة الفعلي، وأنه يتعدى المشاعر والعواطف إلى المشاركة في أخص الخصائص وهو الطعام، فكأن هذه الأمة بصدقة الفطر أسرة واحدة.. فالأمة لا فقير فيها، ولو لهذا اليوم، ولا جائع فيها، بل الأمة اليوم كلها قادرة على أن تضيف.. وهكذا تعطي صدقة الفطر الدرس للأمة أن اجعلوا الغنى للأمة كلها طوال العام وليس ليوم واحد.

صدقة الفطر رسالة ألا تنتظر الحيي المتعفف أن يفتضح، وبادر أنت واذهب إليه كما تذهب بصدقة الفطر، واطرق عليهم بابهم، واحمد الله أن قبلوا منك.

صدقة الفطر رسالة تقول:

إنكم كما تسترون حاجة إخوانكم من الطعام فلتستروا ما أكثر ضرورة وحاجة لبقاء الحياة كالدواء وتكاليف التداوي، وأنكم إذ أغنيتموهم من الطعام وهو جزء الصِّيام فلتغنوهم من جهة الصِّيام الأخرى، وهو أن تزوجوهم كما أطعمتموهم... أفيتزوج أبناؤكم، ويبقى أبناء الفقير ما بين التصبر والضياع بسبب الفقر.

صدقة الفطر رسالة تقول: أن لا غنى عن العطاء ولا عيب في الأخذ... هكذا شرعها الله سبحانه.

صدقة الفطر رسالة تقول: كم لله علينا من فضل؛ إذ مَنَّ علينا بهذا التكامل

الفريد وهذا الجبر المتميز؛ إذ جعل الله في صدقة الفطر سد نقص صيامنا، وجبر نقصه، وإزالة ما لحق به، وما إلى ذلك بهذه الصدقة المالية.

وفي صدقة الفطر رسالة: إن هذا الدين واقعي، أما المثالية المطلقة فلا مقام لها في هذا الدين؛ إذ أي جو مثل جو رمضان وأي عابدين مثل عباد الله في رمضان، ومع هذا فوقوع الذنب حتَّى في مثل هذا الجو أمر واقعي، فشرعت هذه الزكاة تكفيرًا للذنب الَّذي أَلَمَّ بالصائمين.

وصدقة الفطر رسالة تبين فضل الله علينا الَّذي أراد بنا اليسر، وما أراد بنا العسر، فجاء الختام بإنفاق الطعام لجبر كسر الصِّيام وسد نقصه، ولو كان التكفير صيامًا أو صلاة لشق ذلك، وربما استحال لحاجته إلى قوة إيمان وزيادة خشوع واحتساب، وربما لن يرفع الصِّيام صيامًا، ولن تجد الخشوع الَّذي لم تجده في بعض الفروض، فجاءت هذه الزكاة السهلة الميسورة.

صدقة الفطر تقول: إنه لا غرور بعمل صالح، ولا بوقت فاضل، ولا بمكان مقدس، فما دام الحساب لم يقم، والخاتمة لم تعلم، فما من شيء يمكن الركون إليه من الأعمال، لكن نحسن الظن بالله، ونحمد الله على عبادته وهدايته، فلا غرور ولا اتكال، بل هي المواصلة ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[الحجر:٩٩].

رسالة صدقة الفطر تقول: إن هذا الصَّائم هو أقل ما يمكن أن نقدمه لك أيها الفقير، فنحن اليوم نعطيك صاعًا لسد حاجتك إلى الأبد .. ونعطيك من الطعام لنكسوك بعد ذلك من الثياب، ومن كل شيء وراءه، فكما جاء في الحديث: «**أغنوهم عن السُّؤال في هذا اليوم**»، والسُّؤال: إذا لم يستغنوا عن

السؤال في هذا اليوم؟ إذا، فإن الإسلام جعل إغناءهم غاية في هذا اليوم، وهذا ما علينا تحقيقه.

رسالة صدقة الفطر: إنَّ هذا الشَّهر يبلغ بالعبد الذروة في الإيجابية في ذروته وختامه.. فأي عمل متعد أكثر من أن تتحول الأمة كلها بكل فصائلها وأسرها وأفرادها إلى أُمَّةٍ مِعْطاءٍ من أغنى رجلٍ فيها إلى مَنْ لا يملك إلَّا قوت يومِهِ ومزيد صاعٍ.

وهكذا المنهج في ختام الحج، فبعد عرفة وبعد المشعر الحرام وذروة الإيمان يأتي الذبح، والنحر، والتضييف، والتعارف في منى.

رسالة صدقة الفطر تقول: إن صدقة الفطر آخرها في رمضان وأولها في أشهر العام، فهي الرباط الموثق بين رمضان والحياة، وهي المعبر الموصل لخيرات رمضان وتقواه لكل الحياة.

وصدقة الفطر عبادة مالية جاءت عقب عبادة صفتها أنها بدنية لما فيها من جوع الأبدان وعطشها، وهو عبادة إيمانية لا جدال فيها.. فهي تحقق التكامل في التنوع.

زكاة الفطر عبادة سهلة؛ إذ إن الله سبحانه لم يكلف العبد الكثير، إنما هو صاع من غالب قوت البلد.. وما أيسره على الفرد! لكن ما أكثره عند الفقير وخصوصًا إذا اجتمعت عنده أصوع كثيرة في هذا اليوم العظيم!.

زكاة الفطر تخفض الفروقات في المجتمع المسلم في الأساسيات، فأنت ترى أن الجميع قد أصبح يملك الطعام لأهله، والطعام لضيفه، وكونه ملك الطعام لضيفه فقد انستر حاله.

زكاة الفطر تحقق فيها أغلى أمرين عند البشر ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[قريش:٤]، فأما ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ فواضحة، وأما ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، فإنه لا صورة على الضد من صورة الخوف مثل صورة الفرح، ولا فرح مثل العيد.

زكاة الفطر رسالة إلى هذه الأمة أن بإمكانكم جميعًا مهما كبرت أمتكم أن تجتمعوا على مشاريع مشتركة، وهل أعظم من مشروع العطاء الموحد في صورة صدقة وفي وقت محدد لكل الأمة.

زكاة الفطر فيها تدوير للمال، وتحريك للسلع، فأنت إما أن تنفق من طعام أهلك وطعامك وبناء عليه فسوف تشتري غيره، وإما أن تشتري للفقير مباشرة .. وهذه رغم ما فيها من قلة في نظر كل فرد لكنها نقاط تملأ أكبر الحياض، حيث ترتكز طاقة المجتمع الشرائية على نقاط تجارية محددة وفي المطعومات فقط، ومن نظر إلى أعداد المحلات الخاصة بهذا وجد حركة كبيرة.

لَيْلَةُ الْهَدِيرِ بِالتَّكْبِيرِ

حرصت على أن أنام اللَّيلة - ليلة العيد - قبل منتصف الليل.. توضأت.. ترددت؛ هل أصلي أول اللَّيل أم آخره استمرارًا على عادتنا في رمضان.. قررت أن أركع ركعتين لغلبة تثاؤب وكسل..

ما أفقت من الركعتين إلَّا وأنا في التشهد.. لم أشعر أني صليت! لم أذكر شيئًا فيهما!

سبحان الله: أهكذا أصبحت صلاتنا بعد رمضان؟! أم هكذا صنعت الشياطين التي انفلتت على صلاتنا ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦] نعوذ بالله منه؟ أم هو الاغترار بما قدمنا، أم ماذا؟

نعم: نحن الذين نفتر ونبرد ونتراخى.. كما أننا نحن الذين نجد ونجتهد!

يا هذا: ارجع سريعًا واشكر ربك من جنس نعمته سبحانه التي أنعم عليك كما قال سبحانه: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

يا هذا! إن التَّقوى زاد طُبخ ونضج حتَّى وضع على مائدة رمضان، فخذ الزاد من رمضان على أمل أن تلاقيه بسلام، قال الله سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وكما أن الزاد لا يبقى في قدره، فكذلك التَّقوى لا تبقى في شهرها.

شعرت – والله – وأنا أختم هاتين الركعتين بغير خشوع كأن فاصلًا زمنيًا هائلًا بيني وبين شهر الخشوع.. فصرخت على نفسي: هبي سريعًا، وارجعي إلى بر الخشوع قبل أن يتسع الفارق.

ألا يكفي ذاك الجو الإيماني الجماعي الَّذي دخلته أن تنطلق من اليوم بمفردك، ألا يكفي ذاك التدريب المكثف على الطيران في منازل التَّقوى وغرفاتها العليا أن يكون لك ريش يحملك بجناحيك لتبلغ مأمنك ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[الأعراف:٢٦].

ألا يكفي ذاك القيام أن يعودك القيام والعكوف على القرآن، يعودك الذكر الدائم والدعاء الطويل .. وقل ما تشاء من الأعمال؟

ألا تكفي أعمال القلوب أن تعودك على أمثالها في الفطر؟

ألم يقل الله سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح:٧-٨] ؟

أليس الإقبال في أساسه إقبال القلب ... فأين قلبك؟!.

لا تيأس، تعال، فهذه مرحلة معتادة، ولكن التنبه لها فورًا هو الواجب قبل أن تطول وتستمرَّ وتُسْتَمْرَأ.

نعم، لرمضان جوه.. لرمضان عالمه .. رمضان حياة بأكملها .. حياة لا نظير لها .. واهًا على رمضان وواهًا!

إني أشعر أني اليوم على المحك، لكن هل شرع رمضان لرمضان؟ أبلغ التعبير بالتكبير:

كفى هذه النعمة المنصرمة تعظيمًا أن يجعل الله تعالى في التعبير عن شكرها

التكبير، ويقول نصًّا في القرآن: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فالمؤمن ذاهب من تعظيم هذه النِّعمَةِ مع كلِّ تكبيرةٍ..

وفي مزيد تعظيم لهذه النعمة معَ كلِّ تكبيرةٍ .. وهكذا فهوَ في مَزيدِ تكبير لله سبحانه لِسانًا وقلبًا وعقلًا وَلُبًّا .. متصاعدًا لا يتوقف .. ذلك أنها ليست تكبيرة واحدة، ومن ثمَّ فهي ليست فكرة واحدة، فإن في التكبير، وتكرار التكبير، وارتفاع الصوت به ربط تعظيم، ويا له من تعظيم، «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر**»..

الله أكبر: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥] فما قال ربنا سبحانه: ولتكبروا الله على الصِّيام ولا القيام ولا الاعتكاف، وما إلى ذلك من أعمال كريمة .. ولكنه سبحانه قال – وقوله الحق: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥] والصيام والقيام والاعتكاف ونحوها من الهداية الكبرى إلى هذا الدين وهذه الأعمال ما هي إلَّا فرع منها كما قال الصحابة يوم الخندق: «**اللَّهمَّ لولا أنت ما اهتدينا .. ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا**»، هذا وَهُمْ في الجهاد في سبيل الله مع رسول الله ﷺ.

لا شكَّ أنَّ الصَّوم والصَّلاة والاعتكاف كلُّها هداية ... ولكنَّ الهداية الَّتي نَبعتْ منها كل الهداية هي الهداية لهذا الدين .. الهداية لمعرفة رب العالمين والإيمان بسيد المرسلين ، وفي هذا إشارةٌ جليةٌ إلى العودة إلى الأصل وعدم التعلق فقط برمضان أو بأي شعيرة من شعائر الإسلام، فكل الشعائر نقاط في خط الهداية المستقيم العظيم.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥] فإذا كبرتموه على ما هداكم

حقًّا فذلك شكر هذه النعمة .. كما قال في آخر الآية: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فإنكم لا تكافئون الله ﷻ على شيء من الأشياء أبدًا، فيكف تكافئونه على نعمة الصوم والصلاة والاعتكاف وما إلى ذلك، وكيف تكافئونه على نعمة الهداية الكبرى، وما شكركم إلَّا نقطة في خط الهداية الَّذي ليس له نهاية.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، إذا فهي المواصلة في طريق العبادة طوال طريق الحياة .. لأنه فعل مضارع يفيد الاستمرار، وبهذا تحولت نعمة رمضان إلى مطلوب آخر وهو الشكر على هذه النعمة العظيمة.

تحولت ذكرى رمضان من ذكرى مجردة إلى شكر عملي مستمر لا ينقطع؛ لأن غاية الشَّيطان أن ينقطع الشكر كما قال لرب العالمين سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] نعوذ بالله منه، بل تحول فضل الله في رمضان إلى عهد يلزم صاحبه بتحقيق شكر الله سبحانه عليه.

ومن لم يقدر نعمة إدراك رمضان حق قدرها فلينظر بين منزلة رجل صالح مات قبل رمضان ومنزلة ذلك الرجل لو أنه أدرك رمضان.

إنها مسافات لا تقاس بالمسافات ولا بالأزمان .. ولا تدرك حتَّى بالشهادة في سبيل الله.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رجلان مِن بَلِيٍّ – حَيٌّ مِن قُضَاعة – أسلما مع رسول الله ﷺ، فاستشهد أحدهما، وأُخِّر الآخرُ سنة، قال طلحةُ بنُ عبيدِ الله: فرأيتُ المؤخَّرَ منهما أُدْخِلَ الجنة قبل الشهيد(يعني في منامه)، فتعجبتُ لذلك، فأصبحتُ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: « أليسَ قدْ صَامَ بعدَه رمضانَ، وصلَّى

سِتَّةَ آلافِ رَكعَةٍ، وَكَذَا وَكَذا رَكْعَةً صَلاةَ سُنَّةٍ»[1].

وهذه هي المنهجيَّة الموحَّدة في أخذ العهد العظيم بعد نعم الله، وأعظم نعمة: العبادة والاستعانة بالله على شُكرِ تلك النِّعمة.

كما في حديث ختم الصلاة: عَنْ مُعاذِ بْنِ جَبلٍ ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ أخذ بِيدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعاذُ، والله إِنِّي لأُحِبُّك، والله إِنِّي لأُحِبُّك» فقال: «أُوصِيك يا مُعاذُ لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ تقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِك وشُكْرِك وحُسْنِ عَبادتِك»[2].

ولهذا الشُّكر في خِتام رمضَانَ أَهمِّيَّةٌ عظيمةٌ، منها: تَحسُّس النِّعمة العظيمة بتمام الشَّهر.

﴿ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ هكذا أمر الله سبحانه وتعالى بها .. وهكذا جاء تفسيرها على لسان الهادي فعلًا حيث كان يكبر للعيد بقوله: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر .. لا إله إلَّا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد».

إنها تكبيرات الهداية.. والتكبير على الهداية التي من خلالها يتذكر الإنسان ما كان عليه النَّاس قبل الهداية لهذا الدين، ويتذكر نفسه لو لم يكن له نصيب في الهداية .. ويشفق على هذه الأمم التي تغرق في التيه والظلمات.

«الله أكبر ..»: إنها تكبيرات العزة .. فالمسلم لا يعرف التكبيرات هذه إلَّا تكبيرًا؛ معنى ومبنى .. حقيقة وواقعًا .. الله أكبر لأرفع صوت وهو الأذان، الله أكبر .. الله أكبر.. الله أكبر: هو أول ما تستقبل به الأيام بعد ذهاب رمضان .. إنه

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٣)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني.

إعلان كإعلان الاستعداد لما هو قادم من مخاطر؟ فالغِيلانُ[1] إذا غالت وهي شرار الشياطين تطرد بالتكبير، وبه تفزع وتخسأ .. وكذلك إذا طلعت الشياطين من حبسها بعد رمضان استقبلت بالتكبير .. فلك أن تتصور فزعها ومفاجأتها بهذا السلاح النافذ لمقتلها، وهذا التحصن من مكرها.

التكبير هو أنسب ما تستقبل به النار إذا تفتحت أبوابها .. فإن النبي ﷺ قد علمنا إطفاء النار إذا اشتعلت بالتكبير ... وهذا ما يمكن أن نستقبل به هذا الأمر الخطير..

التكبير هو عنوان الاستعداد لاستقبال أيام عواصف الأهواء والفتن التي تنتظر المرء بعد موسم العبادة الطيب الكريم، فهو عنوان صحة الانطلاق وترك السلبية .. وتحول تقوى الصِّيام إلى أعظم صيغ التفاعل وعناوينه في هذه الحياة، الله أكبر لصعود المرتفع من الأرض .. و «الله أكبر..» هنا لعظيم هذه النعمة.

«الله أكبر»: لم يأتِ الحمد في أول هذا الذكر الَّذي أعقب هذه النعمة مباشرة، فلم يشرع لنا أن نردد الحمد عقب هذه النعمة، إنما جاء الحمد في آخر الذكر.. فالنعمة لظهورها لا تحتاج إلى ذكر ولا تقديم في الذكر، إنما الذكر الجامع لجميع المعاني التي ذكرنا والتي ستأتي هو التكبير .. وهذه النعمة من العظمة بحيث بلغت حدًّا فوق الحد .. حدًّا كبيرًا وعظمة عظيمة .. فليس له إلَّا التكبير مقابلًا.

لربما كان الإنسان وهو في وسط الشيء لا يدرك عظمته كما لو كان في

(١) الغول أحد الغيلان، وهي جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس فتتغول تغولا، أي: تتلون تلونا في صور شتى، وتغولهم، أي: تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله. انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ١٤٩).

خارجه .. هكذا الأمر في رمضان .. أما بعدما يمر فإن المتأمل يذهل لعظيم ما مَنَّ الله عليه به في هذا الشهر العظيم.

فليستحضر المسلم هذه النعمة العظمى مع كل تكبير، ولا يغفل عن فضل الله العظيم فينظر لأحرف تكبيراته فيراها جوفاء من غير معان أو لب.

تأمل كيف رُتبت هذه التكبيرات العظيمة .. فبعد كل التكبيرات وفي ختام كل الذكر هذا تأتي غايته، وهي « **ولله الحمد** » فالتكبير والتعظيم هنا هو تعظيم حمد، تعظيم الحامدين .. تعظيم النعمة والمنة .. بل تعظيم الله ذي الفضل والنعمة والثناء الحسن..

« **الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلَّا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد** »: هنا إشارة التَّحوُّل الكبير، إنَّها النَّقلة العظمى ما بين شهرٍ وشهرٍ، ما بين حياةٍ وحياةٍ، الله أكبر تعلو هذا البرزخ الزَّمانيَّ، وتربط هذا الذُّرى الإيمانيَّ.

« **الله أكبر ..** »: حقًّا إنَّها في ختام موسم عبادة عظيم، لكن عبادتنا ـ معاشر المسلمين ـ عبوديَّةٌ لله وذِلَّةٌ له سبحانه، وهي في نفس الوقت عِزَّةٌ بالله واستعلاءٌ على الباطل، وهذا بعض مناسبات التكبير لهذا الظرف، فروح الصراع مع الباطل تجدد في هذا التكبير، وروح النصر تجدد فيه .. فلو استحضر هذا المعنى كل مسلم من المسلمين عند تكبيره لتحقق النصر في النفوس اعتزازًا بالله، وثقة به سبحانه، وهذا هو المؤذن بتحقيق النصر الكبير في واقع الحياة، فالهزيمة في أساسها هزيمة نفسية، وليست بكثرة ولا سلاح.

« **الله أكبر ..** » لا أحد أكبر من الله، ولا كبير إلَّا الله سبحانه، فكلما تراءى للناس شيء كبير جاءت هذه القيمة العالية في هتاف المسلم في هذه المناسبة

الكبرى «الله أكبر»، وكلما اغتر النَّاس بكبير كان «الله أكبر» .. وهذا عنوان الاستقلال في التلقي عن الله وحده، ورد كل شيء من سواه؛ لأن «الله أكبر» فهو منهج حياة .. أكبر من كونه خصوصية عيد فحسب، فبما أن «الله أكبر» فإن شرع الله أكبر، فنحن أعظم ما نكون اقتصارا على هدي رسول الله ﷺ في هذا العيد؛ لأنه موطن التكبير «فهذا عيدنا» هكذا قال النبي ﷺ، وبهذه الخصوصية .. فنحن هنا أبعد ما نكون عن تقليد غيرنا من الأمم في عيدها وطريقة احتفالاتها ولباسها وطريقة حلاقتها، وما إلى ذلك.

« **الله أكبر الله أكبر..**» هذا هو العنوان والقاسم المشترك لعيدي الإسلام، فلاتكبير هو الرابط الأظهر ما بين عبيد الفطر وعيد الأضحى.. وهو الرابط ما بين الصِّيام والحج، والرابط ما بين الحاج في حجه ومناسكه وبين المقيم في بلده.

«الله أكبر.. الله أكبر» كما أخبرنا بأن كل ما حولنا من مخلوقات يسمع ويشهد، من شجر وحجر ومدر، سواء كان ذكرا أو أذانا أو تلبية، وأن هذا التمدد للذكر يزداد تمددا حتَّى ينتهي من ههنا وههنا، فإن الدعوة في حقيقتها لكل المسلمين أن يرفعوا أصواتهم بالتكبير جماعات ووحدانا حتَّى ترتج بهم البيوت والمساجد والأسواق والمركبات.. وينبغي أن يتواصل هذا التكبير حتَّى لا يكاد ينقطع أبدا.. فلو كان ذكر أحب إلى الله من العج بالتكبير للعيد لشرعه سبحانه، فليسجل كل واحد ما شاء تكبير الله بلسانه وبأعلى صوته وأعلى استحضاره.

تأمل كيف رتبت هذه الكلمات؟ كيف قسمت؟

التكبيرات الثلاث أولًا، وفي مقعد الذكر ووسطه «**لا إله إلَّا الله**»، ثمَّ تعود

للتكبير وتختم بالتحميد .. «**الله أكبر ولله الحمد**»، فأي سر في هذا الإحكام .. ؟ أي تناسق لهذه المعاني .. أي تسلسل في تصاعد هذا، أي مناسبة للتناسق مع هذا الحدث العظيم.

أي أمة تحتفل بعيدها مثل ما تفعل أمة محمد ﷺ ؟

أي أمة تخرج من بيوتها مع البكور تهتف بالتكبير متوجهة نحو نقاط محددة تلك هي مصلياتها ومساجدها مثل هذه الأمة؟

أي أمة تنتظر في بلادها ارتفاع شمسها رمحًا أو رمحين لتبتدئ صلاتها لله رب العالمين لئلا يخالط عبادتها أي شبهة أو تشبه أو مخالفة للمشركين حتَّى ولو كان في الوقت الواحد.

أي أمة هذه التي خرجت من كل مكان في هذه الأرض، لها زجل من التكبير، والأرض بهم ترتج .. حتَّى إذا ما ابتدأت صلاتها قطعت تكبيراتها وابتدأت صلاتها بالتكبير، فمن التكبير إلى التكبير.. من التكبير لله سبحانه في الحياة إلى التكبير ونحن بين يدي الله.. فالحمد لله العلي الكبير.

أي أمة هذه التي تستقبل بكر أيام فطرها بصلاة في البكور؟

إنه عنوان الإقدام على الحياة بنشاط أكبر، والعنوان أن الرابط ما بين الحياتين أو الشاطئين رمضان وما بعده هو الصلاة.

وهذا التوقيت هو عنوان التفاؤل في الحياة القادمة، وذلك من حلال اختيار البكور لصلاة العيد وليس الظهر ولا المغرب ولا الليل، فهنيئًا لك أيتها الأمة المباركة بهذا الشرع المبارك.

الذكر الَّذي يعتبر معقد التلبية كلها، هو معقد تكبير الحج، هو معقد تكبيرات العيدين، هو ذكر يوم عرفة، هو معقد كل ذكر؛ لأنه ورد في تتمته، فهل تصبح هذه العبارة أعني: «**لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له**» ... خير ما قاله رسول الله ﷺ والأنبياء من بعده؟

لكل أمة نشأت شعار، ولكل ثورة ناجحة شعار اجتمع مؤسسوها عليه، وحشدت الجموع منه، أما «**لا إله إلَّا الله**» فإنه الشعار الَّذي رفعه من أوَّل يومٍ إلى آخر يومٍ: «**قولوا لا إله إلَّا الله تُفْلحوا**»(١).

فيجب على الأُمَّة أن تحتضن شعارها في أحضان قلوبها ودَقَّاتِها، وأن يكون معقد كلماتها ومحورها.

يجب على الأمة أن تعرف ما تقول في عيدها.. ولا تكون قلوبها في واد غير وادي لسانها.

إنه الإعلان في يوم العيد أن «لا إلَّا الله» بكل معانيها العظمى .. فلا معبود بحق إلَّا الله، ولا مستغاث إلَّا الله؛ لأنه لا مغيث بحق إلَّا الله، ولا شرع إلَّا شرع الله، ولا عدل إلَّا حكم الله، ولا مالك للنفع ولا الضر إلَّا الله.

لا إله إلَّا الله عبودية للقلب بها.. ومنهجية الحياة وفق مقتضياتها.

الله أكبر، والله أكبر، الله أكبر، لا إله إلَّا الله، والله أكبر الله أكبر، ولله الحمد.

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٩٢) من حديث ربيعة بن عباد، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

الفصل الخامس

عُهُودٌ رَمَضَانِيَّةٌ

الفصل الخامس
عُهُودٌ رَمَضَانِيَّةٌ

فترت نفسي عن العبادة .. وانخفضت هِمَّتي عن التَّطلُّع للمزيد.. مرَّ اليوم الثَّاني للعيد، والثَّالث والرَّابع وأنا أرى الهِمَّة في مزيدِ خفوتٍ وأُفُول .. تَنبَّهتُ فجأةً لهذا الخَدار الَّذي يَسْري في عصب الهِممِ فيُخدِّرها ونحن لا ندري .. انتفضتُ من داخلي حزنًا وأسىً... أردت إعادة الهِمَّة كما كانت ... نظرت إلى الصَّحب .. إلى الدُّنيا مِنْ حولي .. وجدت كلَّ شيءٍ في هذه الحياة مرآةً عاكسةً لحالتي الدَّاخليَّة.. وجدت الصَّحب صورةً تحكي ما في داخل نفسي .. لم أجدْ ما يثير هِمَّتي ..!

آهٍ، كَمْ سَنُعَاني لفقدك يا رمضان! آهٍ، كم نحتاج لصناعة أجواء مثل أجوائك يا رمضان! آهٍ، كم نحتاج إلى التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، والتواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبر بعدك يا رمضان.

حُزْنٌ عميقٌ.. شهيقٌ كأنَّه – على تلك الأيَّام – حريقٌ!

هنا تذكَّرت أنَّها الحقيقة الواقعيَّة الَّتي تمرُّ علينا كلَّ عامٍ من قبل، وذلك بعد رحيل رمضان.. فرمضان ذروةٌ لا يمكن بلوغها في سائر أشهر العام.. هذه حقيقةٌ يجب ألَّا نُجادل فيها، ومَنْ طلب أشهر العام كرمضان فقد طاول مُحالًا.. كيف وربُّنا سبحانه ما جعله كذلك إلَّا لِحَدثٍ فريدٍ لم يحدث في سواه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥] إنَّ الخير المدرك في رمضان شيءٌ،

والخير غير المدرك فيه شيءٌ آخر، نَعَمْ، يصل البعض إلى ذُرى عظيمةٍ في مواسم.. كيوم عرفة أو أيَّام التشريق أو أيَّام العمرة، أمَّا شهر بأكمله وبهذه الصِّناعة الشَّاملة وبهذا المعراج الإيمانيِّ النفَّاذ فهذا شيءٌ آخر.. ولا يعني هذا أبدًا الاستسلام للأمر، وأنَّ الانحدار عن ذروة رمضان حَتْمٌ مَقْضِيٌّ ..! فلئن ذهبتْ ذروة الزَّمان فما ينبغي أن تذهب ذروة الإكمال بالنِّسبة للأزمان... فلكلِّ زمانٍ ذروتُهُ .. وللمسلم ذراه؛ ولذا فقد قَيَّدتُ هذه الوصايا الَّتي أَصْغيتُ فيها لمنطق رمضان العظيم المهيب، علَّ هذا هو ما يدور في النفوس الحزينة على فراقه، علَّ فيها حفظ ودٍّ وإقامة على عهد حتَّى اللقاء في الدنيا أو في الآخرة.

الوصيَّة الأولى: تحويل المشاعر إلى شعائر: أيُّها الصَّائم أيَّامي... القائم ليالِيَّ... مهما حاولت أن تعيش جوِّي النَّفسيَّ فإنَّه سوف يتبخَّر؛ لأنَّك جعلته مُجرَّد مشاعر .. والمشاعر لابدَّ أن تتبخَّر؛ لأنَّها سوف تأتيها مشاعر أحَرُّ منها وسوف تُبخِّرها.. وسوف تأتي مواسم واقعية، وسوف تفرض نفسها وتنساني .. والواقع أكبر تأثيرًا في النفس من انطباع الماضي.

والحلُّ هو أن تحوِّل المشاعر إلى شعائر، حَوِّل الذِّكريات إلى التزاماتٍ، حَوِّل دُروسي إلى عُهودٍ على مدى الزَّمان.. وإيَّاك أن تنتظر مرور الأيَّام.

فالميزة العظمى هو القرآن .. هو سرُّ بركتي .. هو سرُّ عظمتي .. هو سرُّ هذا الخشوع الَّذي تعيشونه .. هو سرُّ قيامي .. هو سرُّ تنزُّل ملائكة الله في أجوائي .. هو كلام الله، شهرٌ بأكمله لا أبْرَكَ منه واديًا في الزَّمان كلِّه ولا أقدس، فأنا مُتَنَزَّل كلِّ كتابٍ مقدسٍ، فالنَّبيُّ يقول ﷺ: **«أُنزلت صحفُ إبراهيم أوَّل ليلة من رمضان، وأُنزلت التَّوراة لستٍّ مَضَيْن من رمضان، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة**

ليلةً خَلَتْ من رمضان، وأُنزل الزَّبور لثماني عشرة خَلَتْ من رمضان، وأُنزل القرآن لأربعٍ وعشرين خَلَتْ من رمضان»[1].

فلا بدَّ أن يتَّصل مشوارك مع القرآن مِنْ بعدي إلى أن آتيك العام القادم .. لا تنازل عندي عن هذا لتكون وفيًّا لهذا الكتاب الأعظم، ولِرَسُولك ﷺ، ووفيًّا للعهد الَّذي عقده قلبك في أيَّامي ولياليَّ، ولكي تضمن - بإذن الله - الخروج من أصعب شكوى تُرفع في أصعب يوم؛ إذ البعض بانتظار شفاعةٍ فتأتيهم الطَّامَّة .. ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وكم مرَّ عليَّ من أُناسٍ صاموا وقاموا وتصدَّقوا وذكروا، لكن أين الأوفياء؟! فإنَّ مزيَّة الإخاء هي التَّواصل والمواصلة وإلَّا فَمَنْ قطع انقطع.. لابدَّ أن تبتدئ ختمة القرآن .. قراءةً من المصحف أو مِنْ دونه أو بعضها منه، وبعضها من الحفظ من قبل انتهاء رمضان بليلةٍ واحدةٍ على الأقلِّ لتشدَّ الوثَاق العظيم من آخره هنا إلى أوله في العام القادم، أو على الأقلِّ من ليلة العيد؛ لأنِّي شهدتُ أن مَنْ يبتدئ برنامجه بعد فاصل العيد غالبًا ما ينفصل... ولابدَّ أن تكون الكمِّيَّة جزءًا واحدًا من أجزاء القرآن الثَّلاثين في اليوم واللَّيلة على الأقلِّ حتَّى تضمن في آخر الشَّهر العربيِّ أن تختم ختمتك الأولى، وتبتدئ مع الشَّهر الثَّاني ختمةً ثانيةً أو تجعل ابتداءها في آخر يومٍ من الشَّهر الأوَّل، وهكذا تصنع بالشَّهر الثَّاني والثَّالث، فأنت تواصل آخر يومٍ من الشَّهر بِأوَّل يوم من الشَّهر الجديد، فتصبح الأشهر مُتَّصلةً بالقرآن، وتصبح الحياة مُتَّصلةً كلُّها إلى لقاء جديد باثنتي عشرة ختمة في العام، ودَعْ حفظ الحسنات على تعداد الأحرف عند من قال الله فيهم:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٠٧) من حديث واثلة، وحسنه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٧٥).

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، ودع مضاعفات هذه الجبال عند الرحمن الرحيم الودود سبحانه، ودع الأعوام تمرُّ تلو الأعوام المديدة لعمرك المبارك المديد بإذن الله يباركه القرآن ويشهد لك ويصحبك هناك، فلتهنأ بالكفالة والشَّفاعة والضَّمان.. والله سبحانه يشهد ذلك، وما أحسن أن يَتَّصل اللَّيل بالنَّهار كذلك، فنصف جزءٍ في النَّهار ونصف جزءٍ في اللَّيل قيامًا، وهذا من أحسن ما يكون إن كان مُقَررك جزءًا واحدًا فقط.

وبهذا تكون محافظًا على القرآن في ختماتٍ على مدى الأشهر، ومحافظًا على القيام على مدى اللَّيالي، ولك في كلِّ ليلةٍ مع ربِّ العالمين لقاءٌ وأيُّ لقاءٍ، فإذا ما فاتك وِرْدُك من القرآن التزمتَ بقضائه، وإلا فلن تَسْلم لك ختمتك في آخر شهرك، فالحذر مِنَ التَّنازل عن هذا مهما كان الانشغال، فالنَّبيُّ ﷺ كان يسافر وما كان يترك القيام بالقرآن، وكان في المعركة وما يترك في ليلتها القيام بالقرآن كما فعل ليلة بدرٍ.

فإنْ حافظت على هذا فَأَبْشر؛ فإنَّ هذا هو وَقُودُ طاقتك الإيمانيَّة الَّتي تَعْبر بك بحر السَّنَة وأنت في مأمنٍ من التَّوقُّف والانقطاع في ظُلُماتها حتَّى تصلَ سالمًا آمنًا إلى الضِّفَّة الأخرى -بإذن الله.

وعليك أن تتنبَّه جَيِّدًا لوصيَّتي هذه، فَلَسَوْفَ يُصيبك فتورٌ إيمانيٌّ يطير بكثيرٍ من الإيمانيَّات الَّتي رَضَعْتها في أيَّامي ولياليَّ بعد مغادرتي .. سوف تشعر ببرودٍ أو فتورٍ أو خَدَرٍ .. سوف ترى الحياةَ ليست كالحياة، والنَّفسَ في داخلها ليست كالنَّفس، والمجتمعَ ليس كالمجتمعِ.. والبرنامجَ ليس كالبرنامج.. كلُّ شيءٍ يختلف! أقول لك: لا عليك، هكذا خَلَقَ اللهُ الحياةَ، وهنا يَحْلو التَّحدِّي ... هنا يبرز أهل الإيمان رجالًا ونساءً ... هنا يكون الثَّبات الفعليُّ .. هنا تكون مقارعة

الأهواء ويكون الانتصار الفعليُّ على الشَّيطان وإخزاؤه، ويكون بعدها استسلام النَّفس، ويكون الإسلام بالكليَّة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة:٢٠٨]، هنا تكون فاعليَّة التَّقوى الَّتي عقد الله راية رمضان عليها ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ لمن أراد أن يحملها.

ستظهر عوائقُ .. ستظهر متاعبُ .. سيظهر إرهاقٌ لتَغيُّر نظام النَّوم والاستيقاظ، والأكل والشُّرب، والزِّيارات والصَّلات.. وما إلى ذلك، فإنْ تخطَّيْتَ كلَّ هذه العوائق فأنت - بإذن الله - أقدر على غيرها مِمَّا هو قادمٌ في قادم العام حتَّى ألقاك أَوْفَى وأعظم وأكرم .. وسوف تكون بإذن الله - عند ذاك اللِّقاء القادم يوم آتيك من العام القادم وأنت شيءٌ آخر.. لم يمرَّ عليك في حياتك؛ لأنَّك سوف تبتدئ معي من درجةٍ عُليا لم تبتدئ معي منها من قَبْلُ؛ ولذلك سوف تَشْهد مِنِّي منازلَ لم تبلغها من قَبْلُ بفضل الله وحده.

وثمَّة عائقٌ آخر خفيٌّ تنبَّه له جَيِّدًا .. ذلك العائق هو الغفلة الدَّاخليَّة عن معاني الآيات .. لقد كانت الآيات تفعل فِعْلها في رمضان في نَفْسك .. لقد كان التَّدبُّر والتَّأمُّل والخشوع شيئًا عظيمًا.. إنَّ مصيبةَ كثيرٍ من المُحافظين في أوَّل أيَّام فراقي على قراءة القرآن هي المحافظة على التِّلاوة دون التَّدبُّر، وهذا سرعان ما ينقطع ويتوقَّف لتوقُّف الوقود، وحاله كحال السَّفينة المنطلقة في هذا البحر بقوَّة الدَّفعة الَّتي دُفعتْهَا من السَّاحل.. لذلك فإنَّ مصير هذه السَّفينة أن تتوقَّف ؛ لأنَّه ليس فيها مُحرِّكٌ في داخلها، إنَّما هي تجري بقوَّة الدَّفعة الَّتي تَلَقَّتها في رمضان .. نعم إنَّه تحدٍّ داخليٌّ.. فكلُّ العناصر المؤثِّرة المحيطة تنزع منك التَّدبُّر والخشوع انتزاعًا .. كلُّ شيءٍ يدعوك إلى التَّركيز على الصُّورة

وترك اللُّبِّ والحقيقة .. كلُّ شيءٍ يدعوك لإنهاء المقرَّر اليوميِّ لتنام مرتاحًا في اللَّيلة الأولى.

إن معاني القرآن المتفجرة عند قراءتك للختمة هي وقود الرُّوح.. هي نور القلب .. هذا سرُّ الطَّاقة .. سرُّ حياتك الإيمانيَّة، فلا تتنازل عن السِّرِّ لأجل المظهر، وهذا ما ذكرناه في «**العبادة المُتعدِّية والعبادة القاصرة**».

احذر من أمرٍ هو أكثر خفاءً من كلِّ ما مرَّ، وهو أن تكون المشاغل - الَّتي سوف تصدُّك عن إكمال المقرَّر اليوميِّ للقرآن قراءةً وتدبُّرًا - أعمالًا شرعيَّةً.. مشاغل تأتيك في صورة أعمالٍ شرعيَّةٍ متعدِّية النَّفع..! نترك القرآن لفترةٍ - ضرورةً - بعد فراق رمضان في الأيَّام الأولى، ولربَّما تكون كذلك - ضرورةً - لكنَّها للأسف لم تكن أيَّامًا إنَّما هو الفراق إلى اللِّقاء .. إنْ كُتِبَ اللِّقاء.

هنا يجب أن يتضاعف الحزم والحسم، فلا .. إلَّا القرآن.

وكلٌّ يُقدِّر ضرورته، والحكمة هي سرُّ النَّجاح، والضَّمانُ - بإذن الله - هو بُعْد النَّظر إلى مآلات القرارات أكبر من النَّظر إلى حاجز اللحظات .. فهذا ما يعطي البرنامج نجاحه وفاعليته، وإنَّ عَدَمَ التَّنبه إلى النُّقطة كَلَّفَت الدُّعاة وطُلَّاب العلم وأهله ضياعًا مُحقَّقًا؛ لأنَّه ضياعٌ موعودٌ غير مكذوبٍ «**ما إن تمسكتم به لن تضلُّوا بعدي**»[1] وثمَّة تجاربُ نفسيَّةٌ، وأحيانًا خَبَثٌ شيطانيٌّ - نعوذ بالله منه - .. تناشد العازمَ على صُحْبَة القرآن يوميًا بأنِ اترك القراءة اليوم لأجل العمل المتعدِّي، فإيَّاك ثمَّ إيَّاك أن تترك القرآن، فالقرآنَ .. القرآنَ .. القرآنَ.

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي (٣٧٨٨) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، وصححه الألباني.

ما رأيتُ مَنْ جعل القرآن ضحيَّةَ برنامجه، إلَّا أصبحت ثماره هي الضَّحيَّة، يجري بأشدِّ ما يستطيع الجري، لكنه ليس له إلَّا الجوع والعطش! ومن طريقه إلَّا اغترارًا كاغترار مَنْ يجري وراء السَّراب في أرض الخراب.

الوصية الثانية: الصِّيام: أيها الصَّائم شهري بأكمله، لو كان لكلِّ شهرٍ هيكلٌ أساسٌ يقوم عليه كما يقوم البناء، ثمَّ يُكسى بما يُكسى به البناء.. لكان هَيْكلي هو الصِّيام.. أليس الصِّيام: هو تركُ المفطرات بِنيَّةٍ من طلوع الفجر الصَّادق إلى غروب الشَّمس، أليس هو هو في رمضان وبعده.. سواء بسواء، أفيمكن أن يُضيِّع الوفيُّ القادرُ الهيكلَ ويبقى البناء مستقرًّا..؟ ثمَّ إنَّ كلَّ العبادات التي بعد رمضان لم تُبرمج برمجةً شرعيَّةً منصوصًا عليها، وإنَّما تُرِكت بعد رمضان للأصل وهو التَّقوى الَّذي حمله العبد في الشَّهر العظيم إلَّا الصَّوم؛ فإنَّه جُعِلَ سُنَّةً من شَوَّالٍ نَصًّا صحيحًا صريحًا.

وقد بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ وجهَ الأجر فيها، وهي تغطية العام كلِّه في حسابات الأجور، فقال: «**مَنْ صام رمضان وأَتبعه بستٍّ من شَوَّالٍ فذلك صوم الدَّهر**»[1]، وذلك لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من صامَ ستَّةَ أيامٍ بعد الفطر كان تمام السنة، من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**»[2].

ويمكن أن يعظم الإحسان والوفاء أكثر، فيصبح في كلِّ شهرٍ ليغطِّي بهذه البرمجة العام كلَّه مَرَّةً أخرى كما قال - صلاة الله عليه وسلامه -: «**صيام ثلاثة**

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٦٣٤) من حديث عمر بن ثابت الأنصاري، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) رواه ابن ماجه (١٧١٥)، وصححه الألباني.

أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ صيام الدَّهر أيَّام البيض، صبيحة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة»[1].

ويمكن أن تكون أضيق فارقًا وأوسع أجرًا، فتكون في كلِّ أسبوعٍ كما ورد عن عائشة قالت: «**إنَّ رسول الله ﷺ كان يتحرَّى صيام الاثنين والخميس**»[2].

وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ؟! قَالَ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاس عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[3].

ليس الغريب على أصحاب بعض الأمراض الَّذين يُنْهون عن الصِّيام أن يتركوه، بل رُبَّما يكون هذا هو الأفضل في حقِّهم، لكنَّ الغريب من الشَّابِّ؛ ذكرًا أو أنثى الَّذي لا يجد أيَّ مرضٍ ولا خوف ضررٍ ومع هذا يتخوَّف من الصِّيام ويُعْرِض عنه، وكأنَّ في الصوم قَبضَ رُوحِهِ أو ذهابَ عافيتِه، والصَّومُ خيرٌ كلُّه .. فتذهب عليه الأيَّام وهو مفطرٌ، ويذهب عليه الوقت وهو لا يصوم من عمره إلَّا رمضان، ورُبَّما إنْ زاد فسِتٌّ من شَوَّالٍ، وصيام يوم عرفة ويوم عاشوراء بالرغم من أنَّ الأحاديث الواردة عن النَّبيِّ ﷺ تحثُّ على الصِّيام: فعن مُعاذِ بنِ جبلٍ، قال: كُنتُ مَعَ رسُولِ الله ﷺ فِي سفرٍ، فأصبحتُ يومًا قرِيبًا مِنهُ وهُو يسِيرُ، فقُلتُ: يا رسُول الله، أخبِرنِي بِعملٍ يُدخِلُنِي الجنَّة، ويُباعِدُنِي مِن النَّارِ؟ قال: «**قد سألتَ عن عظِيمٍ، وإِنَّهُ ليسِيرٌ على من يسَّرهُ اللهُ عليهِ، تعبُدُ الله ولا تُشرِكُ بِهِ شيْئًا،**

(١) رواه النسائي (٢٤٢٠) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ، وحسنه الألباني.

(٢) رواه النسائي (٢٣٦٠) من حديث عائشة ﷺ، وصححه الألباني.

(٣) رواه النسائي، (٢٣٥٧) وحسنه الألباني.

وتُقِيمُ الصَّلاة، وتُؤْتِي الزَّكاة، وتصُومُ رمضان، وتحُجُّ البيت»، ثمَّ قال: «ألا أدُلُّك على أبوابِ الخيرِ؟ الصَّومُ جُنَّةٌ»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ أَمَرَ يحيى بنَ زكريَّا بخمسٍ كلماتٍ يعملُ بهنَّ، ويأمرُ بني إسرائيلَ يعملون بهنَّ، وإنَّ عيسى ابنَ مريم قال له: إنَّ اللهَ أمرَكَ بخمس كلماتٍ تعملُ بهنَّ وتأمرُ بهنَّ بني إسرائيلَ يعملون بهنَّ، فإمَّا أن تأمرهم وإمَّا أن آمُرَهم؟ قال: إنَّك إن تسبقني بهنَّ خشيت أن أُعذَّب أو يُخسف بي، قال: فجمع النَّاس في بيت المقدس حتَّى امتلأ وقعد النَّاس على الشُّرفات قال: فوعظهم، قال: إنَّ الله أمرني بخمس كلماتٍ أعمل بهنَّ وآمركم أن تعملوا بهنَّ، أُولاهُنَّ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل مَنْ أشرك بالله كَمَثَلِ رجلٍ اشترى عبدًا من خالص ماله بذهبٍ أو ورِقٍ، قال: هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأدِّ إليَّ، فجعل يعمل ويؤدِّي إلى غير سَيِّده، فأيُّكم يَسرُّه أن يكون عبده كذلك؟ وإنَّ الله خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئًا، وأمركم بالصَّلاة، فإذا صلَّيتم فلا تلتفتوا، وأمركم بالصِّيام، وإنَّ مَثَل ذلك كمَثَل رجلٍ كانت معه صُرَّةٌ فيها مسكٌ ومعه عصابةٌ كلُّهم يعجبه أن يجد رِيحَها، وإنَّ الصِّيام أطيب عند الله من ريح المسك»[2].

خطأ في الفهم يَجِبُ تصويبه:

وهناك خطأٌ في الفَهم لدَى الكَثير مِن عامة المسلِمينَ، وبعض المتصدرِينَ للحدِيثِ حينَ يظنون أن فضَائلَ الصِّيام هذه وأمثالها فيمن يصُوم رمضانَ، أو أن

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (١٥٧١)، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٤٩٨).

صَائم رمضانَ يسمى صاحبَ صيام، والصحيح أنه لا يُسمى مَنْ صَامَ رمضانَ فَقط صَاحبَ صِيامٍ، وإنما المقصُود به ملازمُ صِيام النفل، فلا ينطبقُ حديث الرَّيَّان ولا حديث مُناداة أهلِ الصِّيام كما في حديث سهلٍ ﷺ، عنِ النبي ﷺ قال: «**إن فِي الجنةِ بابًا يُقالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يدخُلُ مِنهُ الصائِمُون يوم القِيامةِ، لا يدخُلُ مِنهُ أحدٌ غيرُهُم، يُقالُ: أين الصائِمُون؟ فيقُومُون، لا يدخُلُ مِنهُ أحدٌ غيرُهُم، فإذا دخلُوا أُغلِق فلم يدخُل مِنهُ أحدٌ**»(١).

وكذا حديث أبي هُريرة ﷺ قال: سمِعتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «**من أنفق زوجينِ مِن شيءٍ من الأشياءِ في سبيل الله دُعِي مِن أبوابِ الجنةِ يا عبد الله، هذا خيرٌ، فمن كان مِن أهل الصلاةِ دُعِي من بابِ الصلاةِ، ومن كان مِن أهلِ الجِهادِ دُعِي مِن بابِ الجِهادِ، ومن كان مِن أهلِ الصدقةِ دُعي مِن بابِ الصدقةِ، ومن كان مِن أهلِ الصِّيام دُعِي مِن بَابِ الصِّيام وبابِ الرَّيَّانِ**»، فقال أبُو بكرٍ: ما على هذا الَّذي يُدعى مِن تِلك الأبوابِ من ضرُورةٍ، وقال: هل يُدعى مِنها كُلها أحدٌ يا رسُول الله؟ قال: «**نعم، وأرجُو أن تكُون مِنهُم يا أبا بكرٍ**»(٢).

ولو أنَّ كلَّ من صَامَ الفَريضَةَ دخلَ من بَابِ الرَّيَّان لم يبقَ أحدٌ من الأمَّة الصَّائمة الفريضَةَ إلَّا دَخلَه، ولم يبقَ أي تميُّز للصائمين تطوُّعًا على غيرهِم.

قال ابن حجر ﷺ: (وفيه إشَارةٌ إلى أنَّ المرادَ ما يتطوَّع به مِنَ الأعمالِ المذكُورَةِ لا واجِباتُها لكثرَةِ من يجتمِعُ له العَملُ بالوَاجِباتَ كُلِّها بخلاف التطوُّعات فَقَلَّ مَنْ يجتمع له العمل بجميع أنواع التطوُّعات، ثمَّ من يجتمع له ذلك إنَّما يُدعى من جميعِ الأبوَابِ على سبيلِ التَكريم له، وإلا فدخُوله إنَّما

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٦)، ومسلم (١٠٢٧).

يكونُ من بابٍ واحدٍ، ولعلَّه باب العمل الَّذي يكون أغلب عليه، والله أعلم، وأما ما أخرجه مسلم عن عمر: «مَن توضَّأ ثمَّ قال: **أشهدُ أن لا إله إلَّا الله**» ...الحديث وفيه: «**فُتحت له أبواب الجنَّة يدخل من أيها شَاءَ**» فلا ينافي ما تقدم وإن كان ظاهره أنَّه يعارضُه؛ لأنَّه يحملُ على أنها تفتح له على سبيل التَّكريم، ثمَّ عند دخُوله لا يدخل إلَّا من باب العمل الَّذي يكون أغلب عليه كما تقدَّم، والله أعلم.

وقيل: المرَادُ بالإنفاقِ في الصَّلاة والصِّيام: بذلُ النَّفس فيهما، فإنَّ العربَ تسمِّي ما يبذُله المرءُ منْ نفسِهِ نفقةً، كما يُقال: أنفقتُ في طَلب العِلمِ عمري، وبذلْتُ فيه نَفْسِي، وهَذا مَعنىً حسنٌ[1].

وهكذا أثمرَ الاستمرارُ على الصِّيام الواجب محبَّته والتزام صورته في غير الواجِب، فأصبح الصِّيام الواجب معرِّفًا له على هذا الصَّاحب الجديد الَّذي لازمه حَياته كما وَرد في الصِّيام المشروع من النَّوافل، فابتداء العلاقةِ واللقاءِ كَان في رمضانَ، ثمَّ استمرَّ في كلِّ الظُّروف إلى لِقاءِ الله سبحَانه.

الوصيَّة الثالثة: المحافظة على الأوراد: فلِشدَّة عصف الأيَّام الأولى من بعدي ربَّما تكون الضَّحيَّة ذهاب أوراد النَّهار واللَّيل الثَّابتة .. فَانْتَبِهْ لهذا، لكن ما أجده من تهاون القادرين على المحافظة على جلسة ما بعد الفجر في المسجد حتَّى تشرق الشَّمس ثمَّ يصلِّي ركعتين .. وعذرهم في هذا هو غلبة النَّوم في هذا الوقت وشدَّة الحاجة له! أو الانشغال بأمورٍ أخرى أو نحو ذلك ! هو غالبًا مِنَ العجزِ والكسَلِ، والاستسلام لآثارهما، وقد استعاذ النَّبيُّ ﷺ منهما.

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٩).

والسِّرُّ الحقيقيُّ ليس في هذا .. إنَّما هذه «**مظاهر وأعذارٌ**»، السِّرُّ الحقيقيُّ في «**نظام الأَوْلويَّات**»، فلو جَعلنا هذه أولويَّةً لسُخْرتِ الحياةُ اليوميَّة لها، وبُنِيَتْ عليها أو قُدِّمت هي على البرامجِ الأخرى.

أعجب - والله - من مسلمٍ يَدلُّه الله على كنوز البَركةِ الَّتي ادَّخرها هو سبحانه في الزَّمان ... في ساعات اليوم واللَّيل ... وأنَّها في البكور، ثمَّ هو ينام عنها، ففي الحديث: «**بُورك لِأُمَّتي في بُكورها**»[1].

فلكأنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرة اجتمع في هذه الجلسة.

أَعِدْ برمجةَ يومك على هذا الأساس ما دُمْتَ تستطيع، ثمَّ احصد خير الدُّنيا والآخرة.. ولا تتوانَ في هذا، وكلَّما طال عمرك زاد أجرك .. والميزان هو البرهان .. والقيامة الموعد.

الوصيَّة الرابعة: التَّعاون والتَّواصي: نخطئ كثيرًا إذا انتهجنا من بداياتنا الكتمان في الأعمال الصَّالحة، وكتمان طلب العلم منهجًا.. فَلَكَمْ رأيت هذا المنهج مقبرةً لديمومة الأعمال الصَّالحة وديمومةً للمناهج العلميَّة النَّاجحة .. حيث نجد الشاب - مثلًا - قد عَزمَ بعدَ رمضانَ على حِفظِ القُرآن الكَريم أو مراجَعة حفظِهِ السَّابق .. ولكن دون أن يخبر أحدًا بذلك، فينطلق في هذا الميدان وما هي إلَّا أيَّامٌ أو أسابيع وإذا به انقطع، فإذا انقطع لم يجد مَنْ يقف بجواره ويسنده من عَثْرته أو يُقيمه من سَقْطتِه، وبهذا يذهب مشروع حفظ القرآن العظيم أدراج الرِّياح.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني . انظر: صحيح الجامع (٢٨٤١).

وذاك شخصٌ جَعَلَ له منهجًا علميًّا لدراسته وحده .. مع مشايخ أو كتبٍ يقرؤها وحده .. وشابٌّ يصوم الإثنين والخميس.. أو نحو هذه المناهج والعبادات .. فيذهب المنهج العلميُّ والعباديُّ عند هذا الشَّابِّ وذاك بجريرةِ سُوء فهمٍ وسُوء تطبيق التَّخفِّي بالعمل.

هذا التخفِّي يَصْلح في الأعمال الفرديَّة غالبًا، أمَّا في المشاريع الجماعيَّة فغالبًا يكون سلبيًّا .. كرجلٍ أقام مشاريعَ علميَّةً كبرى، ولم يجعل لها أوقافًا، وكان يُنفق عليها، فلما مات لم يجد الورثةُ لها أثرًا ولا وصيَّةً ولا وقفًا، فيأتي القائمون عليها يطالبون الورثةَ ولا دليل عندهم يقدمونه، وهنا يُكذَّب الصَّادق، ويدخل أحيانًا الكَذُوب مستغلًا العَاطِفَةَ.

الوصيَّة الخامسة: المصابرة: قال لي أحد الشَّباب: كنت كثير النَّوم.. صعب الاستيقاظ، فلمَّا جاء رمضان هذا اكتشفت أنَّ ذاك الأمر كان استسلامًا للوهم.. فلست بذلك الشاب النَّؤُومِ الكسول، وإنِّي لا أحتاج إلى ساعاتٍ طويلةٍ للنَّوم.

وعلَّمني رمضان الاعتكاف في المسجد لمُدَّة عشرة أيَّامٍ، وأنَّني يمكن أن أجلس دون أيِّ تعبٍ من العصر حتَّى العشاء أو من الفجر إلى الظُّهر.

علَّمني أنِّي يمكن أنْ آتيَ في السَّاعة الأولى في الصَّباح لأجلس لصلاة الجمعة فأحقِّق هذه المنزلة كلَّ جمعةٍ.

علَّمني رمضان أنَّ الجلوس من بعد صلاة العصر حتَّى غروب شمس الجمعة أمرٌ ممكنٌ، وساعة الإجابة كَنْزٌ مُدْركٌ.

عَلَّمني أنَّ الصِّيام في ذاته كجوعٍ وعطشٍ لله ربِّ العالمين أمرٌ لا يقتل ولا يرهق، بل له لَذَّةٌ، وأنا أعرف أنَّه سوف يَشُقُّ في أوَّل الأيَّام لغربته على نفسي

وغرابتها في المجتمع مِنْ حولي .. لكن بالمصَابرَةِ سوفَ تستمرُّ وتلذُّ وتَطيبُ كما تَطيبُ النَّفس بتطبيقِ كلِّ الأخلاق الطَّيبة، وسوف تصبح أعمالُنا في رمضان بالصَّبر ديمَةً ... ثابتَةً بإذنِ الله.

الوصيَّة السَّادسة: التَّخطيط للسَّنة: قال لى أحد الأحبَّة في الله: لفت انتباهي في رمضان هذا قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان:٤، ٥]، وقول العلماء: إنَّ الله سبحانه يُنزِّل قضاءه الَّذي سوف يقضيه في العام القادم في هذه اللَّيلة حتَّى تأتي نفس اللَّيلة من السنة القادمة، فقلت: إذا كان ربُّنا سبحانه وهو عالم الغيب والشَّهادة، وهو القَادر على كلِّ شيءٍ يفعل هذا، ثمَّ هو يخبرنا بهذا فلِمَ لا أتَّخذ هذا المنهج الرَّبَّانيَّ لحياتي منهجًا؟! ولذا خطَّطت في هذا العام إلى برمجةٍ لسنةٍ كاملةٍ بحيث لا يأتي العام القادم إلَّا وقد أتممتُ المنهجَ.

ألا فلنعتمدِ التَّخطيط السَّنويَّ .. ولنفصِّله بعد ذلك كيف نَشَاءُ، ولنتعاون على ذلك كاثنين أو ثلاثةٍ أو أكثر، والشَّيطان مع الفرد وهو من الاثنين أبعد، وهو من الثَّلاثة أبعد.

ولنعتمدِ الفكر المُؤسَّسِيَّ خيرًا من التَّفكير الفرديِّ.

ففيه مَزِيَّتان؛ الأولى: التَّعاهد والتَّعاون، والثَّانية: الدَّيمومة.

الوصية السابعة: مركز للدراسات الرمضانية:

أنا على قناعةٍ تامَّةٍ أنه لو علمت الأمم ما في رمضان من خيرٍ لها لدخلوا في دين الله أفواجًا في هذا الزمان، أو لألزموا شعوبهم بصيام رمضان، أو على الأقل: لفرض المسلمون عليهم احترامهم وتسويدهم ... لكن أنَّى للأمم أن تعلم بهذا

إذا لم تعلم أمة محمدٍ ﷺ بهذا؟ أنَّى للأمم أن يبلغها هذا إذا كانت أمَّة محمدٍ ﷺ تنتظر هذا الاكتشاف العلمي عن رمضان من غيرها من الأمم.

لذا توجَّب على كلِّ غيورٍ في كادرٍ من كوادر الأمَّة في جميع التَّخصُّصات أن يُكوِّنوا فريقًا أو فِرقًا لدراسة رمضان من جهتهم هُمْ، ويكون البحث هادفًا هدفًا محددًا .. وسيلتهم هي اكتشاف الحقيقة وغايتهم صناعة الفرد والأمة من جديدٍ في هذا المجال، وسنجد أيَّ إعجازٍ في رمضان، ولأضرب على هذا أمثلة:

المثال الأول: دراسة الاقتصاديِّين لرمضان: لا أريد به دراسة الواقع كأن واقع المسلمين هو المثال الصحيح لرمضان، أو هو التطبيق الأمثل لما شرعه الله، فالدراسة تنصبُّ على رمضان الأمثل كما شرعه الله وكما صامه رسول الله ﷺ، والصحابة في عهده، هذا أولًا.

ثانيًا: رمضان كما يصومه المسلمون اليوم وبيان السلبيات والإيجابيات على الأفراد والأُسَرِ وعلى الأمَّة من الوِجْهة الاقتصاديَّة.

ثالثًا: الحلول الاقتصادية لمشاكل الأمَّة موجودةٌ في رمضان وكيفية تفعيلها، ومن ذلك:

١ـ أن منهجية رمضان هي عمل وجبتين خفيفتين بدل تعدُّد الوجبات، وفي هذا تخفيضٌ مفترَضٌ في كمية الطعام يصل إلى .....٪[(١)].

٢ـ انخفاض نسبة الأمراض المستشرية في النَّاس بسبب التُّخمة والسِّمْنة وما إلى ذلك، وهذا يوفر على الميزانيات ..... ٪.

بتوفيره أَسِرَّة في مستشفيات بنسبة ....٪ .

---

(١) هذه النسب ستوجد في حال تواجد مركز للدراسات الرمضانية .

وأدوية بنسبة ....٪ ومصحات بنسبة ..... ٪.

وأوقات إنتاجية مهدرة في العلاج والوقاية بنسبة كذا ....٪ .

ومخاطر الأجنَّة بنسبة .....٪ ومخاطر الحوامل بنسبة ....٪ .

وقدرة على الإنتاج أطول (أي مزيد عمر إنتاجي) بنسبة ..... ٪.

ويطيل النسبة العامة للأعمار في الأمَّة بنسبة .... ٪.

والأمر عند التفصيل يكون أكثر وضوحًا وأكثر تصورًا وسهولةً، لكن ذلك يكون بتكامل فرق الدراسات والتنسيق بينها، فمثلًا فرقة الأطباء هي التي تتكفَّل بوضع أمراض السِّمنة والتُّخمة مفصلةً مثل نسبة الإصابة بالسكر وضغط الدم بسبب السِّمنة ....٪ نسبة الإصابة بأمراض القلب بسبب السِّمنة هي ....٪ .

نسبة الإصابة بأمراض الجهاز الهضمي بسبب السِّمنة هي: ....٪ .

فيأتي الاقتصاديون ليحسبوا ذلك اقتصاديًا بدقةٍ ويوزِّعوه على كل بلدٍ من بلاد المسلمين.

يأتي الفريق الإعلامي لِيَصُوغَ هذه المعلومات الخطيرة في صياغةٍ تُستثمَر في إحداث النهضة المطلوبة في رمضان، من ذلك مثلًا: استخراج مقارنةٍ إنتاجيَّةٍ واضحةٍ ومبهرةٍ لبلدٍ محددٍ.

معدل الأموال التي تصرف قبل رمضان في شهر ....

معدل الأموال التي تصرف في رمضان كما هو الواقع ....

معدل الأموال التي تُصرف في رمضان الشرعي ......

الفارق: الأموال التي يهدرها الفرد في صندوق النُّفايات هي: ....

الأموال التي يصرفها البلد ال........ في صناديق النفايات هي: ....

مجموع هذه الأموال في سنة .....

ما يمكن عمله بهذه الأموال هو:

أعداد المستشفيات في هذا البلد ..... يصل إلى كذا مستشفى ....

أعداد المدارس هو ....

المثال الثاني: علماء النفس بمختلف تخصُّصاتِهم، وهي:

للأسف الشديد فإن الدراسات التغييرية الحقيقية التي أُجْرِيَتْ عن رمضان تكاد تكون معدومةً ..... وما أُجْرِيَ منها في بعض أجزاء الأعمال كالاعتكاف يكاد يكون سطحيًا لا يرقى إلى هذا الشرع العظيم المنقذ المحيي الباعث .....

هذا ميدانكم يا أصحاب هذه التَّخصُّصات .....

كيف لا تتحرَّكون وأنتم ترون هذه الثَّورة التَّغييريَّة بهذه التلقائيَّة وبهذه الصبغة الجماعيَّة وبهذه الأعماق النفسيَّة؟!

أيليق بكم وأنتم المتخصِّصون أن تبقوا من صائمين نائمين حالكم في هذا حال أيِّ فردٍ عاديٍّ من أفراد الأمَّة دون أن يتعدَّى نفعكُم إلى الأمة.. أين شُكرُ عِلْمكم هذا؟ أم أنه مقتصرٌ على المحاضرات الوظيفيَّة والدورات التِّجارِيَّة وتتبع الشُّهرة الإعلاميَّة ؟!

أيكفي رمضانَ العظيمَ مسحةٌ تحليليَّةٌ ظاهريَّةٌ؟ أو حلقةٌ تلفزيونيَّةٌ أو حلقاتٌ؟ أم يليق بكم أن تبقوا متفرجين على هذا التيار الهائل الَّذي لا تحلمون بمثله في الخيال والأساطير بينما أنتم أنفسكم وأُسَرِكم جزءٌ منه وأنتم ترون الأمَّة كلها تعيشه، فكيف ترضون أن يجف النهر العظيم إلى نهرٍ

على الخارطة الجافَّة على الحائط الجامد في الورق المحترق، أما ما يمكن أن تعملوه فهو دراساتٌ علميَّةٌ عميقةٌ في تغيير الأفراد والمجتمعات والأمة كلها إلى الإمامة، ثمَّ تحويل هذه الدراسات إلى مناهج وبرامج قابلةٍ للتطبيق بحيث يدخل الفرد رمضان بشكلٍ ويكون في آخره الابن الوفي لرمضان والأمَّة القائدة من بوابة رمضان.

يا إخواني، والله، إنها لحسرةٌ في القلب أن يجلس رجلٌ غير متخصِّصٍ في هذا العلم يوصف لأهله من أهل الإسلام مثلما أصنع أنا الآن.

والعتب على تأخُّري في هذا، وكذا على أهل الميدان إذ هجروه وطاروا في أودية الدنيا وسفوحها يطلبون الماء والكلأ .. زادهم الأساس وشاهدهم الدائم حكمة أهل الفلسفة وأهل الأديان الأخرى .

أما ما يمكن أن يعمله العلماء المتخصصون في علم النفس بمختلف تفرعاته الجديدة فهو أمور عدة، أذكر منها أمرين:

أما الأول: دراسات متخصصة لـ[الطفل في رمضان] [الأم في رمضان] [الشاب في رمضان] [الشابة في رمضان] [ولي الأمر في رمضان] [الزوجين في رمضان] [الأسرة في رمضان] [الأرحام في رمضان] [رجل الأمَّة في رمضان]، حيث تُعاد الثِّقة في نفوس هؤلاء... ويمنحون القناعة العظيمة، ويُعرَّفون بدورهم السيادي في الأمم، ويُرسَّخ ذلك من خلال منهجٍ مبرمجٍ لرمضان كاملًا، فإنَّ ثلاثين يومًا كافيةٌ عند ملازمة عملٍ ما للزومه مدى الحياة.

وأريد أن أؤكد على النِّقابة أو الجماعة أو الجمعيَّة المتكفِّلة بهذا الأمر ألَّا تنظر لرمضان نظرةً فرديَّةً، أو تكون تحليلاتها سطحيَّةً أو تكون تقليديَّةً، ولا

يغرُّها مَنْ حَلَّل هذه التشريعات أيًّا كان ما لم يكن مؤيدًا بالكتاب أو السُّنَّة، فكثيرٌ من التحليلات تكون عائقًا للفهم وللتجديد وللتطبيق.

فمن نظر للمطلوب من المسلم في رمضان وجد أنه يسير ضد الرَّغبة، فالشَّهوة تزداد بالجوع، ومع هذا قال ﷺ: «**فإنه له وجاء**» والضيق والغضب وقلَّة التحمُّل تزداد مع الجوع والعطش، ومع هذا يؤمر بعدم الرد، بل بقول: «**إني صائم**».

ومع ضيق العين الناتج من الجوع وانتظار الطَّعام إلَّا أنَّه جاء الأمر ببسط الوجه والدَّعوة لتفطير الصَّائم، وفي هذا الجوِّ النَّفسي الَّذي يجعل من الطَّبيعي عدم تحمُّل الفقير يؤمر الإنسان في رمضان أن يزيد من الصَّدقة وفعل الخير، وهكذا فإنَّه مع مزيدٍ من الاعتزال بالاعتكاف إلَّا أنَّه يرغب بالمشاركة وقضاء حوائج النَّاس.

فهذه هي لَبِنات المجتمع والذي لن نستطيع صُنْع التغيير الحقيقي بمجرد الجو العام، كما لن نستطيع بلوغ التغيير الحقيقي دون إيجاد الجوِّ العام، فهدف هذه الدراسة استثمار هذا الجو العظيم .. الجو الفريد.. الجو الشامل الظاهر والباطن.. في هذه الفترة الزمنيَّة الكافية لإحداث هذا التغيير العضوي الجزئي متناغمًا مع التغيير في الجسد كله بطريقةٍ منهجيَّةٍ .. أو هو استمرار الظاهرة لتصبح الأمَّة ظاهرةً.

الثاني: التهيئة النفسية والاجتماعية لإقامة ما أنزل الله كاملًا كنظام حياة شاملٍ... فليس مثل جوِّ رمضان لهذا الأمر جوٌّ يمرُّ على الأمَّة في شهور العام أبدًا، فإذا كانت الأمَّة مقودةً من غير قائد ميداني وبشكل نظامي إيماني .. فكيف

لا تستثمر هذه المنهجية التلقائية، بل الذاتية التي من الخطأ أن توصف بأنها هبة.. بل هي حياة كاملة مستمرة شهرًا تغطي الزمان والمكان وما فيها.

إن هذه الحياة في رمضان تكشف صدق أو كذب من يزعمون أنهم يرون تطبيق شرع الله .. وجدية أو تميع وتلاعب من يريدون إيجاد الجو المناسب للتطبيق.

صِنَاعَةُ الأُمَّةِ القَائِدَةِ

صناعة القيادة الهادفة:

سبحان الله العظيم! كيف يربِّي هذا الشَّهر المبارك شخصيةَ المسلم العادية على أن تكون شخصيَّة قائدة .. ومن ثمَّ يربِّي الأمَّة على أن تكون أمةً قائدةً، وذلك منذ أن يبتدئ الشَّهر إلى أن ينتهي من خلال عناصر عدَّة يوفِّرها رمضان في الفردِ... إنَّ رمضان يصنع الأمَّة القائدة حين يصنع الشَّخصيَّة القائدة في نفس الصَّائم، وإليك هذه العناصر عنصرًا عنصرًا:

العنصر الأول: أمانة القائد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

وهذا - واللهِ - من أصعب ما يكون على المُربِّين فعله .. فإنَّك تجد المُربِّين يَحُومُون حول التَّغيير ويُدَنْدِنُونَ حوله، لكنَّهم لا يَمسُّونه بشيءٍ.. فيبقى تغييرهم مظهريًّا خارجيًّا .. يزول بأيِّ مَسْحةٍ، كما يزول الغبار الَّذي علا الزُّجاجَ بِمُجرَّدِ مَسْحةِ أُصْبعٍ.. وكنت تظنُّه جزءًا من النَّحْتِ في الحجر.

فقد كان تغييرهم ظاهريًّا، وخُلُقهم خارجيًّا.. لم يبلغ ذلك إلى النَّفس؛ ولذا زال كلُّ الظَّاهر حين مُسَّت النَّفس بأقلِّ بلاءٍ، أو فتنةٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:١٤] .

أمَّا رمضان فإنَّه يصنع هذا التَّغيير الدَّاخليَّ مُرْفقًا بالشَّاهد الخارجيِّ على أتمِّ وجهٍ وأكمله وأشمله .. فكيف يصنع الشخصية القائدة والهادفة بل الأمَّة القائدة والهادفة؟

إنَّ أساس الصَّوم أمانةٌ .. أمانةٌ بين العبد وبين ربِّه ﷻ.. فلو أنَّ العبد أفطر في نهاره بأيِّ مُفطرٍ من المُفطِرات لما شعر به أقرب النَّاس إليه .

ونحنُ اليوم بَعْدَ بُعْدِ العهد عن أوائل السِّنين الَّتي صُمْناها رُبَّما لا نستشعر هذا المعنى، لكن لو عُدْنا إلى أوَّل أيَّام صِيامِنا لعرَفنا كَيفَ كنَّا نُعايش الجوعَ والعطشَ؟ كيفَ كنَّا نستشعِرُ أنَّ الصَّوم أمانةٌ، وأنَّه يصنَع الأمناء.. يصنع رجال الأمانة.. أو حَمَلةَ الأمانةِ، فقد كان الواحد مِنَّا يعيش هذه الأمانة الإيمانيَّة.. يخلو بالماء مَرَّاتٍ وَمرَّاتٍ ويرى فيه الاختبار الصَّعب.. لا أحدَ يراه من الأهل.. لا أحدَ سوف يعرف.. إذا جاء للوضوء وأخذ غَرْفةً بيديه ليتمضمض .. أيشرب منها أم لا يشرب؟! إنَّ ذاك الصغير يتعرَّض في كلِّ وضوءٍ لاختبار كاختبار مجاهدي بني إسرائيل حين سقط جلُّهم في ابتلاء النهر! رُبَّما سقط فغلبته نفسُهُ الضَّعيفة - وهو الصَّغير - مَرَّةً واحدةً أو مَرَّتينِ أو حتَّى مرارًا قليلة، لكنه سيعود مُنْتصرًا - بإذن الله - وسيتماسك ويتحمَّل الأمانة.

إنَّ أبا ذرٍّ ﵁ حين طَلَبَ من النَّبيِّ ﷺ الإمَارَةَ لم يعطِهِ إيَّاها معللًا ﷺ، وهو الحقُّ بأنَّها أمانةٌ وأنَّ أبا ذرٍّ ضعيفٌ عن تحمُّل الأمانة، كما روى ذلك أبو ذرٍّ

نفسُه فقال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثمَّ قال: «إنك ضعيفٌ، وإنَّها أمانةٌ، وإنَّها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ إلَّا من أخذَها بحقِّها، وأدَّى الَّذي عليه فيها»(١).

هذه الأمانة تُغْرَس كالبذرة في نفس كل صغير يُصَوِّمه أهلُه، وهل من صغير مميِّزٍ معافىً لا يشرعُ له الصِّيام وهو مُقيمٌ؟

وهل الخطوة الأولى في تحمُّل أمانة الغير إلَّا تحمُّل أمانة النَّفس؟ وهل ينجح القائد في تحمُّل أمانات النَّاس ما لم يتحمَّل أمانة نفسه بينه وبين الله؟ وهل من تَعوَّد تحمُّل الأمانة لدرجة ألا يترك قطرة الماء الحلالِ تعبرُ حلقَه إلى جَوفه قَصدًا، ويترك تناول الدَّواء إلى اللَّيل قصدًا ما لم يلزم شرعًا بالإفطار، ويترك الشَّهوة الحلال .. يرتع بعد ذلك بأموَال النَّاس وينهب أو يسرق أو يستغل أو يغشّ.

وعجيبٌ ارتباط الأمانة بالتَّقوى، والتَّقوى هو مقصد الصِّيام وفحواهُ، فقال سبحانه: ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٨٣]، بل إن الله سبحانه ربط ما بين الحكم والأمانة في آية واحدة، والحكم من خصائص القيادة، فقال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨]، والأعجب من هذا هو ارتباط الأمانة بالقيادة ارتباط الشَّرط للمشروط، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف:٥٤]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَبَتِ

(١) رواه مسلم (١٨٢٥).

ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله ﷺ ثوبان قطريَّان غليظان، فكان إذا قعد فعرق، ثقلا عليه، فقدم بزٌّ من الشَّام لفلان اليهوديِّ، فقلت: لو بعثت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة، فأرسل إليه، فقال: قد علمت ما يريد، إنَّما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي، فقال رسول الله ﷺ: «**كذب . قد عَلِمَ أنِّي مِنْ أتقَاهم لله وآدَاهم للأمَانَةِ**»(١).

عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: أنا أوَّل من أتَى عُمرَ حين طُعنَ، فقالَ: احفظ عنِّي ثلاثًا، فإنِّي أخَافُ ألَّا يدركني النَّاس، أمَّا أنا فلم أقضِ في الكَلالة قَضَاءً، ولم أستخلِف على النَّاس خَليفَةً، وكلُّ مملوكٍ له عَتيق، فقال له النَّاس: استخلف، فقال: أيُّ ذلك أفعلُ، فقد فعله من هو خير منِّي؛ إن أدع إلى النَّاس أمرَهم، فقد تركه نبيُّ الله - عليه الصَّلاة والسَّلام - وإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منِّي أبو بكر، فقلت له: أبشر بالجنَّة، صاحبت رسول الله ﷺ، فأطلتَ صحبتَه، ووليِّت أمر المؤمنين فقويت، وأدَّيت الأمانة، فقال: أمَّا تبشيرك إيَّاي بالجنَّة، فوالله لو أنَّ لي الدُّنيا بما فيها لافتديت به من هول ما أمامي قبل أن أعلم الخبر، وأما قولك في أمر المؤمنين، فوالله لوددت أنَّ ذلك كفافًا لا لي ولا عليَّ، وأمَّا ما ذكرت من صحبة نبي الله ﷺ فذلك»(٢).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال لأهل نجران: «**لأبعثنَّ إليكم**

(١) رواه الترمذي (١٢١٣)، وصححه الألباني .

(٢) أحمد (١/ ٤٧)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

رجلًا أمينًا حقَّ أمين». فاستشرف لها أصحاب النَّبيِّ ﷺ، فبعث أبا عبيدة[(١)].

وتسري هذه الأمانة على المستشارين ونوابِ القَائد الأكبر، فعن أمِّ سلمة وأبي هريرة رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «المُسْتَشارُ مُؤتَمنٌ»[(٢)].

عن رافع بن خديج رضي الله عنه قالَ: قَالَ رسُول الله ﷺ: «العَامِلُ على الصَّدقة بالحقِّ كالغَازِي في سَبيلِ الله حتَّى يرجعَ إلى بَيْتِهِ»[(٣)].

عن أبي زُرَارَةَ عَديِّ بنِ عمَيرة الكِنديِّ رضي الله عنه، قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ: يقولُ: «مَن استعمَلنَاه منكُم على عملٍ، فكتمنا مِخْيطًا فما فوقَه، كَان غلولًا يأتي به يومَ القِيامَةِ»، قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأنِّي أنظر إليه، فقال: يا رسول الله اقبل عنِّي عملك، قال: «وما لك؟»، قال: سمعتك تقول: كذا وكذا، قال: «وأنَا أَقُولُه الآنَ، مَن استعمَلنَاهُ منكم على عَملٍ فليجِئْ بقليلِهِ وكثيرِهِ، فَما أوتِيَ منه أَخَذَ، وما نُهِيَ عنهُ انتَهَى»[(٤)].

قالَ ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: لَمْ يُرَخِّصِ اللهُ لمعْسِرٍ ولا لمُوسِرٍ أن يُمسكَ الأمَانَةَ[(٥)].

وإنَّ تَرابُطَ الصِّيام مع الإمَامَةِ كتَرابُطِ التَّقوى مع الأمَانَةِ ... نعم ربما يضعُفُ بعض المتَّقين وإن كانوا من أهل الصِّيام، لكنَّ الأصل غير هذا، ثمَّ إنَّها تربية أمَّة

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٥٤)، ومسلم (٢٤٢٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١٢٨)، وصححه الألباني.

(٣) رواه أبو داود (٢٩٣٦)، وصححه الألباني.

(٤) رواه مسلم (١٨٣٣).

(٥) انظر: تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٦٥)، ويمسك الأمانة بمعنى يأخذها ويأكلها.

على الأمَانةِ والتَّقوى في شهرٍ بأكمَله وإنْ شئتَ قلتَ: تربية أمَّة على القِيادة والتَّقوى في شهرٍ بأكمَله كما قَالَ سيِّد المسَاجين يُوسُفُ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

لابد للأمَّة الَّتي تعطِي رمضَان حقه وتصوِّم صغَارَها أن تتفجّر بالقِيادَة التي تتفجَّر الإمامة من محيًا صِغارِهَا، الَّذين حَفظِوا أمَانةَ الصِّيام واتقَوا الله فيما بينَهم وبينَه فلمْ يشربُوا وهمُ الصِّغار العِطاش ولم يأكلُوا وهم الجيَاعُ الضِّعَاف.

وإنَّ ربطَ التَّقوى بالقِيادة رَبطٌ محكمٌ يمنعُ صاحِبَه أسَاسًا أن يسأل القِيادة - هكذا هو الأصل - فلا يخلص بين هؤلاء المتَّقين الأمنَاء من القَادة إلَّا أتقَاهم وأقوَاهم وإلا لم يجد الإعانة من الله، وهذا أخوفُ ما يخافُه التقي، فقد روى البُخاري عن عبدِ الرحمنِ بنِ سَمُرةَ قال: قال لي رسُولُ الله ﷺ: «**يا عبدَ الرحمنِ بنَ سمُرة لا تَسألِ الإمارةَ، فإِن أُعطِيتَها عن مَسألةٍ وُكِلتَ إِليها، وإِن أُعطِيتَها عن غيرِ مسألةٍ أُعِنتَ عليها، وإذا حلفتَ على يمينٍ فرأيتَ غيرَها خيرًا منها فأتِ الَّذي هُو خيرٌ وكفِّرْ عن يمِينِك**»(١).

قال ابن حجر ﷺ: (ويستفادُ منه أنَّ طَلَب ما يتعلَّق بالحكم مَكرُوه، فيدخُل في الإمَارةِ القَضَاءُ والحِسْبَةُ، ونحو ذَلك وأنَّ مَن حَرَصَ على ذلك لا يُعانُ، ويُعارِضه في الظَّاهر ما أخرَجه أبُو داودَ عن أبي هُريرَة رَفعَه: «**مَن طَلَبَ قَضَاءَ المسلِمينَ حتَّى ينَالَه، ثمَّ غلب عدلُه جَوْرَه، فله الجنَّة ومن غَلَبَ جَورُه عَدلَه، فله النَّارُ**»، والجمع بينهما أنَّه لا يلزم من كونه لا يعان بسبب طلبه ألَّا يحصلَ منه العَدلُ إذَا ولي، أو يحمل الطَّلب هنا على القَصدِ، وهناك على التَّولية، وقد تقدَّم

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧١٤٦)، ومسلم (١٦٥٢).

من حديث أبي موسى: «أنَا لا نُولي من حَرَصَ»؛ ولذلك عَبَّر في مقابلِهِ بالإِعَانَةِ، فإنَّ من لم يكن له من الله عونٌ على عمله لا يكون فيه كِفاية لذلك العمل فلا ينبغِي أنْ يُجاب سُؤاله، ومن المعلوم أنَّ كلَّ وِلايةٍ لا تخلُو من المشقَّة فمنْ لم يكُن لهُ من الله إعانَة تورَّط فيما دخلَ فيه، وخَسر دُنياه وعقباه، فمن كَانَ ذا عَقلٍ لم يتعرَّض للطَّلب أصلًا، بل إذا كان كَافِيًا، وأُعطيها من غير مسألةٍ، فقد وعده الصَّادق بالإعانة، ولا يخفى ما في ذلك من الفضل)(١).

وروى البخاري رحمه الله في باب ما يُكره الحرصُ على الإمارَةِ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النبِي ﷺ قال: «إنكُم ستحرِصُون على الإمارةِ، وستكُونُ ندامةً يوم القِيامةِ، فنِعم المرضِعةُ، وبِئست الفاطِمةُ»(٢).

وعن أبِي مُوسى رضي الله عنه قال: دخلتُ على النبِي ﷺ أنا ورجُلانِ مِن قومِي، فقال أحدُ الرجُلينِ: أمِّرنا يا رسُول الله، وقال الآخرُ مِثلهُ، فقال: «إنا لا نُولي هذا من سألهُ، ولا من حَرَصَ عليهِ»(٣).

فإن الاعتذار عن تحمل الأمانة والخوف من عدم أداء حقها إنَّما هو من الأمانة ومن رعاية الأمَّة والأمانة والتي مصدرها تقوى الله سبحانه، ومثل هؤلاء الأتقياء إذا ما تحملوا الأمانة فسيبلغون بها أعظم درجات أداء حقها.

فأيُّ تَحمُّلٍ لأمانةٍ مثل تحمل الأمَّة لكل الأمانات في رمضان؟! وهل القيادة إلَّا تحمُّل الأمانة؟

العنصر الثاني: صِنَاعةُ القَصدِ: والصَّومُ شَيْئانِ؛ نِيَّةٌ وتركٌ أو تركٌ بِنيَّةٍ: فهذه النيَّة هي أعظمُ إنجازٍ يستطيعُ الآباءُ والمُربُّون تحقيقَهُ في نفوسِ الصِّغار

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ١٢٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٨).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٨).

والمُتربِّين، ذلك أنَّ النيَّة: القَصدُ الموجَّه بالعمل نحوَ جهةٍ مُعيَّنةٍ؛ سواءٌ أكانت حِسيَّةً أو مَعنويَّةً: وهل من قَصْدٍ يُوجَّه له العملُ أعظم من وَجهِ الله ﷻ.

ومع أنَّ العلمَ بهذا الأمرِ أصبحَ عندنا - بعدما كبرنا - أمرًا عاديًّا مسلَّمًا به، ربما لا نلتفِتُ إليه لبداهته، لكنَّه هو الحقيقة .. وهو ما يصنَعُ الحقيقةَ العُظمى على أرضِ الوَاقعِ، فَلو تتبَّعت اليوم والليلة في رمضانات، وتتبَّعت تفاصيلَ ما فيه من الأعمال لَرأيتَ عجبًا! كيف يصنَعُ رمضان المقاصِدَ حين يصنع النِّيَّة في كلِّ جزئيَّة، وأوَّل ذلك الإلزام الشَّرعي في هذا الأمر، أمر لا يماثله إلزامٌ، فالمصطفى ﷺ يقول: «**لا صِيامَ لمنْ لم يُجمع الصِّيام قبل طلوع الفجر**»(١).

هذه هي النِّيَّة الكبرى الَّتي هي عنوان صَوم الفَريضةِ .. لك أن تَنوي في أيِّ جُزءٍ من أجزاء اللَّيل، لكن لا بدَّ أن تقع النِّيَّة لكلِّ يومٍ ما بين تمام غُروب الشَّمس إلى ابتداء طُلوع الفَجر الصَّادق .. والخِلاف كونُها هل تجبُ لكلِّ يوم أم تكفي نِيَّةٌ واحدةٌ للشَّهر كلِّه؟ لكنَّ الأصلَ هو أن تكُون في كلِّ ليلةٍ لكلِّ يومٍ جديدٍ من أيَّام رمضان .. أمَّا من قال للشَّهر كلِّه فباعتبار أنَّ رمضان قطعةٌ واحدةٌ وعبادةٌ واحدةٌ، ولذا اشترط البعضُ تجديدَ النِّيَّة إذا قطعها شيءٌ كسفرٍ أو حيضٍ .. أمَّا تَحقُّق هذه النِّيَّة، فهو أوسعُ من أن يكون في صورةٍ واحدةٍ .. إنَّ مُجرَّدَ الاستحضَارِ في اللَّيل أنَّ غدًا من رمضان كافٍ بالتَّذكُّرِ بسببٍ أو بغير سببٍ، وهذا أمرٌ أحسبه مُطَّردًا مع جميع الصَّائمين مُلازمًا لكلِّ صَائمٍ ملازمةَ العقلِ له في رمضان.

هذه هي صِناعَة القَصد في القَلب، وصناعة الإنسان القَاصد، فهو لا يَتَنَازل عن النِّيَّة لكنَّه لا يُقيِّدها بصورةٍ مُعيَّنةٍ، ولا ألفاظٍ مُعيَّنةٍ، ولا وقتٍ مُعيَّنٍ، فبِمُجرَّد

---

(١) رواه الترمذي (٧٣٠)، وصححه الألباني.

أن ينوي صِيام الغد في أيِّ ساعةٍ - بل لحظةٍ - من غروب الشَّمس إلى قبل الفجر فذلك كافٍ في تحقيق الأمر الشَّرعيِّ .. وهذه هي العظمة.. العظمة في أنَّ الإسلام قَدْ أخرجها من صُوَرِ الطُّقوس الوثنيَّة أو الصورة الجامدة وغيرها، وترك للصَّائم تكييفها وتوقيتها وصورتها .. المهمُّ أن يتحرَّك القلب ويتوجَّه نحوها.. وهذه هي الحركة التغييريَّة الحقيقية التي تنبعث حركةً في توجُّه القلب الصَّغير في النَّفس وتنتهي إلى حركةٍ تغييريَّةٍ هائلةٍ في واقع الحياة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] هكذا تتأكَّد حركة القلب القاصدة في كلِّ ليلةٍ من ليالي رمضان.

لقد غدت الصور الظاهرة لتبييت النية في الصِّيام في كلِّ شيءٍ .. فالشَّيخ الكبير يسأل قائلًا: أنا أرجع من القيام في المسجد إلى البيت لآكلَ تمراتٍ مع القهوةِ أو مع كوب لبن لا لحاجةٍ ولكن تطبيقًا للسُّنَّة ... هذا ما يصنعه أهل بيته.

والأب يقول: أنا أُوقظ الأسرة قبل أذان الفجر للاجتماع على السُّحور، والآخر يقول: أنا أستيقظ فأشرب كأسَ ماءٍ لأجل النيَّة، بل إنَّ النيَّة تظهرُ عند الإفطَارِ حيث يَتَقصَّد الجميع تناولَ الإفطار عند أوَّل الأذان مع العَزمِ القَاصِدِ الحَاضرِ على صِيامِ الغَدِ، وهذَا وحدَه قصدٌ شرعيٌّ يُؤجَر عليه لِنيَّةِ المتابعة وفعليَّة المتابعة، وما من أحدٍ إلَّا وهو يستحضر هذا إلَّا المسافر مثلًا، فإنَّه يستحضر أنَّ غدًا سَيُفطر؛ لأنَّ الأصل أن يصُوم... فهو يقطَعُ النِّيَّة بنيَّة والقصد بقصد وليس الأمر سَبهللًا.

والنيَّة تظهر في تناول الطَّعام ذاته حيث يتقصَّد المسلم أن يبتدئ بما ابتدأ به رسول الله ﷺ، بل ويُرتِّبها من حيث الأَوْلويَّات كما رَتَّبها رسول الله ﷺ،

الرُّطبُ وإلَّا فالتَّمرُ وإِلَّا فالماء وإِلَّا فعموم الطَّعام، وإن لم يجد فَنِيَّة الإفطار وحدها حتَّى يحضر الطَّعام.

وما أزكى المقصدَ الشَّائعَ بين الصَّائمين، ذلك المقصد الخفيُّ الَّذي يحسبه الجاهل تَصرُّفًا عَرَضًا، ويعلم الله أنَّه الإيثار الَّذي ذَكَرَ الله في كتابه حيث يظهر في شهرٍ مثل رمضان على مائدة الإفطار؛ فكثيرًا ما تجد الرَّجل يقدِّم التَّمرة الجيِّدة قُبَيل الإفطار لصاحبه يرجو أن يختم يومه بعملٍ خفيٍّ عظيمٍ لا يعلم به إلَّا الله ﷻ.. وهل فوق الإيثار من منزلةِ إحسانٍ للنَّاس...؟ وهذا ما يصنعه كلُّ مسلمٍ فيصنع في نفسه القصد حتَّى في تناول طعامه وهو ما لا يعرفه غير المسلمين أبدًا.. إذ مَن الَّذي يتعبَّد في طعامه بهذه المنهجيَّة الدَّقيقة سوى المسلم.. أمَّا غيره فهو كما قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [محمد:١٢].

وهكذا فإنَّ النِّيَّة حاضرةٌ في كَمِّيَّة الطَّعام الَّذي يأكله، فهو لا يأكل كل ما يقدر عليه كما تأكل الأنعام الحقيقيَّة والأنعام البشريَّة.. إنَّما يأكل كما شرع له النَّبيُّ ﷺ: **«ما مِن وعاءٍ مَلَأَ ابنُ آدم شرًّا مِن بطنٍ، حَسْبُ ابنِ آدمَ أُكُلاتٍ يُقِمنَ صُلْبَه، فإنْ كان لا بدَّ فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لِنَفَسِه»**(١).

فإن لم يستطع الالتزام بهذا فَلْيَتَّقِ التُّخْمةَ.. ولك أن تتصوَّر رجلًا جائعًا من صيامِ النَّهار كلِّه من الفجر حتَّى غروب الشَّمس..

وعطشان لم يشرب قطرةَ ماءٍ.. وبعد هذا يأتي لمائدة طعام مُمتدَّةٍ فيها ما لذَّ وطاب..! حقًّا إنَّها فتنةٌ: فمن ذا الَّذي يُمْسك نفسه فلا يأكل حتَّى الشِّبع وأمامه

(١) رواه ابن حبان (٦٧٤)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

كلُّ هذه الطَّيِّبات؟ هذا الصَّائم يمسك عن الشِّبع .. نعم، هو يأخذ حاجته، مُتحاشيًا التُّخمة بقصدٍ عظيمٍ، ذلك القصد هو الخِفَّة في القيام لصلاة التَّراويح، وهذا قصدٌ عظيمٌ بحدِّ ذاته .. انبثق عنه قرارٌ في أخصِّ خصائص الإنسان وهو بطنه ولذَّة طعامه.. فأيُّ قصدٍ أحكم من هذا القصد؟!

وعادةً ما تنبثق من هذا التَّرتيب نِيَّةٌ أخرى داخل النَّفس، تلك النِّيَّة وذلك القصد هو التبكير في الاستعداد لصلاة العشاء والتَّراويح جماعةً ... وهذا الأمر فيه أكثر مِنْ قصدٍ قد صُنِعَ داخل النَّفس، فمن ذلك قصد الصَّلاة جماعةً، فمن النَّادر الَّذي لا يكاد يُعرف في رمضان أنَّ أحدًا يصلِّي العشاء في بيتِهِ، وهذا مقصدٌ عظيمٌ لم يكن عند المسلمين بهذه الجماعيَّة في غير رمضان، ومنها تَقَصُّد صلاة التَّراويح في جماعةٍ، ومنها تَقصُّد إتمام صلاة التَّراويح في جماعةٍ، وعدم الانصراف قبل انصراف الإمام، وذلك لحديث: «**إنَّه مَنْ قام مع الإمام حتَّى ينصرف كُتِبَ له قيام ليلةٍ**»[1].

وكلُّ مسلمٍ يَتقصَّد بعد صلاة التَّراويح برمجة نفسه على عبادات باقي ليلته وأحكامها الشَّرعيَّة .. فمنهم مَنْ يَتقصد النَّوم مبكرًا بقصد الاستيقاظ لقيام اللَّيل .. ومنهم مَنْ يَتقصَّد القيام أوَّل اللَّيل؛ لأنَّه صاحبُ وظيفةٍ في البكور، ويريد أن ينام آخره، ومنهم مَنْ يتقصَّد القيام آخر اللَّيل، والجميعُ يَتقصَّد حضور السُّحور لإصابة السُّنَّة.

ومنهم مَنْ يَتقصَّد حضور الفجر مبكرًا؛ لأنَّه قد برمج خَتْمتَه على أَخْذِ جزءٍ منها ما بين الأذان والإقامة، ومنهم مَنْ برمج نفسه على حضور جلسة ما بعد

---

(١) رواه الترمذي (٨٠٦) من حديث أبي ذر ﷺ، وصححه الألباني.

الفجر في موضع الصَّلاة حتَّى تشرق الشمس، فغنيمتها عظيمةٌ وجذَّابةٌ لا يكاد يوجد لها نظيرٌ.

هكذا يدور اليوم دَوْرتَه وتدور اللَّيلة دورتها وهي تصنع المقصد في قلب الصَّائم صناعةً.. وتحفر في القلب حَفْرًا.. إنَّه أمرٌ مستمرٌّ معه كلَّ يومٍ من أيَّام الشَّهر.. مستمرٌّ من غير طقوسٍ ولا تكلُّفٍ.

آيةٌ عظيمةٌ تفعل فعلها في قلب العبد، وإن شئتَ قلت: قلب شخص الأُمَّةِ، فتتحول الأمَّة - شَاءَتْ أم أَبَتْ - إلى أُمَّةٍ قَاصدةٍ في مَشْيها، في سُكُونها..! في نومها..! في يقظتها.. في طعامها، في شرابها.. في كلامها وسكوتها.. في كلِّ شؤونها.. تدور عجلة اليوم واللَّيلة لتحفر بأسنانها النَّافذة نقشًا بديعًا في أكبر القلوب تَحجرًا.

فهل ترى لو أنَّ الأمَّة استثمرت هذه الصِّناعة.. وحَوَّلت كلَّ هذه المقاصد إلى منهاج حياةٍ دائمةٍ.. وعَمَّته على كلِّ الحياة.. على كلِّ العام.. على كلِّ الأمَّة لبقيت الأمَّة في تِيهٍ.. في ضَياعٍ؛ لأنَّ المقصد قد ضاع؟

العنصر الثالث: صِنَاعةُ الرُّوح الجماعيَّة والوحدةُ الاجتماعيَّة:

العجيبُ في شهرِ رمضَانَ خاصَّة هو صِناعَةُ الجوِّ الجماعي الإيجَابيِّ رُغم أنَّ الصِّيام عبادَة قَاصِرة على الذَّات! بل الصِّيام يغذِّي الرُّوح الجماعيَّة بأعمال وبرامجَ طُوال اللَّيل والنَّهار وطُوال الشَّهر كلِّه.

أوَّل ذلك: أنَّه جعل رؤيةَ الهلالِ مسؤوليةَ الجَميعِ؛ لذا قَال ابنُ عمرَ: تَراءَى النَّاس الهلالَ، فأخبرتُ رسول الله ﷺ، أنِّي رأيتُه، فَصَام وأمرَ النَّاس بصيامه»[1]،

(١) رواه أبو داود (٢٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

ولتغلِيبِ الرُّوح الجماعيَّة فإنَّه لو اعتقد أيُّ فردٍ خِلاف ما أقرَّه المسلمون في بلد ما من بلاد المسلمين، أو إقليم متَّحد المطلَعِ، فلا يحقُّ له أن يشيعَ رأيَه ولا يشقَّ صفَّهم، بل العبرةُ عند الله برأي الجمِيع، وإنْ ظَهَرَ أنَّ الرُّؤية كانت خطأ لحديث رسول الله ﷺ: **«الصَّوم يوم تصومُون، والفطرُ يوم تُفْطِرُون»**[١]، وما يقال من الوحدة في الصِّيام، يقال في الإفطارِ، والله سبحانه أجلُّ وأكرمُ مِنْ أن يأمرَ عبادَه بالرُّؤية، فإذا أطاعُوا وأخْطَؤُوا، وهم مجتهدون أن يضلَّهم عن ليلة القدرِ أو يضلَّ أعمالهم.

الثَّاني: الإفطار الجماعيُّ: وهذه سُنَّة يعمل بها عمومُ المسلمين، فما تجتمعُ الأسرُ المسلمة في وقتٍ مثل اجتماعِهَا في رمضَانَ .. بل إنَّ التَّضييفَ في رمضَانَ سنَّة إسلامِيَّة، ومظهرٌ من مظَاهر رمضَانَ، وهذه لا تخفَى على أحدٍ، وإنَّ هذا المنظَرَ لو استغلَّ دعويًّا بمنهجيَّةٍ دعويَّةٍ دعائيَّةٍ، ولو بالصُّور الصَّامتة ذات المعاني النَّاطقة، لكفت في هداية الخلق.

إنَّ هذا لم يتولَّد من عاداتٍ اجتماعيَّةٍ، إنَّما من قولِ المصطفى ﷺ: **«مَن فطَّر صَائمًا كانَ له مثل أجرِهِ، غيرَ أنَّه لا ينقصُ من أجرِ الصَّائم شَيْئًا»**[٢].

الثَّالث: التَّوحد عندَ الإفطَارِ والإمسَاكِ: فإنَّ التَّوقيت موحَّد للأمَّة كلِّها، فالإمسَاك عندَ طُلوع الفَجر الصَّادق والإفطار عند تمام غروب الشَّمس، ولا تكاد في هذه اللَّحظة تجدُ من يفطر وحيدًا، اللَّهم إلَّا مقطوعًا أو مغتربًا عن الأهل والصَّحب.

---

(١) رواه الترمذي (٦٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٨٠٧) من حديث زيد بن خالد الجهني، وصححه الألباني.

الرَّابع: صلاة التَّراويح: قد مرَّ معنا ولله الحمد، صَلاة النَّبيِّ ﷺ بالنَّاس ثلاث ليالٍ، وقد مرَّ معنَا جمع عمر ﷺ النَّاس ولا حاجةَ للإعَادَةِ، يقولُ الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله: فإنْ صلَّاها الإنسان منفردًا في بيته لم يدرك السُّنَّة، والدَّليل فِعلُ الرَّسول ﷺ وأمْرُ عمر ﷺ[1].

إنَّها خاصة بهذا الشَّهر؛ لأنَّ التَّراويح في غير رمضانَ بدعةٌ؛ ولذا قَال الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله: إذا قَالَ قَائلٌ: صَحَّحتُم أنَّها إِحدَى عَشرةَ رَكعةً، فما رَأيكم لو صَلَّينا خَلْفَ إِمَامٍ يُصلِّيها ثلاثًا وعشرين، أو أكثر، هل إذا قَامَ إلى التَّسليمة السَّادسةِ نجلسُ ونَدَعُهُ، أو الأفضل أنْ نكمِلَ معه؟ فالجواب: أنَّ الأفضلَ أنْ نكملَ معه، ودليلُ ذلك من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: قولُ النَّبيِّ ﷺ في قِيامِ رَمضانَ: «**إنَّه مَنْ قَامَ مع الإمَامِ حتَّى ينصرفَ كُتب له قيامُ ليلةٍ**»، ومَن جلَسَ ينتظر حتَّى يَصِلَ الإمامُ إلى الوِتر، ثمَّ أوتر معه، فإنَّه لم يُصلِّ مع الإمَامِ حتَّى ينصرفَ؛ لأنَّه تَرَكَ جُزءًا مِن صَلاتِه.

الوجه الثَّاني: عُموم قَوْلِ النَّبي ﷺ: «**إنَّما جُعِلَ الإمامُ ليؤتَمَّ به**»، وهذا يشمَلُ كلَّ فِعْلٍ فَعَلَه الإمامُ ما لم يكن منهيًّا عنه، والزيادةُ على إحدى عشرة ليس منهيًّا عنها، وحينئذٍ نتابع الإمامَ. اهـ[2].

الخامسُ: القَضَاءُ عَلى كُلِّ أسبَابِ الخلافِ، وإحيَاءُ أسبَاب الوِحدَة، والأمرُ في هذا واضِحٌ، وقد مَرَّ معنا حديث النَّبيِّ ﷺ، وعن أبي هريرة ﷺ يقولُ: قالَ رسول الله ﷺ: «**قَالَ الله: كلُّ عملِ ابن آدم له إلَّا الصِّيام، فإنَّه لي، وأنَا أجزِي به،**

---

(١) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع (٤/ ٨٢).

(٢) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع (٤/ ٤٢).

والصِّيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدِكم، فلا يرفثْ ولا يَصخَبْ، فإنْ سابَّه أحدٌ، أو قاتلَه فليقُلْ إنِّي امرؤٌ صائمٌ، والَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لخلُوفُ فَمِ الصَّائم أطيَب عندَ الله مِن رِيحِ المسْكِ، للصَّائم فرحتَانِ يفرحُهما إذَا أفطَر فَرِحَ، وإذَا لَقيَ ربَّه فَرِحَ بصَومِهِ»[1].

السَّادس: التَّربية الأسريَّة على الوحدَةِ: فعن الرّبيع بنتِ معوِّذ، قَالت: أرسلَ النَّبيُّ ﷺ غداة عاشُوراء إلى قُرى الأنصَارِ: «مَن أصبحَ مفطرًا فليتِمَّ بقيَّة يومِهِ، ومَن أصبحَ صَائمًا فليصُمْ»، قالت: فكنَّا نصُومه بعد، ونصوِّم صِبيانَنا، ونجعلُ لهم اللُّعبة من العِهنِ، فإذَا بَكَى أحدُهم على الطَّعام أعطَيناه العِهنَ، حتَّى يكون عند الإفطَار[2].

السَّابع: زَكاة الفِطر: وقد مرَّ معنا الحدِيث عَنها مفصَّلا بحمد الله.

الثَّامن: العيدُ وصَلاته: كلُّ ما في العيدِ وما فيه من سننٍ فإنَّه يبني هذه الرُّوح الجماعيَّة، بل هو ممارسة للوحدة والتوحُّد بين المسلمينَ، فانظر في ذلك سريعًا في هذه الأحاديث:

فعن سَالم بن عبد الله أن عبدَ الله بن عمر قال: أخذ عمر جبَّة من إستبرقٍ تُباع في السُّوق، فأخذها فأتَى رسول الله ﷺ، فقَالَ: يا رسول الله ابتع هذه تجمل بها للعيدِ والوفودِ، فقال له رسول الله ﷺ: «إنَّما هذه لباسُ من لا خَلاقَ له»، فلبث عمر ما شاء الله أن يلبث، ثمَّ أرسل إليه رسول الله ﷺ بجبَّة ديباج، فأقبلَ بها عمر، فأتى بها رسول الله ﷺ، فقالَ: يَا رسولَ الله إنَّك قلتَ: «إنَّما هذه لباسُ من

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦).

لا خَلاقَ لَه»، وأرسلتَ إليَّ بهذه الجبَّة؟ فقَالَ له رسول الله ﷺ: «**تَبيعَها أو تُصيبَ بها حَاجَتَك**»[١].

عنْ عائشَةَ قَالت: دَخَلَ عليَّ رَسول الله ﷺ، وكَانَ يَوم عيدٍ يلعب السُّودان بالدرقِ والحِرابِ، فإمَّا سَألتُ النَّبيَّ ﷺ، وإمَّا قَالَ: «**تشْتَهينَ تَنظُرين؟**»، فقلت: نَعمْ، فأقَامَني ورَاءه خَدِّي على خَدِّه، وهو يقولُ: «**دُونكم يا بَني أَرفدَة**»، حتَّى إذا مللتُ قَالَ: «**حَسْبُكِ؟**»، قلت: نَعَمْ، قال: «**فَاذْهَبِي**»[٢].

وعنِ البَرَاءِ قَالَ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يخطُب، فَقَالَ: «**إنَّ أوَّل مَا نَبدَأُ من يومِنَا هذَا أنْ نُصلِّيَ، ثمَّ نَرجِعَ فننْحَرَ، فمن فَعَلَ فقد أَصَابَ سنَّتَنا**»[٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ، قَالَ: كَانَ رَسول الله ﷺ يخرُجُ يَومَ الفِطرِ والأضحَى إلى المصَلَّى، فأوَّل شيءٍ يبدأ به الصَّلاة، ثمَّ ينصرِفُ، فيقُوم مقابِلَ النَّاسِ، والنَّاسُ جلوسٌ على صُفوفِهم، فيعظُهم ويوصِيهم ويأمُرهم، فإنْ كَانَ يريدُ أن يقطَعَ بعثًا قطَعَه، أو يأمُر بشيءٍ أمرَ به، ثمَّ ينصرِفُ، قَالَ أبو سعيدٍ فلمْ يزَل النَّاس على ذلك حتَّى خرجتُ مع مَرْوان، وهو أميرُ المدينة في أضحَى أو فِطرٍ، فلما أتينا المصلَّى إذا مِنبرٌ بَنَاه كَثيرُ بنُ الصَّلت، فإذا مَرْوانُ يريدُ أن يرتقِيه قبلَ أن يصلِّي، فجبذْتُ بثوبِهِ فجبذَني فارتَفَعَ، فخطَبَ قبلَ الصَّلاة، فقُلت له غيَّرتُم والله، فقال: أبَا سَعيدٍ، قد ذَهَبَ ما تَعلَمُ، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم، فقال: إنَّ النَّاس لم يكونُوا يجلسُون لنَا بَعدَ الصَّلاة فجعلتُها قَبلَ الصَّلاة[٤].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٩٤٨)، ومسلم (٢٠٦٨).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢).

(٣) رواه البخاري (٩٥١).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٩٥٦)، ومسلم (٨٨٩).

وعن جَابرِ بنِ عبدِ الله قَالَ: سمعته يقول: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَامَ، فبدَأ بالصَّلاة، ثمَّ خَطبَ النَّاس بعد، فلمَّا فرغَ نبيُّ الله ﷺ نَزَلَ فأتَى النِّساء، فذَكرهن وهو يتوكَّأ على يدِ بِلالٍ، وبلالٌ باسطٌ ثوبَه، يلقي فيه النِّساء صدقة.

قلت لعطاء: أترى حقًّا على الإمام الآن أن يأتي النِّساء فيذكرهن حين يفرغ؟ قال: إنَّ ذلك لحقٌّ عليهم، وما لهم ألَّا يفعلوا (١).

ولذا قَالَ البخاريُّ: ما يكره من حمل السِّلاح في العيد والحرم.

فعن سعيد بن جبير قالَ: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرُّمح في أخمص قدمه، فلزقت قدمه بالرِّكاب، فنزلت فنزعتها وذلك بمنىً، فبلغ الحجَّاج فجعل يعوده، فقال الحجَّاج: لو نعلم مَنْ أصابَك، فقال ابن عمر: أنت أصبتَني، قال: وكيف؟ قال: حملت السِّلاح في يومٍ لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السِّلاح الحرم، ولم يكن السِّلاح يدخل الحرم (٢).

التَّاسع: الأعمال المتعدِّية: وقد مرَّ معنا حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كان النبيُّ ﷺ أجود النَّاس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريلُ، وكان جبريلُ عليه السلام يلقاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدَارسه القُرآن، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أجود بالخيرِ من الرِّيح المرسَلَةِ (٣).

بل إنَّ النَّتيجة الخفيَّة أو الخلفيَّة لهذه الأعمال الجماعيَّة هي تحوُّل روح الأعمالِ الفرديَّة إلى جماعيَّة فثمَّة سرٌّ عظيمٌ من أسرار تَولُّد القصدِ عند

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٩٦١)، ومسلم (٨٨٨).

(٢) رواه البخاري (٩٦٦).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨).

الصَّائم رمضانَ، هو الجوُّ الجماعيُّ المثاليُّ للتَّسابق في الصَّالحات ... فربُّ العالمين سُبحانه جَمَعَ أُمَّةَ نبيِّه ﷺ في عَمَلٍ مُوحَّدٍ في فترةٍ مُوحَّدةٍ، صفة هذه الفترة هو السباق، فأصبح الموضوع في رمضان ليس موضوعَ تكليفٍ وواجبٍ وإلزامٍ .. بل هو الرِّضا ومزيد تسابقٍ في العمل، فالصَّائم لا يشعر بصيامَهِ، فهو قاسمٌ مشتركٌ كأنَّه الصِّفر في التَّميُّز بين الجميع رغم ذُراه العليَّة .. لكن يشتدُّ التَّسابق في النَّوافل، في السَّبق للصَّلوات في التَّراويح، في التَّهجُّد، في الإكثار من ختم القرآن، في الاعتكاف في الصَّلاة، في الصَّدقات، في العمرة، فيما إلى ذلك، وفي هذا الجوِّ أمرٌ تربويٌّ جدُّ مهمٍّ ألا وهو الذَّاتيَّة في السَّبق .. الذَّاتيَّة في الفضائل .. الذَّاتيَّة في العطاء، عدم انتظار التَّكليف أو الأمر، هذا هو الجوُّ الخاصُّ الَّذي يصنع الجماعة والأمَّة.. وسنأتي للحديث عنه باستفاضةٍ في موضوعٍ مُهمٍّ هو (استمرار الطَّاهرة) إن شاء الله، وقد مرَّ معنا بعضه في (الاعتكاف) بحمد الله.

العنصر الرَّابع: اصطناع الرُّجولة: إنَّ الرُّجولة صفةٌ من صفات المتَّقين كما سيأتي ذكر ذلك في الكتاب العزيز ... لكنَّ صفة الرُّجولة هي الصِّفة المطَّردة للَّذين يوفون بالعهد إذا عاهدوا، ويلتزمون به ولو كانت عبادات شخصيَّة أو فرديَّة، سواءٌ كان كلمةً أو كتابةً أو عهدًا نفسيًّا.. فتأمَّل ارتباط الرُّجولة بالوفاء في قول الله ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:٢٣].

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

إن هذه الصِّفة تبلغ بالمؤمن أن يتحوَّل إلى آمرٍ بالمعروف، ناهٍ عن المنكر أينما حلَّ وارتحل .. ويبلغ به الوفاء بذل رُوحه حتَّى وإن بقي وحيدًا في الميدان، فلا يمكن لمن تعلَّم من رمضان إلَّا أن يكون رجلًا؛ لأنَّه لا يمكن إلَّا أن يكون تقيًّا، وهكذا المرأة لا يمكن إلَّا أن تكون تقيَّة وجادَّة.

قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦].

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤].

إنَّ ميوعة الرجال لا توافق الصِّيام[1].

وإنَّ خير مدرسةٍ للرجال المتميِّزين هو رمضان، وذلك لما فيه من التزامٍ كامل وبرمجة حياةٍ كاملةٍ جديدةٍ من طلوع هلال الشَّهر حتَّى طلوع هلال الشَّهر الَّذي يليه، ومن سَحَر كلِّ يوم حتَّى سَحَر اليوم الَّذي يليه، وهذا الالتزام إذا عُمِل

(١) وهكذا لا يوافق ترجل النساء عبودية الصيام واتباعهن لسيد الأنام ﷺ ولأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، فكما لعن النبي ﷺ المخنثين فقد لعن المسترجلات، وهؤلاء وهؤلاء يشتركون في الخروج من العفو في رمضان ومن العتق من النيران، كما يشتركون في استحقاق اللعن، فقد صح عنه أنه قال: (لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال). رواه البخاري (٥٨٨٥).

به كما شَرَعه الله وعلى هدي رسول الله ﷺ أخرج الرُّجولة من أعماق الميوعة، وسَلَخ الميوعةَ من المتميِّعين والمترفين كما يُسلخ اللَّيل عن النَّهار فلا يبقى لها أثرٌ، كما لا يبقى للَّيل وسط النَّهار أثرٌ، ألا ترى كيف أنَّ رمضان عالج النَّفس من داخلها..؟ ألا ترى إلى قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرعد:١١].

فهل أعمق من تغيير رمضان في نفس الإنسان حين لا يغيِّر أعمال المسلم إلى أعمال المتَّقين إنَّما يبلغ بالتغيير تغيير القلب وهو ما يسميه ربُّنا الجليل سبحانه: ﴿تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِۖ﴾ [يس:١١]، هذا الخوف الَّذي يغذِّي كلَّ تصرُّفٍ يتصرَّفه المسلم في رمضان ما دام ملتزمًا بهدي رسول الله ﷺ في رمضان .. فلا تزال شجرته بهذا الغذاء تنمو في القلب وتنمو، وتقوى بكلِّ يومٍ جديدٍ في رمضان كما تنمو وتقوى الكمأة في الأيَّام المطيرة في مَوْسمها.. حتَّى إذا اكتمل رمضان اكتملت حياة الصَّائم وأصبح قلبُهُ وجوارحه وتصرُّفاته شجرة التَّقوى الَّتي نبتت في قلبِهِ أوَّل مرَّةٍ، وتأمَّل هنا كيف وصف الله تعالى شجرة المؤمنين من ابتدائها حتَّى استوائها: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح:٢٩]، وكم بين الميوعة وبين هذه الصِّفات من تضادٍّ **«آزره – استوى – استغلظ»**.

لقد عالج الصَّوم في المتميِّع **«لَهْو القلب»** في أعماقِهِ، وعالج **«الفُرُط»** من تصرُّفاته، وعالج **«رَخَاوةَ القرارِ»** بقوَّة التزامِهِ، وحدَّة حدوده، وعالج الشَّهوة بالمجاهدة اللازمة للحَرَام والحَلال والمقدِّمات حتَّى في الكلام، وعالج شهوة الطَّعام بتحريمِهِ وحرمانه منه في النَّهار حتَّى وإن كان حلالًا طيبًا، فهو فوق أن

يكون التزامًا ظاهريًا إلَّا أنَّه استسلامٌ لأمر الله ونهيه، وهذا ما يجعل المتميّع يغيِّر مصدر قراره، فإنَّ مصدر قرار المتميّع إنَّما هو هواه، أمَّا في رمضان فإنَّ مصدر قراره هو الله سبحانه وشرعه الحكيم الحازم الَّذي يطهِّره ويعالج ضعفه بأنجح وأسمح وألطف وأطهر علاج: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٦-٢٨]، إنَّها صفة شرع الله في كلِّ الأمم وسننه فيهم سبحانه كما هو الصِّيام شرعٌ فينا وفي الَّذين من قبلنا.

فالصَّوم من سنن الله فيمن قبلنا كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٣] وهنا قال أوَّل هذه الآيات: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء:٢٦].

وبعلاج الفم والفرج تعرف أنَّ رمضان قد عالج أكثر ما يُدخل النَّاس النَّار، ومن هنا تعرف بالإضافة لكونه علاجًا للتَّبعية لمصدري النَّار هذين أنَّه وقايةٌ كما في الحديث يقي صاحبه من النَّار، ففي الحديث الَّذي رواه أبو هريرة، قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: ما أكثرُ ما يُدخِلُ النَّاسَ الجنة؟ فقال: «**التَّقوى، وحُسْن الخُلُق**»، وسئل: ما أكثرُ ما يُدخلُ النَّار؟ قال: «**الأجوفان: الفم والفرج**»[1]، وفي الصَّوم قال النبي ﷺ: «**قال الله ﷻ: كلُّ عَمَلِ ابْنِ آدمَ لَهُ إلّا الصِّيام، فإنه لِي وأَنا أَجزِي به، والصِّيامُ جُنَّة، فإذا كانَ يَومُ صومِ أَحدكم فلا يَرفُث يَومَئِذٍ ولا يَسخَب، فَإن سَابَّهُ أحدٌ أو قَاتَلَهُ فليقُلْ إنِّي امرؤٌ صَائمٌ، والَّذي نَفْسُ محمد بيدِه، لخلوف**

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦٤)، وحسنه الألباني.

فَمِ الصَّائم أَطْيَبُ عند الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ من ريح المسكِ، ولِلصَّائمِ فَرحَتانِ يَفرَحُهما: إذا أفطر فَرِحَ بفطره، وَإِذَا لقي رَبَّهُ فَرِحَ بصومه»[١].

ولو جُمع المتميِّعون في كلِّ بلدٍ أو مدينةٍ في رمضان في مكانٍ واحدٍ، وعمل معهم البرنامج الشَّرعي في رمضان لرأى النَّاس عجبًا في النَّتائج، ولوُلِدتْ من رحم رمضان رجولةٌ في هؤلاء الذين نفض المربُّون أيديهم منهم، ولأصبح هؤلاء حجَّةً ظاهرةً في اصطناع الرِّجال بعناية الله وعلى عينه سبحانه في شهره، وأصبحوا حجَّةً على أنَّ في هذه الأمَّة خيرًا عظيمًا لا يقدر قدره بشرٌ، وأنَّ الله سبحانه لا يُميت غرس المصطفى ﷺ، وأنَّ قابليَّة التَّجديد والإحياء هي الأصل في هذه الأمَّة، وقابليَّة الفناء والاندثار والاستئصال مستحيلةٌ على هذه الأمَّة، وأنَّ في علاج الأفراد المتميِّعين وهم أقلُّ الأمَّة وأصعبها علاجًا لَهُو دليلٌ على أنَّ علاج الأمَّة أهون - بإذن الله - بل علاج الأمَّة ذاتيٌّ في هذا الشَّهر .. ولكن أين من يقطف الثَّمرة ويحمل الرَّاية؟

إن هذه الشُّحنة العلاجيَّة للتميع لا تتكرر في غير رمضان لأمرين: الأول: هو خاصية التَّقوى فيه . والثاني: الجو الرمضاني العام والمنتشر في كلِّ زاويةٍ من زوايا الحياة في رمضان إلى كل شعاب النفس الإنسانية، فلكأنَّه المعالج بمرضِ ضِيقِ التنفُّس حين ينقل من الجوِّ الصحراوي ورياح السموم إلى مدينةٍ زراعيةٍ مفعمةٍ بالأكسجين.

إنَّ المطلوب مع هؤلاء هو برنامجٌ كاملٌ يستغرق اللَّيل والنهار، فهو يقطعهم عن كلِّ المؤثرات السلبية والمثيرات التَّخَنُّثية من جهةٍ، ويغذِّيهم بتقوى الله بكلِّ

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

الطرق من جهةٍ أخرى، إنه غسيلٌ إيمانيٌّ وعقليٌّ، وهو قلعٌ لكومة التَّخنُّث السوداء وإبدالها بخير منها، أو هو إفراغ التَّقوى فيها من خلال برامجَ خاصَّةٍ وعامَّةٍ، ومن ورائها الثقل الهائل لأجواء رمضان العظيمة.

إنني لعلى درايةٍ أن أجواء رمضان لم تستثمر كما ينبغي في علاج مرض المجتمع المسلم إيمانيًّا، وإن رمضان فرصة لا تتكرَّر أبدًا؛ لذا لزم أصحاب الهمم المشرفينَ على علاج الفئات المعنيَّة من مختلف الفئات العمريَّة أن يعيدوا برمجة العلاج في رمضان لمجاميعهم، ويعدوها إعدادًا دقيقًا لرمضان، ويشبُّوا عن طوق التقليد بل يكسروه، فإنَّ مَنْ أراد أن يجدد لا بد أن يحوِّل الآمال إلى أعمالٍ، وإنَّ ميدان الوسائل لا حدَّ لتجديده، ولا يكاد يلحق في هذا الزَّمان.

إنَّ على المترفين أن يعلموا أن الصَّوم والتَّرف طرفان لا يجتمعان كما أنَّ التَّرف في الدنيا والآخرة طرفان.

هذا ليس كلامًا تحليليًّا نظريًّا، إنَّما هي المعاناة الحقيقيَّة اليوميَّة في حياة الصَّائم، فبينما تجد تيَّار الحياة يجري طوال الأشهر بطريقةٍ معيَّنةٍ يأتي الشَّرع يقول للمترف: هنا توَقَّف، هنا يجب أن تغيِّر.

أي ترف يتوافق مع الجوع والعطش في النَّهار، والقيام والنَّصب في اللَّيل؟!

أي ترف يبقى إذا أصبح الأصل في حياة الصَّائم في رمضان مخالفة هواه؟!

إنَّ الكثيرين يناقضون منهج الصِّيام حينما يجعلون من الصِّيام في رمضان سببًا للاسترخاء، وترك الأعمال، وضيق الصَّدر، وسرعة الضَّجر، وعدم تحمُّل الآخرين، والتَّقليل من بذل الجهد.

إنَّها حالة الأمَّة اليوم .. وهي الحالة المتناقضة لتشريع الصِّيام وغايته كما مرَّ معنا ذلك مرارًا .

ثمَّ حالة التَّرف تصيب عموم الصَّائمين المترفين وهي التَّرف في ليل رمضان، ابتداء بأنواع الطَّعام وطيِّباته والإسراف في ذلك إسرافًا ليس له نظير طوال العام.

والتَّرف في لهو اللَّيالي بل حتَّى أحاديثها، وقد مرَّ معنا ذلك في أوَّل هذا الكتاب.

ينبغي لكلِّ صائم أن يكون آخر عهده بالتَّرف في رمضان هذا، حتَّى يلقى الله؛ لأنَّ الهلكى يوم القيامة يشكون التَّرف.. بعدما أهلكهم الترف في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٦]، ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

وقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٤] .

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣].

أيُّها القارئ: إنَّ الصِّيام حين يصنع الرُّجولة إنَّما يصنع عناصرها ومقوماتها، وأي مقوِّم للرُّجولة أكبر أهميَّة من أن يستعلي الصَّائم على الخضوع أمام حاجيات النَّفس، ويصبر على متطلباتها، وإن كانت متطلبات أساسيَّة للحياة، إنَّك إذا نظرت في هذه الأشياء ستجد النَّفس تقول لك: إنَّها أصعب ما يكون الصَّبر عليها، فأيُّ نفسٍ تصبر على الطَّعام وهو قريبٌ منها وهي جائعةٌ.. وأيُّ نفسٍ تصبر

على الشَّراب وهي عطشى، بل الأثقل من هذا أيُّ نفسٍ تصبر على العدوان عليها وهي تقدر أن تردَّ ولا تردُّ؟! أيُّ نفسٍ تصبر على الشَّتيمة وهي الأبيَّة؟! أيُّ نفسٍ تصبر على أن تسكت وقت الجدال وهي تعتقد أن الحقَّ معها، أيُّ نفسٍ لا يُغريها الحديث المتداول في المجلس عن شخصٍ حاضرٍ خصوصًا إنْ كان حديثًا مازحًا ضاحكًا، أو كان الشَّخص غائبًا وعند هذا الصَّائم من المعلومات التي يضيف بها على ما ذكر، ونفسه مِنْ داخله تحضُّه أن يتحدَّث ويشارك ليشبع فضولها ويعلِّي أمام الآخرين شأنها .. إنَّ مسبِّب إقامة الحدود والقصاص هو العدوان على الغير بأيِّ صورةٍ من صور العدوان الموجبة للحدود والقصاص، والصِّيام ينزع العدوانيَّة من النَّفس أو هو يكبتها كبتًا محكمًا وإلى الأبد لو أنَّ النَّاس عقلوا حكمته ودقته، فالصَّوم يمنع أقلَّ صور العدوانيَّة وأصغرها حتَّى لو كانت كلمات ... فلا تردُّ بالكلمات، ولو كانت عدوانيَّة من غير مبررٍ فإنَّها ترد ولكن بالحِلْم والحكمة، فإذا انضبط اللِّسان فقد انضبطت الجوارح؛ لأنَّ الرَّد باللِّسان مقدمة معتادة للردِّ بالجوارح.. كما قال الشاعر:

فإنَّ النَّار بالزِّندين تورى ... وإنَّ الحرْبَ مبْدؤُها كَلامُ

وما انضباط اللِّسان إلَّا شاهدٌ على انضباط النَّفس .. وهذه هي صناعة الصِّيام الفذَّة للتَّقوى، بل هي صناعة النَّفسيَّة المجاهدة المخلصة لله تعالى، فلقد سبق الجهاد في سبيل الله تعالى الأمر بكفِّ الأيدي، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

فلنعد التأمُّل جيدًا في هذا الحديث الَّذي سمعناه وقرأناه مرارًا في ظلال ما قلت.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله: كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له إلَّا الصِّيام فإنَّه لي وأنا أَجزِي به، والصِّيام جنَّةٌ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إنِّي امرؤٌ صائمٌ، والذي نفس مُحمَّدٍ بيده لخلوف فمِّ الصَّائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه»**[1].

ولا خيار للصَّائم .. فإنَّه إن أراد أن يكون صيامه جنَّة من النَّار فلابدَّ أن يكون جنَّة من الآثام والعدوان عن الآخرين .. بل وجنَّة من عدوان الآخرين على شخصه.

أرأيت إلى أيِّ منزلةٍ يريد الإسلام أن يرفع المسلم أيضًا في رمضان.

أرأيت ؟! فماذا بعد أن يكسر الصَّائم قيودَ نفسِهِ إلَّا الانطلاق، ماذا بعد أن يحقِّق انتصاره الأهمَّ على نفسه إلَّا أن ينتصر على عَدوِّه، إنَّ الحقيقة هو أنَّ رمضان العظيم قد أَعَدَّ لقادة الأمَّة أفراد النَّصر المحقَّق.. وجنود الفتح العظيم .. ولا ينقصهم إلَّا القيادة الرَّبَّانيَّة الَّتي تجمعهم وتُوجِّههم كسهامٍ للإسلام في كلِّ ميدانٍ، وبهم تُعدُّ جحافل الفتح المبين في ميدان المحاجَّة بالقرآن، والجدال بالحسنى، وميدان العلم والتَّعليم، وكسر قيود الانهزام الدَّاخليِّ .. وكذلك جحافل القتال الحقيقيِّ القائم على الكتاب والسُّنَّة ومصلحة الأمَّة لا الأهواء الممتزجة بالجهل والغلوِّ، ومهما حاول أن يفلسف هذه الحقيقة المفلسفون، فإنَّ رمضان هو المصنع الحقيقيُّ التَّحويليُّ لنفسيَّاتِ الأمَّة من مادَّةٍ للنُّفايات

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

إلى موادَّ صالحةٍ مُصْلحةٍ.. وإن شئت قلت: تحويل الأمَّة من مادَّة الغثاء والهشيم إلى مادَّة النَّصر المبين، وهذا - والله - حُجَّةٌ بالغةٌ على قادة الأُمَّة، وهكذا كلما دار العام، وعاد إلينا رمضان.. عاد رمضان لصناعة الرِّجال الجدد .. وعادت الحُجَّة قائمةً على قادة الأمَّة أبلغ قيام، تقول لهم: ها قد وُجِدَ الرِّجال فأين قادتهم.. ها قد وجد الأفراد فأين مَنْ ينظمهم، ويسير بهم ... إنَّ رمضان نورٌ كاشفٌ، وسَوْطٌ فاضحٌ .. لكلِّ مَنْ زعم زورًا أنَّه قائدٌ فاتحٌ.

أيُّها القارئ: لا يبقى ما ذكرتُ لك مُجرَّد تحليلٍ نظريٍّ بل هو الحقُّ العظيم الَّذي هو بعض غايات الصِّيام الكبرى الَّتي ينبغي أن نبحثها لندرك بعض البعد الَّذي شرع الله له هذه العبادة العظمى، فإذا أدركنا ذلك ازددنا تعظيمًا لربنا سبحانه وهو سبحانه العلي العظيم وتعظيمًا لشرعنا كذلك، وازددنا إدراكًا لغفلتنا ووجوب إعادة دراستنا لديننا.

ولم يترك الله هذه الحقيقة نظريةً مجرَّدةً، بل أرسل الشَّواهد الواقعيَّة عليها، فما كان وقوع أعظم فتوح الإسلام في رمضان إلَّا قدرًا مقدورًا، وغيبًا منشورًا، بل إنَّ معارك رمضان كانت المعارك التَّحويليَّة الَّتي حوَّلت التَّاريخ كلَّه لصالح الإسلام: غزوة بدرٍ الكبرى، وغزوة الخندق، وكان الحفر في رمضان، وغزوة الفتح المبين، وفتح الأندلس، فتح عموريَّة، وقعة صارمٍ، ومعركة عين جالوت، وفتح أنطاكية، وفتح أرمينيَّة، وكسر التَّتار في معركة شقحبٍ، وفتح قبرصٍ، وفتح البوسنة والهرسك، وفتح بلغراد، حقًّا إنَّه جيل النَّصر الَّذي يمرُّ بنهر رمضان فيخرج منه تقيًّا فيكون مضمون العاقبة بإذن الله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص:٥، ٦].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥، ١٠٦].

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

العنصر الخامس: اصطناع الجوِّ المثاليِّ لتنزيل شرع الله على الحياة:

قبل أن يخرج آدم عليه السلام من الجنَّة ويهبط إلى الأرض، أخذ التحذيرات من ربِّه سبحانه عن عدوِّه الشيطان، فإبليس ليس من سُكَّان الجنَّة، وما حال المؤمن في هذا الشهر إلَّا كحال آدم في الجنَّة .. بل كأنَّ الله قد جعل له شهرًا من كلِّ عامٍ يعيش فيه على الأرض، ولكن في هذا العالم الخاص؛ فالشَّياطين مغلولةٌ، والنَّار موصدةٌ، ورحمة الله غامرةٌ، وأبواب الجنة مفتحةٌ، والمؤمن ممنوع من مأكولٍ ومشروبٍ ومشتهى، وما إنْ تنتهي هذه الحياة في هذا الشَّهر حتَّى ترجع الحياة كما كانت .. لكن يدخلها المؤمن بِهمَّةٍ أعلى، وصفاءٍ في البصيرة، ومعرفة عدوِّه أكثر، واشتياقٍ للجنَّة أحر، وفرارٍ من النار أشد.

يحسبُ البعضُ أنَّ التَّقوى مِنْ صفاتِ السَّلبِ المجرَّدة أو التُّروك، وهي بهذا المعنى المحصور في السَّلب إنَّما هي من صفات دياناتٍ غير دينِ الإسلامِ كالبوذيَّة والهندوسيَّة، إنَّ التَّقوى هي تركٌ لكنَّه لأجلِ الانطلاقِ، وإنَّه حَذَرٌ وتَحَاشٍ .. ولكنَّه لرجلٍ ليس قاعدًا وإنَّما هو ماشٍ.

إنَّ الواجب هو أن نرجع إلى التَّقوى كما بحثها القرآنُ الكريمُ لا كما فهمها المتأخِّرون شهرًا بأكمله يتربَّى فيه المؤمنُ على التَّقوى .. ليكونَ بعدَ رمضانَ رجلًا سلبيًّا!

إنَّ عُزْلةَ العابدِ الصَّحيحة عادةً ما تكون بعدها انتفاضةٌ، ويكونُ بعدها انقضاض كانقضاضِ الأسدِ بعدَ رُبوضِه.

إنَّ التَّقوى كما يَعْرضها القرآنُ تكسرُ السَّلبيَّة، اقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ البقرة:١٨٩].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

إنَّ هذه الإيجابيَّة تجعل المسلم يحمل ما تعلَّمه في رمضان كدعوة إلى النَّاس وزادًا يُزودهم فيه، إنَّه منادٍ كمنادي رمضان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذَا كانَ أوَّلُ ليلةٍ من شهر رمضان صُفِّدت الشَّياطين ومَرَدةُ الجِنِّ وغُلِّقت أبوابُ النَّارِ فلم يُفتحْ منها بابٌ، وفُتِحت أبواب الجنَّة فلم يُغلق منها بابٌ، ويُنادِي مُنادٍ كلَّ ليلةٍ: يَا باغيَ الخيرِ أَقْبِلْ، ويَا باغيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، ولله تعالى عُتقاءُ مِنَ النَّار، وذلك عند كلِّ ليلةٍ»**[1].

(١) رواه الترمذي في سننه (٦٨٢)، وصححه الألباني.

حقًّا إنَّ التَّقوى تركٌ.. ولكن بقدر ما فيها من تركٍ بقدرِ ما فيها من عدم عدوانيةٍ على حقوق الآخرين .. وبقدر ما فيها من مخافة الله سبحانه بقدرِ ما فيها من إقدامٍ طلبًا لمرضاة الله تعالى .. وبقدر ما فيها من رقابةٍ شديدةٍ على اللِّسان والجوارح بقدر ما فيها من تضحيةٍ بالنَّفس رغبةً فيما عند الله، وبقدر ما فيها هروب من النَّار بقدر ما فيه مسارعة إلى جنَّة الله.

فأيُّ عمقٍ في التغيير الفاعل الَّذي يحدثه رمضان من خلال البلوغ اللازم لغاية الصَّوم وهو التَّقوى، ولكن بهذا الفهم وهذا العمق.

وهذه التَّقوى التي هي غاية هذا الشَّهر ينبغي أن تولَّد طبيعيًّا إقامة كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ... ولا مجال للتَّقوى الحقِّ إلَّا هذا في هذه الأُمَّة، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦] .

سبحانك ربَّنا! كم تربَّينا في هذا الشَّهر ونحن لا نشعر؟

لك الحمد اللَّهمَّ أنْ جعلتنا ندرك رمضان، فاجعلنا نقدِّر هذه المدرسة حقَّ التَّقدير.

أيُّ معانٍ عظيمةٍ لم نعطها حَقَّها - بعدُ - لقولك: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ونحن لم نستفد منها؟

سرُّ هذا التَّغيير الَّذي يهيِّئ الفرصة المثلى والجو الأنسب لتطبيق شرع الله هو بلوغ التَّقوى مَكْمَن التَّغيير ومركزه، ومكمنُ التَّغيير ومركزُهُ هو النَّفس، كما أنَّه

في صناعة الالتزام العملي للفرد متعبدًا لله في تفاصيل حياته، كما أنَّه صناعة جو الأمَّة العام... وهل ينكر جو رمضان المظلل للأمَّة أحد، وهذا ما صنعه رمضان .. حيث أدخل التَّقوى مسارب النَّفس وجذورها، فسرى التَّغيير إلى شِعَابِ الصَّائم وَشِعَاب الحياة كما يسري الغيثُ إلى ذرات التُّربة وطبقاتها.. ومنها يسري إلى الجذور ... إلى السِّيقان والعيدان والأفرع والأوراق والثَّمار .. إنَّها التَّقوى الفاعلة بِسِرٍّ ويُسْرٍ لا يدرك ... وذلك هو بعض ما في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧].

وهو من قول النَّبيِّ ﷺ: **«اللَّهمَّ آتِ نُفُوسنا تقواها، وزَكِّها أنت خير مَنْ زكَّاها أنت وَليُّها ومولاها»**.

فإذا أُوتيت النَّفس تقواها فقد أصاب التَّغيير مَكْمنه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧] .

وعندها ستبلغ التَّقوى كلَّ مجاري الحياة، وهو ما ينبغي أن يسري إلى كلِّ الأشهر وكلِّ ميدان، لكن ما الأمر الجامع ما بين تطبيق شرع الله وبين التَّقوى؟! ما بين إقامة الحدود الشَّرعيَّة وبين رمضان؟!

أولًا: القاسم المشترك الأوَّل: «التَّقوى»: فإنَّ القاسم المشترك ما بين تطبيق حدود الله سبحانه وبين رمضان هو التَّقوى، فقد قال سبحانه في رمضان:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، كما قال في القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩]، فهو توحُّد الغاية، وإن كانت التَّقوى المرادة في القصاص إنَّما هي الخوف من الاقتراب من أسباب القصاص، أما في رمضان فالتَّقوى على أوسع معانيها وأبعدها، لكنَّ هذا القاسم المشترك كافٍ وحده في بيان عمق الترابط بين رمضان وبين القصاص... إنَّه صناعة الحياة الجديدة الآمنة، كما قال سبحانه في أوَّل آية القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩].

القاسم المشترك الثَّاني: «الاستسلام مع الرِّضا في الاثنين»: إنَّ الأمر الأعظم في تطبيق شرع الله بالنِّسبة للمتحاكمين هو انعدام الحرج في النَّفس والاستسلام للحكم والرِّضا به، فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وأما في رمضان فإن في تفسير قول النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**»: «وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك، غير مستثقل لصيامه ولا مستطيل لأيامه»(١)، ومن تأمَّل هذه البيئة الَّتي يصطنعها رمضان في هذه القطعة الزَّمنية الطَّويلة بهذه التَّشريعات الَّتي تتَّصف بصفتين؛ أنَّها كثيرةٌ تمثل الحياة كلَّها، وأنَّها حدِّيَّةٌ دقيقةٌ، فإنَّ تطبيق تشريعات الصِّيام بغير التَّقوى مستحيل كما قال سبحانه في ختام الشريعة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا

(١) فتح الباري (٤/ ١١٥).

وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٧].

تأمَّل ما اختتمت به الآية العظيمة، واربط ذلك بما قبلها من تشريعاتٍ حدِّيَّةٍ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة:١٨٧] إنَّه حدٌّ فاصلٌ وحدٌّ قاطعٌ.

خيطٌ ما بين الفجرين يفصل أحكامًا في الطَّعام والشَّراب والشَّهوة وما إلى ذلك .. إنَّه برزخ دقيق رقيق ما بين اللَّيل والنَّهار .. وتأمَّل الحدود الحدية الدَّقيقة في القصاص؛ إذ يقول الله سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥]، فإذا تأمَّلت ذلك جيدًا فتأمَّل الآية التي بعد آية الصِّيام؛ إذ قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٨٨].

تأمَّلت الانتقال من الأحكام في النَّفس إلى الأحكام في المجتمع.. تأمَّل انتقال التَّقوى من الصُّورة الفرديَّة إلى الصُّورة المجتمعيَّة، من الصُّورة العباديَّة في النفس إلى الصُّورة المالية في الحياة .. ثمَّ تأمَّل جيدًا كيف ترقَّت من التزام حكم الله سبحانه في الصَّوم إلى وجوب التزام حكمه مع الحكَّام، والتزام حكمه كحكَّام.

إنَّه الاستسلام العامُّ في كلِّ شيءٍ لحكم الله ربِّ العالمين وإلَّا فلا إيمان ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ

﴿وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وهذا هو ما يربِّي عليه هذا الشَّهر المبارك أهله.

ليس استسلامًا فقط لحكم الله ولا انعدام الحرج، وإنَّما الرِّضا الكامل الشَّامل في الظَّاهر والباطن لحكم الله سبحانه .. وفي أخصِّ خصائص الإنسان، وفي حاجيَّات نفسه الفطريَّة... وهل مثل الطَّعام والشَّراب والشَّهوة ضرورةٌ؟ وهل الحدود والقصاص إلَّا في العدوان على النَّفس والطَّعام والشَّراب والشَّهوة والدِّين؟

وكلُّ هذه في الصِّيام من غير رقيبٍ خارجيٍّ ولا سلطانٍ قاهرٍ ظاهريٍّ، إنَّما هو بصناعة تقوى القلوب في القلوب ... وهو بالإخلاص لله سبحانه دون سواه وهذا بعض معاني: «**الصَّوم لي**».

فأيُّ بيئةٍ بعد هذا أصلح من البيئة الرَّمضانيَّة لتطبيق السُّلطان الظَّاهر من الشَّرع؟ فهل الشَّرع الَّذي نجح في التَّحكم بزمام القلوب ونواصيها وهي راضيةٌ يعجز عن حكم حياة النَّاس الظَّاهرة وما هي إلَّا جوارح تابعةٌ لسلطان القلب الَّذي استسلم ورضي تمام الرِّضا بسلطان الشَّرع بشهادة رمضان الكريم ؟!

ثمَّ أليس الأمر الأعظم في تطبيق حكم الله على النَّاس هو انضباط النَّاس كشعوبٍ وأُمَّةٍ؟!.. أَوَليس في انضباط الأمَّة من أوَّلها إلى آخرها في شهر رمضان بأكمله ... بنظامٍ عامٍّ موحَّدٍ جاهزية مُثلى لتطبيق الأحكام العامَّة على الأمَّة وعلى مدار العام كلِّه؟ أليس في تطبيق الأمَّة لأحكام موحدةٍ تطبيقًا ذاتيًّا من غير سلطانٍ أحسن إعداد للنَّجاح عند تطبيق الأحكام بالسُّلطان؟ أليس التَّطبيق اللَّازم ليلًا ونهارًا في رمضان كفيلًا بالنَّجاح عند تطبيق أحكام ربما لا تمر على

عمر الفرد مرَّة؟ أليست الأمَّة كلُّها تفطر في لحظةٍ واحدةٍ وتمسك في لحظةٍ واحدةٍ .. بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ يشدِّد على انضباطها أكثر وأكثر حين يأمر بالإفطار في أوَّل لحظاته وفي الإمساك في آخر لحظاته، فيقول ﷺ كما روى أبو حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قالَ: «**لا يزال النَّاس بِخَيرٍ ما عَجَّلُوا الفِطرَ**»(١).

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَكِّرُوا بالإفطار، وأخروا السحور**»(٢).

القاسم المشترك الثالث: «توحُّدُ الثَّمرة»: يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، فالله سبحانه ذكر أنَّ البركات سوف تنزل على أهل الأرض من السَّماء وتخرج من تحت أرجلهم إن هم آمنوا واتَّقوا، وهذا ما نشاهده بأعيننا - ولله الحمد- في رمضان .. فإنَّ الاكتفاء الَّذي يحصل للفقير بطعامه في رمضان لا يحصل له طوال العام، وإنَّ الخير الَّذي يدخل بيت الفقراء في رمضان يتعدَّى حدود رمضان، فإذا رجعنا إلى سرِّ ذلك وجدناه في القاسم المشترك بين آية وَعْدِ البركة على أهل القرى وآية الصِّيام، في سرٍّ مشترك بين الاثنين، ألا إنه: «**التَّقوى**».

وكما أنَّ هذا الوعد عامٌّ لأهل القرية فإنَّ التَّقوى في رمضان عامةٌ على كلِّ القرى، بل الأمَّة كلِّها.. كلُّ هذا وتقوى الأمَّة لا يتعدَّى التَّقوى الفرديَّ.

وبعد هذا تأمَّل الآية الثَّانية حيث قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٨/ ٢٧)، قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٨٣٥).

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦] هذا في إقامة التَّوراة والإنجيل، فكيف إذا أقامت أمَّة القرآنِ القرآنَ !!

إنَّ رمضان شاهدٌ حقٌّ على أنَّ القرى المؤمنة ستقبض ثمرة التَّقوى إنْ هي اتَّقت الله سبحانه، قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق:٨، ٩].

العنصر السَّادس من عناصر صناعة الأمَّة القائدة: إنشاءُ تقوى القلوبِ إنشاءً:

لا يزال الواحد منَّا يَذْكر جيدًا -كما ذكرت وسنذكر إن شاء الله- يومَ كان طفلًا وكان يحاول الصِّيام مع أهله وقومه الصَّائمين .. كيف كان يحرص على أن يلتزم كما يلتزم أهلُهُ، لكنَّه إذا اشتدَّ به العطش ... ضعفت نفسُهُ فاختلى يريد شرب الماء لئلَّا يراه أهله فيظهر أمامهم بمظهر النَّقص حتَّى لو لم يعنِّفوه .. فلربَّما سقط مرَّةً واحدةً أو مرَّتين وربَّما لم يسقط، أو يُعاوده الضَّعف في أيَّامٍ قادمةٍ، لكنَّه يصوم فيعطش ويجوع ويأبى أن يسقط ثانيةً، ويتحامل على نفسه إلى أن يؤذَّن للمغرب، فيفرح أيَّما فرحٍ بهذا التَّمام والنَّجاح، ويؤكِّده بتمام صيام اليوم الَّذي بعده، وهكذا، وما هذه العمليَّة بهذه المعاناة الواقعيَّة إلَّا مخاضٌ يتقدَّم ولادةً للتَّقوى في النَّفس، وإنشاء التَّقوى في القلوب إنشاءً، حتَّى يكبر وترسخ جذوره في القلب فيستوي على سُوقِهِ وتكثر ثماره على الجوارح ويعمَّ نوره على مَن حوله ويغرس بذره في كلِّ ميدانٍ .. إنَّ الَّذي منعه من الإفطار طوال الأيَّام الماضية رُغْم غَيْبتِهِ عن عين أهله لو أراد هو خوفه من الله سبحانه؛ لأنَّه هو مَنْ يراه وإنْ غاب أهله.

هذه الحقيقة الخفيَّة الَّتي تنشأ في الخفاء منذ الصِّغر هي الَّتي لا يعيش عليها فردٌ وحده، بل تعيش عليها أجيال الأمَّة.. أمَّا سقوطه مرارًا قليلة فهذا لضعفِهِ، ومصير هذا إلى الزَّوال كما رأيت؛ ولذا غلبه ضعفه لكنَّه خَافَ عدم عذر النَّاس له وخاف المَعرَّة والشَّماتة فأخفى ذلك، لكنَّه سرعان ما عاد، ولا يزال هكذا في مجاهدةٍ حتَّى استقرَّ حاله، إنَّها بذرة التَّقوى والإخلاص تتوحَّدان في الإثبات في أرض قلب كلِّ صغيرٍ مسلمٍ في رمضان وهو يبتدئ الصِّيام .. تنشأ كحياةٍ بأكملها وليس كعبادةٍ سلبيَّةٍ قاصرةٍ على ذاتها، وهذه بعض صنائع رمضان الإيجابيَّة المتعدِّية العجيبة في الصَّائم كفردٍ.

لو تصوَّرت بني إسرائيل مع قائدهم (طالوت) وهم العطاش الَّذين أضناهم المشي، والَّذين ينتظرون لقاء عدوٍّ جبَّارٍ وجنوده، وقد مرُّوا بهذا النَّهرِ العَذْبِ، وقد منعهم نبيُّهم من شرب الماء من النَّهر اللَّهمَّ إلَّا غرفةً واحدةً فقط، أتراهم يصبرون؟! إنَّك سوف تجد من بني إسرائيل مَنْ يترك الاغتراف مِنْ أصله ويشرب بطريقته الجشعة، فهذا يشرب مباشرةً بدون اغترافٍ، وذاك يغوص ليشرب، وثالثٌ يَقْسِمُ الغَرْفة الواحدة إلى أقسام تتضاعف فيه .. فهم بنو إسرائيل أساتذة التَّحايل، ومِنْ ثمَّ تساقطوا إلَّا قليْلًا منهم، وما ذاك إلَّا لذهاب تقوى القلوب من المتساقطين أمام الماء وشدة العطش.

ولقد كان اختبارًا صعبًا لبني إسرائيل حين أمروا بترك الصَّيد يوم السَّبت فجاءت الأسماك المطلوبة يوم السَّبت في منظرٍ أَخَّاذٍ لصائدي الأسماك على وجه العموم، فكيف لسمَّاكي بني إسرائيل، فما كان منهم إلَّا أن تركوا الاصطياد في الظَّاهر وما تركوه في الحقيقة .. فسقطوا في عبادة التَّرك..! إنَّها نفوسٌ شَرِهَةٌ

تتطلَّع للأخذ دومًا، فيأتيها الأمر بالتَّرك حيث جاءت الفرصة بالأخذ الَّتي رُبَّما لن تتكرَّر، فقال سبحانه: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦].

إنَّ ظاهر التَّرك قد تحقَّق، لكن حقيقته لم تتحقَّق.. فهم تركوا مباشرةَ الصَّيدِ في هذا اليوم.. ولم تمسَّ أيديهم الأسماكَ يوم سَبْتِهم .. ولم يرفعوا الأسماك من الشِّباك أو يأكلوها أو يبيعوها أو يتصرَّفوا فيها أيَّ تَصرُّفٍ، والأسماك بقيت في البحر ولم تخرج منه، وإنَّما حصل الأخذ في اليوم الثَّاني.. اليوم الَّذي يباح لهم الصَّيد فيه.

وهذا هو الفارق الحقيقيُّ ما بين تقوى القلوب وتقوى التَّظاهر أو التَّظاهر بالتَّقوى، وتقوى القلوب هذا هو ما يصنعه رمضان.

ومثل هذا التَّرك هو ما سقط فيه بنو إسرائيل في الشُّحوم كذلك، فقد قال ﷺ: **«قَاتَلَ اللهُ اليهودَ، إنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ عليهم الشُّحومَ جَمَلوها، ثمَّ باعوها وأكلوا أثمانها»**(١).

فهم تركوا أكل الشُّحوم كشحومٍ في أصلها، وهذا هو ترك الظَّاهر أو تقوى

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ٥٧٤) قال شعيب الأرنؤوط: صحيح، وهذا سند حسن ... ا.هـ. الحديث في الصحيحين بلفظ مقارب.

المظاهر، وفي مقابل هذا التَّرك كان الأكل الحقيقيُّ الفعليُّ للشُّحوم، وما تغني هذه التَّقوى الظَّاهريّة أمام الأكل الفعليّ للشُّحوم؟

وما تغني التَّقوى الظَّاهريَّة بترك مباشرة الصَّيد يوم السَّبت إذا كانت الشِّباك تصطاد الأسماك فعليًّا في البحر يوم السبت؟

وما يغني ترك الشُّرب من ماء النَّهر بالغَرفة والشُّرب بأكثر من الغرفة بطرقٍ غير مباشرةٍ إذا كان شرب أكثر من هذه الكَمِّيَّة حصل فعليًّا ودخل الجوف ..؟

وفي مقابل هذا التَّرك الإسرائيليّ أو التَّقوى الظَّاهريَّة ... كان موقف أصحاب النَّبيّ ﷺ الَّذي ذكر الله في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [المائدة:٩٤].

هذه هي التَّقوى الحقيقيَّة «**الخوف بالغيب**» وهل تُعرَّف التَّقوى إلَّا بالخوف؟ وهل عِلَّة بني إسرائيل إلَّا الخيانة بالغيب؟ وكم مدح الله سبحانه المؤمنين على هذه الصِّفة الكريمة العظيمة وكذا المؤمنات، فقال سبحانه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء:٣٤] حضر الزَّوج أم غاب؟ كانت في خلوةٍ أم في جماعةٍ؟ فذلك لا يؤثر في المؤمنات الصَّالحات القانتات؛ لأنَّهنَّ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله.

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [فاطر:١٨].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس:١١].

وقال سبحانه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٣١-٣٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد:٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك:١٢].

لم يجعل النَّبيُّ ﷺ التَّقوى مُجرَّد شعورٍ بالخوف من الوقوع بالإثم، بل حَوَّله إلى ممارسةٍ عِباديَّةٍ، وأخلاقٍ اجتماعيَّةٍ، وضوابط على عاداتنا ومألوفاتنا طوال هذا الشَّهر المبارك تثمر صناعة خوف الله بالغيب.

فعن عاصمِ بنِ لَقيطِ بنِ صَبِرَةَ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا استنشقتَ فبالِغْ إلَّا أن تكون صائمًا»**[1].

«إذا استنشقت فبالغ»: فذلك هو الأصل في كلِّ الحالات وهو السُّنَّة، ومع أنَّ ديننا ليس دينَ مبالغةٍ إلَّا أنَّ المبالغة في هذا الأمر سُنَّةٌ بمنطوق النَّبيِّ ﷺ وبفعله، ولكنَّ هذا الأصلُ يُعطَّل إذا كان المرءُ صائمًا .. ذلك أنَّ المبالغة تتعارض مع غاية الصَّوم وهي التَّقوى، ففي المبالغة بالاستنشاق حَوْمٌ حول الحِمَى ومخاطرةٌ بمجاوزة الحدِّ إلى الجوف ولو بقطرةٍ .. فلا ولا قطرة، بل ولا حتَّى الاقتراب من هذا الحِمَى حتَّى لو ضمن للمرء عدم المجاوزة؛ لأنَّ النَّهي صريحٌ في ذات المبالغة، وهذه هي التَّقوى، وعلى هذا تستمرُّ التَّربية الدَّائمة مرارًا كلَّ

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٦٦)، وصححه الألباني.

يوم وليلةٍ على التَّقوى .. فكلَّما جاء المرء للوضوء تذكَّر هذا النَّهي .. وحمى الحدَّ.. والْتَزَمَ الأمر.. فكم مرة يتوضأ الصَّائم في نهاره؟ فكيف لا تنشأ التَّقوى في نفوس الصَّائمين إنشاءً .. وسبحان من قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] .

وهكذا تنشأ تقوى القلوب في هذه العبادة من خلال الرَّقابة الدَّقيقة على أدقِّ الأعمال لمراقبة الله ﷻ، فإنَّ تقوى القلوب تنشأ من خلال ترك المُحرَّمات، وكذا ترك الشُّبهات بل ترك المثيرات الحلال، فقد روى مسلم عَنْ عَائِشَة ﵂ قالت: **كان رسول الله ﷺ يُقبِّلني وهو صائمٌ، وأيُّكم يملك إِرْبَهُ كما كان رسول الله ﷺ يملك إِرْبَهُ**[1] .

العنصر السابع: توأمة الصَّبر والتَّقوى: إنَّها لتوأمةٌ عجيبةٌ لا تكاد ترى مثلها ثمارًا في المبادئ الإسلاميَّة، ثمارًا على أرض الواقع .. ثمارًا في نجاحات الأفراد وتوليهم الحكم.. وثمارًا في تمكين الدِّين .. وثمارًا في ميادين الظهور والعلو على الأمم.

وإنَّ الموضع الأمثل لهذه التَّوأمة هو رحم رمضان، وفي حجره يترعرع، ومنه يرضع وفيه يقوى ويشتد.

إنَّ هذه التَّوأمة إذا ما حدثت فقد تحقَّق كلُّ خيرٍ وانصرف كلُّ شرٍّ أيًا كان مبلغ ذاك الشَّرِّ ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝١٢٠ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠، ١٢١].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه(١١٠٦).

فلا يفسد على العدوِّ كيده شيءٌ مثل توأمة الصَّبر والتَّقوى، قال سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

إنَّ هذه التَّوأمة تبلغ بفاعليَّة فردٍ فاعلية جيوشٍ إسلاميَّةٍ تفتح وتمكِّن لدينها.. فقد علَّل يوسف عليه السلام تميُّزه عن إخوانه بل عن النَّاس، وحكمه مصر كلَّها بهذه التَّوأمة ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٠-٩٢].

وهذه التَّوأمة هي الوصفة السِّرِّيَّة في تمكُّن النَّبيين عليهم السلام ومن بعدهم تمكُّن المؤمنين المتمكِّنين، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٦-١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠].

وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

إنَّ القضية ليست قضية استدلالٍ على مصطلح نظريٍّ.. بل ربُّ العالمين سبحانه يحكي لنا قضيَّة تحوُّل موازين القوى، وذهاب قوى وتمكين قوة الأمَّة الصَّابرة التَّقية كسنَّةٍ لا تقبل التَّخلف .. فلنتلقَّ المسألة بجديَّةِ المتعطش لنصرٍ غابرٍ بعيدٍ، وتمكينٍ قرأناه ولم نتذوَّق حلاوته نحن ولا آباؤنا الأقربون.

والأمر الَّذي يعنينا هو أنَّ في رمضان تصطنع هذه التَّوأمة أحسن صناعةٍ خلال شهرٍ بأكملِهِ، في كل يوم من أيامه، وفي كل أعماله وأجوائه.

ألم يقل الله سبحانه في غاية الصَّوم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أو لم يقل النبي ﷺ: «الصَّوم نصف الصَّبر»[(1)]؟

وهكذا قال الله سبحانه عن المؤمنين في أشهر معارك الإسلام غزوة بدرٍ العظمى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦].

وهكذا يبقى رمضان شهرًا لأمَّة الإسلام قاطبةً كما هو لكلِّ فردٍ مسلمٍ.. تصطنع فيه الأمَّة كلُّها كما يصطنع الفرد سواءً بسواءٍ ... ليبقى رمضان حجَّةً على كلِّ مَنْ يئس من عودة هذه الأمَّة إلى منصَّة النَّصر على الأمم.

إنَّ السِّر في ذلك كلِّه هو أنَّ رمضان شهر صيانة «القلب» وسلامته، فإذا كان معنى الصَّوم التَّرك وغايته الأساسيَّة التَّقوى، فإنَّ أعظم المنتفعين بهذا هو القلب

(١) جزء من حديث رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٧٠)، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.

.. فالقلب كما يؤثِّر في أعمال الجوارح فإنَّ أعمال الجوارح تؤثِّر فيه، وذروة تزاوج التَّأثير بين الاثنين تكون في رمضان، فبينما الجوارح منقطعةٌ عن فعل الحرام، كما هو المفترض في هذا الشهر فإنَّ القلب في ذروة تقواه وتوجيهه للجوارح، وبهذا تبلغ سلامة القلب ذروتها، وهذه غايةٌ عظمى للنَّجاة في الدنيا والآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

ومَنْ تصوَّر أن تحقُّق أعظم انتصارين في تاريخ الإسلام - غزوة بدر وفتح مكة - في رمضان مجرَّد ضربة حظٍّ فقد أخطأ وأساء، ولم يرقَ إلى قراءة خطِّ قلم القدر بعدما ظهر.. إنَّهما الشَّاهد لهذا الشَّهر الخالد على أنَّه لا ينبغي لكم أن تبقوا في الدُّون وعندكم رمضان.

العنصر الثَّامن: المنهجيَّة العلميَّة الوسطيَّة الجديَّة الواضحة:

رُغْم أنَّ الصِّيام هو ذروة العبادة البشرية لما فيه من ترك ضروريات الحياة الإنسانية والحيوانية في فترة النَّهار إلَّا أنَّ هذا التَّرك في غاية الاعتدال والوسط، وهو في غاية الجديَّة والحدِّيَّة، كما أنَّه لا يمكن تطبيقه بغير علمٍ وتدقيقٍ.. وكل هذا يحتاج إلى انضباطٍ يتربَّى عليه كل صائم طُوال اليوم واللَّيلة.. وطوال الشهر كلِّه.. فرمضان لا يُخرِج قيادةً هادفةً فحسب، إنَّما يخرج جندًا مُضحِّين لله.. طائعين على بصيرةٍ، منظمين بدقةٍ وعنايةٍ.. عارفين هدفهم، سائرين إليه بخطى ثابتةٍ وسباق متسارعٍ متصاعدٍ.

لعلَّ هذه المعاني التي ذكرتها غريبة في الفهم الحاضر والمعنى العباديِّ الحاليِّ القاصر، ولعلَّ من الغريب أن تعرض ضمن كتاب الصِّيام.. ولكنَّ الدَّليل هو الَّذي بيني وبين المستغربين، فحذار أن نحاكم الدَّليل إلى مُسلَّماتٍ

لا دليلَ عليها، حين نجعل مدلولات الأدلة سطحيَّةً طافيةً على وجه البحر تنتظر طَفْو دُرر الأعماق إليها وإلا أنكرت وُجودَها.

إنَّ المُسلَّمة الأولى التي يخرج بها النَّاظر في الأدلة الواردة في كلِّ تفاصيل الصِّيام يصل إلى أنَّها منهجيَّةٌ تَقْضي على الجهل والغلو والتطرُّف في الفهم والمعتقد والعمل، وهي كذلك تقضي على السَّطحيَّة والسَّذاجة العقليَّة في تناول النُّصوص.

إنَّ المنهجيَّة العلميَّة الوسطيَّة الجديَّة الواضحة تظهر في رمضان بشكل عام وفي أحكام الصِّيام بشكل تفصيليٍّ.

فتأمَّل ما رواه المحدِّثون في ربط الشَّهر بالرُّؤية، وتأمَّل المنهجيَّة التي ذكرت لك في عنوان هذا العنصر، وتوقَّف قليلًا عند ما ساقه ابن حجر رحمه الله من فوائد من أحاديث الرُّؤية:

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رَسُولَ الله ﷺ ذكر رمضان، فقال: «**لا تَصُومُوا حتَّى تَرَوا الهلال، وَلا تُفطِروا حتَّى تَروه، فإنْ غُمَّ عليكم فاقْدُرُوا لَهُ**»[(1)].

وعن عبدِ الله بنِ عُمر رضي الله عنهما أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «**الشَّهرُ تِسعٌ وعِشرُون ليلةً، فلا تصُومُوا حتَّى تروهُ، فإن غُمَّ عليكُم فأكمِلُوا العِدَّة ثلاثِين**»[(2)].

وعن ابن عُمر رضي الله عنهما يقُولُ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الشَّهرُ هكذا وهكذا**» وخنس الإبهام في الثَّالثة.

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه يقُولُ: قال النَّبِيُّ ﷺ - أو قال: قال أبُو القاسِمِ ﷺ:

---

(1) رواه الدارقطني في سننه ٢١٦٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(2) رواه البخاري في صحيحه ١٩٠٧.

«صُومُوا لِرُؤيتِهِ وأفطِرُوا لِرُؤيتِهِ، فإن غُبِّي عليكُم فأكمِلُوا عِدَّة شعبان ثلاثين»(١).

وعن أُمِّ سلمة رضي الله عنها أنَّ النَّبِيَّ ﷺ آلي مِن نِسائِهِ شهرًا، فلمَّا مضى تِسعةٌ وعِشرُون يومًا غدا أو راح، فقِيل لهُ: إنَّك حلفت ألَّا تدخُل شهرًا، فقال: **«إنَّ الشَّهر يكُونُ تِسعةً وعِشرِين يومًا»**.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: آلى رسُولُ الله ﷺ مِن نِسائِهِ وكانت انفكَّت رِجلُهُ، فأقام فِي مشرُبةٍ تِسعًا وعِشرِين ليلةً، ثمَّ نزل فقالُوا: يا رسُول الله، آليت شهرًا، فقال: **«إنَّ الشَّهر يكُونُ تِسعًا وعِشرِين»**.

تأمل كيف كشف ابن حجر رحمه الله أسرار ترتيب البخاري رحمه الله الَّذي هو دليل منهجية محكمة لتفاصيل ربما لا يكتشفها في هذا الزَّمان متأمِّل.. بينما وراء هذه المنهجيَّة أحكامٌ دقيقة ملزمة.

وعن رِبْعِيٍّ رضي الله عنه أن عمارًا وناسًا معه أَتَوْهم يسألونهم في اليوم الَّذي يشك فيه، فاعتزلهم رجلٌ، فقال له عمار: تعال، فكُل، فقال: إني صائمٌ، فقال له عمار: إنْ كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فتعالَ وكُلْ.

هكذا .. الأمر مرتبط بالعقيدة .. بالإيمان بالله واليوم الآخر.. قال ابن حجر رحمه الله: وقوله: «**أبا القاسم**» قيل: فائدة تخصيص ذِكْر هذه الكُنية الإشارة إلى أنَّه هو الَّذي يقسم بين عباد الله أحكامه زمانًا ومكانًا وغير ذلك)(٢).

إنه ليس للعبد الخيار في أن يحتاط لنفسه بالتقدُّم على رمضان بصيام يومٍ أو يومين، فإنَّ الاحتياط الزَّائد عن عمل المصطفى ﷺ غلوٌّ وضلالٌ.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١٩٠٩، ومسلم ١٠٨١.

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١٢٠).

ويتجلَّى الضبط والرَّبط الَّذي لا يتصوَّره بشرٌ مِمَّن خلق الله في إمساك الصَّائم وفطره .. وهذا هو العمود الفقري الأساس للجُنديَّة.. فمن يتصوَّر أن أُمَّةً من الأمم تُضْبط بهذه الدِّقَّة المتناهية، حيث جُعِل أمر إفطارها كلَّ يوم عائدًا إلى غروب الشمس ... أي: لو أنَّ الأرَضَ مُسطَّحةٌ وأن الشمس تغيب عليها كلها في لحظةٍ واحدةٍ لأفطرت الأُمَّة في لحظةٍ وصَامَتْ في لحظةٍ .. لكن لما كانت الأرض مَدْحيَّة الخِلْقة وكانت الشمس تجري والأرض تدور كان الغروب هو العنوان الموحَّد للجميع إفطارًا، وكان الفجر العنوان الموحَّد للجميع إمساكًا .. وكان هذا الضَّبط والرَّبط يسري على كلِّ بلدٍ مسلمٍ ومجموعة مسلمة بل كل فردٍ مسلمٍ أينما كان في هذه الدنيا.

وإنَّ النَّاظر في الأمم التي تُشرِّع لأنفسها الإمساك عن الطَّعام أو الشَّراب ليجد من الغلو والتَّنطع والتَّعنت والتَّكلف ما يضر بالإنسان، ويشعر بتحوُّل التَّعبد الحقِّ لله تعالى إلى التَّعبد للمظاهر، ويتحول هذا الأمر إلى هوى وكأنَّ المقصود هو التَّعذيب للجسد.. وهو ما يشعرك في ذات الوقت أنَّ للصِّيام في الإسلام غاية عظيمة بعيدة.

فعن عاصِم بن عُمر بنِ الخطَّابِ، عن أبيهِ رضي الله عنهما، قال: قال رسُول الله: «**إذا أقبل اللَّيل من هَهُنا، وأدبر النَّهارُ مِن هَهُنا، وغربتِ الشَّمسُ فقد أفطر الصَّائِمُ**»[1].

وعن عبدِ الله بنِ أَبِي أوفى رضي الله عنه قال: كُنَّا مع رسُولِ الله ﷺ في سفرٍ وهُو صائِمٌ، فلمَّا غربتِ الشَّمسُ قال لِبعضِ القوم: «**يا فُلانُ، قُم فاجدح لنا**» فقال: يا رسُولَ

(١) رواه البخاري ١٩٥٤.

الله، لو أمسيت، قال: «**انزِل فاجدح لنا**» قال: يا رسُول الله، فلو أمسيت، قال: «**انزِل فاجدح لنا**» قال: إنَّ عليك نهارًا، قال: «**انزِل فاجدح لنا**» فنزل فجدح لهُم، فشرِب النَّبِيُّ ﷺ ثمَّ قال: «**إذا رأيتُمُ اللَّيل قد أقبل مِن هَهُنا فقد أفطر الصَّائِمُ**»[1].

وهنا يكون الضَّبط والرَّبط دون غلوٍّ أو تطرفٍ في التَّطبيق.

أليس المطلوب هو الاحتياط للصِّيام والتَّأكد من إتمام اليوم؟!.. والجواب: لا الإفطار ولا الإمساك غاية .. إنَّما الغَاية هي الامتثال الَّذي هو سرُّ اصطناع الجنديَّة والقيادة، ومجموع هذا النَّوع من الأفراد يكوِّن الأمَّة القائدة.

وقال ابن حجر رحمه الله في الحديث الثَّاني عند قوله: (قوله: «**إن عليك نهارًا**» يحتمل أن يكون المذكور كَان يرى كثرة الضَّوء من شدَّة الصَّحو، فيظنُّ أن الشَّمس لم تغرب، ويقول: لعلَّها غطَّاها شيءٌ من جبلٍ ونحوه، أو كان هناك غيمٌ فلم يتحقق غروب الشَّمس، وأمَّا قول الراوي: (وغربت الشمس) فإخبارٌ منه بما في نفس الأمر، وإلا فلو تحقَّق الصَّحابي أنَّ الشَّمس غربت ما توقَّف؛ لأنَّه حينئذٍ يكون معاندًا، وإنَّما توقَّف احتياطًا واستكشافًا عن حكم المسألة.

قال ابن حجر رحمه الله: (قال ابن عبد البر: أحاديث تعجيل الإفطار وتأخير السحور صحاحٌ متواترةٌ، وعند عبد الرَّزاق وغيره بإسنادٍ صحيحٍ عن عمرو بن ميمون الأودي قال: كان أصحاب محمد ﷺ أسرع النَّاس إفطارًا وأبطأهم سحورًا)[2].

وتأمَّل ماذا قال ابن حجر رحمه الله في حديث النَّبيِّ ﷺ: «**لا يزال النَّاس بخيرٍ ما عجَّلوا الفطر**».. وتحديدًا تأمَّل ماذا قال في لفظةِ «ما».

---

(١) رواه مسلم ١١٠١.

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١٩٩).

(و«ما» ظرفيَّة أي: مدَّة فعلهم ذلك امتثالًا للسُّنَّة واقفين عند حَدِّها غير متنطِّعين بعقولهم ما يُغيِّر قواعدها، زاد أبو هريرة في حديثه: «**لأنَّ اليهود والنصارى يؤخرون**» أخرجه أبو داود وابن خزيمة وغيرهما، وتأخير أهل الكتاب له أمدٌ وهو ظهور النَّجم، وقد روى ابن حبَّان والحاكم من حديث سهل أيضًا بلفظ: «**لا تزال أُمَّتي على سُنَّتي ما لم تنتظر بفطرها النُّجوم**»، وفيه بيان العلَّة في ذلك.

قال المهلَّب: والحكمةُ في ذلك ألَّا يزاد في النَّهار من اللَّيل؛ ولأنَّه أرفق بالصَّائم وأقوى له على العبادة، واتَّفق العلماء على أنَّ محلَّ ذلك إذا تحقَّق غروب الشَّمس بالرُّؤية أو بإخبار عدلين، وكذا عدل واحد في الأرجح، قال ابن دقيق العيد: في هذا الحديث ردٌّ على الشِّيعة في تأخيرهم الفطر إلى ظهور النُّجوم، ولعلَّ هذا هو السَّبب في وجود الخير بتعجيل الفطر؛ لأن الَّذي يؤخره يدخل في فعل خلاف السُّنَّة)[1].

حتَّى الاحتياط لهذا غير مقبول من الأفراد على الشَّرع.. فمن يحتاط على رسول الله ﷺ.. في الإمساك وفي الإفطار على حدٍّ سَواء؟!

وقال ابن حجر رحمه الله: «من البدع المنكرة ما أحدث في هذا الزَّمان من إيقاع الأذان الثَّاني قبل الفجر بنحو ثُلث ساعةٍ في رمضان، وإطفاء المصابيح الَّتي جعلت علامةً لتحريم الأكل والشُّرب على مَنْ يريد الصِّيام زعمًا مِمَّن أحدثه أنَّه للاحتياط في العبادة، ولا يعلم بذلك إلَّا آحاد الناس، وقد جرَّهم ذلك إلى أنْ صاروا لا يُؤذِّنون إلَّا بعد الغروب بدرجة لتمكين الوقت زعموا، فأخَّروا الفطر

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١٩٩).

وعجَّلوا السُّحور وخالفوا السُّنَّة؛ فلذلك قلَّ عنهم الخير، وكثر فيهم الشرُّ، والله المستعان»[١].

كما أنَّ الإفطار قبل الوقت ولو لحظات، قصدًا سبب لعذابٍ عظيم، فعن أبي أُمَامة الباهِلِيِّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أنا نائمٌ أتاني رجلانِ، فأخذا بِضَبْعَيَّ**[٢] **فأتيا بي جَبَلًا وَعْرًا، فقالا: اصعَدْ، فقلتُ: إني لا أُطِيقُه، فقال: إنَّا سَنُسَهِّلُه لك، فصعدْتُ، حتَّى إذا كنتُ في سواءِ الجَبلِ إذا بأصواتٍ شديدةٍ، قلتُ: ما هذه الأصواتُ؟ قالوا: هذا عواءُ أهلِ النَّارِ، ثمَّ انطُلِقَ بي فَإِذَا أنا بقومٍ معلَّقِينَ بعراقيبهم، مشققةٌ أشدَاقُهم، تسيل أشدَاقُهم دمًا، قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: الذين يُفْطِرون قبلَ تَحِلَّةِ صَومِهم**»[٣].

ليست الجنديَّة زيًّا يتزيًّا به أناسٌ مخصوصون يخلعونها حين يخلعون زيَّهم ... إنَّما الجنديَّة الحق حين تتحوَّل إلى معتقدٍ راسخٍ، وعبادةٍ وعلمٍ، وخلقٍ ونظامٍ، الجنديَّة حين تعمُّ الأمَّة كلَّها، وتعم كلَّ أفرادها بغضِّ النَّظر عن بقعة الأرض أو الفترة الزَّمانية، هكذا كان الصَّحابة وهكذا صنع بهم رمضان.

ولكن ويا للأسف كما قتل شعور الاعتياد رُوحَ هذه العبادة في نفوسنا فقد صنعت هذه العبادة وأمثالها من الصحابة جيلًا لا نظير له جنديَّة وقيادة.. وطاعة وإمامة .. ولم تكن حياتهم إلَّا ثمرة طبيعية لهذا الشَّرع، وقد كان الله سبحانه ربَّاهم تربيةً على هذا الصِّيام؟! كيف إذا كان هذا التَّشريع ابتدأ متدرجًا بالأشدِّ

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ١٩٩).

(٢) أي: «بعضُدَيَّ».

(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٢٣٧)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٩٥١).

ثمَّ الأشد.. الَّذي ما وصل لنا إلى هذا الحال الميسور إلَّا بعد معايشة أولئك شدائده وتبعاته.. وربُّهم يراهم ويرعاهم وإنَّ قصَّة تشريع الصِّيام وتدرجه لتحفظ لنا الجديَّة في التِزَام حُكم الله حتَّى على حِسَاب النَّفس.

عن البراء ﷺ، قال: كان أصحابُ مُحمَّدٍ ﷺ إذا كان الرَّجل صائمًا، فحضر الإفطارُ، فنام قبل أن يُفطِر لم يأكُل ليلتهُ ولا يومهُ حتَّى يُمسِي، وإنَّ قيس بن صِرمة الأنصارِيَّ كان صائِمًا، فلمَّا حضر الإفطارُ أتى امرأتهُ، فقال لها: أعِندكِ طعامٌ؟ قالت: لا، ولكِن أنطلِقُ فأطلُبُ لك، وكان يومهُ يعملُ، فغلبتهُ عيناهُ، فجاءتهُ امرأتُهُ، فلمَّا رأتهُ قالت: خيبةً لك!! فلمَّا انتصف النَّهارُ غُشِي عليهِ فذُكِر ذلِك لِلنَّبيِّ ﷺ، فنزلت هذِهِ الآيةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، ففرِحُوا بِها فرحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧].

ويبين ابن حجر رحمه الله حيثيَّات هذه الحادثة العظيمة من خلال سبره وسرده وجرده وتحقيقه العديم النَّظير للسُّنَّة في شرحه «الفتح»، فقال: (قوله: «فنام قبل أن يفطر» ... إلخ، في رواية زهير: كان إذا نام قبل أن يَتعشَّى لم يحلَّ له أن يأكل شيئًا ولا يشرب ليله ويومه حتَّى تغرب الشَّمس، ولأبي الشَّيخ من طريق زكريَّا ابن أبي زائدة عن أبي إسحاق: كان المسلمون إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويأتون النِّساء ما لم يناموا، فإذا ناموا لم يفعلوا شيئًا من ذلك إلى مثلها، فاتفقت الروايات في حديث البراء على أن المنع من ذلك كان مقيدًا بالنَّوم، وهذا هو المشهور في حديث غيره، وقيد المنع من ذلك في حديث ابن عبَّاسٍ بصلاة العتمة، أخرجه أبو داود بلفظ: «**كان النَّاس على عهد رسول الله**

ﷺ **إذا صَلَّوا العتمة حرم عليهم الطَّعام والشَّراب والنِّساء وصاموا إلى القابلة**»، ونحوه في حديث أبي هريرة كما سأذكره قريبًا، وهذا أخص من حديث البراء من وجهٍ آخر، ويحتمل أن يكون ذكر صلاة العشاء لكون ما بعدها مظنَّة النَّوم غالبًا، والتقييد في الحقيقة إنَّما هو بالنَّوم كما في سائر الأحاديث، وبَيَّن السُّدي وغيره أن ذلك الحكم كان على وفق ما كتب على أهل الكتاب، كما أخرجه ابن جرير من طريق السُّدي ولفظه: «**كتب على النَّصارى الصِّيام، وكتب عليهم ألَّا يأكلوا ولا يشربوا ولا ينكحوا بعد النَّوم، وكتب على المسلمين أولًا مثل ذلك حتَّى أقبل رجلٌ من الأنصار**» فذكر القصَّة، ومن طريق إبراهيم التَّيمي: كان المسلمون في أوَّل الإسلام يفعلون كما يفعل أهل الكتاب، إذا نام أحدهم لم يطعم حتَّى القابلة، ويؤيد هذا ما أخرجه مسلم من حديث عمرو بن العاص مرفوعًا: «**فَصْل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحر**»(١)»(٢).

(عن أبي هريرة قال: كان المسلمون إذا صَلَّوا العشاء حرم عليهم الطَّعام والشَّراب والنِّساء)(٣).

قال ابن حجر رحمه الله: «(فقال لها: أعندكِ - بكسر الكاف - طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلق أطلب لك»، ظاهره أنه لم يجئ معه بشيءٍ، لكن في مرسل السُّدي أنَّه أتاها بتمرٍ، فقال: استبدلي به طحينًا واجعليه سخينًا، فإنَّ التَّمر أحرق جوفي، وفيه: «لعلِّي آكلُه سُخنًا»، وإنَّها استبدلته له وصنعته، وفي مرسل ابن أبي ليلى:

---

(١) رواه مسلم (١٠٩٦).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١٣٠).

(٣) رواه أبو داود (٢٣١٣)، قال الألباني: حسن صحيح.

«فقال لأهله: أطعموني، فقالت: حتَّى أجعل لك شيئًا سَخينًا»، ووصله أبو داود من طريق ابن أبي ليلى، فقال: حدَّثنا أصحاب محمدٍ، فذكره مختصرًا.

وفي مرسل السُّديِّ: «كان يعمل في حِيطَانِ المدينة بالأجرة»، قوله: «فغلبته عيناه» أي: نام.

قوله: «فلما انتصف النَّهار غشي عليه»، وفي مرسل السُّديِّ: «فأيقظته فكره أن يعصي الله، وأبى أن يأكل»، وفي مرسل محمد بن يحيى: «فقالت له: كُلْ، فقال: إنِّي قد نمتُ، فقالت: لم تنم، فأبي فأصبح جائعًا مجهودًا».

قوله: «فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ»، زاد في رواية زكريًا عند أبي الشَّيخ: «وأتى عمر امرأته وقد نامت» فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ، قوله: «فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، ففرحوا بها فرحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ [البقرة:١٨٧] كذا في هذه الرِّواية، وشرح الكرماني على ظاهرها، فقال: لما صار الرفث وهو الجماع هنا حلالا بعد أن كان حراما كان الأكل والشرب بطريق الأولى؛ فلذلك فرحوا بنزولها، وفهموا منها الرخصة، هذا وجه مطابقة ذلك لقصة أبي قيس، قال: ثمَّ لما كان حلهما بطريق المفهوم نزل بعد ذلك ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ليعلم بالمنطوق تسهيل الأمر عليهم صريحًا، ثمَّ قال: أو المراد من الآية هي بتمامها.

وحتَّى من النَّاحية النظريَّة فإنَّ مِنَ المسلمين مَنْ بالغوا في الجديَّة في هذا الالتزام حتَّى ألجأهم ذلك إلى المغالاة بالأخذ بظاهر الأمور، فردَّهم النبيُّ ﷺ إلى الأصل، وألقى الصُّورة والمظهر، وأعادهم إلى الالتزام إلى بصيرةِ الطَّاعة مع استخدام العقل واعتماد الوسط في الفهم.

فتأمَّل ما رواه البخاريُّ رحمه الله من حديث عديٍّ بن حاتمٍ وحديث سهل بن سعدٍ، وما عقَّب به ابن حجر ـ رحمة الله عليه ـ وما أحسن تعقيبه!

عن عدِيٍّ بنِ حاتِمٍ رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عمدتُ إِلى عِقالٍ أسود وإِلى عِقالٍ أبيض، فجعلتُهُما تحت وِسادتِي، فجعلتُ أنظُرُ فِي اللَّيل فلا يستبِينُ لِي، فغدوتُ على رسُولِ الله ﷺ، فذكرتُ لهُ ذلِك، فقال: «**إِنَّما ذلك سوادُ اللَّيل وبياضُ النَّهارِ**».

عن سهلِ بنِ سعدٍ قال: أُنزِلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، ولم ينزِل: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، فكان رِجالٌ إذا أرادُوا الصَّوم ربط أحدُهُم فِي رِجلِهِ الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولم يزل يأكُلُ حتَّى يتبيَّن لهُ رُؤيتُهُما، فأنزل الله بعد: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، فعلِمُوا أنَّهُ إِنَّما يعنِي اللَّيل والنَّهار.

قال ابن حجر رحمه الله: (من حديث عديٍّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له لما أخبره بما صنع: «**يا بن حاتمٍ، ألم أقل لك: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾**».

ومن طريق أبي الضُّحى قال: سأل رجلٌ ابنَ عباسٍ عن السُّحور، فقال له رجلٌ من جلسائه: كُلْ حتَّى لا تشكَّ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ هذا لا يقول شيئًا، كُلْ ما شككت حتَّى لا تشكَّ، قال ابن المنذر: وإلى هذا القول صار أكثر العلماء، وقال مالكٌ: يقضي)[1].

إنَّ هذه التربيَّة الجديَّة بلغت حدًّا يستغرب منه الكثير من النَّاس .. إنَّها تعدَّت حدود المكلَّفين إلى تصويم الصِّبيان .. إنَّها تربيةٌ للأسرة قبل أن تكون تربيةً للصَّغير .. تربيةٌ للأمِّ كما هي للأبِ.

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٣٥).

قال الإمام البخاريُّ رحمه الله: (باب صومِ الصِّبيانِ، وقال عُمرُ رضي الله عنه لِنشوانٍ فِي رمضان: ويلك وصِبيانُنا صِيامٌ؟! فضربهُ.

عن الرُّبيِّعِ بنتِ مُعوِّذٍ، قالت: أرسل النَّبيُّ ﷺ غداة عاشوراء إلى قُرى الأنصارِ: «**من أصبح مُفْطِرًا فليتم بقِيَّة يومِهِ، ومن أصبح صائِمًا فليصُمْ**» قالت: فكُنَّا نصُومُهُ بعدُ ونُصوِّمُ صِبياننا، ونجعلُ لهم اللُّعبة مِنَ الْعِهنِ، فإذا بكى أحدُهُم على الطَّعامِ أعطيناهُ ذاك حتَّى يكُون عِند الإفطارِ).

قال ابن حجر رحمه الله: (قوله: باب صوم الصبيان):

أي: هل يشرع أم لا، والجمهور على أنَّه لا يجب على مَنْ دون البلوغ، واسْتحَبَّ جماعةٌ من السَّلف منهم ابن سيرين والزُّهري، وقال به الشَّافعيُّ أنَّهم يُؤمَرون به للتَّمرين عليه إذا أطاقوه، وَحَدَّهُ أصحابُهُ بالسَّبع والعشر كالصَّلاة، وَحَدَّهُ إسحاق باثنتي عشرة سنةً، وأحمد في روايةٍ: بعشر سنين، وقال الأوزاعيُّ: إذا أطاق صوم ثلاثة أيَّام تِبَاعًا لا يَضْعف فيهنَّ حُمِلَ على الصَّوم، والأوَّل قول الجمهور، والمشهور عن المالكيَّة أنَّه لا يشرع في حقِّ الصِّبيان، ولقد تلطَّف المصنِّف في التعقُّب عليهم بإيراد أثر عمر في صدر التَّرجمة ؛ لأنَّ أقصى ما يعتمدونه في معارضة الأحاديث دعوى عمل أهل المدينة على خلافها، ولا عمل يستند إليه أقوى من العمل في عهد عمر مع شِدَّة تحرِّيه ووفور الصَّحابة في زمانه، وقد قال للَّذي أفطر في رمضان مُوبِّخًا له: كيف تفطر وصبياننا صِيَامٌ !!

وهذا الأثر وصله سعيد بن منصورٍ والبغويُّ في «الجعديَّات» من طريق عبد الله بن الهذيل أنَّ عمر بن الخطاب أُتِيَ برجلٍ شرب الخمر في رمضان، فلمَّا دنا منه جعل يقول للمنخرين والفم - وفي رواية البغويِّ: فلما رُفِعَ إليه عثر، فقال

عمر: على وجهك ! ويحك! وَصِبْيانا صيامٌ، ثمَّ أمر به فضرب ثمانين سوطًا، ثمَّ سيَّره إلى الشَّام، وفي رواية البغويِّ: فضربه الحدَّ، وكان إذا غضب على إنسانٍ سَيَّره إلى الشام)[1].

قال ابن حجر رحمه الله: (وقد رواه مسلمٌ من وجهٍ آخر عن خالد بن ذكوان، فقال فيه: «**فإذا سألونا الطَّعام أعطيناهم اللُّعبة تُلْهيهم حتَّى يُتمُّوا صومهم**»، وهو يُوضِّح صِحَّة رواية البخاريِّ رحمه الله.

بل إنَّ الشَّرع لم يرجع أمر الصِّيام إلى قوَّة الإيمان وزيادته عند الفرد، ولا إلى قوَّة الأبدان وقدرته، وأحاديث النَّهيِ عن الوصال لا تَخْفى على القارئ؛ لذا أتجاوزها إلى الشَّاهد منها وهو أنَّ النَّهي عنها لأجل الغلوِّ حتَّى لو كان الرَّجل قادرًا على الوصال، فالأمر لا يتعلَّق بالقدرة وإنما بالاتِّباع، ولعلَّ مَنْ ثبت عنهم الوصال لم يبلغهم النَّهي، أو بلغهم ولكن لم يفهموا منه أنَّه للتَّحريم، واستدلَّ بمجموع هذه الأحاديث على أنَّ الوصال من خصائصه ﷺ وعلى أنَّ غيره ممنوعٌ منه إلَّا ما وقع فيه التَّرخيص من الإذن فيه إلى السَّحَر، ثمَّ اختلف في المنع، فنقل التَّفصيل عن عبد الله بن الزُّبير، وروى ابن أبي شيبة بإسنادٍ صحيحٍ عنه أنَّه كان يُوَاصِل خمسة عشر يومًا.

قال ابن حجر رحمه الله: (وذهب أحمد وإسحاق وابن المنذر وابن خزيمة وجماعةٌ من المالكيَّة إلى جواز الوصال إلى السَّحَر لحديث أبي سعيدٍ المذكور، وهذا الوصال لا يترتَّب عليه شيءٌ مِمَّا يترتَّب على غيره إلَّا أنَّه في الحقيقة بمنزلة عشائه إلَّا أنَّه يؤخِّره؛ لأنَّ الصَّائم له في اليوم واللَّيلة أكلةٌ، فإذا

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٠١).

أكلها السَّحَر كان قد نقلها من أوَّل اللَّيل إلى آخره، وكان أخفَّ لجسمه في قيام اللَّيل، ولا يخفى أنَّ محلَّ ذلك ما لم يشقَّ على الصَّائم وإلَّا فلا يكون قربة)[1].

كلُّ هذه الأدلَّة تثبت صناعة رمضان للوسطيَّة، وأنَّ هذا الجوع له غايةٌ من التَّيسير عظيمةٌ.. فلقد عدَّ النَّبيُّ ﷺ صوم الصَّائمين حين أصبح في الصِّيام عدوانًا على الآخرين، فمن ذلك ما رواه البخاريُّ رحمه الله وغيره عن عبد الله بنِ عمروٍ قال: أنكحنِي أبِي امرأةً ذات حسبٍ، فكان يتعاهدُ كَنَّتهُ[2] فيسألُها عن بعلِها، فتقُولُ: نِعم الرَّجُلُ مِن رجُلٍ لم يطأ لنا فِراشًا، ولم يُفتِّش لنا كنفًا مُنذُ أتيناهُ، فلمَّا طال ذلِك عليهِ ذكر لِلنَّبِيِّ ﷺ، فقال: «**القَنِي بِهِ**»، فلقِيتُهُ بعدُ، فقال: «**كيف تصُومُ**» قال: كُلَّ يومٍ، قال: «**وكيف تختِمُ؟**» قال: كُلَّ ليلةٍ، قال: «**صُمْ فِي كُلِّ شهرٍ ثلاثةً، واقرأ القُرآن فِي كُلِّ شهرٍ**» قال: قُلتُ: أُطِيقُ أكثر مِن ذلِك، قال: «**صُم ثلاثة أيَّامٍ فِي الجُمُعةِ**»، قلت: أُطِيقُ أكثر مِن ذلِك، قال: «**أفطِر يومينِ وصُم يومًا**» قال: قلت: أُطِيقُ أكثر مِن ذلِك، قال: «**صُم أفضل الصَّومِ صوم داوُد، صِيام يومٍ وإِفطار يومٍ، واقرأ فِي كُلِّ سبعِ ليالٍ مرَّةً**»، فليتنِي قبِلتُ رُخصة رسُولِ الله ﷺ، وذاك أنِّي كبِرتُ وضعُفتُ، فكان يقرأُ على بعضِ أهلِهِ السُّبع مِن القُرآنِ بِالنَّهارِ، والَّذِي يقرؤُهُ يعرِضُهُ مِن النَّهارِ لِيكُون أخفَّ عليهِ بِاللَّيلِ، وإِذا أراد أن يتقوَّى أفطر أيَّامًا وأحصى وصام مِثلهُنَّ كراهِية أن يترُك شيئًا فارق النَّبيَّ ﷺ عليه.

ولقد أخذ الصَّحابة رضي الله عنهم أمر الصِّيام في غاية الجدِّ... كيف وهم يقرؤون أن

---

(١) انظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٤).

(٢) الكَنَّة:زوجة الابن.

غايته التَّقوى؛ لذا كانوا يخشون على صيامهم من كلِّ شيءٍ حتَّى لو لم يكن مُفْطرًا، وصام مَنْ صام منهم حتَّى لو كان مريضًا أو مسافرًا فردَّهم النَّبيُّ ﷺ إلى التَّيسير كما هو الشَّأن فيمن قَبَّل وهو صائمٌ، أو أكلَ وشربَ وهو نَاسٍ، أو أصبح جُنبًا من جماع اللَّيل، أو احتجم وهو صائمٌ ولم تضرَّه الحجامة، أو قَاءَ وهو صائمٌ.

بل شدَّد النَّبيُّ ﷺ على الَّذين رغبوا عن رُخْصتِهِ ﷺ تشديده على مَنْ عصاه.

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسُول الله ﷺ خرج إلى مكَّة فِي رمضان، فصام حتَّى بلغ الكدِيد أفطر فأفطر النَّاسُ، قال أبُو عبد الله: والكدِيدُ: ماءٌ بين عُسفان وقُديدٍ(١).

قال ابن حجر رحمه الله: (وأخرجه الطَّحاويُّ، ولفظه: «**فلمَا بلغ الكديد بلغه أنَّ النَّاس يشقُّ عليهم الصِّيام، فدعا بقدحٍ من لبنٍ، فأمسكه بيده حتَّى رآه النَّاس وهو على راحلته، ثمَّ شرب فأفطر، فناوله رجلًا إلى جنبه فشرب**».

ولمسلم من طريق الدَّراورديِّ عن جعفر بن مُحمَّد بن عليٍّ عن أبيه، عن جابرٍ في هذا الحديث، فقيل له: إنَّ النَّاس قد شقَّ عليهم الصيام، وإنَّما ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدحٍ من ماءٍ بعد العصر، وله من وجهٍ آخر عن جعفرٍ: ثمَّ شرب، فقيل له بعد ذلك: إنَّ بعض النَّاس قد صام، فقال: «**أُولَئِكَ العُصاة**»)(٢).

قال ابن حجر رحمه الله: (إنَّ سفره ﷺ في رمضان مُنْحصرٌ في غزوة بدرٍ وغزوة الفتح).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٥٣)، ومسلم (١١١٣).

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١٨١).

ومن بعد هذا الاستعراض المتوسِّط من السُّنَّة لإقامة الصِّيام في هذه الأُمَّة وإحيائها من جديدٍ، فإنَّ الإسلام يُنْشِئ بشكلٍ واضحٍ الأمَّة بكلِّ دُولها وفصائلها وأفرادها؛ رجالها ونسائها، كبارها وصغارها. والسؤال هو: ماذا بقي بعد هذا؟ ماذا بعدما أنشأ الإسلامُ الفردَ القاصدَ والأُمَّةَ الهادفةَ؟ ماذا بعدما صنع الجوَّ المناسب؟ ماذا بعدما حقَّق الجُنديَّة المنضبطة والطَّاعة على بصيرةٍ؟

العَزْمُ عَلَى اسْتِمرارِ الظَّاهِرَة[1]

التَّقوى في رمضان ظاهرةٌ .. فلماذا لا تستمرُّ ظاهرة التَّقوى إلى بعد رمضان؟ لماذا تختفي هذه الظَّاهرة حتَّى يصبح ما كان ظاهرةً عند نفس الشَّخص أمرًا غريبًا يتخفَّى منه، فتعود الطَّاعة الظَّاهرة في الأُمَّة الظَّاهرة في هذا الشَّهر إلى طاعةٍ غريبةٍ في الأُمَّة، ويصبح المُظهرون لها في أُمَّتهم غرباء؟

ربَّما يغيب الإنسان عن ملاحظة الأشياء إذا دخل داخلها، وأصبح جزءًا من منظومتها، كما لا يتمكَّن المرء من ملاحظة الأشياء إذا اعتادها .. وهذا ما يقع لنا في رمضان.

لكنَّ السُّؤال: هل يمكن أن تُحوَّل التَّقوى بعد رمضان إلى ظاهرةٍ؟ هل يمكن أن نَصِلَ بالتَّقوى من رمضان إلى رمضان؟ أو هو بشكل أوضح: أيمكن أن نجعل الأُمَّة طوال أيَّام العام ولياليه ظاهرةً؟!

إنَّ تحوُّل الطَّاعة إلى ظاهرةٍ لا يشترط له الصِّيام، ولا القيام، ولا الإفطار الجماعيُّ، ولا الزَّمان المخصوص حتَّى لَوْ كانَ رمضانَ المبارك، ولا المكان المخصوص حتَّى لَوْ كانَ مواضع المناسِكِ أو الحَرَمين أو غيرهما، ولا ما سوى ذلك.

إنَّ أعظم ما يحتاج له هو: «التَّغيير النَّفسي، وهذه هي التَّقوى الَّتي صُنعت في

(١) في اليوم الخامس عشر أو قبيل نهاية رمضان.

رمضان داخل النَّفس، ثمَّ أثرها على النَّفس، ثـمَّ أثرها على المجتمع، ثـمَّ الأثَرَ الظاهِرَ على الأُمَّة، وبذا يصبح الأثرُ ظاهرةً، وتصبح الأمَّة ظاهرةً.

افرض أنَّه ورُغم كلِّ ما ذكرنا ما استجاب حاكمٌ، ولا مسؤولٌ، ولا كُوِّنت مؤسساتٌ مُختصَّةٌ في كلِّ ميدانٍ لتحويلِ رمضان إلى الحياة، ونقل التَّجديد إلى الميادين .. افرض أنَّه لم يبقَ إلَّا نحن كأفرادٍ هنا وهناك، فهل نحن قلَّةٌ؟! أليست الأمَّة هي مجموعنا نحن الصَّائمين؟! لِمَ يتلفَّت أحدنا في الوجوه كأنه يستشيرها على استحياء .. ويقرأ جوابها من ملامحها .. فتكون الإشارة أن لا، أو أن لا جواب، وليس على مثل هذا تقوم الأمم ولا يقوم التَّجديد، بل هو العهد الموثَّق الَّذي يَصْفق له القلب معاهدًا قبل صفق اليد مبايعةً ألَّا نُقيل ولا نستقيل، ولا نُبدِّل أيَّ تبديلٍ.

لا ينتظر أحدُنا أن يقرِّر غيره ليقرِّر هو من بعده، لا ينتظر أن يُصْدر فيها حاكمٌ قرارًا عامًّا ومرسومًا سياديًا حتَّى يبدأ بالعمل، فالخطاب في آية الصِّيام عامٌّ للأمة، وخاصٌّ بكلِّ فردٍ، وهذا من عجائب الخطاب في هذه الآية، تأمَّل .. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

أيمكن أن يأتيك في رمضان مَنْ ينكر عليك قراءةَ القرآن .. أو الصَّلاة في جماعةٍ في المطار .. أو نحوها من العبادات الظَّاهرة.

الجواب - بكل تأكيدٍ -: لا.

فلماذا نتوقَّع أن ينكر علينا إذا عملنا نفس هذا العمل وأمثاله بعد رمضان، فهل نُبالِي بِوَهْمِ الإنكار، أم نُبالي بالإنكار النَّفسيِّ؟!

لماذا نترك مَنْ يستمرُّ على الطَّاعة في مجتمعنا غريبًا بعدما توقَّفنا عن إظهارها؟!

قليلٌ من الجرأة.. كثيرٌ من الإصرار والاستمرار والإظهار تزول الغربة ... وتصبح تلك الطَّاعاتُ ظاهرةً.

فالذِّئب يعدو على الغنم القاصية .. والشَّيطان يتجرَّأ على الفرد، وهو من الاثنين أبعد، وهو من الثَّلاثة أبعد، وهو من الأمَّة أبعد وأبعد.

ثمَّ أمر نفسيٌّ مهمٌّ، ذلك هو أنَّ الثِّقة النَّفسيَّة تفرض تأثيرها على النُّفوس المحيطة حسب دوائر أثيرها؛ سعةً وضيقًا.

وإنَّ الحيوان يدرك النَّفسيَّة الشُّجاعة لرجلٍ من خلال انبعاثاتٍ يفرزها جسد الشُّجاع فيدركها الحيوان فتنطبع في نفسه إحجامًا وخوفًا وكأنَّه يقرأ عليه عبارة عدم الاقتراب.

أقصدُ من هذا أنَّنا يجب أن نحوِّل ما كان في رمضان ظاهرةً إلى ظاهرةٍ مستمرَّةٍ بعد رمضان وبشكلٍ جماعيٍّ.. ومَنْ لم يجد تجاوبًا من حوله فليستمرَّ هو بنفسيَّةٍ واثقةٍ شجاعةٍ وسينجفل عنه المنكرون، ويجتمع حوله الآخرون ومَنْ حولهم حتَّى يكون المركزَ الَّذي تدور حوله ذرَّات المجتمع والأُمَّة .. ولا مبالغة في هذا؛ لأنَّه لا يتصوَّر التَّغيير إلَّا بالثَّبات على الحقِّ حتَّى تنكشف غربة الحقِّ.

وربُّنا سبحانه يقول: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١، ٢].

فَلأَنَّ كتاب الله ليس فيه حرجٌ فلا ينبغي أن يكون في صدر أهله أيُّ حرجٍ من أيِّ شيءٍ فيه.

لماذا لا تتواصل الختمات عندي وعندك ؟ لماذا نتخفَّى بقراءة القرآن كالمتلصِّص على خلاف رمضان؟ أين اليقين الرَّاسخ بأنَّ هذا القرآن رفيعٌ وليس له إلَّا الرَّفع والرِّفعة، ونحن نتعامل مع القرآن فيما خفي وبما ظهر سواءً بسواءٍ؟

فلنقرأ القرآن بعد رمضان على كرسيِّ الطَّائرة، كما كنَّا نقرأ القرآن عند الانتظار، فمَنْ يمنعنا من ذلك إذا قرَّرنا.. وما الَّذي يخجلنا من هذا الأمر طوال العام مع أنَّه لم يكن يخجلنا في رمضان.. أهو العزيمة بعد رمضان، إذًا فكيف تنكشف هذه الغربة إذا لم نكشفها نحن، إذا لم نبدأ بها كأفرادٍ.

ظاهرةُ العودة إلى العلم الشَّرعي طلبًا لها، ونشرًا له، وإشاعةً للعلم.. ألا ترى كيف أنَّ عامَّة المساجد يوجد فيها دروسٌ بعد صلاة العصر في رمضان .. ومساجد فيها حلقات تعليم القرآن .. ومساجد فيها دروس أحكام الصِّيام.. ومساجد فيها حلقاتٌ بعد صلاة الفجر .. ومساجد بعد صلاة التَّراويح أو بين التَّراويح.

إنها ظاهرةٌ تجعل الفرد كثير السُّؤال عن أحكام دِينيهِ بعد رمضان، كما كان سؤاله عن صيامه ظاهرةً، وكذا صلاته وزكاته .. يسأل حتَّى عن قطرة الماء إذا تعدَّت حلقه .. أتفطِّر أم لا تفطِّر؟ يسأل عن المحتلم إذا لم يغتسل ونام حتَّى أُذِّن عليه للفجر .. يسأل عن جواز إعطاء الوالدين أو الأولاد أو الإخوة زكاة ماله.. يسأل عن كلِّ صغيرةٍ في حياته وكبيرةٍ، يعرضها على دِينِ الله وحكمه، وهو في غاية الاستعداد للعمل بما يحكم به الشَّرع... ما كان ذلك إلَّا من التَّقوى الَّتي صنعها رمضان حتَّى تداخلت في كلِّ جزئيَّات الحياة، وتحكَّمت فيها

وحكمت عليها ... ومن ثمَّ عمَّت التَّقوى الحياةَ وغطَّت جميع جوانبها، فَلِمَ تبقى هذه التَّقوى حبيسة الفترة الزمنيَّة التي تنتهي بانتهاء رمضان؟!

إنَّ قرار تمديد فترة التَّقوى لتتعدَّى حدود رمضان يملكه أيُّ فردٍ، وأيُّ إمام مسجدٍ، وأيُّ مدير أوقافٍ، أو من فوقه من المتَّقين الصَّالحين الغيورين على رمضان وعلى شعائر دينهم، وهذا ما ينبغي أن يكون .. وعندها تصبح التَّقوى في العلم الشَّرعي ظاهرةً.

فمن تعوَّد أن يتَّقي الله في حياته فيسأل عن صغائر الأمور قبل كبارها، ينبغي أن يسأل بعد رمضان عن حكم الله في كلِّ شيءٍ قبل أن يشرع في العمل به.. يسأل عن المعاملات الماليَّة قبل أن يدخل فيها، يسأل عن طريقة أداء عباداته .. يسأل عن تربية ولده .. وعلاقته بزوجه.

هذا السُّؤال الشَّرعي هو مُمثِّل التَّقوى ودليله في نفس الإنسان.

أخي هل من أحدٍ يمكن أن يمنعني ويمنعك من هذا السُّؤال؟ هل من أحدٍ يمكن أن يمنع رعيَّته أن تسأل عن الأحكام كما كانت تسأل في رمضان، فهي دائمة التَّفقه في دين الله؟ هل من أحدٍ يمنعني من الالتزام بما عرفت من أمور ديني وحياتي؟ ومن يمنع الإمام الَّذي اعتاد إعطاء دروسٍ في رمضان خوفًا أن يسأله الله عن جهلِ مَنْ يصلي معه؟ وإذا مُنِعَ من الدُّروس - فرضًا - فمن الَّذي يمنعه أن يفتح طريق الإجابة على الأسئلة مع النَّاس وربَّما أصبحت أوسع من الدُّروس مع أنَّها لا تأخذ صفة الدَّرس وطريقته، ما الَّذي يمنعه عن ذلك بعد رمضان؟

لم لا يكون الأئمَّة أوَّل المتعاهدين على هذا؟ فإذا لم يبدأ الإحياء من المسجد فمن أين يكون؟ وإذا لم يتقدَّم الأئمَّة النَّاس فمَنْ يتقدَّمهم؟!

تقوى الله في هذه الصَّلاة في أدائها في وقتها ... في النِّداء لها إذا حضر وقتها، وفي كلِّ مكانٍ حتَّى في قاطرة السفر ... فحين اعتاد النَّاس على فعلها كما اعتادوا على قبولها في رمضان أصبحت واقعًا وظاهرةً لا يمكن لأحدٍ أن يتجرَّأ أو يقف في وجه هذه الظَّاهرة.

والأساس في هذا الأمر هو أنَّ الصَّائمين فرضوا ما ملكوا القناعة الدَّاخلية به على الظَّاهر حتَّى أصبح ظاهرةً.. الأساس أنَّهم غيَّروا ما بأنفسهم فأصبح النِّداء للصَّلاة في نفوسهم في الطَّائرة أمرًا عاديًا، ومن ثمَّ أصبح واقعيًّا، فأصبح واقعًا ظاهرًا عامًّا، وأصبحت إقامة الصَّلاة في المطارات جماعةً أمرًا عاديا .. وأصبح الكثرة من المعتكفين في المسجد أمرًا عاديا.

لقد أصبحت ظاهرة العطاء حقيقةً كبرى ... ظاهرةً كالشَّمس في رابعة النَّهار: ففي رمضان يصبح العطاء ظاهرةً .. يُكفى فيه الفقير، وتفور قُدُوره باللَّحم، وتمتلئ صحائفه بالطَّعام، ويلبس أهله وعياله جَيِّد اللِّباس للعيد.. ويضيف في بيته، وتمتلئ بالخيرات خزائن الجمعيَّات الخيريَّة.

الأب يعطي ولده الصَّغير ما يتصدَّق به، المرأة تحثُّ زوجها وتُخْرج من ذهبها.. الجميع يطلب بهذه الصَّدقة القربةَ.. الجميعُ يريد عتق رقبته من النَّار .. إنها تقوى الله الَّتي تحكَّمت في المال ولم يحكمها.

فمن يمنعنا من مواصلة الصَّدقة .. مَنْ يمنعنا من هذا النَّوع من التَّقوى، وإظهار آثاره على النَّاس .. مَنْ؟!

إنَّها الصَّدقة الَّتي تحوَّلت إلى خُلُقٍ اسمه الجود والكرم، بل ظاهرة الجود والكرم .. لكن حدُودُه عند الكثيرين هو شهر رمضان، وحدُودُه في المال الزَّكاة

فحسب، وما فوق ذلك لا يكون إلَّا عند الطَّلب والسُّؤال، أمَّا أن يجعل الفرد هذا الأمر طوال العام خُلُقًا له كما كان في رمضان فهذا هو المطلوب.

إنَّ هذا الخلق العظيم لم يقتصر على إنفاق المال في رمضان، فثمَّة تفطير الصَّائمين، ومدُّ الموائد أمام الفقراء والأغنياء على حدٍّ سواء، ترى هذا الخُلُق في التَّمرة الواحدة يُقدِّمها في الحرم الرَّجل لمن يعرف ولمن لا يعرف، كأس زمزم وكأس الماء العادي يقدِّمه العطشان لأخيه، ويعلم الله أنَّه أحوج ما يكون إليه.

فالضِّيافة أصبحت ظاهرةً.. بل لا تكاد تجد مسلمًا إلَّا وهو يُفطِّر من يستطيع من الصَّائمين من خلال الكفالة الماليَّة في مختلف بلاد الله.

يجري هذا الخُلُق بكل تفرُّعاتِه وصُوَره شهرًا كاملًا، فمن يمنعني ويمنعك أيُّها المسلم من ملازمة هذا الخُلُق بقيَّة الأشهر، ما من أحدٍ يمسك يدَه كما في غيره من الأشهر مراعاةً لأكذوبة تمويل الإرهاب، فلِمَ لم نَخَفْ هذه التُّهمة في رمضان ونخافها بعده أشدَّ الخوف؟!! وسرُّ هذا هو حكم التَّقوى المُتحكِّم بالتَّصرُّفات والَّذي فرض سلطانه على القلوب، فلم يعد يبالي صاحب الزَّكاة إلَّا بوصول الزَّكاة: إلَّا لمن فرضها الله لهم... فهو لا يريد أن يجامل فيها أحدًا، بل لا يخاف فيها تهمةً، كما أصبح صاحب المال - وبحكم التَّقوى - لا يبالي إلَّا بتقرُّبه بماله لله وحده وسَبْق أقرانه من أصحاب الدُّثور.

إنَّ فعل التَّقوى كان عظيمًا في النَّفس الإنسانيَّة للصَّائمين وليس في المظاهر فحسب، ولولا فِعْلُ التَّقوى الدَّاخليُّ ما ظهر أثرها الظَّاهري على الفرد والمجتمع، لقد كان التَّحسُّس لحاجيَّات النَّاس، والتَّحسُّس لفقر الفقير قبل أن يسأل أمرًا داخليًّا يتفاعل مع النَّظرة والنَّبرة .. مع الإقبال والإدبار .. بل كان مسابقةً عند

الصَّالحين أن يدركوه قبل الكلام وافتضاح حاله بالطَّلب﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٧٣] كان عنصر المبادرة حيًّا في النَّفس، وكان ظاهرةً، فهو مَنْ يأخذ زمام المبادرة، ويقوم بنفسه بالعمل على أحسن وجهٍ.

وهذا الرِّباط القويُّ ما بين التَّقوى والإنفاق منصوصٌ عليه بالقرآن والسُّنَّة، ولا يحتاج إلى استنتاج ... ألم يقل الله سبحانه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١٦، ١٧].

لقد فاضت تقوى الله على الأرحام؛ فأصبحت صلةُ الأرحام منهجًا ينتهجُهُ المرء عند قدوم رمضان .. فيبتدئُ الرَّجل أرحامه ويعدهم عدًّا.. حيث يجد أرحامًا علَا الغبارُ على صِلتهم، وعفا النِّسيان عليهم.. فيعود مُبارِكًا لهم بالشَّهر، واصلًا لهم أوَّلًا بالاتِّصال بالهاتف، ثمَّ بالزِّيارة، وربَّما الهدايا والمساعدة، منهم في بلده، ومنهم خارج بلده، منهم أرحامٌ بالنَّسب، وآخرون بالمصاهرة.

إنَّ مِمَّا يشاهده المسلمون أجمعون تواصل الأرحام في رمضان بعد قطيعةٍ تقارب العام إلَّا صلاتٍ واتِّصالاتٍ نادرةً! وَسِرُّ هذا في هذا الشَّهر وارتباطه به هو ارتباط رمضان بالتَّقوى .. حتَّى وإنْ لم يدرك النَّاس هذه الحقيقة .. وإن لم يشعروا أنَّها السِّرُّ... فالله ﷻ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١].

فكأنَّ رمضان يُلْجِئ العبدَ إلى هذه الغاية إلجاءً... وهي التَّقوى، وكأنَّه الطَّريق الإجباريُّ الَّذي لا يؤدِّي إلَّا إلى غاية التَّقوى، كما أن أبواب النار مغلقةٌ، والطرق إليها مسدودةٌ، وطرق الجنَّة مُفتَّحةٌ، فمَنْ سلك طرقها دخلها إلزامًا، وهكذا التَّقوى تلزم صاحبها في هذا الشَّهر إلى صلة الأرحام إلزامًا، وبهذا تحيا الأرحام وتتحوَّل الصِّلة إلى ظاهرةٍ.

لقد أصبح من فضل هذا الشَّهر المبارك الإلزاميِّ هو سعي المسلم في إصلاح ذات البين.. هذا رجلٌ يترك الاعتكاف، ويترك مزيد العبادة، ويترك بيت الله ذاهبًا للإصلاح.

فكم هو ثقيلٌ على النَّفس أن تترك بيت الله تعالى لتطرق بيت بشرٍ! وتترك القرآن، أيْ: الكلام مع الله وسماع كلام الله لتسمع كلام البشر وتسمعهم!

كم هو ثقيلٌ أن ترى المؤمنين يتزاحمون على العبادة، بينما أنت تفارقهم إلى سواهم!

إي والله، إنَّ النَّفس لتشعر بهذا وأكثر .. فتلهج لربِّها طوال طريقها مستغفرةً ذاكرةً راجيةً من ربِّها أن يغفر ذنبها، ويسدَّ خللها، ويُعوِّضها.

لكنَّ القلب يقول: يا ربِّ لا أجد علاجًا لهذا الحال ولا سكينةً لهذا الاضطراب النَّفسيِّ إلَّا بعلمك بحالي، وإن لم يعلم النَّاس الحقيقة، وكفاني علمك ربِّي .. ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨، ٢١٩]، ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢١].

يا ربِّ: تعلم أنِّي ما خرجتُ رغبةً عن الاعتكاف في بيتك، أو الملل من كتابك أو تفضيل شيءٍ على ذِكْرك .. فها أنا ذا وأنا في طريقي لا يشغلني شيءٌ

عن ذكرك .. فأنت شغلي عن كلِّ أحدٍ، ولساني لا يفتر .. وقلبي لعظمتك مستحضرٌ .. وفكري متفكِّرٌ مستغفرٌ، فأنا يا ربِّ أفرُّ منك إليك.

فكم هو غريبٌ أن يمرَّ رمضان على مُسلِمَيْنِ متخاصمين.. وكم هو أغرب أن يعرف المسلمون بخصومةٍ ثمَّ لا يَسْعون في إصلاحها..؟ لذلك فمن النَّادر أن يصمد متخاصمَان أمام هجمة المصلحين بينهما في رمضان؟

الكلُّ ينادي على المُصِرِّ: بالرِّضا والتَّنازل إن أراد أن يرضي الله عنه ... الكلُّ يُخجِّله من هذه الفِعْلة في هذا الشَّهر، وبهذا أصبح الإصلاح ظاهرةً، فمن يمنعنا من الإصلاح بين المسلمين إذا أردنا ذلك، وحوَّلناه إلى ظاهرةٍ طوال العام؟!

إنَّ المرء لو تأمَّل رمضان جيِّدًا لوجد أنَّ رمضان يُولِّد ظاهرة الإصلاح في كلِّ صائمٍ إلْزامًا .. ولأنَّها حقيقة في الباطن تَطْفح صبغةً على الظَّاهر .. فتعمُّ، شاء صاحبها أم أَبَى، فكما قال الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، فإنَّهم إذا اتَّقوا بهذا الصِّيام لابدَّ أن يكونوا مُصْلحين، ألم يقل الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات:١٠]، وهذا هو التَّحوُّل الحقيقيُّ حين يتحوَّل الإصلاح إلى ظاهرةٍ بعد رمضان لارتباط الإصلاح بالتَّقوى ارتباطًا ملازمًا كما رأيت.

إنَّ أبعد ما يكون الأمر عن الواقع حين يكون نظريًّا.. ورمضان لا يدع التَّقوى أمرًا نظريًّا، أو يجعله أمرًا مستكنًّا في القلوب، ولكنَّه يصبُّه في قوالب عمليَّةٍ قد بُنِيتْ بناءً كاملًا طوال شهرٍ بأكمله .. ليست قوالب حديدٍ ولا فولاذٍ .. ولكنَّها قوالب حياةٍ لا لتخزن في شهر رمضان وإنَّما لتصب فيها حياةٌ للحياة ... كلَّ الحياة.

وهنا نعود لنتساءل: مَنْ يمنعنا من ممارسة الإصلاح فعليًّا بعد رمضان .. مَنْ يمنع كلَّ فردٍ مِنَّا مِنْ هذا الأمر .. ومَنْ يمنع فلانًا منِّي إِنْ أراد أن يصالحني مع أخي المتخاصم معي.

الجواب: لا أحد، إذًا، فمن يَحُولُ بيننا وبين تحويل هذا الإصلاح إلى ظاهرةٍ بعد رمضان؟!

وبما أنَّ رمضان يصنع جيل المتَّقين فإنَّه يصنع جيل المصلحين ذات البين من المسلمين، فكم نحن بحاجةٍ اليوم إلى رجالٍ مصلحين في الأسرة الواحدة وبين الأرحام كذلك؟ كم نحن بحاجة إلى المصلحين بين الصحب ... إلى الأئمَّةِ المصلحين لخصومات أَحِبَّائهم؟ كم نحن بحاجةٍ إلى المصلحين للخُصُومات بين القبائل والعشائر ؟ وكم نحن بحاجةٍ إلى المصلحين بين دُوَل المسلمين المتجاورة المتشاجرة؟

إنَّ ظاهرة التَّقوى تظهر أكثر ما تظهر على حسن خُلُق المسلم في هذا الشَّهر .. هذه التَّقوى الَّتي تحجبه عن الانتقام لنفسه أمام المخطئ، وتمنعه من السَّبِّ والشَّتم الَّذي ربَّما تعوَّد عليه لئلَّا يجرح أخاه فيجرح ذلك صيامَه، وتجعله يبادر بإشاعة السَّلام، ويجالس المسكين ولا يأنف، ويرحم الخدم في البيت ولا يتأفَّف، ويحنو على الضَّعيف، وهكذا تصبح حياته بِحُسْن الخلق، وترابط حُسْن الخلق بالتَّقوى ليس أمرًا مخفيًّا، فالله سبحانه يقول: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

فما الَّذي يمنعنا من تحويل حُسن الخلق إلى ظاهرةٍ، وما الَّذي يجعلنا نُوقِف

هذه الأخلاق وأمثالها عند العيد ولا تتعدَّى حتَّى تصل من رمضان إلى رمضان الآخر، إلى آخر العُمُر؟ إنَّ القرار بأيدينا نحن.

إنَّ رمضان في حقيقة الأمر هو الشَّهر الَّذي يعين الأُمَّة على القيام بدورها الواجب بين الأُمَمِ وهو استكمال مكارم الأخلاق .. فغاية بَعْثِ النبي ﷺ ليكمل مكارم الأخلاق وقد أكملها على أحسنِ وجهٍ، فإنَّ واجب الأُمَّة أن تبلِّغ ما بلَّغها رسولها ﷺ، وتُعلِّم الأمم ما علَّمها رسولها ﷺ، وهذه الظَّاهرة ينبغي أن تكون مولودًا طبيعيًّا من رَحِمِ رمضان يكبر بمرور الأيَّام ويَقْوَى ويشتدُّ ويرسخ ويشمخ في كلِّ ميدانٍ حتَّى يكون هذا الخلق أعظم وسيلةٍ للدعوة إلى الله.

والسُّؤال هو: هل من أحدٍ يمنعنا من تحويل هذه التَّقوى بصورة الخلق الحسن إلى ظاهرةٍ؟

إنَّ الاصطحاب إلى أماكن الطَّاعة أصبح في رمضان بفضل الله ظاهرةً، فما الَّذي يمنعنا أن نصطحب للطَّاعة كما كنَّا نفعلها في رمضان .. ما الَّذي يمنعنا أن نصطحب نساءنا وأبناءنا إلى أماكن المحاضرات وغيرها كما كنا نفعل في رمضان؟ ما الَّذي يمنعنا أن نصطحب صغارنا وصحبنا ونتواصى بهذا الأمر، إنَّ هذه - يا أُمَّة الإسلام - ظاهرةٌ حقيقيةٌ، لو وُجِدَتْ في أيِّ بلدٍ طوال العام كما هي في رمضان لكان في ذلك تغيير حقيقيٌّ في المظهر والمخبر، فما الَّذي يَحُولُ بيننا وبين ذلك؟ نحن مَنْ يقدر على اصطناع أماكن الطَّاعة، واصطناع محاور الصَّالحات والإصلاح.. نَتَّفق مع المحاضرين.. مع المشايخ، مع أصحاب العلم النَّافع .. في كلِّ مكانٍ وطوال العام، نصنع الفرص، ونصنع البدائل النَّافعة لها.. ونكون أهلًا لِأَنْ نقطف ثمرها.

هذا الظُّهور الطَّبيعيُّ التِّلقائيُّ أحسن نورٍ لإخْفاءِ الباطل في ظلامه الَّذي كان واقعنا مقتصرًا على ظهوره وظهور المُلهيات بل ظهور المخالفات، وما إلى ذلك، وما دافع هذا الظُّهور في حقيقة الأمر إلَّا تحقُّق غاية الصِّيام وهو التَّقوى .. فالتَّقوى تدفع إلى التَّعاون على كلِّ صور الخير اضطرارًا، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة:٢] .

وكان التَّذكير والمناصحة ظاهرةً في رمضان، فما كان الرَّجل يطيق أن يرى مَنْ يأكل في رمضان ثمَّ يتركه من غير أن ينهاه، وما كان يطيق السُّكوت على من يغتاب أحدًا ولو كان أمام مجلسٍ ممتلئٍ بالنَّاس، وما كان يُطيق السُّكوت على وضع الشَّاشة على مناظر لا تجوز شرعًا حتَّى يأمر بإغلاقها أو تحويل الموجة، بل ما كان البعض يُطيق الاستمرار على لَهْوِهِ المباح في رمضان حتَّى يستبدل به القرآن.

فَلِمَ لا تستمرُّ هذه الظَّواهر العظيمة إلى بقيَّة شهور العام؟ نحن مَنْ يُقرِّر ذلك، نحن - بإذن الله - مَنْ يقدر على تحويل هذا إلى ظاهرةٍ حقيقيَّةٍ في الأُمَّة، والآخرون سوف يستجيبون، ولا ينبغي أن ننتظر الآخرين ثمَّ نتَّبعهم؛ لأنَّ في هذه الأُمَّة الخير العظيم الَّذي لا نظيرَ له، وأمَّا المفسدون فسوف يخضعون؛ لأنَّه قد تحوَّل البرُّ بكلِّ صُورِه إلى ظاهرةٍ عامَّةٍ، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩] عندها ينشأ المجتمع الطَّاهر المُطهَّر.. الزَّاكي المزكِّي .. الصَّالح

المُصلِح.. مِنْ جديدٍ، ألم يقل الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١].

حاشا لله سبحانه أن يكون قد جعل غايةَ رمضان هي التَّقوى في رمضان دون سواه .. فقد جعله الله سبحانه فعلًا مضارعًا، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، والفعل المضارع يفيد الاستمرار، فلتستمر التَّقوى وآثارها الظَّاهرة في رمضان وفي غيره إلى آخر حياة الإنسان.

ينبغي أن نكون أكثر عمقًا عند التَّأمُّل في ثمرات هذا .. ونكون أوسع تَصوُّرًا.

إنَّ الفهم الرَّتيب المكرَّر المعتاد لآثار الصِّيام لن يُجْرِي في عروق النَّاس تَغييرًا؛ ولذا فلن يُجْري في عروق الحياة ومجاري الواقع تَغْييرًا.

إنَّ عظمة هذا الشَّهر تفرض علينا أبعد وأبعد مِمَّا ذكرنا بكثيرٍ.

الله سبحانه يجعله شهرًا بأكمله .. يمارس فيه المسلم الحياة كما يمارسها في أيِّ شهرٍ من الشُّهور.. لكنَّه يمارس حياته حسب الطَّريقة الَّتي شرعها الله .. ويعرض ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى من الأجور والمكافآت.

ثُمَّ يحدِّد غاية ذلك كلِّه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فنأتي لكل ما ذكرنا وبكل برود ورتابة في التفكير وأمعية في التبعية.

نقول: لماذا لا يُعْقلُ؟!

وليس لهم من مانعٍ من هذا الفهم إلَّا أنَّ تصوُّرهم لا يبلغه ... والمفروض أن يكون في حدود تصوُّرهم! في حدود مَوروثات الفهوم السابقة!

هذه هي الحقيقة المستقرَّة - وللأسف - في بواطننا.

ألا يكفي أن يُدْخل صاحبُ الشَّركة مجموعةً من المُوظَّفين المُتميِّزين ولو كانوا عشرين واحدًا من ألفِ مُوظَّفٍ في دورةٍ تَدْريبيَّةٍ مُركَّزةٍ لمُدَّة عشرة أيَّامٍ لأنْ يُغيِّروا الشَّركة أو يَقْلبوا حالها إلى أحسن حالٍ، هذا هو المنطق وليس للدَّورات الَّتي تعمل إلَّا هذه الغاية.

وهنا نتساءل: هل ترى أنَّ أصحاب الشَّركات أبعدَ نظرةً، وأعمق حكمةً، وأوسع إدراكًا - عياذًا بالله - من تشريع الله سبحانه في رمضان، تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا.

إذًا، فهذا هو الله سبحانه يُدخل الأُمَّة كلَّها من كلِّ عام شهرًا كاملًا.. وتتغيَّر هي فعلًا في أثناء هذا الشَّهر، وينقلب حالها إلى أحسن حالٍ .. ثمَّ لا نجد هذا التَّغيير يَسْرِي بعد رمضان بيومٍ واحدٍ.. أليس من حَقِّنا أن نتساءل لِمَ هذا.. هل ترى الأُمَّة أدركت الأبعاد العظمى؟ هل أدركت ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؟

أحلف بالله غير حانثٍ: أننا لم نبلغ - بعدُ - كلَّ ما نريد ذكره فضلًا عن أن نبلغ حقيقة الأمر كما هو.. فعلى أيِّ شيءٍ نستكثر ؟ أَعَلَى اللهِ يا عبادَ الله؟!

الْخِتَامُ أَم الابْتِدَاءُ
قِصَّةُ الْحُجَّةِ الْعَجِيبَةِ

كَمَا يَعْجب مَنْ لم يقرأ هذا الكتابَ من دَعْوى وجودِ تجديدٍ في رمضان، فإنَّ عجبي أكبر من عجبه، إذ كيف يعيشون رمضان سنين طويلةً .. ويقرؤون ويتحدَّثون ويؤلِّفون، ثمَّ هم يمرُّون بالتَّجديد، ويمرُّ عليهم، وهم لا يرونه .. لا يحسُّونه .. لا يعيشونه؟!

أيمرُّ الرَّجل في ظلمته بالنُّور ولا يراه .. أم يخوض العطشانُ بالماء الزُّلال ولا يشرب .. إنَّ رمضان كذلك وأكثر!

عجيبةٌ حُجَّة رمضان، فهي تزداد جديدًا كلَّما تطاول الزَّمن عن ابتداء تشريعِ الصِّيام!

وعجيبةٌ كذلك نظرة النَّاس لهذا الشَّهر.. فموضوع التَّجديد فيه ومنه موضوعٌ غير مطروقٍ إلَّا بتكلُّفٍ! وكأنَّ رمضان بحرٌ جفَّ، ونجمٌ هوى، أو شمسٌ طُمِسَتْ!

عجيبةٌ حُجَّة رمضان على الخَلْقِ: أيَّام الأكل والشُّرب والرَّاحة ... والنُّفوس عطشى، والأرواح مرهقةٌ مُتعَبةٌ من الجفاف الإيمانيِّ والأخلاقيِّ ... فإذا ما جاء شهر الجوع والعطش والتَّعب والسَّهر، شهر الرَّمضاء .... حَيِيتِ القُلُوب، وسكنتِ النُّفوس، وقوي الناس، وارتوى جذر الأمانة والأخلاق والإيمان، وتقهقر التصحر الزاحف على الإيمان، ورويت القلوب حتَّى لكأنما القلوب

الأرض اليابسة الميتة ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج:٥].

سبحان الله! كيف اجتمعت حياة القلوب والنفوس مع منع الماء عن الصَّائم في رمضان وهو سبب الحياة؟! وسبحان الله كيف رواهم بالإيمان بالصِّيام هنا وجعل موعودهم هناك باب الرَّيان، فما كان الرَّيَّان لأجل الجوع والعطش فحسب .. وإنَّما لهذا الرِّيِّ الإيمانيِّ والعمليِّ أليس الجزاء من جنس العمل.. ألم يقل في الحديث: «**لأجلي**» وقال: «**إيمانًا واحتسابًا**» وهل يعد هذا الرِّيُّ من ري للإخلاص والتجرُّد؟!

لا عجب في هذا .. أليس هو الشَّهر الَّذي أنزل فيه مصدر الحياة، وهو مصدر عظمة رمضان وعظمة ليلة القدر - القرآن العظيم؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فلكأنَّ رمضان يقول: لئن ذهب زماني فقد بقي قرآني، وهو سرُّ الحياة وباعثها.

* أيُّ حُجَّةٍ للأمَّة وأفرادها إنْ وقفت وهي تستقبل الزَّمان بعد رمضان.. وقفت على الباب الخلفيِّ لرمضان بعدما حققت غاية رمضان العظمى وهي «**التَّقوى**» وتزودت من رمضان خيرَ زادٍ لما بعده ﴿فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [البقرة:١٩٧]، وتسترَتْ واكتسَتْ أحسن لباسٍ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف:٢٦]، لكنَّها وعند الباب الخلفيِّ لرمضان كفأت زادَه، وخلعت لباسَه

لتخرج للجوِّ العصيب والصَّحراء القاحلة الشَّاسعة والوحوش المتحدية المتربصة ... من غير زَادٍ ولا لباسٍ ولا سلاح؟!

* أيُّ حُجَّةٍ أبقاها رمضان لهذه الأُمَّة بعدما أدخلها كلَّها في وقتٍ واحدٍ .. برنامجًا لا نظير له في تغيير الباطن، ولا نظير له في الضَّبط والرَّبط لتغيير الظَّاهر والمظاهر ؟!

وفعلًا يحدث هذا التَّغيير في الأُمَّة وأبنائها ؛ ظاهرًا وباطنًا.

فأيُّ حُجَّةٍ بقيت للأُمَّة بعد رمضان إنْ هي تركت الالتزام بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ شعائر وشرائع؛ ظاهرًا وباطنًا منهجًا للعبادة ونظامًا شاملًا للحياة؟!

* حُجَّةٌ بالغةٌ يجعلها الله وسط هذا الزَّمان تدوم شهرًا بأكمله؛ إذِ الزَّمان لا يتوقَّف لحظةً واحدةً، بحيث يصبح إلزامًا على كل فردٍ أن يمرَّ بها، ويخوضها .. وهو في أثنائها يخضع لبرنامج التَّقوى الَّذي يصبغه ظاهرًا ويتخلله باطنًا حتَّى النَّوم والنَّفَس.. هكذا على مدار اليوم والليلة ... حتَّى ينقضي الشَّهر بأيامه ولياليه وبعده لابدَّ أن يعود إلى الزَّمان الأوَّل نفسه .. فهل كان إدخاله القسري هذا إلَّا لإحداث التَّغيير الهائل في النَّفس، وفي النَّاس ... في المكان، وفي الزَّمان .

عجبًا .. لكأنَّ النَّاس يقولون: موضوع رمضان موضوعُ أجرٍ.. والأجرُ – بإذن الله – قد حُزْناهُ!

سبحان الله ! لقد قدَّم الله (التَّقوى) – نصًّا – في كتابه العزيز ، وجعلها هي الغاية، وإنَّما التَّقوى هي الزَّاد لهذه الحياة .. والأجر ثمرةٌ من ثمراتها .. فأين مَنْ ضَيَّع الأصل وتتبَّع الثَّمر! بينما لو حَصَلَ الأصلُ لَحَصَلَ الثَّمرُ وعَظُمَ وبُورِكَ – بإذن الله – ألم يقل النبي ﷺ في حديث أبي ذرٍّ ﷺ: قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ

أوصني، قال: «**عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله**»[1] نعم رأس الأمر كله! كله بهذا الإطلاق.

* نعم، قد كان رمضان حُجَّة ، بل ماذا أبقى رمضان لنا من حُجَّةٍ بعدما حطَّم في نفوسنا الخَوَرَ والكَسَل والاستسلام للباطل وللهوى؟!

شارب الخمر ترك خَمْرَه.. المدخِّن المستسلم ترك تدخينه .. سيِّئ الخُلُق كَرُمَ خلقُه .. عَبْدُ بَطنِهِ ترك طعامَه .. عَبْدُ فَرْجِهِ ترك شهوته الحرام والحلال.. اللَّاعب واللَّاهي ترك القمار واللَّعب والملاهي.

أليست ثورة في الانتصار على شهوتي الفم والفرج، وهما أكثر ما يُدْخِل النَّاس النَّارَ، أليست انتصارًا على عبوديَّة المال والخمائِصِ والتَّرؤس؟!

فأيُّ حُجَّةٍ للعباد إنْ وقفوا على حَافَّة رمضان الأخرى بعدما ولَّى... وعبروا ناكثين عهده، ناقضين غَزْله، كما وقف بنو إسرائيل بعدما رأوا نعمة الله عليهم بالنَّجاة من فرعون وجنده عندما عبروا إلى ضفته الأخرى.. ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٨- ١٤٠].

لا تقولوا هؤلاء بنو إسرائيل! فالله ما ضرب الأمثلة إلَّا ليعتبرَ بها النَّاس، ولكن ما يعقلها إلَّا العالمون.. ورضي الله عن حذيفة الَّذي قال في مثل هذه

---

(١) جزء من حديث رواه ابن حبان في صحيحه (٣٦١)، قال الألباني: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٤٢٢).

الأمثلة: (نعم الأُخوَّة لكم بني إسرائيل، إنْ كانت لهم كلُّ مُرَّةٍ، ولكم كلُّ حُلْوَةٍ)(١).

حقًّا إنَّه حجَّة عظيمة! أليست كلُّ لحظةٍ من لحظات رمضان حَوَتْ نِعَمًا لا يعلمها إلَّا الله، وأصبح رمضان في ذاته نعمةً كبرى ... ولذا لزم الأُمَّة وأبناءها شكرٌ أكبر ... تباشر تقديمه لربِّها سبحانه فورَ تمام النِّعمة وإكمال المنَّة بطلوع هلال العيد، ألم يقل الله سبحانه: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]؟ فمَنْ قال في أوَّل رمضان: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال في آخر رمضان: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولو ادخر كلُّ صائمٍ في مقابل كلِّ ساعةٍ من ساعات رمضان نقطةَ شكر لله على تلك السَّاعة من ساعاته لاجتمع له في نهاية رمضان خطٌّ مستقيمٌ لن يُفْلح الشَّيطان بِصَدِّه عنه وإنْ قعد له عليه وهو الَّذي قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧] فغاية الشَّيطان صد النَّاس عن شكر الله ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ومطلوب الله من الصائمين بعد ختام شهر رمضان شكره سبحانه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وبهذا نعلم كيف أن صناعة هؤلاء العباد في رمضان ما كانت لرمضان ... إنه صناعة جند النصر الذين يجب أن يبلغوا الغاية بعد رمضان ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنه أمر عظيم، والغفلة عنه أمر خطيرٍ! أنسينا أن الشَّيطان جعل غايته صَدَّ النَّاس عن شكر ربِّ العالمين سبحانه ... بينما ينص الله سبحانه أن ثمرة رمضان المرجوة في آخره هي الشُّكر ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) من كلام حذيفة ﷺ، انظر حلية الأولياء (٣/ ٥٠).

تَشۡكُرُونَ ﴾ وهكذا صنع رمضان - بإذن الله - العُبَّاد الشَّاكرين.. فكأنَّ رمضان يقول لهذه الأُمَّة ويُوصِيها: الآن انطلقي وقُودِي الأمم... الآن واجهي الشَّيطان وأعوانه ولا تخافي ﴿ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٧٦] ... الآن أَرِي ربَّكِ الوفاءَ بالعهد، الآن أَرِيه سبحانه كيف تشكرينه... الآن تم إعدادكِ فتَناوَشِي الرَّاية ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ .

أما أنتم أيُّها القرَّاء الكرام فإيَّاكم وإيَّانا أن يزحلق كلُّ واحد منَّا هذا الخطاب عن نفسه ... ويوجِّه مقصوده إلى غيره ... بينما هو أوَّل المقصودين.

وأحسب أنَّ اليقين قد اصطنع في قلبِ القارئ بأن رمضان واحدٌ - نعم واحدٌ - كافٍ للحياة والإحياء ... والبعث الجديد والتجديد - بإذن الله تعالى -... للفرد وللأمَّة كلِّها، فإن نسيتَ كل ما قرأت - وما إخَالُكَ ناسيًا - فيكفيك أن تذكرَ جيدًا وسمَ الكتابِ ووصفَه [من رمضان التجديد]. فاللَّهمَّ حقِّق ذلكَ يا عزيزُ يا رحيمُ.

رَفْعُ الشُّكرِ غَايةٌ ورِوايَةٌ

ابتدأت الأيَّام المعدودات بـ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وانتهت عند ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أمَّا الابتداء فمن قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأما النهاية فعند قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ابتداء رمضان بالتَّقوى وعلى هذا يستمر وتبتدئ الحياة من بعده بالشكر وعلى هذا تستمر إلى المنتهى.

إنَّها السُّنَّة الشَّرعيَّة السَّارية في العباد سريان السُّنَّة الكونيَّة ... فإنَّ العبادة الصَّحيحة إذا أعطيت حقَّها بلغت غايتها، وغايتها شكر الله سبحانه .. هكذا كان رسول الله ﷺ يقول بعد كل صلاة، فعن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ أَخَذَ بيده، وقال: «**يا معاذُ، واللهِ إنِّي لأحبُّك، والله إنِّي لأحبُّك، فقال: أوصيك يا معاذ! لا تدعنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاة تقول: اللَّهمَّ أعنِّي على ذكرِكَ وشكرِك وحسنِ عبادتِك**»[1].

هذا في صلاة واحدة فكيف بشكر الشَّهر بأكمله بما فيه من صلوات، وعبادات، وأذكار، وإنفاق، وخيرات لا تعدُّ ولا تحصى؟!

كيف بشهرٍ كلُّه يؤكد على غاية واحدة وهي «**التَّقوى**».. وهو يمارسها مع كل

(١) «نضرة النعيم» (٦/ ٢٤٠٨).

عمل وفي كلِّ لحظة من لحظات هذا الشَّهر العظيم ... أوليس طبيعيًّا أن تثمر هذه الحالة الفريدة.. الحالة الكبيرة .. غاية عظمى تشمل الحياة كلها دون استثناء.. وأيُّ ثمرة شاملة لكلِّ ميادين الحياة مثل شكر الله؟!

ومتى يبتدئ الشُّكر إلَّا عند تمام النِّعمة، قال الله سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

إنَّ الشُّكر هو النَّتيجة الطبيعيَّة للتَّقوى، تأمَّل التَّرتيب في الأعمال والنِّعم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤- ٢٦] إنَّ نتيجة الشُّكر العظمى هي الثَّبات على العهد مهما اشتدَّت المصائب والعواصف .. فهل أعظم من مصاب رسول الله ﷺ ومع هذا قال الله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

فأين الشُّكر في وفاة رسول الله ﷺ ؟!

إنَّ الجواب هو أنَّ من يثبت هنا هم الشاكرون لله سبحانه دون غيرهم؟ ومن ثبت في مصاب وفاة رسول الله ﷺ لهو أعظم ثباتًا في كلِّ المواقف والمصائب الأخرى .. فليس مِثلُ المصابِ برسولِ اللهِ ﷺ مصابًا؟! مع العلم أن ليس مثل

النِّعم ببعثته ﷺ نعم ! ولذا كان الشُّكر هو المقتضي لهذا الأمر من كلِّ جهاته .. إن العيش مع رسول الله ﷺ حياة ليس مثلها حياة على الأرض إطلاقًا ... وهاهي قد انتهت هذه المرحلة ..! إذن فليبتدئ الشُّكر بعدها.

وسبحان الله كيف تتأكد عبادة الشُّكر هنا مرَّة أخرى في الآية التي أعقبت وفاة رسول الله ﷺ بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٥] .

إنها تؤكد على ذات الحقيقة العظمى التي أكَّدت عليها آية رمضان، وهي لزوم الاستمرار على العهد بذهاب النَّبي ﷺ وبذهاب أي نفس من بعده، وكلُّ النفوس دونه دون، وإن كانت كريمة، وكما قال سبحانه بعد وفاته مرتين متتابعتين: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فقد قال سبحانه بعد ذهاب رمضان: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ولأنَّ النُّفوس تحتاج إلى صبر كبير كي تستمر على الشُّكر، فلقد جمع الله ﷻ بينها بشكل عجيب في سورة إبراهيم.. في وصية الله سبحانه إلى نبيه موسى عليه السلام ليخاطب بها بني إسرائيل فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٥-٧] .

فإنَّ أحوج ما يحتاجه بنو إسرائيل بعد هذه النعم هو الشُّكر، كما أنَّ أحوج ما يحتاجونه أمام البلاءات بالخير والشَّرِّ التي سوف تعترضهم في قادم الحياة بعد النَّجاة من بلاء فرعون المبين هو الشُّكر، وبغير الشُّكر لن يصبروا.. وبهذا نعرف جيدًا عنوان المواصلة، إنَّه الشُّكر بعد النعمة سواء كانت بالنَّجاة من بلاء أو بتحقق نعماء، فلا توقف بعد هذه أو بعد هذه كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥]، يستغرب المرء هنا كيف يكون الشُّكر بعد هذا الذَّنب العظيم.

إنَّ المتوقع - حسب أفهامنا القاصرة - هو الاستغفار، لكن الله سبحانه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، إنَّه الحياة الجديدة التي وهبكم الله إيَّاها، ولن تستطيعوا أن تعبروها بسلامٍ إلَّا بالشكر، وإنه الذنب العظيم الَّذي ارتكبتموه، وقد أنعم الله عليكم بالحياة بعده فكان حقُّ هذه النِّعمة - نعمة البعث بعد الموت - بعد هذا الذَّنب هو الشُّكر.

ولا منافاة بين الاستغفار والشُّكر .. بل إنَّ الشُّكر لن يكون حقيقيًا ومستمرًا ما لم يصحبه استغفار لاذع من الذَّنب بالذِّكر اللاذع للذَّنب.

إنَّ المرء ليستغرب - وليس أمر الله بغريب - كيف يصف الله نوحًا بالشُّكر في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، وظنَّ العقل البشريُّ أن يقول: «**إنه كان عبدًا صبورًا**» ! لكن من علم أنَّ الشُّكر هو الإمداد الحقيقي لحياة العبد الإيمانيَّة، وحياة العبد الدَّعويَّة مع حياته العمريَّة، علم أنَّ الحياة مهما طالت حتَّى وإن كانت حياة نوح عليه السلام فإنَّ الشُّكر يسعها

ويفيض.. وإنَّ الشُّكر الَّذي وسع حياة كحياة نوح عليه السلام، لهو أقدر على أن يسع حياة المسلم ما بين رمضان إلى رمضان.

إنَّ مقتضى الشُّكر الَّذي لا يكون الشُّكر ولا يسمى الشُّكر شكرًا إلَّا به هو مواصلة العمل، أمَّا القعود عن العمل بعد النِّعمة فهذا هو الكفران؛ لذا قال المناويُّ في تعريفه للشُّكر: «هو مكافأة النِّعمة بقدر الاستحقاقِ والشَّكور هو الباذل وسعه في أداء الشُّكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا»(١).

هذه المواصلة تجعل العبد يصبغ حياته بالشُّكر وبأعمال ربَّما تكون أثقل من الأعمال التي يشكر عليها أصلا، فعن المغيرةِ بنِ شُعبةَ رضي الله عنه قال: إنْ كان النبيُّ ﷺ لَيقومُ أو لَيُصَلِّي حتَّى تَرِمَ قَدَماه أو ساقاه، فيقال له فيقول: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»(٢).

إنَّ شعور العبد ليثقل بالإحساس بفضل الله العظيم عليه، فيلجأ إليه مستعينًا به سبحانه على شكره، وهذا هو الشُّكر الحقيقيُّ، عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّها قالت: فقدتُ رسولَ اللهِ ﷺ ليلةً من الفراش، فالتمستُه، فوقعتْ يدي على بطنِ قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «**اللَّهمَّ أعوذ برضاك من سَخَطِك، وبِمُعَافاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وأعوذُ بِكَ منكَ، لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسك**»(٣).

وكون الشُّكر هو الرَّاية التي يحملها الصَّائم لحياته الباقية بعد راية التَّقوى

---

(١) «التوقيف على مهمات التعريف» (٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) البخاري (٣/ ١١٣).

(٣) نضرة النعيم (٦/ ٢٤١٤).

التي حملها في رمضان فذلك هو نصُّ القرآن كما مرَّ معنا: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وهو ما جاء إعلانه نصًّا في شعار العيد: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلَّا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد**» وقد مرَّ معنا شرحها وشرح «**ولله الحمد**» خاصة مع التكبير في ختام رمضان و استقبال الحياة الجديدة من بعده ... وقد كانت هي الكلمة الأخيرة في هذا الشعار العظيم وهذا الذكر الكبير.

وإنَّ الله سبحانه حينما يدلُّنا على هذا الشُّكر لا يدلُّنا على طريق الثَّبات على تقوى رمضان وثمراته فحسب، إنَّما يدلنا على طريق المزيد من النِّعم من الله سبحانه، والمزيد من رضوانه وتقريبه لنا سبحانه؛ ولذا قال سبحانه لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

ولذا قال عليٌّ رضي الله عنه: «إنَّ النِّعمة موصولة بالشُّكر والشُّكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتَّى ينقطع الشُّكر من العبد»[١].

فهذا الشُّكر هو زاد المؤمنين وسلاح التَّحدي في إبطال كيد إبليس الَّذي جعل صرف النَّاس عن الشُّكر غاية بقائه خالدًا، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

فاللَّهمَّ أعنَّا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.

(١) «عدة الصابرين» (ص١٢٣).

الفَهْرَس

الموضوع الصفحة

المقدمة .. كم في رمضان من تجديد؟ ٥

الفصل الأول: هلال الشهر المبارك رؤية متروية ١١

المزايا الشاملة ١٧

عزم القلب على المزيد ٣٣

ادخلوا رمضان - إن شاء الله - طاهرين ٣٨

الليلة الأولى ٦٧

استقبال رمضان بحسن الخلق ٨٠

الفصل الثاني: وابتدأ الشهر الكريم ٩٩

ساعة الإشفاق ١٠٥

أي واد مقدس هذا؟! ١١٥

التوسعة على أهل القيام بالأحكام ١٢١

القنوت وما أدراك ما القنوت ١٣٤

الغاية: العتق من النار ١٤٩

المستغفرون بالأسحار وسبحان الملك القدوس.. سبحان الملك القدوس سبحان الملك القدوس ١٥٤

الأمة في صعيد واحد لأجل رسول الله ﷺ ١٥٩

إني أنا أخوك ١٦٨

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث: الفتور الطارئ في شهر رمضان وعلاجه ١٨٣

التواصي بالتواصل ١٩١

إلى الحج مع رسول الله ﷺ ٢٠٠

هموم في رمضان ٢٠٦

هم العادة يعاود ٢٢٠

نفثات عند الحرم ٢٢٧

الفصل الرابع: البخاري وابن حجر - رحمهما الله - وليلة القدر . ٢٣٧

هذا فضلها، فبم نقابل فضلها؟ ٢٤٦

صلاة فجر ما بعد ليلة القيام ٢٦٣

درر الاعتكاف من «الفتح» ٢٧٠

صناعة النفس والأمة في المعتكف ٢٧٧

سويعات اليوم الأخير ٣٠٠

تدقيق النظر في صدقة الفطر ٣٠٨

ليلة الهدير بالتكبير ٣١٥

الفصل الخامس: عُهُودٌ رَمَضَانية ٣٢٧

صِنَاعَة الأُمَّة القَائِدَة ٣٤٧

العَزْمُ على اسْتِمرارِ الظَّاهِرَة ٤٠٦

الختام أم الابتداء قصة الحُجَّةِ العجيبة ٤٢١

رَفْعُ الشكْرِ غَاية وَرِوَايَة ٤٢٧

مؤسسة سلسبيل الوقفية

مؤسسة سلسبيل
للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
69600444